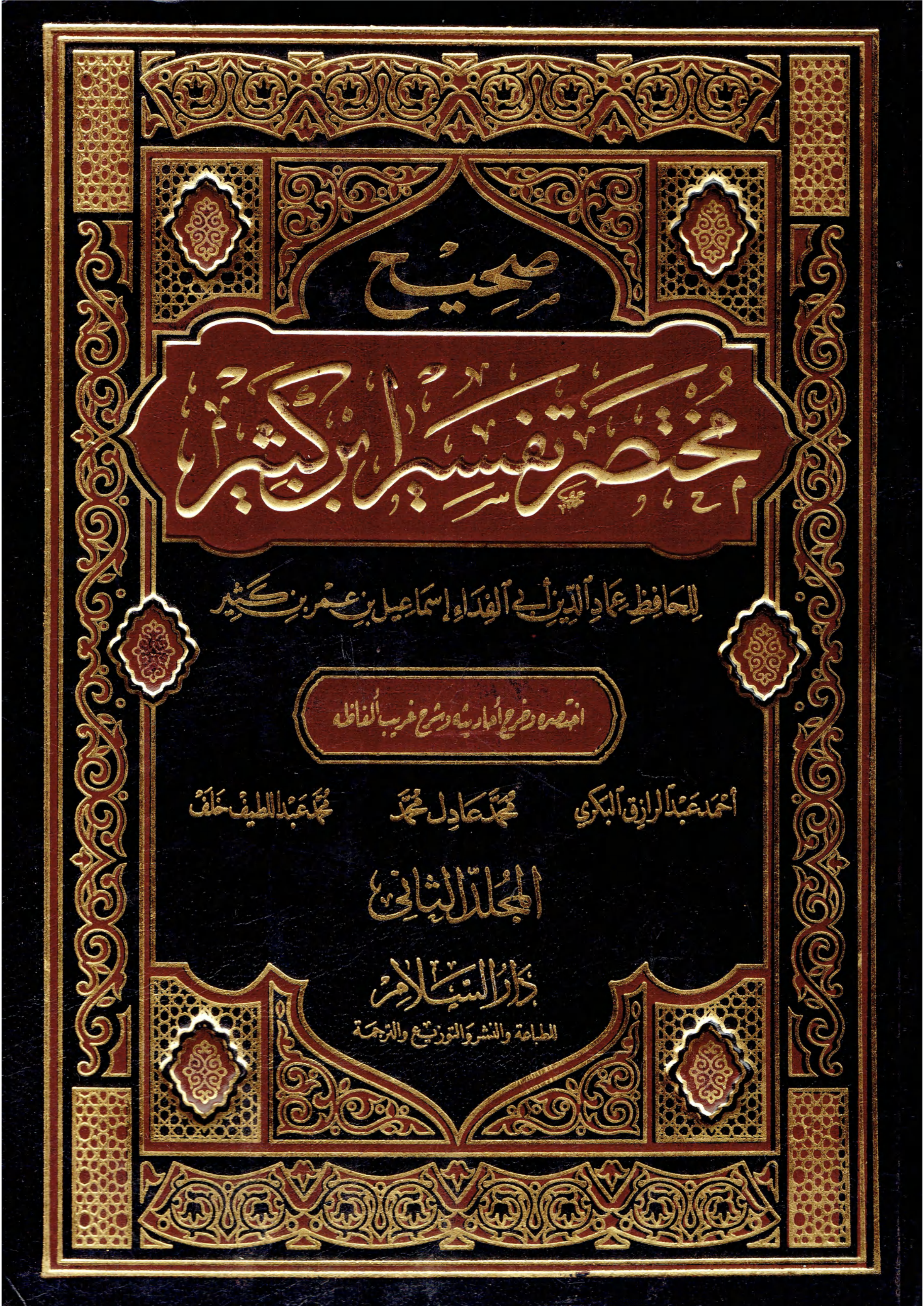

صحيح
مختصر تفسير ابن كثير
للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه
أحمد عبد الرازق البكري
محمد عادل محمد
محمد عبد اللطيف خلف
المجلد الثاني
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

صحيح

مختصر تفسير ابن كثير

للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه

أحمد عبد الرازق البكري
محمد عادل محمد
محمد عبد اللطيف خلف

المجلد الثاني

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
الطبعة الثالثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه ، قال ابن عبّاس : ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ أنا اللّه أفصل ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي : هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ قال مجاهد : شك منه ، وقيل : لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ولهذا قال : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ أي : أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم قال تعالى مخاطبًا للعالم : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : اقتفوا آثار النبيّ الأميّ الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي : لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم اللّه إلى حكم غيره ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ .

يقول اللّه تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولًا بذل الآخرة كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ أي : فكان منهم من جاءه أمر اللّه وبأسه ونقمته ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي : ليلًا ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ من القيلولة : وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي : فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلّا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ إلى قوله ﴿ خَٰمِدِينَ ﴾ قال ابن جرير : في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول اللّه ﷺ قال : « مَا هلكَ قَوْمٌ حتّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » (١) .

وقوله : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية كقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فيسأل اللّه الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضًا عن إبلاغ رسالاته ، ولهذا قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ قال : عما بلغوا . وعن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كُلُّكُم رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإمَامُ يُسْأَلُ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ يُسْأَلُ عَنْ أَهْلِهِ ، وَالمرْأَةُ تُسْأَلُ عَنْ بَيْتِ زَوْجِهَا ،

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥٨/٨) .

وَالعَبْدُ يُسْأَلُ عَنْ مَالِ سَيِّدِهِ » [١] وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور .

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالْوَزْنُ ﴾ أي : للأعمال يوم القيامة ﴿ الْحَقُّ ﴾ أي : لا يظلم تعالى أحدًا كقوله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ .

فصل : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضًا إلّا أن اللَّه تعالى يقلبها يوم القيامة أجسامًا . وعن ابن عبّاس كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف [٢] . ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك [٣] . وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر : « فَيَأْتِي المُؤْمِنَ شَابٌّ حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِح » وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق [٤] .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ، ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر ، ثم يؤتي بتلك البطاقة فيها لا إله إلّا اللَّه ، فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول اللَّه تعالى : إنك لا تظلم . فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان ، قال رسول اللَّه ﷺ : « فَطَاشَت السِّجلاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ » [٥] .

وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث : « يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينِ فَلاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّه جَنَاحَ بَعُوضَةٍ » [٦] ثم قرأ : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ . وفي مناقب عبد اللَّه بن مسعود أن النبيّ ﷺ قال : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ » [٧] .

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا ، تارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها ، واللَّه أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارًا ، وجعل فيها رواسي

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٨٨) وأحمد في مسنده (٢/٥ ، ٥٤) والترمذي في السنن (١٧٠٥) .
(٢) أخرجه مسلم في فضائل القرآن (١٥) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) وابن ماجه في سننه (١٢٤٢/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨٧/٥) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٣/٢) .
(٦) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٩) ومسلم في صفات المنافقين (١٨) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/١ ، ٤٢١) .

وأنهارًا ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا ، وأباح لهم منافعها ، وسخّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش أي : مكاسب وأسبابًا يكسبون بها ويتجرون فيها ، ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك وقد قرأ الجميع معايش بلا همز إلا عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج فإنه همزها ، والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ .

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم ، ويبيّن لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوره بشرًا سويًا ، ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الله تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلّا إبليس لم يكن من الساجدين ، وقال ابن عبّاس ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء . وقال الربيع بن أنس والضحاك في هذه الآية : أي خلقنا آدم ثم صورنا الذرية ، وهذا فيه نظر لأنه قال بعده : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم ، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر ، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى ، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل ؛ صار كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ الآية ، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة ، وذريته مخلوقون من نطفة ، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معينًا ، والله أعلم .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ لا : هنا زائدة ، وقال بعضهم : زيدت لتأكيد الجحد .

وقول إبليس لعنه الله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة ؛ لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني - لعنه الله - وأنا خير منه ، فكيف تأمرني بالسجود له ، ثم بيّن أنه خير منه بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نص قوله تعالى : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود ، فلهذا أبلس من الرحمة أي : أويس من الرحمة ، فأخطأ قبّحه الله . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُلِقَتِ الملائكةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدمُ مِمَّا وصفَ لكُمْ »[1] .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٠) وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٩) .

يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمرٍ قدري كوني : ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أي : بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي ، فما يكون لك أن تتكبّر فيها . قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلى الجنة ، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى ﴿ فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أي : الذليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده ، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين ، قال : ﴿ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ أجاب تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لما أُنظر إبليس ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ واستوثق إبليس بذلك ، أخذ في المعاندة والتمرد فقال : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي : كما أغويتني ، قال ابن عبّاس : كما أضللتني ، وقال غيره : كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي : طريق الحق وسبيل النجاة ، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي . وقال بعض النحاة : الباء هنا قسمية كأنه يقول : فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، قال مجاهد : ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يعني الحق ، وقال عبد اللَّه : يعني طريق مكة ، قال ابن جرير : الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك . وعن سبرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ فَقَالَ : أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ؟» قَالَ : فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ قال : « وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ أَتُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَالفَرَسِ فِي الطِّوَلِ ، فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ . ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالمَالِ ، فَقَالَ : تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ ، قَالَ فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ» قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وَإِنْ قُتِلَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وَإِنْ غَرِقَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّه أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ » (١)

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية قال ابن عبّاس : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ أشهي لهم المعاصي ، وفي رواية ابن عبّاس : أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم ، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم ، وأما عن أيمانهم فمن قبلِ حسناتهم ، وأما عن شمائلهم فمن قبلِ سيئاتهم ، واختار ابن جرير أن المراد جمع طرق الخير والشر ، فالخير يصدّهم عنه والشر يحسنه لهم ، وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ ولم يقل : من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٣/٣) .

فوقهم ؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم، وقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ قال : موحدين ، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هذا الواقع كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها كما روي عن ابن عبّاس قال : كان رسول الله ﷺ يدعو : « اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ في دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي ، وَآمِنْ رَوْعَاتِي ، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي ، وَمِنْ فَوْقِي ، وَأَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي » (١) .

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أكد تعالى لإبليس عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله : ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ قال ابن جرير : أما المذءوم : فهو المعيب ، والذأم غير مشدد : العيب ، يقال : ذأمه فهو مذءوم ، ويتركون الهمز فيقول : ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا ، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم . قال : والمدحور : المقصي ، وهو المبعد المطرود . وقال ابن زيد بن أسلم : ما نعرف المذموم والمذءوم إلا واحدًا ، وقال ابن عبّاس : ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ قال : مقيتًا ، وقال ابن عبّاس : صغيرًا مقيتًا وقال قتادة : لعينًا مقيتًا . وقال مجاهد : منفيًا مطرودًا . وقال الربيع من أنس : ﴿ مَذْءُومًا ﴾ منفيًا والمدحور المصغر . وقوله تعالى : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كقوله : ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلّا شجرة واحدة ، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿ وَقَالَ ﴾ كذبًا وافتراء : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ أي : لئلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما . وكان ابن عبّاس ويحيى بن أبي كثير يقرآن ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلِكَيْنِ ﴾ بكسر اللام وقرأه الجمهور بفتحها (٢) ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ أي : حلف لهما بالله ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ فإني من قبلكما ها هنا وأعلم بهذا المكان ، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين ، أي : حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما ، قال قتادة في الآية : حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فأتبعاني أرشدكما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩/٢) .

(٢) انظر الطبري في تفسيره (١٨٥/٨) .

وكان بعض أهل العلم يقول : من خدعنا بالله أنخدعنا له .

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ .

قال أُبيّ بن كعب ﷺ : كان آدم رجلًا طوالًا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها ، فانطلق هاربًا في الجنة ، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة ، فقال لها : أرسليني ، فقال : إني غير مرسلتك ، فناداه ربه ﷻ يا آدم أمني تفر ؟ قال : يا رب إني استحييتك . وعن ابن عبّاس ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ﴾ قال : ورق التين صحيح إليه ، وقال مجاهد : جعلا بخصفان عليهما من ورق الجنّة قال : كهيئة الثوب ، وقال وهب بن منبه في قوله : ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قال : كان لباس آدم وحواء نورًا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا ، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما . وقال الضحاك بن مزاحم في قوله : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ : هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ .

قيل : المراد بالخطاب في ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ آدم وحواء وإبليس والحية ، ومنهم من لم يذكر الحية والله أعلم . والعمدة في العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال تعالى في سورة طه : ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢاۖ﴾ الآية . وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحًا فهي تبع لإبليس ، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها ، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي : قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول ، وقال ابن عبّاس : ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ القبور . وعنه قال : ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ فوق الأرض وتحتها . وقوله : ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا ، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلًّا بعمله .

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش ، فاللباس ستر العورات وهي السوءات ، والرياش والريش ما يتجمل به ظاهرًا ، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات . قال ابن جرير : الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب ، وقال ابن عبّاس وحكاه

البخاري عنه : الرياش : المال ، وقال ابن عبّاس : الريش اللباس والعيش والنعيم ، وقال عبد الرَّحمن ابن زيد بن أسلم : الرياش : الجمال . وعن عمر بن الخطاب قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « مَنِ اسْتَجَدَّ ثَوْبًا فَلَبِسَهُ فَقَالَ حِينَ يَبْلُغُ تَرْقُوَتَهُ : الحَمْدُ للّٰه الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الخَلَقِ فَتَصَدَّقَ ؛ بِهِ كَانَ فِي ذِمَّةِ اللّٰه ، وَفِي جِوَارِ اللّٰه ، وَفِي كَنَفِ اللّٰه ، حَيًّا وَمَيِّتًا » (١) . وعن أبي مطر أنه رأى عليًا ﷺ أتى غلامًا حدثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين يقول حين لبسه : الحمد للّٰه الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي ، فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن النبي ﷺ ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول اللّٰه ﷺ يقول عند الكسوة : « الحَمْدُ للّٰه الَّذِي رَزَقَنِي مِنَ الرِّيَاشِ مَا أَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ قرأ بعضهم ﴿ ولباسَ التقوى ﴾ بالنصب وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء ، و ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ خبره (٣) ، واختلف المفسرون في معناه ، فقال عكرمة : يقال : هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة . وقال زيد بن علي والسدي : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ : الإيمان ، وقال ابن عبّاس : العمل الصالح . وقال ابن عبّاس : هو السمت الحسن في الوجه . وعن عروة بن الزبير : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ خشية اللّٰه . وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ يتقي اللّٰه فيواري عورته فذاك لباس التقوى . وكلها متقاربة ويؤيد ذلك الحديث الذي روي عن الحسن قال : رأيت عثمان بن عفان ﷺ على منبر رسول اللّٰه ﷺ عليه قميص فوهي محلول الزر ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام ، ثم قال : يا أيها الناس اتقوا اللّٰه في هذه السرائر فإني سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللّٰه رِدَاءَهَا عَلَانِيَةً ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ » ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (٤) قال : السمت الحسن . وقد روى الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصري : أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر .

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يحذِّر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبينًا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم ﷺ في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلَّا عن عداوة أكيدة وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤/١) وابن ماجه في سننه (٣٥٥٧).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/١).
(٣) قرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿ ولباسَ ﴾ بالنصب ، وقرأ الباقون بالرفع (انظر : حجة القراءات ص ٢٨٠).
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٥) ومسلم في الجنة (٥٨) والدارمي في سننه (٣٢٦/٢).

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

قال مجاهد : كان المشركون يطوفون بالبيت عراة ، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قبلها النسعة أو الشيء وتقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّه وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّه (١)

فأنزل اللَّه ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ الآية . قلت : كانت العرب ما عدا قريشًا لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا اللَّه فيها ، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا طاف عريانًا ، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئًا ليستره بعض الستر فتقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّه وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّه

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من اللَّه وشرع ، فأنكر اللَّه تعالى عليهم ذلك فقال : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فقال تعالى ردًّا عليهم : ﴿ قُلْ ﴾ أي : يا محمّد لمن ادعى ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي : هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة ، واللَّه لا يأمر بمثل ذلك ، ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أتسندون إلى اللَّه من الأقوال ما لا تعلمون صحته . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي : بالعدل والاستقامة ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي : أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن اللَّه وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته ؛ فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة ، وأن يكون خالصًا من الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ اختلف في معنى قوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ فقال مجاهد : يحييكم بعد موتكم ، وقال الحسن البصري : كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء . وقال قتادة : بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئًا ثم ذهبوا ثم يعيدهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما بدأكم أولًا يعيدكم آخرًا .

وعن ابن عبّاس قال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ بموعظة فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ » (٢) . قال مجاهد : يبعث المسلم مسلمًا والكافر كافرًا . وقال سعيد بن جبير : كما كتب عليكم تكونون . وقال محمّد بن كعب القرظي من ابتدأ اللَّه خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن

(١) البيت ينسب لضباعة بنت عامر بن صعصعة ، من بني سلمة بن قشير كما في الروض الأنف للسهيلي في شرح سيرة ابن هشام (١/١٣٤) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٥) ومسلم في الجنة (٥٨) والدارمي في سننه (٢/٣٢٦) .

عمل بأعمال أهل السعادة ، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء ، كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدأوا عليه . وقال السدي : كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلّال كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم ، وقال ابن عبّاس قوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ قال : إن اللّه تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنًا وكافرًا . قلت : ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود «فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ » (١) .

وعن جابر عن النبيّ ﷺ أنه قال : « تُبْعَثُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْه » (٢) .

قلت : ويتأيد بحديث ابن مسعود . قلت : ولابد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ » (٣) . وفي الصحيح عن عياض بن حمار قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يقول اللّه تعالى : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُم الشَّيَاطِينُ فَاجتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ » (٤) الحديث ، ووجه الجمع على هذا : أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده ، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقيًا ومنهم سعيدًا ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ وفي الحديث « كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أو موبقها » (٥) وقدر اللّه نافذ في بريته فإنه هو ﴿ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ وفي الصحيحين : « فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ » (٦) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ ثم علل ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية . قال ابن جرير : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن اللّه لا يعذب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عنادًا منه لربه فيها لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد وفريق الهدى فرق ، وقد فرق اللّه تعالى بين اسمائهما وأحكامهما في هذه الآية (٧) .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (١) وأحمد في مسنده (٣٨٢/١) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٦/٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) وأبو داود في سننه (٤٧١٤) .
(٤) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) وأحمد في مسنده (١٦٢/٤) .
(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (١) وأحمد في مسنده (٢٣١/٣١) .
(٦) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٢) ومسلم في القدر (٦) .
(٧) ذكره ابن جرير في تفسيره (٢٠٩/٨) .

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه ابن عبّاس قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّه وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّه

فقال الله تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (١) وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ الآية ، قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس وهو ما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها ، وعن أنس مرفوعًا : أنها نزلت في الصلاة في النعال ولكن في صحته نظر والله أعلم ، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنّة يستحب التجمل عند الصلاة ، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد ، والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل اللباس البياض ، كما قال ابن عباس مرفوعًا : قال رسول الله ﷺ : « الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ البَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ ، وَإِنَّ خَيْرَ أَكْحَالِكُم الإِثْمِدُ ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَرَ ، وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ الآية ، قال بعض السلف : جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ قال ابن عبّاس : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا مِنْ غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلاَ سَرَفٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى نِعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ » (٣) وعن المقدام بن معد يكرب الكندي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ » (٤) وقال السدي : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم فقال الله تعالى لهم : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ الآية ، يقول : لا تسرفوا في التحريم ، وقال مجاهد : أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ يقول : ولا تأكلوا حرامًا ذلك الإسراف ، وقال ابن عبّاس قوله : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ في الطعام والشراب ، وقال ابن جرير : وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ حده في حلال أو حرام الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال ، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى ردًا على من حرم شيئًا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٨/٢١٠) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٠٦١) وابن ماجه في سننه (١٤٧٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٢) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٤) .

من الله ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ الآية ، أي : هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا ، وإن شركهم فيها الكفار حسًّا في الدنيا ، فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار ، فإن الجنة محرمة على الكافرين ، قال ابن عبّاس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ فأمروا بالثياب .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّه ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ ، وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْح مِن اللَّه » (١) . وقوله : ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قال السدي : أما الإثم فالمعصية ، والبغي أن تبغي على الناس بغير حق ، وقال مجاهد : الإثم المعاصي كلها ، وأخبر أن الباغي بغيه على نفسه ، وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلّقة بالفاعل نفسه ، والبغي هو التعدي إلى الناس ، فحرم الله هذا وهذا . وقوله تعالى : ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ أي : تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك مما لا علم لكم به .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي : قرن وجيل ﴿ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي : ميقاتهم المقدر لهم ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلًا يقصون عليهم آياته وبشّر وحذر فقال : ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ ﴾ أي : كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي : ماكثون فيها مكثًا مخلدًا .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ .

يقول : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، فقال ابن عبّاس : ينالهم ما كتب عليهم ، وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس : يقول نصيبهم من الأعمال من عمل خيرًا جزي به ، ومن عمل شرًّا جزي به . وقال مجاهد : ما وعدوا به من خير وشر ، وقال محمّد بن كعب القرظي : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال : عمله ورزقه وعمره ، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرّحمن بن زيد بن أسلم ، وهذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤٨/٢) .

القول قوي في المعنى والسياق يدل عليه وهو قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ . وقوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ الآية ، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون اللَّه ، ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه ، قالوا : ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي : ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي : أقرّوا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ .

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته : ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ أي : من أمثالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ أي : من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من قوله : ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ ، ويحتمل أن يكون ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ : أي : مع أمم . وقوله : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ الآية . وقوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ أي : اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي : أخراهم دخولًا وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم ، فدخلوا قبلهم ، فيشكوهم الأتباع إلى اللَّه يوم القيامة ؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون : ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي : أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ الآية ، وقوله : ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أي : قد فعلنا ذلك وجازينا كلًّا بحسبه ، كقوله : ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا﴾ الآية ، ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ أي : قال المتبوعون للأتباع : ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ ، قال السدي : لقد ضللتم كما ضللنا ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ وهذه الحال كما أخبر اللَّه تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى : ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

قوله : ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل : المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء ، وقيل : المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ويؤيده ما قال البراء : أن رسول اللَّه ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها فلا تمر على ملأ من الملائكة إلَّا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى

السماء ، فيستفتحون بابها فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ الآية [(١)].

وعن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : « اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ قَالَ : «إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ إِلَى الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ » - قَالَ - : « فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كما يَسِيلُ القَطْرُ مِنْ فِي السِّقَاءِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ، فَيَقُولُونَ : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ - بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا - حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، قَالَ : فَتُعَادُ رُوحُهُ ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ اللَّهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِي الإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : وَمَا عَمَلُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ قَبْرُهُ مَدَّ البَصَرِ » - قَالَ - : « وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي .

قال : « وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ إِلَى الآخِرَةِ ؛ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ مَعَهُمُ المُسُوحُ ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ » قَالَ : « فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السَّفُّودَ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الخَبِيثَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُ

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣٢/٨).

فلا يُفتحُ لَهُ » ثُمَّ قرأَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ فيقولُ اللهُ ﷻ : اكتبُوا كِتابَهُ في سِجِّين في الأرْضِ السُّفلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا » ثُمَّ قرأَ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ فَتُعادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكانِ فيُجلِسانِهِ ، فيَقُولانِ له : مَنْ رَبُّكَ ؟ فيَقولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فيَقُولانِ : مَا دِينُكَ ؟ فيَقولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْري ، فيَقُولانِ : مَا هَذا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فيَقولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْري ، فيُنادِي مُنادٍ مِنَ السَّماءِ : أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيضيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَختَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبيحُ الوَجْهِ قَبيحُ الثِّيابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ ، فيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسوءُكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ ؟ فيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الخبيثُ ، فيَقُولُ : رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير ، قال ابن مسعود : هو الجمل ابن الناقة ، وفي رواية زوج الناقة ، وقال الحسن البصري : حتى يدخل البعير في خرق الإبرة ، وكذا قال أبو العالية والضحاك ، وكذا روي عن ابن عبّاس : أنه كان يقرؤها ﴿ يلج الجُمَّل في سم الخياط ﴾ ، بضم الجيم وتشديد الميم ، يعني الحبل الغليظ في خرق الإبرة ، وهذا اختيار سعيد بن جبير ، وفي رواية أنه قرأ ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجُمَّلُ ﴾ يعني قلوس السفن وهي الحبال الغلاظ ، وقوله : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ قال محمّد بن كعب القرظي : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ قال : الفرش ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ قال : اللحف ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا ﴾ نبّه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي : من حسد وبغض كما جاء عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَاقْتُصَّ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا ؛ أُذِنَ لَهُمْ في دُخُولِ الجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ في الجَنَّةِ أَدَلُّ مِنْهُ بِمَسْكَنِهِ كَانَ في الدُّنْيا » (٢) . وقال السدي في قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنّة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان ، فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور ، واغتسلوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) وأبو داود في سننه (٤٧٥٣) والترمذي في سننه (٣٦٠٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧) والحاكم في المستدرك (٢٥٤/٢) .

من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدًا . قال علي : فينا والله أهل بدر نزلت ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ أَهْلِ الجَنَّةِ يُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : لَوْلاَ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا ، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ فَيَقُولُ : لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةً » (١) ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم أورثتموها بما كنتم تعملون ، أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : « وَلاَ أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » (٢) .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا ﴾ أن ههنا مفسرة للقول المحذوف ، وقد للتحقيق ، أي قالوا لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ؟ قالوا : نعم . وكذلك قرّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى : « يَا أَبَا جَهْلِ بنَ هِشَامٍ وَيَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَيَا شَيْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ - وَسَمَّى رُؤُوسَهُمْ - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا » وقال عمر : يا رسول الله تخاطب قومًا قد جيفوا فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي : أعلم ونادى مناد ﴿ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : مستقرة عليهم ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾ أي : يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ أي : وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون ، أي : جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابًا عليه ولا عقابًا فهم شر الناس أقوالًا وأعمالًا .

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ۝ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجابًا ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنّة ، قال ابن جرير : وهو السور الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ ﴾ ثم روي عن السدي أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞ ﴾ هو السور وهو الأعراف ، وقال مجاهد :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥١٢/٢) والحاكم في المستدرك (٤٣٥/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٣/٦) .
(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٧٧) وأحمد في مسنده (٢٧/١) .

الأعراف حجاب بين الجنّة والنار سور له باب ، قال ابن جرير : والأعراف جمع عرف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفًا . وإنما قيل لعرف الديك عرفًا لارتفاعه . وعن عبد الله بن أبي يزيد سمع ابن عبّاس يقول : الأعراف هو الشيء المشرف . وقال : الأعراف سور كعرف الديك ، وفي رواية عنه : الأعراف جمع : تل بين الجنّة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار ، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد . وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، نص عليه حذيفة وابن عبّاس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله ، وقد جاء في حديث عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته فقال : « أُولَئِكَ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » [(١)] وله وجه آخر عن رجل من مزينة قال : سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف فقال : « إِنَّهُمْ قَوْمٌ خَرَجُوا عُصَاةً بِغَيْرِ إِذْنِ آبَائِهِمْ فَقُتِلوا في سَبِيلِ الله » [(٢)] .

قال الشعبي : أرسل إليّ عبد الحميد بن عبد الرّحمن وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش ، فإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكرًا ليس كما ذكرا ، فقلت لهما : إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة ، فقالا : هات ، فقلت : إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم : اذهبوا فادخلوا الجنّة فإني قد غفرت لكم [(٣)] . وقال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال : يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول الله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ الآيتين ، ثم قال : الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ، قال : ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم ، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا أهل النار ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ تعوذوا بالله من منازلهم ، قال : فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نورًا وكل أمة نورًا ، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة ، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهنالك يقول الله تعالى : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ فكان الطمع دخولًا قال : فقال ابن مسعود : إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشرًا ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلّا واحدة ، ثم يقول : هلك من غلبت آحاده عشراته [(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : يعرفون أهل الجنّة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه ، وقال : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام ،

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤٩/٨) والسيوطي في الدر المنثور (٨٧/٣) .
(٢) ذكره الطبري في تفسير (٢٥٢/٨) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤٩/٨) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥٠/٨) .

﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء الله . وقوله : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال السدي : وإذا مروا بهم يعني أصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال عكرمة : تجدد وجوههم للنار ، فإذا رأوا أصحاب الجنّة ذهب ذلك عنهم . وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى إخبارًا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ أي : كثرتكم ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني أصحاب الأعراف ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ وعن ابن عبّاس ﴿ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ الآية ، قال : فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا ، يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنّة وأهل النار ، قال الله لأهل التكبر والأموال : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ وقال حذيفة : إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنّة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة ، فأتوا آدم فقالوا : يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك ، فقال : هل تعلمون أن أحدًا خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته إليه غضبه وسجدت له الملائكة غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابني إبراهيم ، فيأتون إبراهيم ﷺ فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول : تعلمون من أحد اتخذه الله خليلًا ؟ هل تعلمون أن أحدًا أحرقه قومه بالنار في الله غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابني موسى ، فيأتون موسى عليه السلام ، فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليمًا وقربه نجيًا غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا عيسى ، فيأتونه عليه السلام ، فيقولون له : اشفع لنا عند ربك ، فيقول : هل تعلمون أحدًا خلقه الله من غير أب ؟ فيقولون : لا ، فيقول : هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيري ؟ قال : فيقولون : لا ، فيقول : أنا حجيج نفسي ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا محمّدًا ﷺ فيأتوني ، فأضرب بيدي على صدري ، ثم أقول : أنا لها ، ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش ، فآتي ربي عز وجل ، فيفتح لي من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ، ثم أسجد ، فيقال لي : يا محمّد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسي ثم أثني على ربي عز وجل ثم أخرّ ساجدًا ، فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطه

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٨/٢٥٩) .

واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : ربي أمتي ، فيقول : هم لك ، فلا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرّب إلّا غبطني بذلك المقام وهو المقام المحمود ، فآتي بهم الجنّة فأستفتح فيفتح لي ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له : نهر الحيوان ، حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك وحصباؤه الياقوت ، فيغتسلون منه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة ، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال : مساكين أهل الجنّة » (١) .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، قال السدي : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يعني الطعام ، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : يستطعمونهم ويستسقونهم ، فيقولون : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ وروي من وجه آخر عن ابن عبّاس مثله سواء ، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : يعني طعام الجنة وشرابها ، قال ابن عبّاس ، أو سئل : أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ المَاءُ ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى أَهْلِ النَّارِ لَمَّا اسْتَغَاثُوا بِأَهْلِ الجَنَّةِ قَالُوا : ﴿ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ . وعن أبي صالح قال : لما مرض أبو طالب قالوا له : لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنّة لعله أن يشفيك به ، فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبيّ ﷺ فقال أبو بكر : إن الله حرمهما على الكافرين ، ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهوًا ولعبًا ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة ، وقوله : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا ﴾ أي : يعاملهم معاملة من نسيهم ، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ، ولا ينساه كما قال تعالى : ﴿ فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ وإنما قال تعالى : هذا من باب المقابلة كقوله : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا ﴾ قال : نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس : قال : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا ، وقال مجاهد : نتركهم في النار ، وقال السدي : نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا ، وفي الصحيح : أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخّر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني (٢) .

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره(٨/٢٦٠) هذا الحديث مرسل عن السدي ولم أجده بهذا اللفظ في مكان آخر .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد(١٦) .

يقول تعالى مخبرًا عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين كقوله : ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ ﴾ للعالمين أي : على علم منا بما فصلناه به كقوله : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ ﴾ قال ابن جرير : وهذا الآية مردودة على قوله : ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ مِّنۡهُ ﴾ الآية ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٍ ﴾ الآية وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإنه قد طال الفصل ولا دليل عليه ، وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا ﴾ ولهذا قال : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ ﴾ أي : ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار . وقال مالك : ثوابه ، وقال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ . قوله : ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ ﴾ أي : يوم القيامة ، قاله ابن عبّاس ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ ﴾ أي : تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا ﴿ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ ﴾ أي : في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿ أَوۡ نُرَدُّ ﴾ إلى دار الدنيا ﴿ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ كما قال ههنا : ﴿ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ أي : خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ أي : ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون اللَّه فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام ، واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل فقد روي عن أبي هريرة قال : أخذ رسول اللَّه ﷺ بيدي فقال : « خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ الجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الاثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ المكْرُوهَ يَوْمَ الثّلاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بعد العَصْر يَوْمَ الجُمُعَةِ آخِرِ الخَلْقِ في آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ » (١) .

وأما قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًّا ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن اللَّه ، فإن

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين(٢٧) وأحمد في مسنده(٣٢٧/٢) والبيهقي في السنن الكبرى(٣/٩) .

الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة : منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري ، قال : من شبَّه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسول تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى ، وقوله تعالى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أي : يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا أي : سريعًا لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال : ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ منهم من نصب ومنهم من رفع وكلاهما قريب المعنى (١) ، أي : الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ، ولهذا قال منبهًا : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أي : له الملك والتصرف ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كقوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ الآية ، وعن عبد العزيز الشامي عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى مَا عَمِلَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ وَحَمِدَ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ وَحَبِطَ عَمَلُهُ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْعِبَادِ مِنَ الأَمْرِ شَيْئًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ » لقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢) وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعًا : « اللَّهُمَّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ، وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ » (٣) .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ قيل : معناه تذللًا واستكانة وخيفة ، كقوله : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ ﴾ الآية . عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » (٤) . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ قال : السر ، وقال ابن جرير : ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ تذللًا واستكانة لطاعته ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ يقول : بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارًا مراءاة ، وقال الحسن : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدًا ، ولقد كان

(١) قرأ ابن عامر (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) برفع الأسماء الأربعة والباقون بنصبها وكسر التاء في (مسخرات) (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٥) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٨/٨) والسيوطي في الدر المنثور (٩٢/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٤١/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤) وأحمد مسنده (٣٩٤/٤) .

المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلَّا همسًا بينهم وبين ربهم وذلك أن اللَّه تعالى يقول : ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾ وذلك أن اللَّه ذكر عبدًا صالحًا رضي فعله فقال : ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾ وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة ، ثم روي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ في الدعاء ولا في غيره : وقال أبو مجلز : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء ، وعن زياد بن مخراق سمعت أبا نعامة عن مولى لسعد أن سعدًا سمع ابنًا له يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوًا من هذا . وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال : لقد سألت اللَّه خيرًا كثيرًا وتعوذت به من شر كثير ، وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : «إِنَّهُ سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ »- وفي لفظ : «يَعْتَدُونَ فِي الطُّهورِ وَالدُّعَاءِ »وقرأ هذه الآية ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا ﴾ الآية - «وإنَّ بحسبك أن تقول : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضره بعد الإصلاح ، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد ، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال : ﴿ وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا ﴾ أي : خوفًا مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعًا فيما عنده من جزيل الثواب ، ثم قال : ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أي : إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الآية ، وقال : قريب ولم يقل : قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى اللَّه ، فلهذا قال : قريب من المحسنين ، وقال مطر الورّاق : استنجزوا موعود اللَّه بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخّر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر ، نبه تعالى على أنه الرزّاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا ﴾ أي : مبشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ، ومنهم من قرأ ﴿ بشرًا ﴾ (٢) كقوله : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ ﴾ وقوله : ﴿ بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ ﴾ أي : بين يدي المطر وقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا ﴾ أي : حملت الرياح سحابًا ثقالًا ، أي : من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة .

وقوله : ﴿ سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾ أي : إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كقوله : ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٢/٣) .
(٢) قرأ عاصم ﴿ بشرًا ﴾ هنا والفرقان والنمل بالباء وضمها وإسكان الشين وابن عامر بالنون وضمها وضم الشين (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٥) .

﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ الآية ، ولهذا قال : ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي : كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة ، ينزل الله ﷻ ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يومًا فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض ، وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلًا ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال : ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ .

وقوله : ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ أي : والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنًا ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ قال مجاهد وغيره : كالسباخ ونحوها ، وقال ابن عبّاس في الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّه بِهِ مِنَ العِلْمِ وَالْهُدَى كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللَّه بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّه وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّه بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّه الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » (١) .

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾ .

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه ، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول ، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام ، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ - وهو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون ، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام ، هكذا نسبه محمّد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب ، قال محمّد بن إسحاق : ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلَّا نبي قتل ، قال يزيد الرقاشي : إنما سمي نوحًا لكثرة ما ناح على نفسه ، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام ، قال عبد الله بن عبّاس وغير واحد من علماء التفسير : وكان أول ما عبدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم ، فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا ، فلما تفاقم الأمر بعث الله ﷻ وله الحمد والمنة رسوله نوحًا ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال : ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي : من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي : الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم : ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي :

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٩) .

في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا ، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغًا فصيحًا ناصحًا عالمًا بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات ، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ » [(١)] .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ الآية ، أي : لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم لينذركم ، ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي : تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن منهم إلّا قليل كما نص عليه في موضع آخر ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي : السفينة كما قال ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ كما قال : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ أي : عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له فبيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ الآية ، وهذه سنّة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحًا وأصحابه المؤمنين .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا ، وقال محمّد ابن إسحاق : هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح . قلت : هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهي جبال الرمل ، وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة : سمعت عليًا يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبًا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) وأبو داود في سننه (١٩٠٥) وابن ماجه في سننه (٣٠٥٥) .

رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه ، قال : لا ، ولكني قد حدثت عنه ، فقال الحضرمي : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود ﷺ . وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، فإن هودًا ﷺ دفن هناك ، وقد كان من أشرف قومه نسبًا ، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم ، وكانوا من أشد الأمم تكذيبًا للحق ، ولهذا دعاهم هود ﷺ إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى طاعته وتقواه ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي : في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده ، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ الآية ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : لست كما تزعمون ، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء ، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أي : لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولًا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه ، بل احمدوا الله على ذاكم ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ أي : زاد طولكم على الناس بسطة ، أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم ، كقوله في قصة طالوت : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ ﴿ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أي : نعمه ومننه عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ والآلاء جمع إلى ، وقيل : ألى .

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠
قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ٧١ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود ﷺ ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ الآية . وقد ذكر محمّد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصنامًا ، ولهذا قال هود ﷺ : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس ، قيل : هو مقلوب من رجز ، وعن ابن عبّاس : معناه سخط وغضب ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أي : أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلًا ، ولهذا قال : ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ، ولهذا عقّبه بقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ .

وقد ورد عن الحارث البكري قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة ، فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد سيفًا بين يدي رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا ، قال : فجلست ، فدخل منزله - أو قال : رحله - فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت وسلمت ، فقال : « هل بينكم وبين تميم شيء ؟ » قلت : نعم ، وكانت لنا الدائرة عليهم ، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها إليك ، وها هي بالباب ، فأذن لها فدخلت ، فقالت : يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزًا فاجعل الدهناء ، فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : قلت : إن مثلي مثل ما قال الأول : معزى حملت حتفها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا ، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد ، قال لي : « وَمَا وَافِدُ عَادٍ ؟ » وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه ، قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له : قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود ، فنودي منها اختر ، فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها خذها رمادًا رمددًا ، لا تبقى من عاد أحدًا ، قال : فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا ، قال أبو وائل : وصدق . قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد[1] .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ
بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ
ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

قال علماء التفسير والنسب : ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله ، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع ، وعن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٨٢) .

العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : « إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ » (١) وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ » (٢) وعن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لاَ تَسْأَلُوا الآيَاتِ فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ - يَعْنِي النَّاقَةَ - تَرِدُ مِنْ هَذَا الفَجِّ وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الفَجِّ ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا ، فَعَقَرُوهَا ؛ فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ » فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أَبُو رِغَالٍ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الحَرَمِ ؛ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ » (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أي : ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ ، فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وقوله : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أي : قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها : الكاتبة ، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا ، فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر ابن جلهس ، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له : شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس وكان من أشراف ثمود وأفاضلها ، فأراد أن يسلم أيضًا فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال له : مهوش بن عثمة بن الدميل رحمه الله :

وَكَانَتْ عُصْبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرٍو ... إِلى دِينِ النَّبِيِّ دَعوا شِهَابَا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهم جَمِيعًا ... فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيبَ فَلَو أَجَابَا
لَأَصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا ... وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنَّ الغُوَاةَ مِنْ آلِ حُجْرٍ ... تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمُ ذِيَابَا

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة ، تشرب من بئرها يومًا وتدعه لهم يومًا ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٤/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٠) ومسلم في الزهد والرقائق (٣٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) .

وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملؤون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها ؛ لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقًا هائلًا ومنظرًا رائعًا ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها ، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم ، فيقال : إنهم اتفقوا كلهم على قتلها ، قال قتادة : بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان .

قلت : وهذا هو الظاهر لقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ وقال : ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ ﴾ فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم .

قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضي الله عنهم ، إلا أن رجلًا يقال له : أبو رغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيمًا إذ ذاك في الحرم ، فلم يصبه شيء ، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله .

وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، قال : إسماعيل بن أمية أن النبيّ ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال : « أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ رَجُلٍ مِنْ ثَمُود كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ فمنعه حرم الله عَذَابَ الله ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمِهِ فَدُفِنَ هَاهُنَا مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَنَزَلَ الْقَوْمُ فَابْتَدَرُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ فَبَحَثُوا عَنْهُ فَاسْتَخْرَجُوا الغُصْنَ » (١) .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ .

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى ، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعًا وتوبيخًا وهم يسمعون ذلك ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثًا ، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل ، فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول : « يَا أَبَا جَهْلِ بنَ هِشَام يَا عُتْبَةُ بن رَبِيعَةَ وَيَا شيبة بن ربيعة ويا فُلَانُ ابْن فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ؟ » فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا ؟ فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لاَ يُجِيبونَ » (٢) وفي السيرة أنه عليه الصلاة والسلام قال لهم : « بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِي كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ ، كذبتموني وَصَدَّقَنِي النَّاسُ ، وَأَخرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسُ ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ ، فَبِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ » (٣) وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي : فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحًا ، ولهذا قال : ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته كان يذهب فيقيم في الحرم حرم مكة والله أعلم .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٨٨) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٦/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٧٧) وأحمد في مسنده (١٠٤/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١٨/٦) .

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ أو تقديره ﴿و﴾ اذكر ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث . قوله : ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق ، لولا أن الله عز وجل قصّ علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا ، ولهذا قال لهم لوط عليه السلام : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي : عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل ؛ لأنه وضع الشيء في غير محله ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي : لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك . وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضًا .

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ .

أي : ما أجابوا لوطًا إلَّا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالمًا وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء .

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ .

يقول تعالى : فأنجينا لوطًا وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إلَّا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسري بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول : بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم ، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي : الباقين ، وقيل : من الهالكين ، وهو تفسير باللازم . وقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ مفسر بقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ولهذا قال : ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي : انظر يا محمّد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله ، وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب

آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصنًا أو غير محصن وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله ، والحجة ما روي عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ »[1] وقال آخرون : هو كالزاني فإن كان محصنًا رجم ، وإن لم يكن محصنًا جلد مائة جلدة ، وهو القول الآخر للشافعي ، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى ، وهو حرام بإجماع العلماء إلّا قولًا شاذًا لبعض السلف ، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

قال محمّد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر ، قال : واسمه بالسريانية يثرون . قلت : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، أي : قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به ، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أي : لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسًا .

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أي : تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم ، قال السدي وغيره : كانوا عشارين ، وعن ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ : أي تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه ، والأول أظهر ؛ لأنه قال : ﴿ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ وهو الطريق ، وهذا الثاني هو قوله ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي : وتودون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أي : كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله . وقوله : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي : قد اختلفتم علي ﴿ فَٱصْبِرُوا۟ ﴾ أي : انتظروا ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ وبينكم أي : يفصل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٠٠) والترمذي في سننه (١٤٥٦) وأبو داود في سننه (٤٤٦٢) .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ .

هذا خبر من اللَّه تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبًا ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة . وقوله : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ ؟ يقول : أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على اللَّه في جعل الشركاء معه أندادًا ، وهذا تنفير منه على اتباعهم ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ ﴾ وهذا رد إلى اللَّه مستقيم فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علمًا ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ ﴾ أي : في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ أي : خير الحاكمين ، فإنك العادل الذي لا يجور أبدًا .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا وقالوا : ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ فلهذا عقبه بقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۚ ﴾ أي : كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلًا لقيلهم : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ .

أي : فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ، وقال مقرعًا لهم وموبخًا : ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ ﴾ أي : قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به فلهذا قال : ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء ، يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك لعلهم يضرعون ، أي : يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى اللَّه تعالى في كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئًا من الذي أراد منهم ، فقلب عليهم الحال إلى

الرخاء ليختبرهم فيه ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ أي : حولنا الحال من شدة إلى رخاء ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ عَفَوا ﴾ أي : كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال : عفا الشيء إذا كثر ﴿ وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا ٱلضَّرَّاءُ وَٱلسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول تعالى : ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله ، فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا ، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا ، وقالوا : قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت في الصحيحين : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لاَ يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١) وجاء في الحديث : « لاَ يَزَالُ البَلاَءُ بِالمُؤْمِنِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنْ ذُنُوبِهِ ، وَالمُنَافِقُ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الحِمَارِ لاَ يَدْرِي فِيمَ رَبَطَهُ أَهْلُهُ وَلاَ فِيمَ أَرْسَلُوهُ » (٢) ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أي : على بغتة وعدم شعور منهم ، أي أخذناهم فجأة ، كما في الحديث : « مَوْتُ الفَجْأَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ ، وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلْكَافِرِ » (٣) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : أمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا وذلك بعدما عاينوا العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا ﴾ أي : آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : قطر السماء ونبات الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ، ثم قال تعالى مخوفًا ومحذرًا من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي : الكافرة ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أي : عذابنا ونكالنا ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي : ليلًا ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي : في حال شغلهم وغفلتهم ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ أي : بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

(١) أخرجه مسلم في الزهد(٦٣) والمنذري في الترغيب والترهيب(٢٧٨/٤) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك(٣٤٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى(٣٧٤/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٢١٩/٤) وأبو داود في سننه(٣١١٠) والبيهقي في السنن الكبرى(٣٧٨/٣) .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ أولم يتبين لهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ قال مجاهد وغيره في تفسيرها : أولم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ يقول : أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : ونختم على قلوبهم ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ موعظة ولا تذكيرًا . قلت : وهكذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ .

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ .

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين ، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بيَّنَّ لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي : يا محمّد ﴿ مِنْ أَنبَائِهَا ﴾ أي : من أخبارها ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ الباء سببية ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ولهذا قال هنا ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم ﴾ أي : لأكثر الأمم الماضية ﴿ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ أي : ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال ، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلَّا هو ، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع وفي الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك ، كما جاء في صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ » (١) وفي الصحيحين « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه ، وَينصِّرانه ، ويمجسانه » (٢) الحديث ، وقد قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ ما روي عن أُبيّ بن كعب قال : كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق أي : فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك ، وقال السدي : ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهًا ، وقال مجاهد هذا كقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا ﴾ الآية .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم ﴾ أي : الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) وأحمد في مسنده (١٦٢/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿ مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ أي : بحجتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ أي : قومه ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أي : جحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِىَ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٍ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ أي : أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ فقال بعضهم : معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلَّا الحق ، أي : جدير بذلك وحري به ، قالوا : والباء وعلى يتعاقبان ، وقال بعض المفسرين : معناه حريص على أن لا أقول على الله إلَّا الحق ، وقرأ آخرون من أهل المدينة ﴿ حَقِيقٌ عليَّ ﴾ (١) بمعنى واجب وحق عليَّ ذلك أن لا أخبر عنه إلَّا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أي : بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلًا على صدقي فيما جئتكم به ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعِىَ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي : أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم وعبادة ربك وربهم فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٍ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أي قال فرعون : لست بمصدقك فيما قلت ، ولا بمعطيك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقًا فيما ادعيت .

﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعۡبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ ثُعۡبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الحية الذكر ، وفي حديث الفتون (٢) عن ابن عبّاس قال : ﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ، وقال قتادة : تحولت حية عظيمة مثل المدينة ، وقال السدي في قوله : ﴿ فَإِذَا هِىَ ثُعۡبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الثعبان الذكر من الحيات فاتحة فاها واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح : يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل ، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا ، وقال وهب بن منبه : لما دخل موسى على فرعون قال له فرعون : أعرفك ، قال نعم ، قال : ﴿ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ قال : فرد إليه موسى الذي رد ، فقال فرعون : خذوه فبادر موسى ﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعۡبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا ، قتل بعضهم بعضًا ، وقام فرعون منهزمًا حتى دخل البيت (٣) . وقوله ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ أي : أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا

---

(١) قرأ نافع ﴿ عليَّ ﴾ بتشديد الياء ، وقرأ الباقون ﴿ على ﴾ بالتخفيف (انظر : حجة القراءات ص ٢٨٩) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٦/١٦) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ٢٠/٩ وهذا القصة هي من مرويات بني إسرائيل المشهورة في الكتب .

مرض كما قال تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ الآية ، وقال ابن عبّاس في حديث الفتون : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ يعني من غير برص ، ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره ، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه ، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون ، فيكون ذلك سببًا لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم ، والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه اللَّه تعالى عنهم في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ .

قال ابن عبّاس ﴿ أَرْجِهْ ﴾ أخره ، وقال قتادة : احبسه ﴿ وَأَرْسِلْ ﴾ أي : ابعث ﴿ فِي الْمَدَائِنِ ﴾ أي : في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ أي : من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم ، وقد كان السحر في زمانهم غالبًا كثيرًا ظاهرًا واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم ، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات .

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلًا ، فوعدهم ومنّاهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده ، فلما توثقوا من فرعون لعنه اللَّه :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ .

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ أي : قبلك ، فقال لهم موسى عليه السلام : ﴿ أَلْقُوا ﴾ أي : أنتم أولًا ، قيل : الحكمة في هذا - واللَّه أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع في النفوس ، وكذا كان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أي : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ، ولم يكن إلَّا مجرد صنعة وخيال . قال ابن عبّاس : ألقوا حبالًا غلاظًا وخشبًا طوالًا ، قال : فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، وقال محمّد بن إسحاق : صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر حباله وعصيه ، وخرج موسى عليه السلام معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته ، ثم قال السحرة : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ

أَلْقَوْا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد ، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصي فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا ، وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ليس رجل منهم إلّا ومعه حبل وعصا ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ يقول : فرقوهم أي : من الفرق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل ، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ أي : تأكل ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي : ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل ، قال ابن عبّاس : فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلّا التقمته ، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ، ليس هذا بسحر ، فخرّوا سجدًا وقالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : جعلت تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا ، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت ، ووقع السحرة سجدًا ، و ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ، لو كان هذا ساحرًا ما غلبنا ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فاغر فاه يبتلع حبالهم وعصيهم فألقي السحرة عند ذلك سجدًا ، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عما توعد به فرعون - لعنه الله - السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أي : إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل ، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته ، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملأ من قومه ، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل ، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون ، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدًا منهم ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تسترًا وتدليسًا على رعاع دولته وجهلتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ فإن قومًا صدقوه في قوله : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم ، وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عبّاس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾

قال : التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة ، فقال له موسى : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق ، قال الساحر : لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر ، فواللَّه لئن غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حق ، وفرعون ينظر إليهما ، قالوا : فلهذا قال ما قال ، وقوله : ﴿ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أي : تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرّف لكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : ما أصنع بكم ، ثم فسر هذا الوعيد بقوله : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ يعني يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ أي : على الجذوع ، قال ابن عبّاس : وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون .

وقول السحرة : ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي : قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم ، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب اللَّه ، ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي : عمّنا بالصبر على دينك والثبات عليه ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أي : متابعين لنبيك موسى عليه السلام ، وقالوا لفرعون : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فكانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة ، قاله ابن عبّاس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : لفرعون ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ ﴾ أي : أتدعهم ليفسدوا في الأرض ، أي : يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ، ياللَّه العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! إلا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، ولهذا قالوا : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ قال بعضهم : الواو هنا حالية ، أي : أتذره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك ؟ وقرأ ذلك أُبيّ بن كعب ، وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك ، وقال آخرون : هي عاطفة ، أي : أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك ؟ وقرأ بعضهم : (إلاهتك) أي : عبادتك (١) ، وعلى القراءة الأولى قال بعضهم : كان لفرعون إله يعبده ، قال الحسن البصري : كان لفرعون إله يعبده في السر ، وقال في رواية أخرى : كان له حنانة في عنقه معلقة يسجد لها ، ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ ، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذرًا من وجوده ، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل في صنيعه أيضًا لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزّهم اللَّه وأذلّه وأرغم

(١) قرأ أبي بن كعب (قد تركوك أن يعبدوك وآلهتك) وقرأ ابن عباس (وإلاهتك) (الطبري في تفسيره ٩/٣٣) .

أنفه وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾ ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ أي : فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك ، فقال منبهًا لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الآية ، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿ بِٱلسِّنِينَ ﴾ وهي سنين الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ قال مجاهد : وهو دون ذلك ، وقيل : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ أي : من الخصب والرزق ﴿ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أي : هذا لنا بما نستحقه ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي : جدب وقحط ﴿ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ أي : هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عبّاس : مصائبهم عند الله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي : من قبل الله .

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يقولون : أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها ، فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ اختلفوا في معناه ، فعن ابن عبّاس في رواية : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ، وعنه في رواية أخرى : هو كثرة الموت ، وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد : الطوفان : الماء والطاعون على كل حال ، وعن عائشة ﵂ قالت : قال رسول الله ﷺ : « الطُّوفَانُ : المَوْتُ » (١) ، وقال ابن عبّاس في رواية أخرى : هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ ، وأما الجراد فمعروف مشهور ، وهو مأكول كما ورد عن أبي يعفور قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد (٢) . وروي عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال : « أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ : الحُوتُ وَالجَرَادُ ، وَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ » (٣) وعن سلمان قال : سئل

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٨/٣٠٠) والهندي في كنز العمال (٢٨٩٦) .

(٢) أخرجه النسائي في سننه (٤٣٥٦) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤/٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٧/٢) وذكره البيهقي في السنن الكبرى (٢٥٤/١) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٨/١) .

رسول الله ﷺ عن الجراد فقال : « أَكْثَرُ جُنُودِ اللَّهِ لاَ آكُلُهُ وَلاَ أُحَرِّمُهُ » (١) وإنما تركه عليه الصلاة والسلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه .

وأما القمل فعن ابن عبّاس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وعنه أنا الدبا وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : القمل البراغيث ، وقال ابن جرير : القمل جمع واحدتها قملة وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما بلغني .

قال : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب الحمنان ، واحدتها حمنانة ، وهي صغار القردان فوق القمامة . وعن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر ، فصب عليهم منه شيئًا خافوا أن يكون عذابًا ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فأنبت لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلّطه على الكلأ ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فداسوا وأحرزوا في البيوت ، فقالوا : قد أحرزنا ، فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه ، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلّا ثلاثة أقفزة ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل ، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا ؟ فقال : وما عسى أن يكون كيد هذا ؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فلم يؤمنوا ، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دمًا عبيطًا فشكوا إلى فرعون ، فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب ، فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلّا وجدناه دمًا عبيطًا ، فأتوه وقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل (٢) .

وقد روي نحو هذا عن ابن عبّاس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك ، وقال محمّد بن إسحاق بن يسار رحمه الله : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبًا مغلولًا ، ثم أبى إلّا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين ، وأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئًا حتى جهدوا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٨١٣) وابن ماجه في سننه (٣٢١٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٥٧) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٤٦) .

جوعًا ، فلما بلغهم ذلك ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني ، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها ، فانثال عليهم قملًا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلّا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فسأل ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلّا عاد دمًا عبيطًا .

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة ، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم ، وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم ، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الحسن البصري وقتادة في قوله : ﴿ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ يعني الشام ، وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ قال مجاهد وابن جرير : وهي قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ أي : وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ يبنون .

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿ فَأَتَوْاْ ﴾ أي : فمروا ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ . قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين ، وقيل : كانوا من لخم ، قال ابن جرير : وكانوا يعبدون أصنامًا على صور البقر ، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك ، فقالوا : ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي : تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزّه عنه من

الشريك والمثيل ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ ﴾ أي : هالك ﴿ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فعن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة فقلت : يا نبيّ الله : اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبيّ ﷺ : « الله أكبرُ هَذا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرائِيلَ لِمُوسَى ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴾ إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ منْ قَبْلكُمْ » (١) .

﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾ .

يذكّرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره .

﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم ، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ، قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام وطواها ، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة ، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين ، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي ، فالأكثرون على أن الثلاثين هي : ذو القعدة والعشر : عشر ذي الحجة ، وروي عن ابن عباس وغيره ، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام وفيه أكمل الله الدين لمحمّد ﷺ كما قال تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور ، فحينئذ استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الفساد ، وهذا تنبيه وتذكير وإلّا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه ، فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ وقد أشكل حرف لن ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد ، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة ، وهذا أضعف الأقوال ؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾ . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ .

عن أنس عن النبيّ ﷺ قال : لما تجلى ربه للجبل أشار بإصبعه فجعله دكًّا ، وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢١٨) والطبراني في الكبير (٣/٢٧٥ ، ٢٧٦) .

السبابة ، وعن أنس أيضًا أن النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال : هكذا بإصبعه ، ووضع النبيّ ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر « فَسَاخَ الجَبَلُ » (١) .

وقال ابن عبّاس في قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ قال : ما تجلى منه إلَّا قدر الخنصر ﴿ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال : ترابًا ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ قال : مغشيًا عليه ، وقال قتادة : ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ قال : ميتًا ، وقال سفيان الثوري : ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب معه .

وعن أنس بن مالك أن النبيّ ﷺ قال : « لَمَّا تَجَلَّى اللهُ لِلجِبَالِ طَارَتْ لِعَظَمَتِهِ سِتَّةُ أَجْبُلٍ ، فَوَقَعَتْ ثَلاثَةٌ بِالمَدِينَةِ وَثَلاثَةٌ بِمَكَّةَ ، بِالمَدِينَةِ : أُحُدٌ وَوَرْقَانُ وَرَضْوَى ، وَوَقَعَ بِمَكَّةَ : حِرَاء وَثَبِيرٌ وَثَوْرٌ » (٢) وقيل : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقًا ، وقال عكرمة : ﴿ جَعَلَهُۥ دكاء ﴾ قال : نظر الله إلى الجبل فصار صحراء ترابًا ، وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير (٣) ، والمعروف أن الصعق هو الغشي ها هنا كما فسره ابن عبّاس وغيره ، لا كما فسره قتادة بالموت وإن كان ذلك صحيحًا في اللغة ، كقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشي وهو قوله : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ والإفاقة لا تكون إلَّا عن غشي ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنزيهًا وتعظيمًا وإجلالًا أن يراه أحد في الدنيا إلَّا مات وقوله : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد : أن أسألك الرؤية ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : أنه لا يراك أحد ، وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول : أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة ، وهذا قول حسن له اتجاه .

وقوله : ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبيّ ﷺ فأما حديث أبي سعيد الخدري ﷺ فقال : جاء رجل من اليهود إلى النبيّ ﷺ قد لطم وجهه ، وقال : يا محمّد إن رجلًا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي قال : « ادْعُوهُ » فدعوه قال : « لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ ؟ » قال : يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعته يقول : والذي اصطفى موسى على البشر ، قال : وعلى محمّد ؟ قال : فقلت : وعلى محمّد وأخذتني غضبة فلطمته ، فقال : « لاَ تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ » (٤) . وأما حديث أبي هريرة فقال : استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمّدًا على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه ، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره ، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « لاَ

---

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٧٤) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١٩/٣) والهندي في كنز العمال (٤٣٧٧) .

(٣) قرأ حمزة والكسائي ﴿ دكاء ﴾ بالمد والهمز ، وقرأ الباقون ﴿ دكا ﴾ منونًا (انظر حجة القراءات ص : ٢٩٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٢) ومسلم في الفضائل (١٥٩) .

تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا بِمُوسَى مُمْسِكٌ بِجَانِبِ العَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ مِمَّنْ صُعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّا اسْتَثْنَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ » (١) .

والكلام في قوله ﷺ : « لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى » كالكلام على قوله : « لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَلاَ عَلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى » قيل : من باب التواضع ، وقيل : قبل أن يعلم بذلك ، وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب ، وقيل : على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي ، والله أعلم . وقوله : « فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ » الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه - والله أعلم به - وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، وتجلى للخلائق الملك الديان ، كما صعق موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ » .

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ، ولا شك أن محمدًا ﷺ سيّد ولد آدم من الأولين والآخرين ، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم ، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل ﷺ ، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن ﷺ ، ولهذا قال الله تعالى له : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ أي : من الكلام والمناجاة ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ أي : على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به ، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلًا لكل شيء ، قيل : كانت الألواح من جوهر وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكامًا مفصلة مبينة للحلال والحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ وقيل : الألواح أعطيها موسى قبل التوراة ، فالله أعلم ، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه ، والله أعلم .

وقوله ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أي : بعزم على الطاعة ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ قال ابن عبّاس : أمر موسى ﷺ أن يأخذ بأشد ما أمر قومه .

وقوله : ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ أي : سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدماء والتباب ، قال ابن جرير : وإنما قال : ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غدًا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره ، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري وقيل : معناه ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ أي : من أهل الشام وأعطيكم إياها ، وقيل : منازل قوم فرعون والأول أولى ، والله أعلم ؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر ، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١١) ومسلم في الفضائل (١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٤) .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق ، أي : كما استكبروا بغير حق أذلهم بالجهل . وقال بعض السلف : لا ينال العلم حيي ولا مستكبر ، وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدًا ، وقال سفيان بن عيينة في قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قال : أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي . قال ابن جرير : وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة . قلت : ليس هذا بلازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أي : وإن ظهر لهم سبيل الرشد أي : طريق النجاة لا يسلكوها ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلًا ، ثم علّل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي : كذبت بها قلوبهم ﴿ وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ أي : لا يعملون بما فيها . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله وقوله : ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر وكما تُدين تُدان .

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حليّ القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلًا ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلًا جسدًا له خوار ، والخوار صوت البقر ، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى ، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخبارًا عن نفسه الكريمة : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ وقد اختلف المفسّرون في هذا العجل هل صار لحمًا ودمًا له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوّت كالبقر على قولين ، والله أعلم . ويقال : إنهم لما صوّت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به وقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ينكر تعالى عليهم ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلًا جسدًا له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، ولكن غطّى على أعين بصائرهم

عمى الجهل والضلال كما تقدم عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : ندموا على ما فعلوا ﴿ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ لَئِن لَّمْ ترحمنا ﴾ بالتاء المثناة من فوق ﴿ ربَّنا ﴾ منادى و ﴿ تغفر لنا ﴾ (٢) ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله ﷻ .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف ، قال أبو الدرداء : والأسف : أشد الغضب ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ يقول : بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم . وقوله : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ يقول : استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى . وقوله : ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ قيل : كانت الألواح من زمرد ، وقيل : من ياقوت ، وقيل : من برد ، وقيل : من سدر ، وفي هذه دلالة على ما جاء في الحديث : « لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ » (٣) ثم ظاهر السياق أنه إما ألقى الألواح غضبًا على قومه وهذا قول جمهور العلماء سلفًا وخلفًا ، وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولًا غريبًا لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة ، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالرد ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة . وقوله : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ خوفًا أن يكون قد قصر في نهيهم ﴿ يا ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم ، وإنما قال : ﴿ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ ليكون أرق وأنجع عنده وإلَّا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ المُعَايِنُ كَالمُخْبَرِ ، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ ﷻ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الأَلْوَاحَ » (٤) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضًا وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلًا وصغارًا في الحياة الدنيا وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٤/٥) وأبو داود في سننه (٥١٣٠) .

(٢) قرأ حمزه والكسائي وخلف (تغفر لنا وترحمنا) بالخطاب فيهما ونصب باء (ربنا) والباقون بالغيب والرفع (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٣/١)

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٨٠/٢) .

نائلة لكل من افترى بدعة فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه وقال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل ، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ ﴾ أي يا محمّد يا رسول التوبة ونبيّ الرحمة ﴿ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد تلك الفعلة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن ذلك ، يعني الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها ، فتلا هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ ﴾ أي سكن ﴿ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ أي غضبه على قومه ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضبًا له ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ يقول كثير من المفسرين : إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ؛ ولهذا قال بعض السلف : فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما التفصيل فذهب ، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجودًا في خزائن الملوك من بني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية ، وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها وهي من جوهر الجنة ، فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع ولهذا عداها باللام .

وقال قتادة : في قوله تعالى : ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾ قال . رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون ، أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظرًا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا منها شيئًا ولم يعرفوه – قال قتادة : وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئًا لم يعطه أحدًا من الأمم – قال : رب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلون الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارًا فأكلتها وإن ردت عليه فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم قال : رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا هَمّ أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها ، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني

أجد في الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال قتادة : فذكر لنا أن نبي الله موسى ﷺ نبذ الألواح وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ۝ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلًا فاختار سبعين رجلًا ، فبرز بهم ليدعوا ربهم ، وكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا ولا تعطه أحدًا بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ الآية ، وقال السدي : إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدًا ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ على عينيه ثم ذهب بهم ليعتذروا ، فلما أتوا ذلك المكان قالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ يا موسى ﴿ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فإنك قد كلمته فأرناه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ؟ ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ .

وقال ابن عبّاس : إنهم أخذتهم الرجفة ؛ لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم ، ويتوجه هذا القول بقول موسى : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ وقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك . قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف ، ولا معنى له غير ذلك ، يقول : إن الأمر إلّا أمرك وإن الحكم إلّا لك فما شئت كان ، تضل من تشاء وتهدي من تشاء ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لمن منعت ولا مانع لما أعطيت ، فالملك كله لك والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر .

وقوله : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ الغفر هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب ، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ أي لا يغفر الذنب إلّا أنت ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أي أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا ورجعنا وأنبنا إليك . وعن علي قال : إنما سميت اليهود لأنهم قالوا ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى مجيبًا لنفسه في قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ الآية ، قال : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه لا إله إلّا هو ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخبارًا عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ

﴿ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وعن جندب هو - ابن عبد الله البجلي ﷺ - قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما وصل رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ، ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمّدًا ولا تشرك في رحمتنا أحدًا ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتقُولُونَ هَذَا أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ ؟ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ ؟ » قالوا : بلى قال : « لَقَدْ حظرت رَحْمَةً وَاسِعَةً ، إِنَّ اللّٰه ﷻ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَأَنْزَلَ رَحْمَةً يَتَعَاطَفُ بِهَا الخَلْقُ ، جِنُّهَا وَإِنْسُهَا وَبَهَائِمُهَا ، وَأَخَّرَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً ، أَتقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرِه ؟ » [1] وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ للّٰه مِائَةَ رَحْمَةٍ ، جَعَلَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، وَجَعَلَ عِنْدَكُمْ وَاحِدَةً تَتَرَاحَمُونَ بِهَا بَيْنَ الجِنِ وَالإِنْسِ وَبَيْنَ الخَلْقِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ضَمَّهَا إِلَيْهِ » [2] .

وقوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الآية ، يعني فسأوجب حصول رحمتي منه مني وإحسانًا إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات ، وهم أمة محمّد ﷺ ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي الشرك والعظائم من الذنوب . قوله : ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ ﴾ قيل : زكاة النفوس ، وقيل : الأموال ، ويحتمل أن تكون عامة لهما ، فإن الآية مكية . ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يصدقون .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ وهذه صفة محمّد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم ، كما روي عن رجل من الأعراب قال : جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعي قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ، ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ هَذَا صِفَتِي وَمَخرَجِي » فقال برأسه هكذا ، أي : لا ، فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلّا اللّٰه وأشهد أنك رسول الله ، فقال : « أَقِيمُوا اليَهُودِيَّ عَنْ أَخِيكُمْ » ثم تولى كفنه والصلاة عليه [3] .

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ؟ قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وحرزًا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، اسمك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٤) وأبو داود في سننه (٤٨٨٥) والحاكم في المستدرك (٢٤٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (١٩ ، ٢٠) وأحمد في مسنده (٥٢٦/٢) وابن ماجه في سننه (٤٢٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الحدود (٦) وأحمد في مسنده (٤١١/٥) وابن ماجه في سننه (٢٥٥٨) .

يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويفتح به قلوبًا غلفًا وآذانا صمًّا وأعينًا عميًا . قال عطاء : ثم لقيت كعبًا فسألته عن ذلك ، فما اختلف حرفًا ، إلا أن كعبًا قال بلغته قال : قلوبًا غلوفيًا وآذانًا صموميًا وأعينًا عموميًا (١) . وعن محمّد بن جبير بن معطم قال : خرجت تاجرًا إلى الشام ، فلما كنت بأدنى الشام لقيني رجل من أهل الكتاب ، فقال : هل عندكم رجل نبيًّا ؟ قلت : نعم ، قال : هل تعرف صورته إذا رأيتها ؟ قلت : نعم ، فأدخلني بيتًا فيه صور ، فلم أر صورة النبيّ ﷺ فبينا أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا ، فقال : فيم أنتم ؟ فأخبرناه ، فذهب بنا إلى منزله ، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبيّ ﷺ وإذا رجل آخذ بعقب النبيّ ﷺ ، قلت : من هذا الرجل القابض على عقبه ؟ قال : إنه لم يكن نبي إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي فإنه لا نبي بعده ، وهذا الخليفة بعده وإذا صفة أبي بكر ﷺ .

وعن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب ﷺ قال : بعثني عمر إلى الأسقف فدعوته ، فقال له عمر : هل تجدني في الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : فكيف تجدني ؟ قال : أجدك قرنًا ، فرفع عمر الدرة وقال : قرن مه ، قال : قرن حديد أمير شديد ، قال : فكيف تجد الذي بعدي ؟ قال : أجد خليفة صالحًا غير أنه يؤثر قرابته ، قال عمر : يرحم الله عثمان ثلاثًا ، قال : كيف تجد الذي بعده ؟ قال : أجده صدأ حديد ، فوضع عمر يده على رأسه وقال : يا دفراه يا دفراه ، قال : يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والدم مهراق (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر ، كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه ، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ . عن أبي حميد وأبي أسيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي بِمَا تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ فَأَنَا أَوْلاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وأبشاركم ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ؛ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ » (٣) .

وقوله ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ﴿ ويحرمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ قال ابن عبّاس : كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء : فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين ، وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من

(١) أخرجه : البخاري في التفسير (٤٨٣٨) وأحمد في مسنده ١٧٤/٢ .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٥٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٥/٥) .

يرى التحسين والتقبيح العقليين ، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له ، وكذا احتج بها من ذهب من العلماء ، إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب في حل رفاهيتها ، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته ، وفيه كلام طويل أيضًا .

وقوله : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أنه جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » (١) وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : « بَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا وَيَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا » (٢) قال صاحبه أبو برزة الأسلمي : إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره ، وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم ، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّه تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ » (٣) وقال : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ وَالنِّسْيَان وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ » (٤) .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ أي عظموه ووقروه . وقوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمّد ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي جميعكم ، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ وعن أبي إدريس الخولاني قال : سمعت أبا الدرداء ﵁ يقول : كانت بين أبي بكر وعمر ﵄ محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عنه عمر مغضبًا ، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ » أي غاضب وحاقد ، قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبيّ ﷺ وقصّ على رسول الله ﷺ الخبر ، قال أبو الدرداء : فغضب رسول الله ﷺ ، وجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله ﷺ : « هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي ؟ إِني قُلْتُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّه إِلَيْكُمْ جَمِيعًا فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ » (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٦٦) والهندي في كنز العمال (٩٠٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٨) ومسلم في الجهاد (٧) وأحمد في مسنده (٤/٤١٧) .
(٣) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم في الإيمان (٢٠١ ، ٢٠٢) وأحمد في مسنده (٢/٢٩٣) .
(٤) أخرجه : أحمد في مسنده ٤/٤٢٠ .
(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٠) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٣٦) .

وعن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال : « أُعطيتُ خمسًا لَمْ يُعطَهُنَّ نبيٌّ قَبْلِي ، ولاَ أَقُولُهُ فَخْرًا ، بُعِثْتُ إلى النَّاسِ كَافَّةً ، الأحمَرِ والأَسْوَد ، وَنُصِرتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ وَلاَ تَحِلُّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُعْطِيت الشَّفَاعَةَ فَأَخَّرْتُهَا لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَهِيَ لِمَنْ لاَ يُشْرِكُ بالله شَيْئًا »(١) ، وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ لاَ يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ »(٢) .

وفي الصحيحين أيضًا من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّت لِي الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »(٣) .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم . وقوله : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك في كتبهم ، ولهذا قال ﴿ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ وقوله : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى الصراط المستقيم .

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلونه به كما قال تعالى : ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ .

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ .

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكي ، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) والدارمي في سننه (٢٢٤/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) وأحمد في مسنده (٢٢٢/٢) .
(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) والدارمي في سننه (٢٢٤/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٢/١) .

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ الآية ، يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ وَسْئَلْهُمْ ﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم ، وهذه القرية هي أيلة ، وهي على شاطئ بحر القلزم . قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ هي قرية يقال لها : أيلة بين مدين والطور .

وقوله : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ قال ابن عبّاس : أي ظاهرة على الماء ، وقال ابن عبّاس : ظاهرة من كل مكان ، قال ابن جرير : وقوله : ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ نختبرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها ، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق ، فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ، فلا فائدة في نهيكم إياهم ، قالت لهم المنكرة : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقديره هذه معذرة ، وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ (١) أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يقولون : ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ ﴾ أي فلما أبي الفاعلون قبول النصحية ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ، على قولين ، وقال ابن عبّاس : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ

(١) قرأ حفص (معذرة) بالنصب والباقون بالرفع (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٦) .

مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ : هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها : أيلة ، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعًا في ساحل البحر ، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها ، فمضى على ذلك ما شاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها ، وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ، فلم يزدادوا إلّا غيًّا وعتوًّا ، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم ، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة : تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرى ، فقالوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وكل قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ والذين قالوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة .

وعن عكرمة قال : جئت ابن عباس يومًا وهو يبكي ، وإذا المصحف في حجره ، فأعظمت أن أدنو منه ، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست ، فقلت : ما يبكيك يا ابن عبّاس جعلني الله فداك ؟ قال : فقال : هؤلاء الورقات ، قال : وإذا هو في سورة الأعراف ، قال : تعرف أيلة ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه كان بها حي من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة ، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعًا بيضًا سمانًا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت ، فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام ، فقالت ذلك طائفة منهم ، وقالت طائفة : بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت ، فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها ، واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت ، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت ، وقال الأيمنون : ويلكم الله ، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله ، وقال الأيسرون : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال الأيمنون : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي ينتهون ، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا ، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم ، فمضوا على الخطيئة ، وقال الأيمنون : فقد فعلتم يا أعداء الله ، والله لنأتينكم الليلة في مدينتكم ، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب ، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا ، فوضعوا سلمًا وأعلوا سور المدينة رجلًا ، فالتفت إليهم فقال : أي عباد الله قردة ، والله تعادي تعاوي لها أذناب ، قال : ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة ، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي ، فيقول : ألم ننهكم عن كذا ، فتقول برأسها : أي نعم ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها ، قال : قلت : جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ قال : فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين ، وكذا روى مجاهد عنه .

وعن مالك قال : زعم ابن رومان أن قوله تعالى ﴿ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ قال : كانت تأتيهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر ، فاتخذ لذلك رجل خيطًا ووتدًا ، فربط حوتًا منها في الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد فاشتواه ، فوجد الناس ريحه فأتوه فسألوه عن ذلك فجحدهم ، فلم يزالوا به حتى قال لهم : فإنه جلد حوت وجدناه ، فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ، ولا أدري لعله قال : ربط حوتين ، فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه ، فوجدوا رائحة ، فجاءوا فسألوه ، فقال لهم : لو شئتم صنعتم كما أصنع ، فقالوا له : وما صنعت ؟ فأخبرهم ، ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك ، وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم ، فأصابهم من المسخ ما أصابهم ، فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس ، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم ، فتسوروا عليهم فإذا هم قردة ، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به (١) .

القول الثاني : أن الساكتين كانوا من الهالكين ، فعن ابن عبّاس أنه قال : ابتدعوا السبت ، فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان ، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل ، فإذا جاء السبت جاءت شرعًا فمكثوا ما شاء اللَّه أن يمكثوا كذلك ، ثم إن رجلًا منهم أخذ حوتًا فخرم أنفه ، ثم ضرب له وتدًا في الساحل وربطه وتركه في الماء ، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلَّا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق ، ففعل علانية ، قال : فقالت طائفة للذين ينهونهم ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ فقالوا : نسخط أعمالهم ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : كانوا أثلاثًا ؛ ثلث نهوا ، وثلث قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وثلث أصحاب الخطيئة ، فما نجا إلَّا الذين نهوا وهلك سائرهم (٢) . وهذا إسناد جيد عن ابن عبّاس ، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا ؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك ، واللَّه أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا ، وبئيس فيه قراءات كثيرة ، ومعناه الشديد ، وفي رواية : أليم ، وأخرى : موجع ، والكل متقارب واللَّه أعلم ، وقوله : ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ تَأَذَّنَ ﴾ تفعل من الأذان أي أعلم ، وقال غيره : وأمره ، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا أتبعت باللام في قوله : ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على اليهود ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر اللَّه وشرعه ، واحتيالهم على

(١ ، ٢) ذكره الطبري في تفسيره ١٢٩/٩ ، ١٣٠ .

المحارم ، ويقال : إن موسى ﷺ ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وكان أول من ضرب الخراج ، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين ، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ، ثم جاء الإسلام ومحمّد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية . قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : هي المسكنة وأخذ الجزية منهم ، وقال علي بن أبي طلحة عنه : هي الجزية ، والذي يسومهم سوء العذاب محمّد رسول اللّه ﷺ وأمته إلى يوم القيامة ، وعن سعيد بن المسيب ، قال : يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية . قلت : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارًا للدجال ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم ﷺ ، وذلك آخر الزمان .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي لمن عصاه وخالف شرعه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب ، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس ، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أممًا أي طوائف ﴿ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك ، ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم ﴾ أي اختبرناهم ﴿ بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ الآية ، يقول تعالى : فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم ، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة ، وقال مجاهد : هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ، ولهذا قال : ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ وكما قال سعيد بن جبير : يعملون الذنب ثم يستغفرون اللّه منه ويعترفون للّه ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه . وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ قال : لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلّا أخذوه حلالًا كان أو حرامًا ويتمنون المغفرة ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ وقال قتادة في الآية : إي واللّه لخلف سوء ﴿ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم أورثهم اللّه وعهد إليهم ، وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الآية . قال : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ تمنوا على اللّه أماني وغرة يغترون بها ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم شيء عن ذلك ، كلما هفا لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالًا كان أو حرمًا .

قال اللّه تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ الآية . يقول تعالى

منكرًا عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه ، قال ابن عبّاس : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ قال : فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه ، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يقول : أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمّد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ يقول : رفعناه وهو قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ . وقال ابن عباس : ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ قال : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم . وعن أبي بكر بن عبد الله قال : هذا كتاب أتقبلونه بما فيه فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم ؟ قالوا : انشر علينا ما فيها ، فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها ، قال : اقبلوها بما فيها ، قالوا : لا ، حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها ؟ فراجعوه مرارًا ، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء ، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء ، قال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربي عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلّا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ » - وفي رواية : « عَلَى هذِهِ المِلَّةِ - فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُولَدُ بَهِيمَةٌ جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ » (١) وعن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ » (٢) . وعن الأسود بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات ، قال : فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٥) وأحمد في مسنده (٢/٢٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

اللَّه ﷺ فاشتد عليه ، ثم قال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَاوَلُونَ الذُّرِّيَّةَ ؟ » فقال رجل : يا رسول اللَّه أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : « إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ ، أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا وَيُنَصِّرَانِهَا » قال الحسن : واللَّه لقد قال اللَّه في كتابه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية (١) .

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم ﷺ وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن اللَّه ربهم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : « يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي » (٢) .

وعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ﷺ بِنُعْمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا ، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قبلًا قَالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا ﴾ - إلى قوله - ﴿ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٣) .

وعن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ الآية ، فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول اللَّه ﷺ سئل عنها فقال : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ﷺ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، قَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، قَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ » فقال رجل : يا رسول اللَّه ففيم العمل ؟ قال رسول اللَّه ﷺ : « إِذَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ النَّارَ » (٤) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، قَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ ، قَالَ : رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ ؟ قَالَ : سِتِّينَ سَنَةً ، قَالَ : أَيْ رَبِّ قَدْ وَهَبْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، قَالَ : أَوَ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَوَ لَمْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٣٥/٣ .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٧/٣) والهندي في كنز العمال (٢٨٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٢/١) والهندي في كنز العمال (١٥١٢٤) والسيوطي في الدر المنثور (١٤٢/٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤/١) والترمذي في سننه (٣٠٧٥) وأبو داود في سننه (٤٦٩٣) .

تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ ؟ قَالَ : فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ » (١) .

فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميَّز بين أهل الجنّة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ، فما هو إلا في حديث ابن عباس ، وفي حديث عبد الله بن عمرو ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، كما تقدم ، وقد فسر الحسن الآية بذلك . قالوا : ولهذا قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ولم يقل من آدم ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل : من ظهره ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي جعل نسلهم جيلًا بعد جيل ، وقرنًا بعد قرن ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالًا وقالًا ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله : ﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ الآية ، وتارة تكون حالًا كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال ، كقوله : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا : أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، فإن قيل : إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده ، فالجواب ، إن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُولُوا۟ ﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا ﴾ أي التوحيد ﴿ غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا ﴾ الآية .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ .

قال عبد الله بن مسعود ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ الآية ، هو رجل من بني إسرائيل يقال له : بلعم بن باعوراء ، وعن ابن عبّاس هو صيفي بن الراهب . قال قتادة ، وقال كعب : كان رجلًا من أهل البلقاء ، وكان يعلم الاسم الأكبر ، وكان مقيمًا ببيت المقدس مع الجبارين ، وقال ابن عبّاس ﷺ : هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه آياته فتركها .

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف ، قال ابن عبّاس : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام ، وكان يعلم اسم الله الأكبر ، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف : كان مجاب الدعوة ، ولا يسأل الله شيئًا إلَّا أعطاه إيّاه ، وقال السدي : لما انقضت الأربعون سنة التي قال

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٧٦) والحاكم في المستدرك (٢/٣٢٥) .

اللّه : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ بعث يوشع بن نون نبيًا ، فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي ، وأن اللّه أمره أن يقاتل الجبارين ، فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام ، فكان عالمًا يعلم الاسم الأعظم المكتوم ، فكفر - لعنه اللّه - وأتى الجبارين ، وقال لهم : لا ترهبوا بني إسرائيل فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون ، وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمهم ، فكان ينكح أتانًا له ، وهو الذي قال اللّه تعالى : ﴿ فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه ، ولهذا قال : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي من الهالكين الحائرين البائرين .

عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن مما أتخوف عليكم رجلًا قرأ القرآنَ حتى إذا رُئِيَتْ بهجتُهُ عليه وكان رِدَاءهُ الإسلامُ اعتراه إلى ما شاءَ اللّه ، انسلخَ منهُ ونبذهُ وراء ظهرِهِ وسعى على جارِهِ بالسيفِ ورماه بالشركِ »(١)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها ﴿ وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعامًا اندلع لسانه على صدره ، فتشبيهه بالكلب في لهيثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر ، وقيل : معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء ، كالكلب في لهيثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقيل : معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى ، فهو كثير الوجيب ، فعبر عن هذا بهذا ، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يقول تعالى لنبيه محمّد ﷺ : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال اللّه إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة اللّه عليه في تعليمه الاسم الأعظم ، الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب في غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كليم اللّه موسى بن عمران عليه السلام ، ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله ، فإن اللّه قد أعطاهم علمًا وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمّد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد

(١) ذكره الطحاوي في مشكل الآثار (٣٧٤) .

أحل الله به ذلًا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة .

وقوله : ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ يقول تعالى : ساء مثلًا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلّا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهًا بالكلب ، وبئس المثل مثله ، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ مِنَّا مَثَلُ السُّوءِ ، العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ »(١) . وقوله : ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : من هداه الله فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود : « إِنَّ الحَمْدَ للّه نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّه مِنْ شرور أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِ اللَّه فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ »(٢) .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ أي هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق ، علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلْقَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ »(٣) .

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : دعي النبيّ ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال رسول الله ﷺ : « أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ ؟ إِنَّ اللَّه خَلَقَ الجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ ، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ »(٤) وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود : « ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّه إِلَيْهِ المَلَكَ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيُكْتَبُ رِزْقُهُ ، وَأَجَلُهُ ، وَعَمَلُهُ ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ »(٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢١٢٦) ومسلم في الهبات (٨) والترمذي في سننه (١٢٩٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/١) والترمذي في سننه (١١٠٥) والنسائي في سننه (٣٢٧٧) .

(٣) أخرجه مسلم في القدر (١٦) وأحمد في مسنده (١٦٩/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في القدر (٣١) .

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) وأحمد في مسنده (١٩٧/٥) .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببًا للهداية كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلَّا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلَّا صوته ، ولا تفقه ما يقول . ولهذا قال في هؤلاء : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ أي من الدواب ؛ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها وإن لم يفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ للَّه تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ » (١) وزاد الترمذي بعد قوله : « يُحِبُّ الوِتْرَ : هُوَ اللَّه الَّذِي لاَ إِلَه إِلَّا هُوَ ، الرَّحْمَنُ ، الرَّحِيمُ ، المَلِكُ ، القُدُّوسُ ، السَّلاَمُ ، المُؤْمِنُ ، المُهَيْمِنُ ، العَزِيزُ ، الجَبَّارُ ، المُتَكَبِّرُ ، الخَالِقُ ، البَارِئُ ، المُصَوِّرُ ، الغَفَّارُ ، القَهَّارُ ، الوَهَّابُ ، الرَّزَّاقُ ، الفَتَّاحُ ، العَلِيمُ ، القَابِضُ ، البَاسِطُ ، الرَّافِعُ ، المُعِزُّ ، المُذِلُّ ، السَّمِيعُ ، البَصِيرُ ، الحكَمُ ، العَدْلُ ، اللَّطِيفُ ، الخَبِيرُ ، الحَلِيمُ ، العَظِيمُ ، الغَفُورُ ، الشَّكُورُ ، الكَبِيرُ ، الحَفِيظُ ، المُقِيتُ ، الحَسِيبُ ، الجَلِيلُ ، الرَّقِيبُ ، المُجِيبُ ، الوَاسِعُ ، الحَكِيمُ ، الوَدُودُ ، المَجِيدُ ، البَاعِثُ ، الشَّهِيدُ ، الحَقُّ ، الوَكِيلُ ، القَوِيُّ ، المَتِينُ ، الوَلِيُّ ، الحَمِيدُ ، المُحْصِي ، المُبْدِئُ ، المُعِيدُ ، المُحْيِي ، المُمِيتُ ، الحَيُّ ، القَيُّومُ ، الوَاجِدُ ، المَاجِدُ ، الوَاحِدُ ، الأَحَدُ ، الفَرْدُ ، الصَّمَدُ ، القَادِرُ ، المُقْتَدِرُ ، المُقَدِّمُ ، المُؤَخِّرُ ، الأَوَّلُ ، الآخِرُ ، الظَّاهِرُ ، البَاطِنُ ، الوَالِي ، المُتَعَالِي ، البَرُّ ، التَّوَّابُ ، المُنْتَقِمُ ، العَفُوُّ ، الرَّؤُوفُ ، مَالِكُ المُلْكِ ، ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ، المُقْسِطُ ، الجَامِعُ ، الغَنِيُّ ، المُغْنِي ، المَانِعُ ، الضَّارُّ ، النَّافِعُ ، النُّورُ ، الهَادِي ، البَدِيعُ ، البَاقِي ، الوَارِثُ ، الرَّشِيدُ ، الصَّبُورُ » (٢) .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين ، بدليل ما روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حُزْنٌ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤١٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في سننه (٣٥٠٦) وأحمد في مسنده (٢/٢٥٨) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٠٧) .

الغَيْبِ عِنْدِكَ ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العِظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي ، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّه حُزْنَهُ وَهَمَّهُ ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَحًا » فقيل : يا رسول اللَّه أفلا نتعلمها ؟ فقال : « بَلْ يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا » (١) .

وقال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ قال : إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء اللَّه ، وقال مجاهد : اشتقوا اللات من اللَّه ، والعزى من العزيز . وقال قتادة : يلحدون : يشركون في أسمائه . وقال ابن عبّاس : الإلحاد : التكذيب ، وأصل الإلحاد في كلام العرب ، العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ أي بعض الأمم ﴿ أُمَّةٌ ﴾ قائمة بالحق قولًا وعملًا ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ يقولونه ويدعون إليه ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ يعملون ويقضون ، وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية . قال قتادة في تفسير هذه الآية : بلغني أن النبيّ ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية : « هَذِهِ لَكُمْ قَدْ أُعْطِيَ القَوْمُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِثْلَهَا ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ » (٢) وقال الربيع بن أنس ، في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا عَلَى الحَقِّ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَتَى مَا نَزَلَ » (٣) .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ومعناه : أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ، ويعتقدوا أنهم على شيء . قال تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي وسأملي لهم أي أطول لهم ما هم فيه ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي قوي سديد .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ يعني محمّدًا ﷺ ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي ليس به جنون ، بل هو رسول اللَّه حقًّا دعا إلى حق ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر لمن كان له لب قلب يعقل به ويعي به كما قال تعالى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ وقال قتادة بن دعامة : ذكر لنا أن نبي اللَّه ﷺ كان على الصفا فدعا قريشًا فجعل يفخذهم فخذًا فخذًا يا بني فلان يا بني فلان ، فحذرهم بأس اللَّه ووقائع اللَّه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٦/٧) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤٩/٣) وابن الجوزي في زاد المسير (٢٩٤/٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٧٠) وأحمد في مسنده (٢٨٨/٧) .

﴿ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك اللَّه وسلطانه في السموات والأرض وفيما خلق من شيء فيهما ، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له ، فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله ، وينيبوا إلى طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب اللَّه وأليم عقابه . وقوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول : فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمّد ﷺ وترهيبه ، الذي أتاهم به من عند اللَّه في آي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمّد من عند اللَّه ﷻ ؟ وقد روي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي كَذَا ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَنَظَرْتُ فَوْقِي فَإِذَا أَنَا بِرَعْدٍ وَبَرْقٍ وَصَوَاعِقَ ، وَأَتَيْتُ عَلَى قَوْمٍ بُطُونُهُمْ كَالبُيُوتِ ، فِيهَا الحَيَّاتُ تُرَى مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِم ، قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرِّبَا ، فَلَمَّا نَزَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَنَظَرْتُ إِلَى أَسْفَلَ مِنِّي فَإِذَا أَنَا بِرَهجٍ وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينُ يَحُومُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا يُفَكِّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوا العَجَائِبَ » (١) .

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئًا ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ قيل : نزلت في قريش ، وقيل : في نفر من اليهود ، والأول أشبه ؛ لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادًا لوقوعها ، وتكذيبًا بوجودها ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ قال ابن عبّاس : منتهاها أي متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى اللَّه تعالى ، فإنه هو الذي يجليها لوقتها ، أي يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، لا يعلم ذلك إلّا هو تعالى ، ولهذا قال : ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال قتادة : ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون ، قال الحسن : إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض ، يقول : كبرت عليهم ، وقال الضحاك عن ابن عبّاس : ليس شيء من الخلق إلّا يصيبه من ضرر يوم القيامة ، وقال ابن جريج : إذا جاء انشقت السماء وانتثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما

---

(١) أخرجه : أحمد في مسنده ٣٥٣/٢ ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧/٤) .

قال الله ﷻ فذلك ثقلها ، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض ، وقال قتادة ، في قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ : قضى الله أنها ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « إِنَّ السَّاعَةَ تَهِيجُ بِالنَّاسِ وَالرَّجُلُ يُصْلِحُ حَوْضَهُ ، وَالرَّجُلَ يَسْقِي مَاشِيَتَهُ ، وَالرَّجُلُ يُقِيمُ سِلْعَتَهُ فِي السُّوقِ وَيَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ » (١) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، فَذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُما فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لَقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا » (٢) .

وقوله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ اختلف المفسرون في معناه فقيل : معناه كما قال ابن عبّاس : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم ، قال ابن عبّاس : لما سأل الناس النبيّ ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمّدًا حفي بهم ، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكًا مقربًا ولا رسولًا ، وقال قتادة : قالت قريش لمحمّد ﷺ : إن بيننا وبينك قرابة فأسرَّ إلينا متى الساعة فقال الله ﷻ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ وقد روي من رواية ابن أبي نجيح وغيره ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ قال : استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها ، كذا قال الضحاك عن ابن عبّاس : كأنك عالم بها لست تعلمها ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ . وقال معمر عن بعضهم ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ كأنك عالم بها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كأنك بها عالم ، وقد أخفى الله علمها على خلقه وقرأ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ الآية ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد وسأله ﷺ عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم قال : فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ : « مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » أي لست أعلم بها منك ، ولا أحد أعلم بها من أحد ، ثم قرأ النبيّ ﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ الآية ، وفي رواية فسأله عن أشراط الساعة فبيَّن له أشراط الساعة ، ثم قال : « فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ » وقرأ هذه الآية ، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب : صدقت ، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ : « هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » وفي رواية قال : « وَمَا أَتَانِي فِي صُورَةٍ إِلَّا عَرَفْتُهُ فِيهَا إِلَّا صُورَتَهُ هَذِهِ » (٣) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة ، فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول : « إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩/١٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٥) ومسلم في الإيمان (٢٤٨) وأبو داود سننه (٤٣١٢) وابن ماجه في سننه (٤٠٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (٥) وأحمد في مسنده (٢/٤٢٦) .

سَاعَتُكُمْ » (١) يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة . وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم في حديث عائشة رضي الله عنها ، وعن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : « تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّه ، وَأُقْسِمُ باللَّه مَا عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ اليَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ » (٢) .

وعن حذيفة قال : سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي عز وجل لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا ، إِنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةً وَهَرجًا » قالوا : يا رسول الله الفتنة قد عرفناها فما الهرج ؟ قال : « بِلِسَانِ الحَبَشَةِ القَتْلُ » قال : « وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ ، فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا » (٣) وفي الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها (٤) ، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ قال مجاهد : لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملًا صالحًا ، وقال مثله ابن جريج وفيه نظر ؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفي رواية : كان إذا عمل عملًا أثبته (٥) . فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك ، والله أعلم . والأحسن في هذا ما رواه ابن عباس ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ أي من المال ، وفي رواية : لعلمت إذا اشتريت شيئًا ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئًا إلا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر ، وقال ابن جرير ، وقال آخرون : معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص ، فاستعددت له من الرخص . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ قال : لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته ، ثم أخبر أنه هو نذير وبشير ، أي نذير من العذاب ، وبشير للمؤمنين بالجنات .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن(١٣٦) وأحمد في مسنده(٢١٣/٣) والهندي في كنز العمال(٣٩٥٧٠) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة(٢١٨) وأحمد في مسنده(٣٢٦/٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور(١٥٠/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٣٨٩/٥) والهندي في كنز العمال(٣٨٥٤٤) والهيثمي في مجمع الزوائد(٣٢٩/٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق(٦٥٠٣) ومسلم في الفتن(١٣٥) وأحمد في مسنده(١٢٤/٣) والترمذي في سننه(٢٢١٤) .

(٥) أخرجه : مسلم في صلاة المسافرين(١٤١) .

فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، وأنه خلق منه زوجته حواء ، ثم انتشر الناس منهما ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أي ليألفها ويسكن بها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ أي وطئها ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألمًا ، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة وقوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ قال مجاهد : استمرت بحمله ، وقال ميمون بن مهران عن أبيه : استخفته ، وقال أيوب : سألت الحسن عن قوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ قال : لو كنت رجلًا عربيًّا لعرفت ما هي ، إنما هي فاستمرت به ، وقال قتادة : استبان حملها ، وقال ابن جرير : معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت ، وقال ابن عبّاس : استمرت به فشكت أحملت أم لا ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها ، وقال السدي : كبر الولد في بطنها ﴿ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ أي بشرًا سويًّا كما قال ابن عبّاس : أشفقا أن يكون بهيمة ، وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك : أشفقا أن لا يكون إنسانًا ، وقال الحسن البصري : لئن آتيتنا غلامًا ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ذكر المفسرون ههنا آثارًا وأحاديث منها :

عن سمرة عن النبيّ ﷺ قال : « لَمَّا وُلِدَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ ، وَكَانَ لاَ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ ، فَقَالَ : سَمِّيهِ عَبْدَ الحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ . فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الحَارِثِ فَعَاشَ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ » (١) .

فأما الآثار : فعن ابن عبّاس قال : كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادًا فيعبِّدهم لله ، ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس فقال : إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش ، قال : فولدت له رجلًا فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله يقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ إلى آخر الآية ، وقال ابن عبّاس : قوله في آدم ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ شكت أحملت أم لا ؟ ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فأتاهما الشيطان فقال : هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل إنه غوي مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًّا ، ومات كما مات الأول ، فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ الآية .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١١) والحكم في المستدرك ٥٤٥/٢ .

وهذا الأثر يظهر عليه والله أعلم أنه من آثار أهل الكتاب ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلاَ تُصَدِّقُوهُم وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ » [(١)] ثم إخبارهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضًا ، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه الصلاة والسلام : «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ » [(٢)] وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله «فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ » وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر ، فأما من به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله : ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثم قال : فذكر آدم وحواء أولًا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾ الآية ، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ، ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهي مخلوقة لله ، مربوبة مصنوعة لا تملك شيئًا من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر ، وعابدوها أكمل منهم بسمعهم وبصرهم وبطشهم ، ولهذا قال : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ الآية ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أي لعابديهم ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء ، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبًا للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتئوا لأنفسهم ، فكان لعمرو بن الجموح

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٦/٤) والحاكم في المستدرك (٣٥٨/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٩/٢) وأبو داود في سننه (٣٦٦٢) والترمذي في سننه (٢٦٦٩) .

وكان سيدًا في قومه صنم يعبده ويطيبه ، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة ، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيّبه ويضع عنده سيفًا ويقول له انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضًا ، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه في حبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال :

تَاللَّه لَوْ كُنْتَ إِلهًا مُسْتَدن لَمْ تَكُ وَالكَلْبِ جَمِيعًا فِي قَرن

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أُحد شهيدًا رضي الله وأرضاه .

وقوله : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ الآية ، يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها ، كما قال إبراهيم : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها ، أي مخلوقات مثلهم ، بل الإناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش ، وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك . وقوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ الآية ، أي استنصروا بها عليَّ ، فلا تؤخروني طرفة عين ، واجهدوا جهدكم ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي الله حسبي وكافيني ، وهو نصيري وعليه متكلي ، وإليه ألجأ وهو وليي في الدنيا والآخرة ، وهو ولي كل صالح بعدي .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ إلى آخر الآية مؤكدًا لما تقدم إلَّا أنه بصيغة الخطاب وذاك بصيغة الغيبة ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ إنما قال : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد ، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل ؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ فعبر عنها بضمير من يعقل ، وقال السدي : المراد بهذا المشركون ، وروي عن مجاهد نحوه ، والأول أولى وهو اختيار ابن جرير وقاله قتادة .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس : قوله : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم ، وما أتوك به من شيء فخذه ، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات ، قاله السدي . وقال ابن عبّاس : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أنفق الفضل ، وقال : الفضل ، وقال الفضل بن زيد بن أسلم : أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ، ثم أمره بالغلظة عليهم ، واختار هذا القول ابن جرير ، وقال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قال : من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس ، وقال عروة : أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس ، وفي رواية قال : خذ ما عفا لك من أخلاقهم ، وعن عبد الله بن الزبير قال : إنما أنزل ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ من أخلاق الناس ، وعن أبي الزبير قال : من أخلاق الناس والله لآخذنه منهم ما صحبتهم ، وهذا أشهر الأقوال ويشهد له ما روي أبي قال : لما أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ » ؟ قَالَ : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ،

وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك . وعن عقبة بن عامر ﷺ قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله ، أخبرني بفواضل الأعمال فقال : «يَا عُقْبَةُ ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » (١) .

قوله ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ العرف : المعروف . وعن ابن عبّاس ﷺ قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه ، قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عبّاس : استأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ! فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به ، فقال له الحرّ : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافًا عند كتاب الله ﷻ (٢) .

وقال بعض العلماء : الناس رجلان ، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه ، وإما مسيء فمره بالمعروف ، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي هذه الوصية ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وقال في هذه السورة الكريمة أيضًا : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن ، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ؛ ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان ؛ فإنه لا يكفه عنك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ؛ فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك ، قال ابن جرير في تفسير قوله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ يقول فاستجر بالله من نزغه ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه ، لا يخفى عليه منه شيء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمر خلقه .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما نزلت ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قال : يا رب كيف بالغضب ؟ ، فأنزل الله ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ قلت : وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبيّ ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع (٣) غضبًا ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .
(٢) يتمزع : أي ينقطع ويتشقق .
(٣) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٢) .

يَجِدُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم » فقيل له ؟ فقال : ما بي من جنون [١] . وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ والعياذ الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما الملاذ ففي طلب الخير .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أي أصابهم طيف ، وقرأ الآخرون ﴿ طائف ﴾ وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان [٢] ، فقيل : بمعنى واحد ، وقيل : بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسّر مس الشيطان بالصرع ونحوه ، ومنهم من فسّره بالهمّ بالذنب ، ومنهم من فسّره بإصابة الذنب . وقوله : ﴿ تَذَكَّرُوا۟ ﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . عن أبي هريرة ﷺ قال : جاءت امرأة إلى النبيّ ﷺ وبها طيف ، فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يشفيني فقال : « إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّه فَشَفَاكِ ، وَإِنْ شِئْتِ فَاصْبِرِي وَلاَ حِسَابَ عَلَيْكِ » فقالت : بل أصبر ولا حساب عليّ . ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت : يا رسول الله إني أصرع وأتكشف فادع الله أن يشفيني ، فقال : « إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّه أَنْ يَشْفِيَكِ ، وَإِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ » فقالت : بل أصبر ولي الجنة ، ولكن ادع الله أن لا أتكشف ، فدعا لها ، فكانت لا تتكشف [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ ﴾ أي وإخوان الشياطين من الإنس كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ ﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾ أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم ، وقال ابن كثير : المدّ الزيادة ، يعني يزيدونهم في الغي ، يعني الجهل والسفه ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ قيل : معناه إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك ، كما قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ الآية ، قال : لا الإنس يقصرون عما يعملون ، ولا الشياطين تمسك عنهم . وقال : هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يقصرون ، يقول : لا يسأمون ، وكذا قال السدي وغيره : إنّ الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر ؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ لا تفتر فيه ولا تبطل عنه كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧٨٠) والحاكم في المستدرك (٤٤١/٢) والطبراني في الكبير (١١٦/٧) .
(٢) قرأ البصريان وابن كثير والكسائي (طيف) بياء ساكنة من غير ألف والباقون بألف : (النشر في القراءات العشر ص ١١٧) .
(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٥٢) ومسلم في البر والصلة (٥٤) وأحمد في مسنده (٣٤٧/١) .

قال ابن عبّاس : في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ يقول : لولا تلقيتها ، وقال مرة أخرى : لولا أحدثتها فأنشأتها ، وقال مجاهد : لولا اقتضيتها ، قالوا : تخرجها عن نفسك ، وكذا قال قتادة والسدي ، واختاره ابن جرير وقال ابن عبّاس : ﴿ لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ يقول : تلقيتها من اللّٰه تعالى ، وقال الضحاك : لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ ﴾ أي معجزة وخارق : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليّ ، فإن بعث آية قبلتها ، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلّا أن يأذن لي في ذلك ، فإنه حكيم عليم ، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال : ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا ، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ الآية ، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة ، كما روي من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا ، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا »[(١)] ، وعن أبي هريرة قال : كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ والآية الأخرى أمروا بالإنصات ، وعن المسيب بن رافع قال ابن مسعود : كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فجاء القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وعن بشير بن جابر قال : صلى ابن مسعود فسمع ناسًا يقرأون مع الإمام ، فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا أما آن لكم أن تعقلوا ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ كما أمركم اللّٰه ؟[(٢)] وقد روي عن أبي هريرة أن رسول اللّٰه ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : « هَلْ قَرَأَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعِي آنِفًا ؟ » قال رجل : نعم يا رسول اللّٰه ، قال : « إِنِّي أَقُولُ مَا لِي أُنَازَعُ الْقُرْآنَ » قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول اللّٰه ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول اللّٰه ﷺ[(٣)] . وقال الزهري : لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته ، ولكنهم يقرأون فيما لا يجهر به سرًا في أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرًا ولا علانية ، فإن اللّٰه تعالى قال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قلت : هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولي الشافعية وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة . وقال في الجديد : يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام ، وهو قول

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٧٨) ومسلم في الصلاة (٨٢) وأحمد في مسنده (٥١/٦) وأبو داود في سننه (٦٠٥) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٢١٦/٩ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦٣٥/٣ .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٧/٢) وأبو داود في سننه (٨٢٦) والترمذي في سننه (٣١٢) .

طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : لا يجب على المأموم قراءة أصلًا في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث : « مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَتُهُ قِرَاءَةٌ لَهُ » (١) . وقال ابن عبّاس قوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ يعني في الصلاة المفروضة ، وعن طلحة ابن عبيد الله بن كريز قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان والقاصّ يقصّ ، فقلت : ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود ؟ قال : فنظرا إليّ ثم أقبلا على حديثهما ، قال : فأعدت فنظرا إليّ وأقبلا على حديثهما ، قال : فأعدت الثالثة قال : فنظرا إليّ فقالا : إنما ذلك في الصلاة ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ . وعن مجاهد قال : في الصلاة ، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّه ؛ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ ، وَمَنْ تَلاَهَا ؛ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ .

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرًا ، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء وهذه الآية مكية ، وقال : ههنا بالغدو وهو أول النهار ، والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين ، وأما قوله : ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهرًا ولهذا قال : ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرًا بليغًا ، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله ﷻ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ .

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبيّ ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ » (٣) وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبّوه وسبّوا من أنزله وسبّوا من جاء به ، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلًا بين الجهر والإسرار ، وكذا قال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ وقد زعم ابن جرير وقبله عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها ، أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة وهذا بعيد منافٍ للإنصات المأمور به ، ثم إن المراد بذلك في الصلاة كما تقدم ، أو في الصلاة والخطبة ، ومعلوم أن للإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان ، سواء كان سرًّا أو جهرًا ، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ؛ لئلا يكونوا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٩/٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤١/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١٠) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٤٤) وأبو داود في سننه (١٥٢٨) .

من الغافلين ، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبّحون الليل والنهار لا يفترون فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ الآية ، وإنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله ﷻ كما جاء في الحديث : «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ ، الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ »[1] وهذا أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع .

(١)أخرجه مسلم في الصلاة (١١٩)وأحمد في مسنده (١٠١/٥)وابن ماجه في سننه (٩٩٢).

سورة الأنفال

وهي مدنية ، آياتها سبعون وست آيات ، كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة ، حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفًا ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

قال البخاري : قال ابن عبّاس : الأنفال المغانم [١] . وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عبّاس رضي الله عنهما : سورة الأنفال ، قال : نزلت في بدر [٢] . وعن ابن عبّاس أيضًا أنه قال : الأنفال الغنائم ، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء .

وقال ابن عبّاس : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا سئل عن شيء قال : لا آمرك ولا أنهاك ، ثم قال ابن عبّاس : والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلّا زاجرًا آمرًا ، محللًا محرمًا . قال القاسم : فسلط على ابن عبّاس رجل فسأله عن الأنفال فقال ابن عبّاس : كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه ، فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك ، ثم عاد عليه حتى أغضبه ، فقال ابن عبّاس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه أو على رجليه ، فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك .

وقال مجاهد : إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ وقال ابن مسعود ومسروق : لا نفل يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف ، وقال ابن المبارك وغير واحد : يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع ، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء ، وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير : وقال آخرون : هي أنفال السرايا ، وعن علي بن صالح بن حي قال : بلغني في قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ قال : السرايا ، ومعنى هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش . وهو ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير ، قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبيّ ﷺ فقال : « اذْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي القَبْضِ » قال : فرجعت وبي ما لا يعلمه إلّا الله من قتل أخي وأخذ سلبي ، قال : فما جاوزت إلّا يسيرًا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله ﷺ : « اذْهَبْ فَخُذْ سَلَبَكَ » [٣] .

وعن سعد بن مالك قال : قلت : يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف ، فقال : « إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لاَ لَكَ وَلاَ لِي ، ضَعْهُ » قال : فوضعته ثم رجعت فقلت : عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلي بلائي ، قال : فإذا رجل يدعوني من ورائي ، قال : قلت : قد أنزل الله

---

(١) أخرجه : البخاري في التفسير (سورة الأنفال باب ١) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٤٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٨٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/١٥٨) .

فيّ شيئًا ؟ قال : كنت سألتني السيف وليس هو لي ، وإنه قد وهب لي فهو لك ، قال : وأنزل الله هذه الآية ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (١) . وعن سعد قال : نزلت فيَّ أربع آيات ، أصبت سيفًا يوم بدر فأتيت النبيّ ﷺ فقلت : نفلنيه ، فقال : « ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ » مرتين ، ثم عاودته فقال النبيّ ﷺ : « ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ » فنزلت هذه الآية (٢) ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ الآية ، وتمام الحديث في نزول ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ﴾ وآية الوصية .

سبب آخر في نزول الآية : عن أبي أمامة قال : سألت عبادة عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء ، يقول : عن سواء (٣) . وعن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق منه منا ، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع ، فإذا أقبل راجعًا نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال (٤) . وعن ابن عبّاس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صَنَعَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا » فسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءًا لكم لو انكشفتم لفئتم إلينا ، فتنازعوا فأنزل الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رحمه الله : في كتاب الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها . أما الأنفال : فهي المغانم وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب ، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ ، يقول الله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى ، قلت : هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس سواء ، وبه قال مجاهد وعكرمه والسدي . وقال ابن زيد : ليست منسوخة بل هي محكمة ، قال أبو عبيد : وفي ذلك آثار ، وأنفال أصلها جماع الغنائم إلّا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنّة ، ومعنى الأنفال في كلام العرب : كل إحسان فعله فاعل تفضلًا من غير أن يجب

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/١) وأبو داود في سننه (٢٧٤٠) والحاكم في المستدرك (١٣٢/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد (٣٤) وأحمد في مسنده (١٨٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٩١/٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/٥) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٥) .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٣٧) .

ذلك عليه ، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم ، وإنما هو شيء خصهم الله به تطوّلًا منه عليهم ، بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم فنفلها الله تعالى هذه الأمة ، فهذا أصل النفل . قلت : شاهد هذا ما روي عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي » فذكر الحديث إلى أن قال : « وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي » (١) ، ثم قال أبو عبيد : ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلًا ، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم ، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو ، وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى :

فإحداهن : في النفل لا خمس فيه وذلك السلب .

والثانية : النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس ، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب فتأتي الغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس .

والثالثة : في النفل من الخمس نفسه ، وهو أن تحاز الغنيمة كلها ثم تخمس ، فإذا صار الخمس في يدي الإمام نفل منه على قدر ما يرى .

والرابعة : في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء ، وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها . وفي كل ذلك اختلاف .

قال الربيع : قال الشافعي : الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب . قال أبو عبيد : والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم ، وذلك من خمس النبيّ ﷺ ، فإن له خمس الخمس من كل غنيمة ، فينبغي للإمام أن يجتهد ، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم وقل من بإزائه من المسلمين ، نفل منه اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل ، والوجه الثالث من النفل إذا بعث الإمام سرية أو جيشًا فقال لهم قبل اللقاء : من غنم شيئًا فهو له بعد الخمس ، فهو لهم على ما شرط الإمام ؛ لأنهم على ذلك غزوا وبه رضوا ، انتهى كلامه (٢) . وفيما تقدم من كلامه وهو قوله : إن غنائم بدر لم تخمس نظر ، ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي ، اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي في قسمه بينكم على ما أراده الله ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي لا تستبو ؛ ولنذكر ههنا حديثًا عن أنس ﷺ قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ فقال : « رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَالَ أَحَدُهُمَا : يَا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ ،

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) .
(٢) الأموال ص ٣١٩ - ٣٣٩ .

قَالَ : يَا رَبِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ ، قَالَ : رَبِّ فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي » قال : ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال : « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى مَنْ يَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ : ارْفَعْ بَصَرَكَ وَانْظُرْ فِي الجِنَانِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : يَا رَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ ، لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا ؟ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا ؟ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا لِمَنْ أَعْطَى ثَمَنَهُ ، قَالَ : رَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ثَمَنَهُ ؟ قَالَ : أَنْتَ تَمْلِكُهُ ، قَالَ : مَاذَا يَا رَبِّ ؟ قَالَ : تَعْفُو عَنْ أَخِيكَ ، قَالَ : يَا رَبِّ فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَادْخُلَا الجَنَّةَ » ثم قال رسول الله ﷺ : « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُصْلِحُ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عن أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ يقول : زادتهم تصديقًا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يقول : لا يرجون غيره . وقال مجاهد : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فرقت أي فزعت وخافت .

وقوله : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ كقوله : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة ، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد ، كما بينّا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري ولله الحمد والمنة . ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلّا إياه ، ولا يلوذون إلّا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلّا منه ، ولا يرغبون إلّا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك ، وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ينبّه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم ، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى ، وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها ، وقال مقاتل بن حيان : إقامتها المحافظة على مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها ، وتمام ركوعها وسجودها ، وتلاوة القرآن فيها ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٧٦/٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٠٩/٣) .

والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها . والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب . والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه . قال قتادة في قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ : فأنفقوا مما رزقكم الله فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها .

وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان ، وعن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ ؟ » قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا ، قال : « انْظُرْ مَا تَقُولُ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟ » فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال : « يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ » ثلاثًا [1] . وقال عمرو بن مروة : في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيد حقًّا وفي القوم سادة ، وفلان تاجر حقًّا .

وقوله : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنّات كما قال تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات . وقال الضحاك في قوله : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ : أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد ، ولهذا جاء أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ » قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم ؟ . فقال : « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ » [2] وفي الحديث الآخر عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا » [3] .

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

قال الإمام أبو جعفر الطبري : اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ فقال بعضهم : شبه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله ، ثم روي عن عكرمه نحو هذا ، ومعنى هذا أن الله تعالى يقول : كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها ، فانتزعها الله منكم ، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ﷺ ، فقسمها على العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم ، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز غيرهم ، فكان عاقبة

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٠٢/٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٣/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم في الجنة (١١) .

كراهتكم للقتال بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشدًا وهدى ، ونصرًا وفتحًا . قال ابن جرير ، وقال آخرون : معنى ذلك ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ على كره من فريق من المؤمنين ، كذلك هم كارهون للقتال ، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم . ثم روي عن مجاهد نحوه أنه قال : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ قال : كذلك يجادلونك في الحق ، وقال السدي : أنزل اللَّه في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ لطلب المشركين ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ وقال بعضهم : يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا : أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالًا فنستعد له .

قلت : رسول اللَّه ﷺ إنما خرج من المدينة طالبًا لعير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش ، فاستنهض رسول اللَّه ﷺ المسلمين من خف منهم ، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر ، وعلم أبو سفيان بخروج رسول اللَّه ﷺ في طلبه فبعث ضمضم بن عمرو نذيرًا إلى أهل مكة فنهضوا في قريب من ألف مقنع ، ما بين التسعمائة إلى الألف ، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا ، وجاء النفير فوردوا ماء بدر ، وجمع اللَّه بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد اللَّه تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم ، والتفرقة بين الحق والباطل كما سيأتي بيانه ، والغرض أن رسول اللَّه ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى اللَّه إليه يعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير ، ورغب كثير من المسلمين إلى العير ؛ لأنه كسب بلا قتال كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وعن أسلم أبي عمران أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول : قال رسول اللَّه ﷺ ونحن بالمدينة : « إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نَخْرُجَ قِبَلَ هَذِهِ العِيرِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُغْنِمَنَاهَا ؟ » فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يومًا أو يومين قال لنا : « مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ القَوْمِ فَإِنَّهُم قَدْ أُخْبِرُوا بِخُرُوجِكُمْ ؟ » فقلنا : لا واللَّه ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكنا أردنا العير ، ثم قال : « مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ القَوْمِ ؟ » فقلنا : مثل ذلك ، فقال المقداد بن عمرو : إذًا لا نقول لك يا رسول اللَّه كما قال قوم موسى لموسى ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ قال : فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم ، قال : فأنزل اللَّه على رسوله ﷺ ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [1] وذكر تمام الحديث .

وقال ابن عبّاس : لما شاور النبيّ ﷺ في لقاء العدو ، وقال له سعد بن عبادة ما قال وذلك يوم بدر ، أمر الناس أن يتهيأوا للقتال ، وأمرهم بالشوكة ، فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل اللَّه ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ وقال مجاهد : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ ﴾ في القتال ، وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ ﴾ أي كراهية للقاء المشركين ، وإنكارًا لمسير قريش حين ذكروا لهم ، وقال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٩/١)

السدي : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ أي بعدما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به . قال ابن جرير : وقال آخرون : عني بذلك المشركين ، قال ابن زيد : في قوله تعالى : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ قال : هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام وهم ينظرون . قال : وليس هذا من صفة الآخرين ، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير : ولا معنى لما قاله ؛ لأن الذي قبل قوله : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ ﴾ خبر عن أهل الإيمان ، والذي يتلوه خبر عنهم . والصواب قول ابن عبّاس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام ؛ والله أعلم . عن ابن عبّاس قال : قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شيء ، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه : إنه لا يصلح لك ، قال : « ولم ؟ » قال : لأن الله ﷻ إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك [1] .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهي العير ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالبًا على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم .

﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

عن عمر بن الخطاب ؓ قال : لما كان يوم بدر نظر النبيّ ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبيّ ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ أَبَدًا » قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ فلما كان يومئذٍ التقوا ، فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلًا وأسر منهم سبعون رجلًا ، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدًا . فقال رسول الله ﷺ : « مَا تَرَى يَا ابْنَ الخَطَّابِ ؟ » قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٨٠) والطبراني في المعجم الكبير (٤/٢٠٩) .

منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبيّ ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان فقلت : يا رسول الله ما يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، قال النبيّ ﷺ : « لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الفِدَاءَ ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ » - لشجرة قريبة من النبيّ ﷺ . وأنزل الله ﷻ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فأحل لهم الغنائم . فلما كان يوم أُحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب النبيّ ﷺ عن النبيّ ﷺ ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم من وجهه ، فأنزل الله ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بأخذكم الفداء [١] .

قال البخاري في كتاب المغازي : باب قول الله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ عن طارق بن شهاب قال : سمعت ابن مسعود يقول : شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به ، أتى النبيّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبيّ ﷺ أشرق وجهه وسره - يعني قوله [٢] . وعن ابن عبّاس قال : قال النبيّ ﷺ يوم بدر : « اللّٰهُمَّ أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللّٰهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أي يردف بعضهم بعضًا كما قال ابن عبّاس : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ متتابعين ويحتمل أن المراد ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ لكم أي نجدة لكم كما قال ابن عبّاس : المدد ، كما تقول أنت للرجل : زده كذا وكذا ، وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارئ وابن زيد ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ ممدين ، وقال ابن عبّاس : ﴿ مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ قال : وراء كل ملك ملك . وفي رواية بهذا الإسناد ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض . عن علي ﷺ قال : نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبيّ ﷺ وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبيّ ﷺ وأنا في الميسرة [٤] . وهذا يقتضي إن صح إسناده أن الألف مردفة بمثلها ؛ ولهذا قرأ بعضهم ﴿ مردفين ﴾ بفتح الدال [٥] والله أعلم .

والمشهور ما رواه ابن عبّاس قال : وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة ، وروي ابن عبّاس قال : بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا ، قال : فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٥٨) وأحمد في مسنده (٣٠/١ ، ٣٢) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٢) . (٣) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٣) .
(٤) ذكره ابن جرير في تفسير ٢٥٥/٩ .
(٥) قرأ المدنيان ويعقوب (مردفين) بفتح الدال والباقون بكسرها (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٨) .

وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع ، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة » ، فقتلوا يومئذٍ سبعين وأسروا سبعين (١) . عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبيّ ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ » أو كلمة نحوها قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة (٢) . وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة : « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ الآية . أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي بدون ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها ، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعاد الأولى بالدبور ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل ، ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان ، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه ، وإنما غسلوه بالماء قذفًا من بعيد ، ورجموه حتى دفنوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته ﷻ .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم ، أمانًا أمّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أُحد كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ الآية ، قال أبو طلحة :

---

(١) أخرجه : مسلم في الجهاد (٥٨) والبغوي في شرح السنة ٣٨١/١٣ .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٩٢) وابن ماجه في سننه (١٦٠) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٨٣) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) .

كنت ممن أصابه النعاس يوم أُحد ، ولقد سقط السيف من يدي مرارًا يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه ، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحجف . وعن علي ﷺ قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلَّا نائم ، إلَّا رسول اللَّه ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح . وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ أنه قال : النعاس في القتال أمنة من اللَّه ، وفي الصلاة من الشيطان . وقال قتادة : النعاس في الرأس ، والنوم في القلب ، قلت : أما النعاس فقد أصابهم يوم أُحُد وأمر ذلك مشهور جدًّا ، وأما الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر ، وهي دالة على وقوع ذلك أيضًا وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر اللَّه ، وهذا من فضل اللَّه ورحمته بهم ونعمته علهم وكما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ولهذا جاء في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصدِّيق ﷺ وهما يدعوان ، أخذت رسول اللَّه ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبسمًا فقال : « أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ » ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ قال ابن عبّاس : نزل النبيّ ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ ، يوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء اللَّه تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين ، فأمطر اللَّه عليهم مطرًا شديدًا فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب اللَّه عنهم رجس الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم ، وأمد اللَّه نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة (٢) .

والمعروف أن رسول اللَّه ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك ، أي أول ماء وجده ، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال : يا رسول اللَّه هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك اللَّه إياه فليس لنا أن نجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : « بَلْ مَنْزِلٌ نَزَلْتُهُ لِلْحَرْبِ وَالمَكِيدَةِ » فقال يا رسول اللَّه إن هذا ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ، ونغور ما وراءه من القلب ، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء ، فسار رسول اللَّه ﷺ ففعل كذلك ، وفي مغازي الأموي أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول اللَّه ﷺ فقال ذلك الملك : يا محمّد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : إن الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر ، فالتفت رسول اللَّه ﷺ إلى جبريل عليه السلام فقال : « هَلْ تَعْرِفُ هَذَا ؟ » فنظر إليه فقال : ما كل الملائكة أعرفهم وإنه ملك وليس بشيطان . وأحسن ما في هذا ما رواه يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال : بعث اللَّه السماء وكان الوادي دهسًا ، فأصاب رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه ، وقال مجاهد : أنزل

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٣) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٥٨) .

الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم ، وثبتت به أقدامهم ، وقال علي ﷺ : أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجرة والحجف نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله ﷺ وحرض على القتال [١]

وقوله : ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيئ ، وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى في حق أهل الجنة : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أي مطهرًا لما كان من غل أو حسد أو تباغض ، وهو زينة الباطن وطهارته ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ وهو شجاعة الظاهر ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ ﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها ، وهو أنه تعالى وتقدّس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين ، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا . قال ابن إسحاق : وازروهم ، وقال غيره : قاتلوا معهم ، وقيل : كثروا سوادهم ، وقيل : كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبيّ ﷺ فيقول : سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لنكشفن ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك فتقوى أنفسهم [٢] . وقوله : ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ أي ثبتوا أنتم المؤمنين ، وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك ، سألقى الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أي اضربوا الهام ففلقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم ، وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ فقيل : معناه اضربوا الرؤوس ، قاله عكرمة ، وقيل : معناه أي على الأعناق وهي الرقاب ، قاله الضحاك وعطية العوفي ، ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام [٣] ، قلت : وفي مغازي الأموي أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول : « يَفْلُقُ هَامًا » فيقول أبو بكر :

مِـنْ رِجَـالٍ أَعِـزَّة عَـلَـيْنَا وَهُـمْ كَـانُـوا أَعَـقَّ وَأَظْـلَـمَـا

فيبتدئ رسول الله ﷺ بأول البيت ويستطعم أبا بكر ﷺ إنشاد آخره ؛ لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٥٨) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٦١) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٦٢) .

وقوله : ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال ابن جرير : معناه : واضربوا عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم ، والبنان جمع بنانة .

وقال ابن عبّاس : ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ يعني بالبنان الأطراف ، وكذا قال الضحاك وابن جرير . وقال السدي : البنان الأطراف ، ويقال : كل مفصل . وقال الأوزاعي : اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار ، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك . وقال ابن عبّاس فذكر قصة بدر إلى أن قال : فقال أبو جهل : لا تقتلوهم قتلًا ولكن خذوهم أخذًا حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم ورغبتهم عن اللات والعزى ، فأوحى الله إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الآية . فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلًا ، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبرًا فوفى ذلك سبعين يعني قتيلًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي خالفوهما فساروا في شق وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق ، ومأخوذ أيضًا من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه ، لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء ، تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ هذا خطاب للكفار أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا ، واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ أي تفروا وتتركوا أصحابكم ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ، ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أي فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه فيجوز له ذلك ، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ثم بتنا ، ثم قلنا : وعرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلّا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « مَنِ القَوْمُ ؟» فقلنا : نحن الفرارون ، فقال : « لاَ بَلْ أَنْتُمُ العَكَّارُونَ أَنَا فِئَتُكُمْ وَأَنَا فِئَةُ المُسْلِمِينَ » قال : فأتيناه حتى قبّلنا يده [1]

قال أهل العلم : معنى قوله : « العَكَّارُونَ » أي : العرافون ، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من المجوس فقال عمر : لو تحيز إلي لكنت له فئة ، وعن نافع أنه سأل ابن عمر قلت : إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ، ولا ندري من الفئة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٧٠) وأبو داود في سننه (٢٦٤٧) .

أمامنا أو عسكرنا ، فقال : إن الفئة رسول الله ﷺ فقلت : إن الله يقول : ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا ﴾ الآية ، فقال : إنما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها ، وقال الضحاك في قوله : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ المتحيز الفار إلى النبي وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه ، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر..

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشِّرْكُ باللهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيم ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحصَنَاتِ الغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ » (١) وله شواهد من وجوه أخر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدْ بَآءَ ﴾ أي رجع ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ ﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حرامًا على الصحابة ؛ لأنه كان فرض عين عليهم ، وقيل : على الأنصار خاصة ؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره . وقيل : المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة ، ويروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عبّاس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ونافع والحسن البصري وغيرهم ، وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيؤون إليها إلّا عصابتهم تلك ، كما قال النبيّ ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ لاَ تُعْبَدْ في الأَرْضِ » (٢) ولهذا قال عبد الله بن المبارك بن فضالة عن الحسن في قوله : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾ قال : ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه فلا بأس عليه ، وقال ابن المبارك أيضًا عن ابن لهيعة : حدَّثني يزيد بن أبي حبيب قال : أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ... ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

يبيّن تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير ؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ الآية ، ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضًا في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال : « شَاهَتِ الوُجُوهُ » (٣) ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا ، فأوصل

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) وأبو داود في سننه (٢٨٧٤) .
(٢) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٨١) .
(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٨١) وأحمد في مسنده ٣٦٨/١٥ .

اللّٰه تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلّا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت . قال ابن عبّاس : رفع رسول اللّٰه ﷺ يديه - يعني يوم بدر - فقال : « يَا رَبِّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الأَرْضِ أَبَدًا » فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلّا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين (١) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا يوم بدر أخذ رسول اللّٰه ﷺ ثلاث حصبات فرمى بحصبات ميمنة القوم ، وحصبات في ميسرة القوم ، وحصبات بين أظهرهم وقال : « شَاهَتِ الوجُوهُ » فانهزموا ، وقد روي في هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبيّ ﷺ يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضًا .

وعن عروة بن الزبير في قوله : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب . وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنهم كل مالهم في تبار ودمار ولله الحمد والمنة .

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى للكفار : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ ﴾ أي تستنصروا وتستقضوا اللّٰه وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم . عن عبد اللّٰه بن ثعلبة بن صعير : إن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فاحنه الغداة . وكان ذلك استفتاحًا منه فنزلت ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ إلى آخر الآية ، وقال السدي : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا اللّٰه وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين ، فقال اللّٰه ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ يقول : قد نصرت ما قلتم وهو محمّد ﷺ . وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : هو قوله تعالى إخبارًا عنهم ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ ﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر باللّٰه والتكذيب لرسوله ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة . وقال السدي : ﴿ وَإِن تَعُودُواْ ﴾ أي إلى الاستفتاح ﴿ نَعُدْ ﴾ أي إلى الفتح لمحمّد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه ، والأول أقوى

(١) أخرجه : البيهقي في دلائل النبوة ٧٩/٣ .

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أي تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قيل : المراد المشركون ، واختاره ابن جرير ، وقال ابن إسحاق : هم المنافقون ؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك ، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة ، فقال : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ ﴾ أي عن سماع الحق ﴿ الْبُكْمُ ﴾ عن فهمه ؛ ولهذا قال : ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فهؤلاء شر البرية ؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ الآية ، وقيل : المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش [1] روي عن ابن عبّاس ومجاهد واختاره ابن جرير . وقال محمّد بن إسحاق : هم المنافقون ، قلت : ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا ؛ لأن كلًّا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح ، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهمًا فقال : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام ﴿ و ﴾ لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أي أفهمهم ﴿ لَتَوَلَّوا ﴾ عن ذلك قصدًا وعنادًا بعد فهمهم ذلك ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عنه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

قال البخاري : ﴿ اسْتَجِيبُوا ﴾ أجيبوا ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لما يصلحكم [2] . وعن خبيب بن عبد الرّحمن قال : سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبي سعد بن المعلى ﷺ قال : كنت أصلي فمر بي النبيّ ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيني ؟ أَلَمْ يَقُلِ اللَّه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ - ثم قال - لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ في القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له . وقال معاذ : عن خبيب بن عبد الرّحمن سمع حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلًا من أصحاب النبيّ ﷺ بهذا وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني [3] . وقال مجاهد : في قوله : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ قال : للحق ، وقال قتادة : هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة ، وقال السدي : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ففي

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٧) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٦) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب ٣) .

الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر ، وقال عروة بن الزبير : أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ وقال ابن عبّاس : يحول بين المؤمن وبين الكفر . وبين الكافر وبين الإيمان ، وفي رواية عن مجاهد في قوله : ﴿ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ أي حتى يتركه لا يعقل ، وقال السدي : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلّا بإذنه . وقال قتادة هو كقوله : ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية . فعن أنس بن مالك ﷺ قال : كان النبيّ ﷺ يكثر أن يقول : « يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » قال : فقلنا : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : « نَعَمْ إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّه تَعَالَى يُقَلِّبُهَا » (١) .

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ .

يحذّر تعالى عباده المؤمنين فتنة ، أي اختبارًا ومحنة ، يعم بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع عن مطرف قال : قلنا للزبير : يا أبا عبد الله ما جاء بكم ؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال الزبير ﷺ : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﷺ ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ ، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت (٢) ، وقال ابن عبّاس : في قوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ يعني أصحاب النبيّ ﷺ خاصة . وقال أيضًا : أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب ، وهذا تفسير حسن جدًّا ، ولهذا قال مجاهد : في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ هي أيضًا لكم ، وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلّا وهو مشتمل على فتنة ؛ إن الله تعالى يقول : ﴿ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن (٣) .

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم ، هو الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ، ومن أخص ما يذكر ههنا ما روي عن عدي بن عميرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّه ﷻ لاَ يُعَذِّبُ العَامَّةَ بِعَمَلِ الخَاصَّةِ حَتَى يَرَو المُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلاَ يُنْكِرُوهُ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّه الخَاصَّةَ والعَامَّةَ » (٤) .

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّه أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » وروري عن إسماعيل بن جعفر وقال : « أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللَّه عَلَيْكُم قَوْمًا ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُم » (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٢/٣) والترمذي في سننه (٢١٤) والحاكم في المستدرك (٢٨٨/٢) .

(٢) أخرجه : أحمد في مسنده ١٦٥/١ .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٨٩/٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٧/٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والترمذي في سننه (٢١٦٩) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٠/١٠) .

وعن أم سلمة زوج النبيّ ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا ظَهَرَتِ المَعَاصِي في أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّه بِالعَذَابِ مِنْ عِنْدِهِ » فقلت : يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون ؟ قَالَ : « بَلَى » قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : « يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّه وَرِضْوَانٍ » (١)

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

ينبّه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثرهم ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة ، قليلين مستخفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد اللَّه من مشرك ومجوسي ورومي ، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن اللَّه لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقيّض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره ، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة اللَّه وطاعة رسوله ﷺ .
قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله : في قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا ، وأشقاه عيشًا ، وأجوعه بطونًا ، وأعراه جلودًا وأبينه ضلالًا ، من عاش منهم عاش شقيًا ، ومن مات منهم ردي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، واللَّه ما نعلم قبيلًا من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشر منزلًا منهم حتى جاء اللَّه بالإسلام ، فمكن به في البلاد ، ووسع به في الرزق ، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى اللَّه ما رأيتم ، فاشكروا اللَّه على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من اللَّه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قال أبو قتادة والزهري : أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول اللَّه ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول اللَّه ﷺ فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك ، وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح ، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان اللَّه ورسوله فحلف لا يذوق ذواقًا حتى يموت أو يتوب اللَّه عليه ، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه ، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشيًا عليه من الجهد حتى أنزل اللَّه توبته على رسوله ، فجاء الناس يبشرونه بتوبة اللَّه عليه ، وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلّا رسول اللَّه ﷺ بيده فحله ، فقال : يا رسول اللَّه ، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة فقال : « يُجْزِيكَ الثُّلُثُ أَنْ تَصَدَّقَ بِهِ » (٢) . وعن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ الآية (٣) .

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول اللَّه ﷺ إياهم عام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٠٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٦٨).
(٢) أخرجه : عبد الرازق في مصنفه (٩٧٤٥) وأبو داود في السنن (٣٣١٩)
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٢٩٢) والسيوطي في الدر المنثور (٤/٥٠).

الفتح ، فأطلع الله رسوله على ذلك ، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطبًا فأقر بما صنع ، وفيها فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله : ألا أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال : « دَعْهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » (١) قلت : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء ، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ ﴾ الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني الفريضة ، يقول : ﴿ لَا تَخُونُواْ ﴾ لا تنقضوها ، وقال في رواية : ﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ يقول بترك سنته وارتكاب معصيته .

وقوله : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها ، أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد ، فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغني عنك شيئًا ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . وفي الأثر يقول الله تعالى : يا ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء ، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ ، وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ » (٢) بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس ، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ فُرۡقَانٗا ﴾ مخرجًا ، زاد مجاهد : في الدنيا والآخرة ، وفي رواية عن ابن عباس ﴿ فُرۡقَانٗا ﴾ نجاة ، وفي رواية عنه : نصرًا . وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ فُرۡقَانٗا ﴾ أي فصلًا بين الحق والباطل ، وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله ، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها ، وغفرها سترها عن الناس .

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة : ﴿ لِيُثۡبِتُوكَ ﴾ ليقيدوك ، وقال عطاء وابن زيد : ليحبسوك ، وقال السدي : الإثبات هو الحبس والوثاق ، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء ، وهو مجمع الأقوال

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٧٤) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) وأحمد في مسنده ١٠٩/٢ .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٧) وأحمد في مسنده (١٠٣/٣) والنسائي في سننه (٤٩٨٧) .
(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢١) ومسلم في الإيمان (٧٢) والنسائي في سننه (٥٠١٤) .

وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء . وعن المطلب بن أبي وداعة أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ : ما يأتمر بك قومك ؟ قال : « يُرِيدُونَ أَنْ يَسْجُنُونِي أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يُخْرِجُونِي » فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : « رَبِّي » قال : نعم الرب ربك فاستوص به خيرًا ، قال : « أَنَا أَسْتَوْصِي بِهِ ! بَلْ هُوَ يَسْتَوْصِي بِي » قال : فنزلت : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ الآية (١) ، وذكر أبي طالب في هذا غريب جدًّا بل منكر لأن هذه الآية مدنية ، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء ، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترؤوا عليه بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه .

والدليل على صحة ما قلنا ما روي عن ابن عبّاس قال : أن نفرًا من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد : سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي ، قالوا : أجل ادخل فدخل معهم ، فقال : انظروا في شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره ، فقال قائل منهم : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم ، قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأي ، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم . قالوا : صدق الشيخ فانظروا في غير هذا ، قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان أمره في غيركم ، فقال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم . قالوا : صدق والله فانظروا رأيًا غير هذا ، قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد ، لا أرى غيره ، قالوا : وما هو ؟ قال : تأخذون من كل قبيلة غلامًا شابًّا وسيطًا نهدًا ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفًا صارمًا ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . قال : فقال الشيخ النجدي : هذا والله الرأي ، والقول ما قال الفتى ولا أرى غيره . قال : فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له ، فأتى جبريل النبيّ ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ الآية ، تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٩٩/٩) والسيوطي في الدر المنثور ١٧٩/٣ .

أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبيّ ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي ﷺ على فراش رسول الله ﷺ ، وخرج النبيّ ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبونه النبيّ ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا عليًا رد الله تعالى مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال [(١)] .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون : ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلَّا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا ، وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم . وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم ، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم وإسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدَّثهم من أخبار أولئك ثم يقول : بالله أينا أحسن قصصًا أنا أو محمد ؟ ولهذا ما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرًا بين يديه ففعل ذلك ولله الحمد ، وكان الذي أسره المقداد بن الأسود ﷺ ، كما روي عن سعيد بن جبير قال : قتل النبيّ ﷺ يوم بدر صبرًا عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله أسيري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول في كتاب الله ﷻ ما يقول » فأمر رسول الله ﷺ بقتله ، فقال المقداد : يا رسول الله أسيري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ أَغْنِ المِقْدَادَ مِنْ فَضْلِكَ » فقال المقداد : هذا الذي أردت ، قال : وفيه أنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [(٢)] وعن سعيد بن جبير أنه قال : المطعم بن عدي بدل طعيمة وهو غلط ؛ لأن المطعم بن عدي لم يكن حيًا يوم بدر ، ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذٍ : « لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم سألني في هؤلاء النتنى لوهبتهم له - يعني الأسارى - لأنه كان قد أجار رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف » [(٣)] .

ومعنى ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهو جمع أسطورة أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس ، وهذا هو الكذب البحت .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١/٣٤٨ .

(٢) أخرجه أبو داود في مراسيله (٣٧) والطبري في تفسيره (٩/٣٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٢٣) وأحمد في مسنده ٤/٨٠ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عيبوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ عن أنس بن مالك قال : هو أبو جهل بن هشام قال : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) وعن ابن عبّاس : في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال : هو النضر بن الحارث بن كلدة قال : فأنزل الله ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، فيقول النبيّ ﷺ : « قَدْ قَدْ » ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلّا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . ويقولون : غفرانك غفرانك فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ الآية . قال ابن عبّاس : كان فيهم أمانان : النبيّ ﷺ والاستغفار ، فذهب النبيّ ﷺ وبقي الاستغفار . وعن يزيد ابن رومان ومحمّد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض : محمّد أكرمه الله من بيننا ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الآية ، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا غفرانك اللهم - فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ يقول : ما كان الله ليعذب قومًا وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ، ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يقول : وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار ، يستغفرون يعني يصلون ، يعني بهذا أهل مكة . وقال الضحاك وأبو مالك : يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة ، وعن النضر بن عدي عن ابن عبّاس قال : إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم ، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم قوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، وعن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنْزَلَ اللَّه عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فَإِذَا مَضَيْت تَرَكْت فِيهِمُ الاسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٣) ويشهد لهذا ما روي عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ : وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لاَ أَبْرَحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » (٤) .

---

(١) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٨) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣١٠/٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٨٢) والهندي في كنز العمال (٢٠٨١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣) والحاكم في المستدرك (٢٦١/٤) .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم ، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر فقتل صناديدهم وأسر سراتهم ، وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد . وقال قتادة والسدي وغيرهما : لم يكن القوم يستغفرون ، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا . واختاره ابن جرير ، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد ، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك : عن ابن أبزى قال : كان النبيّ ﷺ بمكة فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ قال : فخرج النبيّ ﷺ إلى المدينة فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال : وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين ، يعني بمكة ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فلما خرجوا أنزل الله ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ قال : فأذن الله في فتح مكة ، فهو العذاب الذي وعدهم (١) .

وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم ، فعن عن عكرمة والحسن البصري قالا : قال في الأنفال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فنسختها الآية التي تليها ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ إلى قوله ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر ، وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة ، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهله النبيّ ﷺ وأصحابه . عن أنس بن مالك ؓ قال : سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك ؟ قال : « كُلُّ تَقِيٍّ » وتلا رسول الله ﷺ ﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢) . وقال عروة والسدي ومحمّد بن إسحاق في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ هم محمّد ﷺ وأصحابه ؓ . وقال مجاهد : هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا .

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به فقال : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ قال عبد الله بن عمرو وابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير : هو الصفير . وزاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم ، وقال السدي : المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز . عن ابن عبّاس في قوله :

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٠٩/٩) والسيوطي في الدر (٥٦/٤) .
(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١١٥/١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٩/٧) .

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق ، والمكاء الصفير والتصدية التصفيق ، وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قال : صدهم الناس عن سبيل الله ﷻ . وقوله : ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق : هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي ، واختاره ابن جرير ولم يحك غيره ، وعن مجاهد قال : عذاب أهل الإقرار بالسيف ، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ .

عن الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قال : لما أصيب قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش : إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأرًا بمن أصيب منا ففعلوا ، قال : ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ . وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر . وعلى كل تقدير فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصًا ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيئًا ؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي ، ولهذا قال : ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قال ابن عباس : فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، وقال السدي : يميز المؤمن من الكافر ، وهذا يحتمل أن يكون هذا التميز في الآخرة كقوله : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وقال تعالى : ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله ، أي إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنكول عن ذلك ، كقوله : ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ الآية ، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ﴾ أي يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض ، كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي متراكمًا متراكبًا ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمّد ﷺ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ ﴾ أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم ، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلاَمِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلاَمِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ »(١) وفي الحديث أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « الإِسْلاَمُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا »(٢) وقوله : ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾ أي يستمروا على ما هم فيه ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم إنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة . قال مجاهد : في قوله : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ، في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ عن نافع عن ابن عمر أن رجلًا جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾ الآية ، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا ابن أخي ، أعير بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إليّ من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ إلى آخر الآية ، قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا وكان الرجل يفتن في دينه إما إن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال : فما قولكم في علي وعثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولي في علي وعثمان ، أما عثمان : فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما علي : فابن عم رسول الله ﷺ وختنه ، وأشار بيده ، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون(٣) . ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه . وقوله : ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ قال الضحاك عن ابن عبّاس في هذه الآية : قال : يخلص التوحيد لله ، وقال الحسن وقتادة وابن جريج : أن يقال لا إله إلّا الله ، وقال محمّد بن إسحاق : ويكون التوحد خالصًا لله ليس فيه شرك ، ويخلع ما دونه من الأنداد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ لا يكون مع دينكم كفر ، ويشهد لهذا ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عز وجل »(٤) . وعن أبي موسى الأشعري قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله عز وجل ؟ فقال : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا ؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل »(٥)

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان(١٩٠) وأحمد في مسنده(٤٠٩/١) وابن ماجه في سننه(٤٢٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١٩٩/٤) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن(٤٦٥٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام(٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) ومسلم في الإيمان(٣٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة(١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١) وأحمد في مسنده(٣٩٢/٤) .

وقوله : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ ﴾ أي بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ الآية ، وفي الآية الأخرى ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ وقال : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأسامة ، لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال : لا إله إلّا الله فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال لأسامة : « أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلَّا اللّٰه ؟ وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللّٰه يَوْم القِيَامَةِ » ؟ فقال : يا رسول الله إنما قالها تعوذًا قال : « هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ ؟ » وجعل يقول ويكرر عليه : « مَنْ لَكَ بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللّٰه يَوْمَ القِيَامَةِ ؟ » قال أسامة : حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلّا يومئذٍ (١) .

وقوله : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير .

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يبيِّنُ تعالى تفصيل ما شرعه مخصصًا لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك ، كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها ولا وارث لهم والجزية والخراج ونحو ذلك ، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف ، ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة وبالعكس أيضًا ، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآية ، قال : فنسخت آية الأنفال تلك وجعلت الغنائم أربعة أخماس للمجاهدين وخمسًا منها لهؤلاء المذكورين ، وهذا الذي قاله بعيد ؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر وتلك نزلت في بني النضير ، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر ، وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول : تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في الغنائم ، ومن يجعل أمر الغنائم والفيء راجعًا إلى رأي الإمام يقول : لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام والله أعلم . فقوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط وقوله : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ اختلف المفسرون ههنا فقال بعضهم لله : نصيب من الخمس يجعل في الكعبة . عن أبي العالية الرياحي قال : كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيخمسها على خمسة ، تكون أربعة أخماس لمن شهدها ، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة ، وهو سهم الله ، ثم يقسم ما بقي على خمسة ، فيكون سهم للرسول وسهم لذوي القربى وسهم لليتامى وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل . وقال آخرون : ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك وسهم لرسوله عليه الصلاة والسلام . قال ابن عبّاس :

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٩ ، ١٦٠) وأحمد في مسنده (٥/ ٢٠٠) .

كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمَّس الغنيمة ، فضرب ذلك الخمس في خمسة ثم قرأ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ فأن لله خمسه مفتاح كلام ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحدًا . وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمّد ابن الحنفية والحسن البصري وقتادة ومغيرة وغير واحد : إن سهم الله ورسوله واحد . ويؤيد هذا ما روي عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبيّ ﷺ وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرسًا فقلت : يا رسول الله ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : « لِلَّهِ خُمْسُهَا وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهَا لِلْجَيْشِ » قلت : فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : « لاَ وَلاَ السَّهْمُ تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَنْبِكَ لَيْسَ أَنْتَ أَحَقَّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ » [١] .

وعن الحسن قال : أوصى أبو بكر بالخمس من ماله وقال : ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه [٢] . ثم اختلف قائلو هذا القول ، فعن ابن عبّاس قال : كانت الغنيمة تخمَّس على خمسة أخماس فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس فربع لله وللرسول ﷺ فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبيّ ﷺ ولم يأخذ النبيّ ﷺ من الخمس شيئًا . وعن عبد الله ابن بريدة في قوله : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ قال : الذي لله فلنبيه ، والذي للرسول لأزواجه . وعن عطاء بن أبي رباح قال : خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء ، يعني النبيّ ﷺ وهذا أعم وأشمل ، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء ، ويشهد لهذا ما روي عن المقدام بن معد يكرب الكندي أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي ﷺ فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة ، كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس ، فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم ، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه فقال : « إِنَّ هذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلَّا نَصِيبِي مَعَكُمُ الْخُمُسُ ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ ، فَأَدُّوا الْخَيْطَ وَالمخيطَ ، وَأَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرَ ، وَلاَ تَغُلُّوا ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ عَلَى أَصْحَابِهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَجَاهِدُوا النَّاسَ في اللَّهِ الْقَرِيبَ وَالبَعِيدَ ، وَلاَ تُبَالُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ في السَّفَرِ وَالحَضَرِ ، وَجَاهِدُوا في اللَّهِ ؛ فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ عَظِيمٌ ، يُنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهَمِّ وَالغَمِّ » [٣] . وعن عمرو بن عنبسة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير ثم قال : « وَلاَ يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذِهِ إِلَّا الخُمُس ، وَالخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ » [٤] وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك ، وروى عن ابن عبّاس : أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى (٦/٣٢٤) والهندي في كنز العمال (١٠٩٨٦) .
(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/١٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣١٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٣٣٨) .
(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٥٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٣٣٩) .

ذا الفقار يوم بدر ، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أُحد [(١)] وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت صفية من الصفى [(٢)] . وروي عن يزيد بن عبد الله قال : كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّه إِلَى بَنِي زُهَيْرِ بْنِ أُقَيْشٍ إِنَّكُمْ إِنْ شَهِدْتُمْ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَأَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَأَدَّيْتُمُ الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ ، وَسَهْمَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَسَهْمَ الصَّفِيِّ ؛ أَنْتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّه وَرَسُولِهِ » فقلنا : من كتب لك هذا ؟ فقال : رسول الله ﷺ [(٣)] فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه . وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال الفيء . وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله : وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال .

فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضًا في الذي كان يناله عليه الصلاة والسلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده ؟ فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده ، روي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة ، وقال آخرون : يصرف في مصالح المسلمين . وقال آخرون : بل هو مردود على بقية الأصناف ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، اختاره ابن جرير ، وقال آخرون : بل سهم النبيّ ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامي والمساكين وابن السبيل . عن قيس ابن مسلم : سألت الحسن بن محمّد ابن الحنفية رحمه الله تعالى عن قول الله تعالى ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ فقال : هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة . ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال قائلون : سهم النبيّ ﷺ تسليمًا للخليفة من بعده . وقال آخرون : لقرابة النبيّ ﷺ وقال آخرون : سهم القرابة لقرابة الخليفة ، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله ، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبيّ ﷺ في الكراع والسلاح ، فقلت لإبراهيم : ما كان عليّ يقول فيه ؟ قال : كان أشدهم فيه . وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء ، رحمهم الله ، وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب ؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله ﷺ وحماية له : مسلمهم طاعة لله ولرسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا بني عمهم فلم يوافقوهم على ذلك بل حاربوهم ونابذوهم ومالأوا بطون قريش على حرب الرسول ، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم ، ولهذا يقول في أثناء قصيدته :

جَزَى اللَّه عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا ... عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلِ
بِمِيزَانِ قِسْطٍ لاَ يَخِيسُ شَعِيرَةً ... لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلِ

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٥٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٥) وأبو داود في سننه (٢٩٩٩) والنسائي في سننه (٤١٤٦) .

لَقَدْ سَفُهَتْ أَحْلامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلَفٍ قَيْضًا بِنَا وَالعَيَاطِلِ
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ وَآلِ قُصَيٍّ فِي الخُطُوبِ الأَوَائِلِ

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل : مشيت أنا وعثمان بن عفان ، يعني ابن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس ، إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة ؟ فقال : « إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو المُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ » (١) . وفي بعض روايات هذا الحديث « إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ » (٢) وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب . وقال آخرون : هم بنو هاشم ، ثم روي عن مجاهد قال : علم الله أن في بني هاشم فقراء فجعل لهم الخمس مكان الصدقة ، وفي رواية عنه قال : هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة ، قال ابن جرير : بل هم قريش كلها . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رَغِبْتُ لَكُمْ عَنْ غُسَالَةِ الأَيْدِي ؛ لِأَنَّ لَكُمْ مِنْ خُمْسِ الخُمُسِ مَا يُغْنِيكُمْ أَوْ يَكْفِيكُمْ » (٣) . وقوله : ﴿ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ أي أيتام المسلمين ، واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين ، والمساكين هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم ﴿ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما ينفقه في سفره ذلك .

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا ﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله . ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم : « وَآمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ، آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ » - ثم قال : « تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ ؟ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ » (٤) فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان . وقال مقاتل بن حيان ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ أي في القسمة . وقوله : ﴿ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل ببدر ، ويسمى الفرقان ؛ لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل ، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه ، قال ابن عباس : ﴿ يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل . وقال مجاهد : إنه يوم بدر ، وقال عروة بن الزبير : يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك ، وقد روي عن ابن مسعود قال في ليلة القدر : تحروها لإحدى

(١) أخرجه : أبو داود في السنن (٢٩٧٨) والبيهقي في السنن ١٤٩/٢ .
(٢) أخرجه النسائي في سننه (٤١٣٦) وأحمد في مسنده ٨١/٤ ، والطبراني في الكبير ١٤٧/٢ .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٦/٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣ ، ٢٦) وأحمد في مسنده (٢٣/٣) .

عشرة يقين فإنَّ في صبيحتها يوم بدر [١] . وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال : قال الحسن بن علي : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان [٢] .

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يوم الفرقان ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ أي إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿ وَهُم ﴾ أي المشركون نزول ﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ عن عبد الله بن الزبير في هذه الآية قال : ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم ﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم ، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه . وفي حديث كعب بن مالك قال : إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد [٣] . وعن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان في الركب من الشام وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه فالتقوا ببدر ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة ونهد الناس بعضهم لبعض [٤] .

قال محمد بن إسحاق : ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريبًا من الصفراء بعث بَسْبَسَ بن عمرو وعديّ بن أبي الزغباء الجهنيين يلتمسان الخبر عن أبي سفيان ، فانطلقا حتى إذا وردا بدرًا فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء فاستقيا في شن لهما من الماء . فسمعا جاريتين تختصمان تقول إحداهما لصاحبتها : اقضيني حقي ، وتقول الأخرى : إنما تأتي العير غدًا أو بعد غد فأقضيك حقك ، فخلص بينهما مجدي بن عمرو وقال : صدقت ، فسمع بذلك بَسْبَسَ وعدي فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر ، وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر فتقدم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو : هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره ؟ فقال : لا والله ، إلَّا أني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا من شن لهما ثم انطلقا ، فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما فأخذ من أبعارهما ففتته فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، ثم رجع سريعًا فضرب وجه عيره فانطلق بها فساحل حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال : إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا ، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدرًا – وكانت بدر سوقًا من أسواق العرب – فنقيم بها ثلاثًا فنطعم بها الطعام ، وننحر بها الجزر ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٠/٣ .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/١٠) والسيوطي في الدر المنثور (٧٢/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/١٠) .

ونسقي بها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدًا . فقال الأخنس بن شريق : يا معشر بني زهرة ، إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا ، فأطاعوه فرجعت بنو زهرة فلم يشهدوها ولا بنو عدي .

وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر ، فأصابوا سقاة لقريش غلامًا لبني سعيد بن العاص وغلامًا لبني الحجاج ، فأتوا بهما رسول الله ﷺ فوجدوه يصلي ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما لمن أنتما ؟ فيقولان : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما ، فلما أزلقوهما قالا : نحن لأبي سفيان فتركوهما ، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم وقال : « إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُما ، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا ! صَدَقَا وَاللهِ إِنَّهُما لِقُرَيْشٍ أَخْبَرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ » قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكثيب : العقنقل - فقال لهما رسول الله ﷺ : « كَمِ القَوْمُ » ؟ قالا : كثير . قال : « مَا عِدَّتُهُمْ ؟ » قالا : ما ندري ، قال : « كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ » قالا : يومًا تسعًا ويومًا عشرًا . قال رسول الله ﷺ : « القَوْمُ مَا بَيْنَ التِّسْعِمائَةِ إِلَى الأَلْفِ » ثم قال لهما : « فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ؟ » قالا : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ود ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : « هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلاذَ كَبِدِهَا » (١) .

وقوله : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك ، وهذا تفسير جيد . وبسط ذلك أنه تعالى يقول : إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل ، ليصير الأمر ظاهر والحجة قاطعة والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فحينئذٍ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره إنه مبطل لقيام الحجة عليه ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ ﴾ أي يؤمن من آمن ﴿ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ أي حجة وبصيرة ، والإيمان هو حياة القلوب قال الله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ وقالت عائشة ، في قصة الإفك : فهلك فيّ من هلك (٢) . أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك . وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/١١٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٧٥) والهندي في كنز العمال (٢٩٩٤١) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١) .

﴿ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

قال مجاهد : أراهم الله إياه في منامه قليلًا وأخبر النبيّ ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتًا لهم ، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها (١) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ ﴾ أي لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي من ذلك بأن أراكهم قليلًا ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ : وقوله : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وهذا أيضًا من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلًا في رأي العين فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم . عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلًا منهم فسألناه فقال : كنا ألفًا (٢) . وقوله : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ عن عكرمة ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ ﴾ الآية ، قال : حضض بعضهم على بعض . وعن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته ، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلًّا من الفريقين بالآخر ، وقلّله في عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة ، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه كما قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فإن كلًّا منها حق وصدق ولله الحمد والمنة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » ثم قام النبي ﷺ وقال : اللَّهُمَّ مُنَزِّلَ الْكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ » (٣) .

وعن عطاء قال : وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف ، ثم تلا هذه الآية ، قلت : يجهرون بالذكر ؟ قال : نعم . وعن عبد الله بن عباس قال : ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر ، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال ، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال :

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨/١٠) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/١٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٢٠) وأبو داود في سننه (٢٦٣١) والحاكم في المستدرك (٧٨/٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ .

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم فلا يفرّوا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا اللَّه في تلك الحال ولا ينسوه ، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا اللَّه ورسوله في حالهم ذلك ، فما أمرهم اللَّه تعالى به ائتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا ، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم ﴿ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾ أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقد كان للصحابة ﷺ في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم اللَّه ورسوله به ، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم . قهروا الجميع حتى علت كلمة اللَّه وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة ، فرضي اللَّه عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ .

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره ، ناهيًا لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم : ﴿ بَطَرٗا ﴾ أي : دفعًا للحق ﴿ وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهو المفاخرة والتكبّر عليهم ، كما قال أبو جهل ، لما قيل له إن العير قد نجا فارجعوا ، فقال : لا واللَّه لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، وننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدًا ، فانعكس ذلك عليه أجمع ؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمَام ، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء ، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي ؛ ولذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ أي عالم بما جاءوا به وله ، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم . قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ قالوا : هم المشركون الذين قاتلوا رسول اللَّه ﷺ يوم بدر . وقال محمّد بن كعب : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر ، خرجوا بالقيان والدفوف فأنزل اللَّه ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ ﴾ الآية ، حسن لهم - لعنه اللَّه - ما جاءوا له وما همّوا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال : إني جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج كبير تلك الناحية

وكل ذلك منه ، كما قال تعالى عنه : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ قال ابن عبّاس في هذه الآية : لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين ، وألقى في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم ، وإني جار لكم ، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ قال : رجع مدبرًا ، وقال : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ الآية ، وقال ابن عبّاس : جاء إبليس يوم بدر في جندٍ من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبرًا وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة ، أتزعم أنك لنا جار فقال : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وذلك حين رأى الملائكة .

وعن طلحة بن عبيد الله بن كريز : أن رسول الله ﷺ قال : « مَا رُؤِىَ إِبْلِيسُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلاَ أَحْقَرُ وَلاَ أَدْحَرُ وَلاَ أَغْيَظُ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَرَى مِنْ نزُولِ الرَّحْمَةِ وَالعَفْوِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا ما رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ » قالوا : يا رسول الله وما رأى يوم بدر ؟ قال : « أَمَّا إِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام يَزَعُ المَلاَئِكَةَ » (١) .

وقوله : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس في هذه الآية : لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقلّل المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون : غرَّ هؤلاء دينهم وإنما قالوا ذلك من قلّتهم في أعينهم ، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك فقال الله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وقال قتادة : رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله ، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمّد ﷺ وأصحابه قال : والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوة وعتوًا . وقال ابن جريج في قوله : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ : هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر ، وقال مجاهد : في قوله عزّ وجلّ : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ قال : فئة من قريش : قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : غرَّ هؤلاء دينهم ، حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم . وقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي لا يضام من التجأ إليه ، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله لا يضعها إلَّا في مواضعها ، فينصر من يستحق النصر ، ويخذل من هو أهل لذلك .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٤٢٢/١) ويزع الملائكة أي يعبّيهم ويصفهم للقتال .

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

يقول تعالى : ولو عاينت يا محمّد ، حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمرًا عظيمًا هائلًا فظيعًا منكرًا ، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم : ذوقوا عذاب الحريق . قال ابن عبّاس : إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم . وقال مجاهد في قوله : ﴿ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ يوم بدر ، وعن سعيد بن جبير ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ قال : وأستاههم ، ولكنَّ اللّه يكني . وعن الحسن البصري قال : قال رجل : يا رسول اللّه : إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك ، قال : « ذَاكَ ضَرْبُ المَلَائِكَةِ » وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر ولكنه عام في حق كل كافر ؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر ، بل قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ وفي سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم إذا استصعبت أنفسهم وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهرًا ، وذلك إذا بشروهم بالعذاب والغضب من اللّه ، كما في حديث البراء : أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول : اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتتفرق في بدنه فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول (١) ، فتخرج معها العروق والعصب ، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم : ذوقوا عذاب الحريق .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي : هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا ، جازاكم اللّه بها هذا الجزاء ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي لا يظلم أحدًا من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور تبارك وتعالى وتقدّس وتنزه الغني الحميد ، ولهذا جاء في الحديث عن أبي ذر ﷺ عن رسول اللّه ﷺ « إن اللّه تعالى يقول : يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلاَ تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لكم ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّه ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (٢) ولهذا قال تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى : فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمّد كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ، ففعلنا بهم ما هو دأبنا أي عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات اللّه ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي : لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في مسنده (٤٥/٢) .

ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه ، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي نكل بهم ، قاله ابن عباس والحسن البصري ومعناه : غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلًا ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ، ويصيروا لهم عبرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ وقال السدي : لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خِيَانَةً ﴾ أي نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي عهدهم ﴿ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء ، أي تستوي أنت وهم في ذلك .

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله تعالى : ﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ : أي : على مهل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ أي : حتى ولو في حق الكفار لا يحبها أيضًا . عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير في أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمد ، فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر وفاء لا غدرًا ، إن رسول الله ﷺ قال : « وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلاَ يَحُلَّنَّ عُقْدَةً وَلاَ يَشُدَّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا ، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » قال فبلغ ذلك معاوية فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة [1] وعن سلمان الفارسي ﷺ أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه : دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم فقال : إنما كنت رجلًا منكم فهداني الله ﷻ للإسلام ، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم نابذناكم على سواء ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله » [2] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٤) وأبو داود في السنن (٢٧٥٩) والترمذي في السنن (١٥٨٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٥) .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ يا محمّد ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ﴾ أي فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي يظنون ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ أي مهما أمكنكم ﴿ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ . عن أبي علي ثمامة بن شفي أخي عقبة بن عامر أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول وهو على المنبر : « ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ألاَ إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ ، إِلَّا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ » (١) وروي عن رسول اللّه ﷺ قال : « ارْمُوا وَارْكَبُوا ، وَأَنْ تَرْمُوا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا » (٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول اللّه ﷺ قال : « الخَيْلُ لِثَلاَثَةٍ ، لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ ؛ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه ، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنَ المَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ ؛ كَانَتْ لَهُ حَسَنَات ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ ؛ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يُسْقَى بِهِ ؛ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّه فِي رِقَابِهَا وَلاَ ظُهُورِهَا ؛ فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً ؛ فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ » (٣) وسئل رسول اللّه ﷺ عن الحمر فقال : « مَا أَنْزَلَ اللَّه عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الآيَةَ الجَامِعَةَ الفَاذَّةَ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (٤) .

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل ، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي ، وقول الجمهور أقوى للحديث ، واللّه أعلم . وعن ابن شماسة أن معاوية ابن خديج مر على أبي ذر هو قائم عند فرس له فسأله ما تعاني من فرسك هذا ؟ فقال : إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته . قال : وما دعاء بهيمة من البهائم ؟ قال : والذي نفسي بيده ما من فرس إلّا وهو يدعو كل سحر فيقول : اللهم أنت خولتني عبدًا من عبادك ، وجعلت رزقي بيده ، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده (٥) . وعن عروة بن أبي الجعد البارقي أن رسول اللّه ﷺ قال : « الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ الأَجْرُ وَالمَغْنَمُ » (٦)

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦٧) وأحمد في مسنده (١٥٧/٤) والترمذي في جامعه (٣٠٨٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١٣/١٠ ، ١٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٦٠) وأحمد في مسنده (٢٦٢/٢) ومالك في الموطأ (٤١٤/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٦٠) ومسلم في الزكاة (٢٤ ، ٢٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٨٢/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٥) .
(٦) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١١٩) ومسلم في الزكاة (٢٦) وأحمد في مسنده (٤٩/٢) .

وقوله : ﴿ تُرْهِبُونَ ﴾ أي تخوفون ﴿ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أي من الكفار ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ قال مجاهد : يعني بني قريظة ، وقال السدي : فارس ، وقال سفيان الثوري : قال ابن يمان : هم الشياطين التي في الدور . وقال مقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المنافقون ، وهذا أشبه الأقوال ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يُوَفَّى إليكم على التمام والكمال .

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء ، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ ﴾ أي : مالوا ﴿ لِلسَّلْمِ ﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ أي فمل إليها واقبل منهم ذلك ، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ سَيَكُونُ اخْتِلَافٌ أَوْ أَمْرٌ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ السِّلْمُ فَافْعَلْ »[(١)] وقال مجاهد : نزلت في بني قريظة ، وهذا فيه نظر ؛ لأن السياق كله في وقعة بدر ، وذكرها مكتنف لهذا كله ، وقال ابن عبّاس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الآية ، وفيه نظر أيضًا لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إن كان العدو كثيفًا فإنه يجوز مهادنتهم كما دلّت عليه هذه الآية الكريمة ، وكما فعل النبيّ ﷺ يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي صالحهم وتوكل على الله فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ أي كافيك وحده ، ثم ذكر نعمته عليه بما أيّده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج ، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان كما قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي » كلما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٩٠) .

قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أمنّ [١] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز الجناب فلا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم في أفعاله وأحكامه .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ يقول : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية ، قال : هم المتحابون في الله ، وفي رواية : نزلت في المتحابين في الله [٢] ، وعن ابن عبّاس قال : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء ثم قرأ ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [٣] .

وعن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَأَخَذَ بِيَدِهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا كَمَا تَحَاتُ الوَرَقُ عَنِ الشَّجَرَةِ اليَابِسَةِ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ ، وَإِلَّا غَفَرَ لَهُمَا ذُنُوبَهُمَا وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البِحَارِ » [٤] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ، ويخبرهم أنه حسبهم أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم ، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين . قال الشعبي في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حسبك الله وحسب من شهد معك . ولهذا قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ ﴾ أي حثّهم وذمر عليهم ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَدَدِهم وعُدَدِهم : « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ » فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » فقال : بخ بخ فقال : « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ ؟ » قال : رجاء أن أكون من أهلها قال : « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ثم ألقى بقيتهن من يده وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ [٥] . وقد روي عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الأربعون ، وفي هذا نظر لأن هذه الآية مدنية وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى مبشرًا للمؤمنين وآمرًا : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٣٩) وأحمد في مسنده (٣/٥٧) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٢٩) . (٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٢٨) .
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/٣١٥) والهندي في كنز العمال (٥٣٦٢) .
(٥) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٥) وأحمد في مسنده (٣/١٣٦) والحاكم في المستدرك (٣/٤٢٦) .

﴿ مِاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة . قال عبد الله ابن المبارك : عن ابن عبّاس قال : لما نزلت ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ شق ذلك على المسلمين حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف فقال : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ قال : خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم [1]. وعن ابن عبّاس في هذه الآية قال : كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين ثم خفف الله عنهم فقال : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين [2] وعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ قال : نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : استشار النبيّ ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال : « إِنَّ اللَّه قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ » فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبيّ ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّه قَدْ أَمْكَنَكُم مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالأَمْسِ » فقام عمر فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبيّ ﷺ ، ثم عاد النبيّ ﷺ فقال للناس مثل ذلك فقام أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء ، قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، قال : وأنزل الله عز وجل : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] . وعن أبي عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلاءِ الأَسَارَى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، أنت في واد كثير الحطب فاضرم الوادي عليهم نارًا ثم ألقهم فيه ، قال : فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا ، ثم قام فدخل ، فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ اللَّه لَيُلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ ، وَإِنَّ اللَّه لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الحِجَارَةِ ، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام قَالَ : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عيسى عليه السلام قَالَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرَ كَمَثَلِ مُوسَى عليه السلام قَالَ : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٣/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٧/٦) .

فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ نُوحٍ ﷺ قَالَ : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أَنْتُمْ عَالَةٌ فَلَا يَنْفَكَّنَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبَةِ عُنُقٍ » قال ابن مسعود : قلت : يا رسول الله إِلَّا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله ﷺ : « إِلَّا سُهَيْلَ بْنَ بَيْضَاءَ » فأنزل الله ﷻ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ إلى آخر الآية (١) .

وعن ابن عبّاس ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . قال : غنائم بدر قبل أن يحلها لهم ، يقول : لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، وقال الأعمش : سبق منه أن لا يعذب أحدًا شهد بدرًا ، وقال مجاهد : ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ أي لهم بالمغفرة ، وقال ابن عبّاس : يعني في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ من الأساري ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الآية . وكذا روي عن ابن عبّاس ، وعن أبي هريرة وابن مسعود أن المراد ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير ﵀ ، ويستشهد لهذا القول بما روي عن جابر بن عبد الله ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (٢) وعن أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمْ تَحِلَّ الغَنَائِمُ لِسُودِ الرُّؤُوسِ غَيْرِنَا » (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الآية ، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء ، وعن ابن عبّاس : أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة (٤) ، وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخيَّر فيهم إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرقَّ من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

عن عبد الله بن عبّاس ﵄ أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : « إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أُنَاسًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كَرْهًا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا ، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ - أَيْ مِنْ بَنِي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٣/١) والهندي في كنز العمال (٢٩٨٧٨) .
(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٢) والترمذي في جامعه (٣٠٨٥) .
(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٩١) .

هَاشِمٍ - فَلاَ يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْبَخْتَرِيَّ بْنِ هِشَامٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلاَ يَقْتُلْهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا » فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس ؟! ، والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف ! ، فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب : « يَا أَبَا حَفْصٍ » قال عمر : والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص «أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟ » فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه ، فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك : والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفًا إلّا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدًا ﷺ(١) . وبه عن ابن عبّاس قال لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق بات رسول الله ﷺ ساهرًا أول الليل فقال له أصحابه : يا رسول الله ما لك لا تنام ؟ - وقد أسر العباسَ رجلٌ من الأنصار - فقال رسول الله ﷺ : « سَمِعْتُ أَنِينَ عَمِّي الْعَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ فَأَطْلِقُوهُ » فسكت ، فنام رسول الله ﷺ (٢) . قال محمّد بن إسحاق : وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب وذلك أنه كان رجلًا موسرًا فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهبًا .

وفي الحديث عن أنس بن مالك أن رجالًا من الأنصار قالوا : يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه ، قال : « لاَ وَاللهِ لاَ تَذَرُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا » (٣) .

وعن ابن عباس قال : قال العباس : فيَّ نزلت ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فأخبرت النبيّ ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذت مني فأبى ، فأبدلني الله بها عشرين عبدًا ، كلهم تاجر ، مالي في يده (٤) . ﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ إيمانًا وتصديقًا يخلف لكم خيرًا مما أخذ منكم ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ الشرك الذي كنتم عليه ، قال : فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لي الدنيا لقد قال : ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ ، فقد أعطاني خيرًا مما أخذ مني مائة ضعف ، وقال : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لي .

فقال قتادة في تفسير هذه الآية : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفًا وقد توضأ لصلاة الظهر ، فما أعطى يومئذٍ شاكيًا ولا حرم سائلًا ، وما صلى يومئذٍ حتى فرّقه ، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثي فكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة . وعن حميد بن هلال قال : بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفًا ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد . قال فنثرت على حصير ونودي بالصلاة ، قال : وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائمًا على المال ، وجاء أهل المسجد ، فما كان يومئذٍ عدد ولا وزن ما كان إلّا فيضًا ، وجاء العباس بن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٢٣/٣) . (٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨٩/٩) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٥/٦) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره ٦٤/١٠ .

عبد المطلب فحثا في خميصة عليه وذهب يقوم فلم يستطع ، قال : فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : ارفع علي ، قال : فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه أو نابه ، وقال له : « أَعِدْ مِنَ المَالِ طَائِفَةً وَقُمْ بِمَا تُطِيقُ » قال : ففعل وجعل العباس يقول : وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندري ما يصنع في الأخرى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ ﴾ الآية ، ثم قال : هذا خير مما أخذ منا ، وما أدري ما يصنع الله في الأخرى ، فما زال رسول الله ﷺ ماثلًا على ذلك المال حتى ما بقي منه درهم ، وما بعث إلى أهله بدرهم ، ثم أتى الصلاة فصلى .

وقوله : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ أي ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ ﴾ فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بفعله حكيم فيه . قال قتادة : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين ، وقال ابن جريج عن ابن عبّاس : نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا : لننصحن لك على قومنا ، وفسرها السدي على العموم ، وهو أشمل وأظهر ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك ، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم ، وواسوهم في أموالهم ، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة ، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث . عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالطُّلَقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالعُتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (١) . وعن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ ، والطُّلَقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالعُتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » (٢) . وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ الآية ، وأحسن ما قيل في قوله : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ أي لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم ، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك ، عن حذيفة قال : خيّرني

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٤) والطبراني في المعجم الكبير (٣٥٠/٢) والهندي في كنز العمال (٣٤١٠٦) .
(٢) أخرجه الطبراني في المعحم الكبير (٢٣١/١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥/١٠) .

رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة فاخترت الهجرة (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم ﴾ قرأ حمزة ﴿ وِلايتهم ﴾ بالكسر والباقون بالفتح وهما واحد كالدَّلالة والدِّلالة (٢) ﴿ مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في بواديهم فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب ، ولا في خمسها إلَّا ما حضروا فيه القتال ، كما روي عن يزيد بن الخصيب الأسلمي ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا ، وقال : « اغزُوا بِاسْمِ اللَّه في سَبِيلِ اللَّه ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ باللَّه ، إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاثَ خِصَالٍ - أَوْ خِلاَل - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمَ : ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ . ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِينِ ، وأَعْلِمْهم إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وأَنَّ عَلَيْهم مَا عَلَى المُهَاجِرين ، فَإِن أَبَوْا واخْتَارُوا دَارَهم ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّه الَّذِي يَجْرِي عَلَى المُؤْمِنِينَ ، وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الفَيْءِ وَالغَنِيمَةِ نَصِيبٌ ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ . فَإِنْ هُمْ أَبَوْا ، فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الجِزْيَةِ ، فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ أَبَوْا ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّه وَقَاتِلْهُمْ » (٣) . وقوله : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ الآية ، يقول تعالى : وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم ، فإنه واجب عليكم نصرهم لأنهم إخوانكم في الدين ، إلَّا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة ، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم . وهذا مروي عن ابن عبَّاس ﷺ .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ، كما ورد عن أسامة عن النبيّ ﷺ قال : « لاَ يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ ، وَلاَ يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا وَلاَ كَافِرٌ مُسْلِمًا » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٤) . قلت : والحديث من رواية أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ ، وَلاَ الكَافِرُ المُسْلِمَ » (٥) . وعن الزهري أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال : « تُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَحُجُّ البَيْتَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَإِنَّكَ لاَ تَرَى نَارَ مُشْرِكٍ إِلَّا وَأَنْتَ لَهُ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/١٦٤) والبزار في مسنده (٢٧١٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٦٥) .

(٢) قرأ حمزة (ولايتهم) هنا وفي الكهف (هنالك الولاية) بكسر الواو فيها ، (وافقه الكسائي وخلف في الكهف) والباقون بفتح الواو فيهما (تقريب النشر ص ١١٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٣) وأحمد في مسنده (٤/٢٤٠) وأبو داود في سننه (٢٦١٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٧٨) والترمذي في السنن (٢١٠٨) والحاكم في المستدرك (٢/٢٤٠) .

(٥) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤) ومسلم في الفرائض (١) وأحمد في مسنده (٥/٢٠٠) .

حَرْبٌ »(١) وعن سمرة بن جندب : أما بعد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ »(٢) ثم روي عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ »(٣) ومعنى قوله : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين ، وإلَّا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين ، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ .

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبدًا لا ينقطع ولا ينقضي ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه . ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الآية ، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »(٤) وفي الحديث الآخر « وَمَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ » وفي رواية : « حُشِرَ مَعَهُمْ »(٥) . وأما قوله : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي في حكم الله وليس المراد بقوله : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة ، بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحًا في المسألة ، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات ، كما نص عليه ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولًا ، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ »(٦) قالوا : فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى ، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثًا ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٢/١) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٨٧) والهندي في كنز العمال (١١٠٢٩) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٩٦٧) والحاكم في المستدرك (١٦٩/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٦٨) ومسلم في البر والصلة (١٦٥) وأحمد في مسنده (٣٩٢/١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٤) والطبراني في المعجم الكبير (٣٥٠/٢) والهندي في كنز العمال (٣٤١٠٦) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٤) وأبو داود في سننه (٢٨٧٠) وابن ماجه في سننه (٢٧١٣) والترمذي في سننه (٢١٢٠) .

سورة التوبة

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ عن البراء بن عازب يقول : آخر آية نزلت ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ وآخر سورة نزلت براءة [١] وإنما لم يبسمل في أولها ؛ لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام ، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه ، وعن ابن عبّاس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطول ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطول [٢] .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهمّ بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه أميرًا على الحجّ تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادي في الناس ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له كما سيأتي بيانه . فقوله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله : ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ اختلف المفسّرون ههنا اختلافًا كثيرًا فقال قائلون : هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة ، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى : ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ الآية ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته ، وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقال ابن عبّاس في قوله ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ الآية ، قال : حدَّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون في الأرض حيث شاءوا ، وأجّل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم فذلك خمسون ليلة ، فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام ، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضًا حتى يدخلوا في الإسلام .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥٧/١ ، والحاكم في المستدرك ٣٣٠/٢ ، والترمذي في السنن (٣٠٨٦) .

وقال مجاهد : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم ، فقفل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال : « إِنَّمَا يَحْضُرُ الْمُشْرِكُونَ فَيَطُوفُونَ عُرَاةً ، فَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَحُجَّ حَتَّى لاَ يَكُونَ ذَلِكَ » فأرسل أبا بكر وعليًا رضي الله عنهما فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها ، فآذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات ، عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وآذن الناس كلهم بالقتال إلَّا أن يؤمنوا .

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى وإعلام ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعًا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أي بريء منهم أيضًا ، ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ ﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال ، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال . عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان . قال حميد : ثم أردف النبيّ ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة ، قال أبو هريرة فأذَّن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . وعن حميد بن عبد الرَّحمن أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان (١) ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك (٢) .

وعن أبي هريرة قال : كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا نادي أنه لا يدخل الجنة إلَّا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ، ولا يحجّ هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال : فكنت أنادي حتى صحل صوتي (٣) .

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين بعثه ببراءة قال : يا نبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب قال : « لاَ بُدَّ لِي أَنْ أَذْهَبَ بِهَا أَنَا ، أَوْ تَذْهَبَ بِهَا أَنْتَ » قال : فإن كان لابد فسأذهب أنا ، قال : « انْطَلِقْ فَإِنَّ اللَّهَ يُثَبِّتُ لِسَانَكَ وَيَهْدِي قَلْبَكَ » قال : ثم وضع يده على فيه (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٠/١) والهندي في كنز العمال (٤٤٠١) .

وعن عطاء قال : يوم الحج الأكبر يوم عرفة . وعن شهاب بن عباد البصري عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : هذا يوم عرفة ، هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد . وروي عن ابن عبّاس وعبد اللّه بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا : يوم عرفة يوم الحج الأكبر ، وقد ورد فيه حديث عن ابن مخرمة أن رسول اللّه ﷺ خطب يوم عرفة فقال : « هَذَا يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ »(١) .

والقول الثاني : أنه يوم النحر ، روي عن علي ﷺ قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر . وقال عبد اللّه بن أبي أوفى : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وعن ابن عبّاس أنه قال : الحج الأكبر يوم النحر . وعن ابن عمر قال : وقف رسول اللّه ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال : « هَذَا يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ »(٢) .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت ، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلّا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها ، وقد تقدمت الأحاديث ، ومن كان له عهد مع رسول اللّه ﷺ فعهده إلى مدته ، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحدًا ، أي يمالئ عليهم من سواهم ، فهذا الذي يوفي له بذمته وعهده إلى مدته ، ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي الموفين بعهدهم .

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي ؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية ، وقال ابن جرير : آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم ، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس ، وإليه ذهب الضحاك أيضًا وفيه نظر ، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عبّاس في رواية العوفي عنه ، أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله : ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ثم قال : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها ، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر .

وقوله : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ أي من الأرض وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلًا وإن شئتم أسرًا . وقوله : ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم ، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٧٤٢) وابن ماجه في سننه (٣٠٥٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٥/١٢٥) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٣١ وأبو داود في (١٩٤٥) .

الإسلام ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولهذا اعتمد الصدِّيق ﷺ في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها ، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال ، وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته ، ونبه بأعلاها على أدناها ، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله ﷻ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج ، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرًا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة . وقد جاء عن ابن عمر ﵄ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » (١) وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلَّا بالزكاة ، وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه ! .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا ، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا ، وَصَلُّوا صَلاتَنَا فَقَدْ حُرِمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ » (٢) . وعن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الإِخْلاَصِ للَّه وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَارَقَهَا وَاللَّه عَنْهُ رَاضٍ » (٣) قال : وقال أنس : هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ قال : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم قال في آية أخرى : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ ، وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبيّ ﷺ وبين أحد من المشركين ، وكل عقد ، وكل مدة ، وقال ابن عبّاس في هذه الآية : لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم ، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر من يوم أذّن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر . وقال : أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام ، ونقض ما كان سمى لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأول . وعن علي بن أبي طالب بعث النبيّ ﷺ بأربعة أسياف : سيف في المشركين من العرب ، قال الله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ ، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ والسيف الثالث : قتال المنافقين في قوله : ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَٰهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الآية . والرابع : قتال الباغين في قوله : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ومسلم في الإيمان (٣٤) وأحمد في مسنده (١٩٩/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ومسلم في الإيمان (٣٤) وأحمد في مسنده (١٩٩/٣) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٣٢/٢) والهندي في كنز العمال (٢٧٨) .

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال الضحاك والسدي : هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وقال قتادة بالعكس .

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم ، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ : أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله ، أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئًا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ ، أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ، أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده . ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدًا أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة ابن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم ، واحدًا بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر ، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم . ولهذا أيضًا قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له : أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لاَ تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ » (١) وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له : ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة ، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له : إنك الآن لست في رسالة وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه . والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أمانًا ، أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه ، لكن قال العلماء : لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله .

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

يبيِّن تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر ، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا فقال تعالى : ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله ، كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية كما قال تعالى : ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ الآية . ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أي مهما تمكسوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمر

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٦١) والحاكم في المستدرك (١٤٢/٢) .

العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست ، إلى أن نقضت قريش العهد ومالأوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضًا ، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكّنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة ، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسمُّوا الطلقاء ، وكانوا قريبًا من ألفين ، ومن استمر على كفره وفرَّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدِّره ويفعله .

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى محرضًا للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ، ومبيِّنًا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ، ولا راقبوا فيهم إلًّا ولا ذمة . قال ابن عبّاس : الإلّ القرابة ، والذمة العهد .

وقال مجاهد : الإل : الله ، وفي رواية : لا يرقبون الله ولا غيره . عن أبي مجلز في قوله تعالى ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ مثل قوله : جبريل ميكائيل إسرافيل ، كأنه يقول : لا يرقبون الله ، والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر . وعن مجاهد أيضًا : الإلّ : العهد . وقال قتادة : الإلّ : الحلف .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذمًّا للمشركين وحثًّا للمؤمنين على قتالهم ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ تقدم تفسيره ، وكذا الآية التي بعدها ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ إلى آخرها تقدمت . وعن الربيع بن أنس قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الإِخْلاصِ لله وَعِبَادَتِهِ لاَ يُشْرِكُ بِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ ، فَارَقَهَا والله عَنْهُ رَاضٍ »(١) وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ فَإِن تَابُوا ﴾ يقول فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ .

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم ، أي عهودهم

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٣٢/٢) والهندي في كنز العمال (٢٧٨) .

ومواثيقهم ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أي عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سبَّ الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص ، ولهذا قال : ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدَّد رجالًا ، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم ، والله أعلم .

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وهذا أيضًا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة كما قال تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قيل : المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم ، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجههم طلبًا للقتال بغيًا وتكبرًا كما تقدم بسط ذلك ، وقيل : المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمد والمنة . وقوله : ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يقول تعالى لا تخشوهم واخشون ، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي ، فبيدي الأمر ، وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين وبيانًا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد ، مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم ، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني خزاعة ، وأعاد الضمير في قوله : ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ عليهم أيضًا . وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال : « يَا عُوَيْشُ قُولِي : اللَّهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّد اغفِرْ ذَنْبِي ، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي ، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ » (١) . ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ أي من عباده ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بما يصلح عباده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية ، فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدًا ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ؟ ولهذا قال : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أي بطانة ودخيلة ، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله ، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/٦) والهندي في كنز العمال (١٨٤٠٩) .

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ الآية ، والحاصل : أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بيّن أن له فيه حكمة ، وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ، ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلّا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدّره وأمضاه .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، ومن قرأ ﴿ مسْجِدَ ٱللَّهِ ﴾ (١) فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض ، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأسّسه خليل الرحمن ، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم ومقالهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي بشركهم ﴿ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمّار المساجد كما روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ » (٢) . وعن معاذ بن جبل أن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابِ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ » (٣) .

وقوله : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق . وقوله : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي ولم يخفف إلّا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ يقول : من وحّد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ يقول لم يعبد إلّا الله ، ثم قال : ﴿ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ يقول تعالى إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ وهي الشفاعة ، وكل عسى في القرآن فهي واجبة ، وقال محمّد ابن إسحاق بن يسار رحمه الله : وعسى من الله حق .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ مسجد الله ﴾ وقرأ الباقون ﴿ مساجد ﴾ (انظر تقريب النشر ص : ٣١٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٣) وابن ماجه في سننه (٨٠٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٦٦/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣/٢) والهندي في كنز العمال (١٠٢٦) .

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۞ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : إن المشركين قالوا : عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره ، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم فقال لأهل الحرم من المشركين : ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۞ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال : ﴿ بِهِۦ سَٰمِرًا ﴾ كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ ، فخيَّر الله الإيمان والجهاد مع النبيّ ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ، ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به . قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلن تغن عنهم العمارة شيئًا .

وقال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني ، قال الله ﷻ : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يعني أن ذلك كله كان في الشرك ، ولا أقبل ما كان في الشرك . وقال الضحاك بن مزاحم : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك ، فقال العباس : أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج ، فأنزل الله ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾ الآية . وعن الشعبي قال : نزلت في علي والعباس ﷺ بما تكلما في ذلك . وعن الحسن قال : نزلت في علي وعباس وشيبة تكلموا في ذلك فقال العباس : ما أراني إلا أني تارك سقايتنا ، فقال رسول الله ﷺ : « أَقِيمُوا عَلَى سِقَايَتِكمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرًا » (١) .

وعن النعمان بن بشير الأنصاري قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه ، فقال رجل منهم : ما أبالي أن لا أعمل لله عملًا بعد الإسلام إلَّا أن أسقي الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر بن الخطاب ﷺ ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه ، قال : ففعل ، فأنزل الله ﷻ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي اختاروا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٢٤/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٩/٤) .

الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك . وروي الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال : جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (١) الآية . ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿ وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها أي إن كانت هذه الأشياء ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

وعن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلَّا من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ » . فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ : « الآنَ يَا عُمَرُ » (٢) . وفي الحديث أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (٣) وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ ، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ البَقَرِ ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لاَ يَنْزَعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ » (٤) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال ابن جريج عن مجاهد : هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره ، لا بعددهم ولا بُعددهم ، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر ، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئًا ، فولوا مدبرين إلَّا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلًا ، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعَةٌ ، وَخَيْرُ الجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ ، وَلَنْ تُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ » (٥) .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن ٩/٢٧ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٣٦) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٢٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٤) والنسائي في سننه (٥٠١٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣٤٦٢) وأحمد في مسنده ٢/٤٢ .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٩٤) وأبو داود في سننه (٢٦١١) والترمذي في سننه (١٥٥٥) والحاكم في المستدرك (١/٤٤٣) .

وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوزان جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ، ومعه ثقيف بكمالها ، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل ، وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر ، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ، وجاءوا بقضهم وقضيضهم ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين ، فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له : حنين ، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح ، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم ، فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله ﷻ ، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه - عليه الصلاة والسلام - ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول : « إِلَيَّ عِبَادَ اللّه ، إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللّه » . ويقول في تلك الحال : « أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ » [(١)] . وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون ، فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم ﷺ ، ثم أمر ﷺ عمّه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته : يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم : يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة : يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون : يا لبيك يا لبيك ، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ ، فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم - عليه الصلاة والسّلام - أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من تراب بعدما دعا ربه واستنصره ، وقال : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي » [(٢)] ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلّا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلّا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ .

وعن أبي عبد الرّحمن الفهري واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين ، فسرنا في يوم قائظ شديد الحر ، فنزلنا تحت ظلال الشجر ، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي ، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح ؟ فقال : « أَجَلْ »

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٣٠) ومسلم في الجهاد (٧٨ ، ٧٩) وأحمد في مسنده (٢٦٤/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد (٥٨) .

فقال «يَا بِلاَلُ» فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك وأنا فداؤك، فقال: «أَسْرِجْ لِي فَرَسِي» فأخرج سرجًا دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر، قال: فأسرج فركب وركبنا فصاففناهم عشيتنا وليلتنا، فتشامت الخيلان، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله تعالى ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» ثم قال: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» قال: ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفًّا من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» فهزمهم الله تعالى. قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابًا، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الجديد [1].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلًا قال له: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قومًا رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء، وهو يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِب، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب» [2] قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلًا عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي طمأنينته وثباته على رسوله ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين معه ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلًا من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدمًا، فحادت بغلته فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله، قال: «نَاوِلْنِي كَفًّا مِنَ التُّرَابِ». فناولته، قال: فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابًا، قال: «أَيْنَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ؟» قلت: هم هناك، قال: «اهْتِفْ بِهِمْ» فهتفت بهن فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، وولى المشركون أدبارهم [3].

وعن شيبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أدرك ثأري منه، قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائمًا عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت: عمه ولن يخذله، قال: فجئته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت: ابن عمه ولن يخذله،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٩٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٣٠٦).
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٠).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٥٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٨٠).

قال : فجئته من خلفه فلم يبق إلّا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن يخمشني ، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى فالتفت رسول الله ﷺ وقال : « يَا شَيْبَةُ يَا شَيْبَةُ ادْنُ مِنِّي اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الشَّيْطَانَ » . قال : فرفعت إليه بصري ولهو أحب إليّ من سمعي وبصري فقال : « يَا شَيْبَةُ قَاتِلِ الكُفَّارَ » (١) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » (٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يومًا ، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة فردّه عليهم ، وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناسًا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل ، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضري واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... فِي النَّاسِ كُلِّهِمُ بِمِثْلِ مُحَمَّدِ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدَى ... وَمَتَى يَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ
وَإِذَا الكَتِيبَةُ عَرَّدَتْ أَنْيَابَهَا ... بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ ... وَسْطَ المَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ .

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين الذين هم نجس دينًا عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية ، وكان نزولها في سنة تسع ، ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذٍ ، وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأتم الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا . وقد روي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَدْخُلُ مَسْجِدَنَا بَعْدَ عَامِنَا هَذَا مُشْرِكٌ إِلَّا أَهْلُ العَهْدِ وَخَدَمُهُمْ » (٣) .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي : كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ .

وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٦/٣) . (٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٢/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٤) .

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك ، كما ورد في الصحيح : « المؤمن لا ينجس » (١) وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ .

وقوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : وذلك أن الناس قالوا : لتقطعن عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق ، فأنزل الله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ من وجه غير ذلك ﴿ إِن شَاءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق ، فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ أي بما يصلحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه ، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله ، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ، وهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمّد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاءوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه ؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانًا صحيحًا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمّد ﷺ ؛ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه ، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل ، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين ؛ لأنه من عند الله ، بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، واستقامت جزيرة العرب ، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفًا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحر ، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، فنزل بها وأقام بها قريبًا من عشرين يومًا ، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس ، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس ، كما صح فيهم الحديث : أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر (٢) . وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه . وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل

(١) أخرجه : أبو داود في السنن (٢٣٠) وابن ماجه في السنن (٥٣٤) والنسائي في السنن ١/ ٥١ .
(٢) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة (٣١٥٧) .

يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ أي إن لم يسلموا ﴿ عَن يَدٍ ﴾ أي عن قهر لهم وغلبة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي ذليلون حقيرون مهانون ، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صغرة أشقياء ، كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لاَ تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلاَمِ ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِهِ » (١) ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ، ولا نحيي منها ما كان خططًا للمسلمين ، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا ، ولا نكتم غشًّا للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركًا ولا ندعوا إليه أحدًا ، ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام وإن أرادوه ، وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ، ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمور ، وأن نجز مقاديم رؤوسنا ، وأن نلزم زينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلَّا ضربًا خفيفًا ، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانين ولا بعوثًا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم . قال : فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدًا من المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة ،

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٣) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٦) والترمذي في سننه (١٦٠٢) .

والفرية على الله تعالى ، فأما اليهود فقالوا في العزير إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر ، ولهذا كذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ ﴾ أي يشابهون ﴿ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ قال ابن عبّاس : لعنهم الله ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟

وقوله : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ . روي عن عدي بن حاتم ﷺ أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام وكان قد تنصّر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسًا في قومه طيئ ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : « بلى إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِم الحَلالَ وَأَحَلُّوا لَهُم الحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ » وقال رسول الله ﷺ : « يَا عَدِيُّ مَا تَقُولُ ؟ أَيَضُرُّكَ أَنْ يُقَالَ : اللهُ أَكْبَرُ ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ اللهِ ، مَا يَضُرُّكَ ، أَيَضُرُّكَ أَنْ يُقَالَ : لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَهَلْ تَعْلَمُ إِلَهًا غَيْرَ اللهِ ؟ » (١) ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال : « إِن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » (٢) وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تعالى وتقدّس وتنزّه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، لا إله إلّا هو ولا رب سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخة ، وهذا لا سبيل إليه ، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لابد أن يتم ويظهر ؛ ولهذا قال تعالى مقابلًا لهم فيما راموه وأرادوه : ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ، ومنه سمي الليل كافرًا ؛ لأنه يستر الأشياء ، والزارع كافرًا ؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال : ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ، ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي على سائر الأديان ، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٧٨) .
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/٩٩) .

اللَّهُ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١) وعن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحي من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّهُ سَتُفْتَحُ لَكُمْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا ، وَإِنَّ عُمَّالَهَا فِي النَّارِ إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ » (٢) . عن تميم الداري ﷺ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّين ، يُعِزُّ عَزِيزًا وَيُذِلُّ ذَلِيلاً ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ » (٣) .

وعن عدي بن حاتم : دخلت على رسول اللَّه ﷺ فقال : « يَا عَدِيُّ أَسْلِمْ تَسْلَمْ » . فقلت : إني من أهل دين قال : « أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ » فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : « نَعَمْ أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ ؟ » قلت : بلى ! قال : « فَإِنَّ هَذَا لاَ يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ » قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال : « أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الإِسْلاَمِ ، تَقُولُ إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لاَ قُوَّةَ لَهُ ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ ، أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ ؟ » قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ ، حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ مِنْ غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ » قلت : كسرى ابن هرمز ؟ قال : « نَعَمْ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ » (٤) قال عدي بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول اللَّه ﷺ قد قالها . وعن عائشة ﵂ قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالْعُزَّى » فقلت : يا رسول اللَّه إن كنت لأظن حين أنزل اللَّه ﷻ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الآية ، أن ذلك تام ، قال : « إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ﷻ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَيَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيَبْقَى مَنْ لاَ خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ » (٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ .

قال السدي : الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى ، وهو كما قال ، فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ والرهبان عباد

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١٩) وأحمد في مسنده (٤/١٢٣) وأبو داود في السنن (٤٢٥٢) والترمذي في السنن (٢١٧٦) .
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٨٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (١/٥٦٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٠٣) والحاكم في المستدرك (٤/٤٣٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٧٨) والهندي في كنز العمال (٢٤ ، ٣٦ ، ٣٧) .
(٥) أخرجه مسلم في الفتن (٥٢) والحاكم في المستدرك (٤/٤٤٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١٨١) .

النصارى والقسيسون علماؤهم ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث : « لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القِذَّةِ بِالقِذَّةِ » قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : « فَمَنْ ؟ » وفي رواية : فارس والروم ؟ قال : « فمن الناس إلّا هؤلاء ؟ » (١) والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ، ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك ، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعًا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات ، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون ، بل هم دعاة إلى النار ويومَ القيامة لا ينصرون . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية . هؤلاء هم القسم الثالث من رءوس الناس ، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال ، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس .

وأما الكنز : فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر : هو المال الذي لا تؤدى زكاته (٢) . وقد روي هذا عن ابن عبّاس وجابر وأبي هريرة موقوفًا ومرفوعًا . وقال عمر ابن الخطاب نحوه : أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونًا في الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض (٣) . وعن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال (٤) . وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية . وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة ، ولنورد منها هنا طرفًا يدل على الباقي .

عن علي ﷺ في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ الآية . قال النبيّ ﷺ : « تَبًّا لِلذَّهَبِ ، تَبًّا لِلْفِضَّةِ » . يقولها ثلاثًا ، قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : فأي مال نتخذ ؟ فقال عمر ﷺ : أنا أعلم لكم ذلك ، فقال : يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم ، وقالوا : فأي المال نتخذ ؟ قال : « لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ » (٥) .

وعن حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس ﷺ في سفر فنزل منزلًا فقال لغلامه ائتنا بالشفرة نعبث بها ، فأنكرت عليه فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلّا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢١٨) والحاكم في المستدرك (١/١٢٩) .
(٢) أخرجه مالك في الموطأ ١/٢٥٦ . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٠/١٥٢) عن ابن عمر .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٦٦) والهندي في كنز العمال (٦١١٢) .

هذه فلا تحفظوها علي ، واحفظوا ما أقول لكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزُوا هَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا ، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُ لِمَا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتًا وتقريعًا وتهكمًا كما في قوله : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي هذا بذاك ، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم ، ولهذا يقال : من أحب شيئًا وقدمه على طاعة الله عُذِّب به ، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها ، كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدًا في عداوة رسول الله ﷺ وامرأته تعينه في ذلك ، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضًا في جيدها أي عنقها حبل من مسد ، أي تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه في الدنيا كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمى عليها في نار جهنم وناهيك بحرها ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يَتْبَعُهُ وَيَقُولُ : وَيْلَكَ مَا أَنْت ؟ فَيَقُولُ : أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ ، وَلاَ يَزَالُ يَتْبَعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضَمَهَا ، ثُمَّ يُتْبِعَها سَائِرَ جَسَدِهِ »(٢) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «مَا مِنْ رَجُلٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ : إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ »(٣) .

وقال البخاري في تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال : مررت على أبي ذر بالربذة فقلت : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فقال معاوية ما هذه فينا ، ما هذه إلا في أهل الكتاب ، قال : قلت : إنها لفينا وفيهم(٤) . وعن أبي ذر ﷺ فذكره ، وزاد : فارتفع في ذلك بيني وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إلي عثمان أن أقبل إليه ، قال : فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذٍ ، فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لي : تنح قريبًا ، قلت : والله لن أدع ما كنت أقول ، قلت : كان من مذهب أبي ذر ﷺ تحريم إدخار ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه ، فنهاه معاوية فلم ينته ، فخشي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٣/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٩/٢) والطبراني في المعجم الكبير (٨٦/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٤) والترمذي في السنن (٣٠١٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨١/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦٠) .

أن يضر بالناس في هذه ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة وحده ، وبها مات ﷺ في خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية ﷺ وهو عنده هل يوافق عمله قوله : فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ، ثم بعث إليه الذي أتاه بها : فقال : إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب ، فقال : ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به . وهكذا روي عن ابن عبّاس أنها عامة ، وقال السدي : هي في أهل القبلة ، وقال الأحنف بن قيس : قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش ؛ إذ جاء رجل أخشن الثياب ، أخشن الجسد ، أخشن الوجه ، فقام عليهم فقال : بشر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم ، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل ، قال : فوضع القوم رءوسهم فما رأيت أحدًا منهم رجع إليه شيئًا ، قال : فأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية ، فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال : إن هؤلاء لا يعلمون شيئًا (١) . وفي الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ قال لأبي ذر : « مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا يَمُرُّ عَلَيَّ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ ، إِلَّا دِينَارٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ » (٢) فهذا واللَّه أعلم هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا .

وعن عبد اللَّه بن الصامت ﷺ أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية ، فجعلت تقضي حوائجه ففضلت معها سبعة ، فأمرها أن تشتري به فلوسًا ، قال : قلت : لو ادخرته لحاجة بيوتك وللضيف ينزل بك ، قال : إن خليلي عهد إلي أن أيما ذهب أو فضة أوكئ عليه فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه في سبيل اللَّه ﷻ (٣) .

وعن يزيد بن الصرم قال : سمعت عليًا ﷺ يقول : مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول اللَّه ﷺ : « كَيَّتَانِ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ » (٤) .

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

عن أبي بكرة أن النبيّ ﷺ خطب في حجته فقال : « أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ : ذُو الْقِعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ » ثم قال : « أَلَا أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ » قلنا : اللَّه ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ » قلنا : بلى ، ثم قال : « أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » . قلنا : اللَّه ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ ؟ » قلنا : بلى ، ثم قال : « أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » قلنا : اللَّه ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أَلَيْسَت الْبَلْدَةَ ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - وأحسبه قال : وأعراضكم - عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا . وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، أَلَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٦٩/٥ ، والبيهقي في السنن ٣٥٩/٦ بنحوه .
(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٧٥/٥ . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠١/١) .

هَلْ بَلَّغْتُ ، أَلا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنكُمُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ مَنْ يُبَلِّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ » (١)

وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ قال : محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة .
وقوله ﷺ في الحديث : « إِنَّ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ » تقرير منه صلوات اللَّه وسلامه عليه ، وتثبيت للأمر على ما جعله اللَّه في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسيء ولا تبديل ، كما قال في تحريم مكة : « إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (٢) وهكذا قال ههنا : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلقَ اللَّهُ السَّمواتِ وَالأَرْضَ » أي الأمر اليوم شرعًا كما ابتدع اللَّه ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض . وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث : إن المراد بقوله : « قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمواتِ والأَرْضَ » أنه اتفق أنه حج رسول اللَّه ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة ، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة ، وزعموا أن حجة الصدّيق في سنة تسع كانت في ذي القعدة ، وفي هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء . وأغرب منه ما رواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع ، واللَّه أعلم .

فصل : ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه (المشهور في أسماء الأيام والشهور) أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرًا محرمًا ، وعندي أنه سمي بذلك تأكيدًا لتحريمه ؛ لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عامًا وتحرمه عامًا ، ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم . وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار ، يقال : صفر المكان إذ خلا ، ويجمع على أصفار كجمل وأجمال . وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتباعهم فيه ، والارتباع الإقامة في عمارة الربع ، ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء ، وعلى أربعة كرغيف وأرغفة . وربيع الآخر كالأول . جمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه ، قال : وكانت الشهور في حسابهم لا تدور ، وفي هذا نظر ؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة فلابد من دورانها ، فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء في البرد كما قال الشاعر :

وَلَيْلَةٍ مِنْ جُمَادى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ ... لاَ يُبْصِرُ العَبْدُ فِي ظَلْمَائِهَا الطُّنُبا
وَلاَ يَنْبَحُ الكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ ... حَتَّى يَلُفَّ عَلَى خُرْطُومِهِ الذَّنبا

ويجمع على جماديات كحبارى وحباريات ، وقد يذكر ويؤنث فيقال : جمادى الأولى والأول ، وجمادى الآخر والآخرة . رجب من الترجيب وهو التعظيم ، ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات . شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ، ويجمع على شعابين وشعبانات . رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر ، يقال : رمضت الفصال إذا عطشت ، ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة ، قال : وقول من قال : إنه اسم من أسماء اللَّه خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه ، قلت : قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته في أول كتاب الصيام . شوال من شالت الإبل أذنابها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣٤/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥٩/١ ، والبيهقي في السنن ١٩٥/٥ .

للطراق ، قال : ويجمع على شواول وشواويل وشوالات . القعدة بفتح القاف ، قلت : وكسرها ، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، ويجمع على ذوات القعدة ، الحجة بكسر الحاء ، قلت : وفتحها ، سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه ، ويجمع على ذوات الحجة .

أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأوحاد ووحود ، ثم يوم الاثنين ويجمع على أثانين . الثلاثاء يمد ويذكر ويؤنث ، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث . ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعات وأرابيع . والخميس يجمع على أخمسة وأخامس . ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضًا ويجمع على جمع وجماعات ، السبت مأخوذة من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده ، وكانت العرب تسمي الأيام أول ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار ، قال الشاعر من العرب العرباء العاربة المتقدمين :

أُرَجِّي أَنْ أَعِيشَ وَإِنَّ يَوْمِي ... بِأَوَّلَ أَوْ بِأَهْوَنَ أَوْ جُبَارُ
أَوِ التَّالِي دُبَارَ فَإِنْ أَفُتْهُ ... فَمُؤْنِسَ أَوْ عَرُوبَةُ أَوْ شِيَارُ

وقوله تعالى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضًا في الجاهلية تحرمه ، وهو الذي كان عليه جمهورهم ، إلا طائفة منهم يقال لهم : البسل ، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقًا وتشديدًا . وأما قوله : « ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » فإنما أضافة إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان ، لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم ، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ، ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرًا وهو ذو القعدة ؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال ، وحرم شهر ذي الحجة ؛ لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك ، وحرم بعده شهرًا آخر وهو المحرم ؛ ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة ؛ لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها ، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال : في الشهور كلها ، وقال ابن عبّاس : فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن ، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرامًا وعظم حرماتهن ، وجعل الذنب فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم . وقال قتادة في قوله : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ إن الظلم في الأشهر الحرام أعظم خطيئة ووزرًا من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا ، ولكن الله

يعظم من أمره ما يشاء . وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا تجعلوا حرامها حلالًا ولا حلالها حرامًا كما فعل أهل الشرك ، فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية .

وقوله ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أي جميعكم ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أي جميعًا ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين :

أحدهما : وهو الأشهر أنه منسوخ ؛ لأنه تعالى قال ههنا : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرًا عامًّا ، ولو كان محرمًا في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها ، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى هوازن في شوال ، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلَّهم لجأوا إلى الطائف ، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يومًا وانصرف ولم يفتتحها ، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام .

والقول الآخر : أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام ، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ وقال ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية . وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ، ويكون من باب التهييج والتحضيض ، أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم ، فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم إذا حاربتموهم ، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ الآية ، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تتمة قتال هوزان وأحلافها من ثقيف ، فإنهم هم الذين ابتدأوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال ، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم ، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم ، فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة ، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبًا من أربعين يومًا ، وكان ابتداؤه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أيامًا ، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة ، والله أعلم .

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ؛ فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر ، فيحلون الشهر الحرام

ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة .

عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ قال : النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينادي ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال ، فيحله للناس ، فيحرم صفرًا عامًا ، ويحرم المحرم عامًا ، فذلك قول الله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ يقول : يتركون المحرم عامًا وعامًا يحرمونه ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ الآية ، قال : هذا رجل من بني كنانة يقال له : القلمس ، وكان في الجاهلية ، وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام ، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده ، فلما كان هو قال : اخرجوا بنا ، قالوا له : هذا المحرم ، قال : ننسئه العام ، هما صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين ، قال : ففعل ذلك ، فلما كان عام قابل قال : لا تغزوا في صفر حرموه مع المحرم هما محرمان ، فهذه صفة غريبة في النسيء وفيها نظر ؛ لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط ، وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر ، فأين هذا من قوله تعالى : ﴿ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ ؟ .

وعن ابن عمر أنه قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا ﴾ فكانوا يحرمون المحرم عامًا ويستحلون صفر ، ويستحلون المحرم وهو النسيء . وقد تكلم الإمام محمّد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة فقال : كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله ﷻ القلمس ، وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ، ثم من بعد عباد ابنه قلع ، ثم ابنه أمية ، ثم ابنه عوف ، ثم ابنه أبو ثمامة جناده بن عوف ؛ وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيبًا فحرم رجبًا وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عامًا ويجعل مكانه صفر ، ويحرمه عامًا ليواطئ عدة ما حرم الله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيظ ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي ما لكم فعلتم هكذا رضًا منكم بالدنيا بدلًا من الآخرة ؟ ثم زهّد تبارك وتعالى في الدنيا ، ورغّب في الآخرة فقال : ﴿ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ كما روي عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا

تَرْجِعُ » . وأشار بالسبابة (١) . وعن أبي عثمان قال : قلت : يا أبا هريرة سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول : سمعت نبي الله يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُجْزِي بِالحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ » قال أبو هريرة : بل سمعت رسول الله يقول « إِنَّ اللَّهَ يُجْزِي بِالحَسَنَةِ أَلْفَيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ » (٢) ثم تلا هذه الآية ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل .

وعن الأعمش في الآية ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال : كزاد الراكب . ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال : ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حيًّا من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي لنصرة نبيه وإقامة دينه ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ﴾ أي ولا تضروا الله شيئًا بتوليكم عن الجهاد ، ونكولكم وتثاقلكم عنه ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم ، وقد قيل : إن هذه الآية وقوله : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أنهن منسوخات بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ روي هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم ، ورده ابن جرير وقال : إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك ، فلو تركوه لعوقبوا عليه ، وهذا له اتجاه ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي عام الهجرة ، لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربًا ، بصحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة ، فجعل أبو بكر ﷺ يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - منهم أذى . عن أنس أن أبا بكر حدَّثه قال : قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، قال : فقال : « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا » (٣) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ أي تأييده ونصره عليه ، أي على الرسول ﷺ في أشهر القولين ، وقيل : على أبي بكر ، وروي عن ابن عباس وغيره قالوا : لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة ، وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ، ولهذا قال : ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أي الملائكة ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ قال ابن عباس : يعني كلمة الذين كفروا : الشرك ، وكلمة الله هي لا إله إلَّا الله . وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٩/٤) والترمذي في السنن (٢٣٢٣) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣٩/٣) .
(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١) وأحمد في مسنده (٤/١) والترمذي في السنن (٣٠٩٦) .

يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال : «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (١) وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي في انتقامه وانتصاره ، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه ، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أقواله وأفعاله .

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال أبو الضحى مسلم بن صبيح : هذه الآية ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ أول ما نزل من سورة براءة ، وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم حضرمي أنه ذكر له أن ناسًا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلًا وكبيرًا فيقول : إني لا آثم ، فأنزل الله ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ الآية ، أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر فقال : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وعن أبي طلحة : كهولًا وشبانًا ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل ، وفي رواية : قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبانًا جهزوني يا بني ، فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك فأبى ، فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلّا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها . وقال مجاهد : شبانًا وشيوخًا وأغنياء ومساكين ، وقال ابن عبّاس : انفروا نشاطًا وغير نشاط .

وقال السدي : غنيًّا وفقيرًا وقويًّا وضعيفًا ، فجاءه رجل يومئذٍ زعموا أنه المقداد – وكان عظيمًا سمينًا – فشكا إليه وسأله أن يأذن له ، فأبى ، فنزلت يومئذٍ : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله فقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ وعن محمّد قال : شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلّا عامًا واحدًا ، وكان أبو أيوب يقول : قال الله تعالى ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فلا أجدني إلّا خفيفًا أو ثقيلًا (٢) .

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله فقال : ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة ؛ لأنكم تغرمون في النفقة قليلًا فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا ، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة ، كما قال النبيّ ﷺ : «تَكَفَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » (٣) ولهذا قال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٠) ومسلم في الإمارة (١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٠/١٨٠) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٧) ومسلم في الإمارة (٢٨) ومالك في الموطأ (٤٤٣) .

تَعْلَمُونَ ﴾ ومن هذا القبيل ما روي عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل : « أَسْلِمْ » قال أجدني كارهًا ، قال : « أَسْلِمْ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا » (١) .

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى موبخًا للذين تخلفوا عن النبيّ ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ قال ابن عبّاس : غنيمة قريبة ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أي قريبًا أيضًا ﴿ لَّاتَّبَعُوكَ ﴾ : أي لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي لكم إذا رجعتم إليهم ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم. قال الله تعالى : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ .

عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاينة ، فقال : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ . وقال قتادة : عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ الآية . وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي في إبداء الأعذار ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرّين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، فقال : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ أي في القعود ممن لا عذر له ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي شكت في صحة ما جئتهم به ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي يتحيرون يقدمون رجلًا ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قدم ثابتة في شيء ، فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ أي معك إلى الغزو ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أي لكانوا تأهبوا له

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٠٩) والهندي في كنز العمال (٤١٠).

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قدرًا ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي أخرهم ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ أي قدرًا . ثم بيَّن تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أي لأنهم جبناء مخذولون ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم ، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام في جميع الأحوال ، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ .

يقول تعالى محرضًا لنبيه عليه الصلاة والسّلام على المنافقين ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾ أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة ، وذلك أول مقدم النبيّ ﷺ بالمدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره اللَّه يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد اللَّه بن أُبيّ وأصحابه : هذا أمر قد توجه ، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا ، ثم كلما أعزّ اللَّه الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك : يا محمّد ﴿ ٱئْذَن لِّي ﴾ في القعود ﴿ وَلَا تَفْتِنِّيٓ ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم . قال اللَّه تعالى : ﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا ، كما قال محمّد بن إسحاق عن عاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول اللَّه ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة : « هَلْ لَكَ يَا جَدُّ العَامَ فِي جِلَادِ بَنِي الأَصْفَرِ ؟ » فقال : يا رسول اللَّه أو تأذن لي ولا تفتني ، فواللَّه لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول اللَّه ﷺ وقال : « قَدْ أَذِنْتُ لَكَ » (١) ففي الجد بن قيس نزلت هذه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ﴾ الآية ، أي : إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول اللَّه ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وهكذا روي عن ابن عبّاس أنها نزلت في الجد بن قيس ، وقد كان الجد ابن قيس هذا من أشراف بني سلمة . وفي الحديث أن رسول اللَّه ﷺ قال لهم : « مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ ؟ » قالوا : الجد بن قيس على أنا نبخله . فقال رسول اللَّه ﷺ : « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوأُ مِنَ البُخْلِ ، وَلَكِنْ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٠/١٩١) .

سَيِّدُكُمُ الفَتَى الجَعْدُ الأَبْيَضُ بِشْرُ بْنُ البَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ »[١] وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب .

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

يعلم تبارك وتعالى نبيّه ﷺ بعداوة هؤلاء له ؛ لأنه مهما أصابه من حسنة ، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال : ﴿ قُل ﴾ أي لهم ﴿ لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره ﴿ هُوَ مَوْلَىٰنَا ﴾ أي سيدنا وملجؤنا ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمّد ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾ أي تنتظرون بنا ﴿ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ أي ننتظر بكم ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أي ننتظر بكم هذا أو هذا إما ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ بسبي أو بقتل ﴿ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ نفقة ﴿ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ : أن الله لا يمل حتى تملوا[٢] . وأن الله طيب لا يقبل إلّا طيبًا[٣] . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملًا ؛ لأنه إنما يتقبّل من المتقين .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قال الحسن البصري : بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله ، وقال قتادة : هذا من المقدم

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨١/١٩) والحاكم في المستدرك (٢١٩/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٣) ومسلم في المسافرين (٢١٥) وأحمد في مسنده (٤٠/٦) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٤٦/٣) وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) .

والمؤخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة .
وقوله : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم ، عياذًا بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ .

يخبر تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ يمينًا مؤكدة ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أي في نفس الأمر ﴿ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ أي حصنًا يتحصنون به ، وحرزًا يتحرزون به ﴿ أَوْ مَغَٰرَٰتٍ ﴾ وهي التي في الجبال ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ وهو السرب في الأرض والنفق قال ذلك في الثلاثة ابن عبّاس ومجاهد وقتادة ﴿ لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم ؛ لأنهم إنما يخالطونكم كرهًا لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك ، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ، ولهذا قال ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُم ﴾ أي من المنافقين ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ أي يعيب عليك ﴿ فِى ﴾ قسم ﴿ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ؛ ولهذا إن أعطوا من الزكاة ﴿ رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي يغضبون لأنفسهم . عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبيّ ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له : اعدل فإنك لم تعدل ، فقال : « لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ » ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفيًا : « إِنَّه يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِي هَذَا قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعْ صَلاتِهِمْ ، وَصِيَامَهُ مَعْ صِيَامِهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَأَيْنَما لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ » (١) . ثم قال تعالى منبهًا لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبًا عظيمًا وسرًّا شريفًا ، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله : ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وتصديق أخباره ، والاقتفاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبيّ ﷺ ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات . بيّن تعالى

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٢) وأحمد في مسنده (٣٥٣/٣) .

أنه هو الذي قسمها وبيّن حكمها وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره ، فجزأها لهؤلاء المذكورين كما روي عن زياد بن الحارث الصدائي ﷺ قال : أتيت النبيّ ﷺ فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطني من الصدقة ، فقال له : « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلاَ غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ » (١) . وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين :

أحدهما : أنه يجب ذلك ، وهو قول الشافعي وجماعة .

والثاني : أنه لا يجب استيعابها ، بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين ، وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عبّاس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران ، وقال ابن جرير : وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعابها .

وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية ؛ لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ، ولشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالًا من الفقير وهو كما قال أحمد . وعن محمّد قال : قال عمر ﷺ : الفقير ليس بالذي لا مال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب . وروي عن ابن عبّاس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد . واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئًا ، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس (٢) . ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية .

فأما الفقراء : فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ ، وَلاَ لِذِي مرة سَوِيٍّ » (٣) وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلّب فيهما البصر فرآهما جلدين فقال : « إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا وَلاَ حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلاَ لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ » (٤) .

وأما المساكين : فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ : « لَيْسَ المِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ » قَالُوا : فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّه ؟ قَالَ : « الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا » (٥) .

وأما العاملون عليها : فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطًا على ذلك ، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة ، لما ورد عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة ، فقال : « إِنَّ الصَّدَقَةَ لاَ تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلاَ لِآلِ مُحَمَّدٍ ؛ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ » (٦) .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٦٣٠) والدارقطني في السنن (١٣٧/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٧٤/٤) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٣/١٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/٢) وأبو داود في السنن (١٦٣٤) والترمذي في السنن (٦٥٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٤/٤) والنسائي في السنن (٢٥٩٨) والدارقطني في السنن (١١٩/٢) .
(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٦) ومسلم في الزكاة (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢٦٠/٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/٢) والطبراني في الكبير (٧٧/٣) .

وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام : منهم من يعطى ليسلم ، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد كان شهدها مشركًا ، عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليَّ ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ ، ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ، ويثبت قلبه ، كما أعطى يوم حنين أيضًا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل ، وقال : « إِنِّي لأعطي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ »[(١)] . وعن أبي سعيد : أن عليًا بعث إلى النبيّ ﷺ بذهيبة في تربتها من اليمن ، فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال : « أَتَأَلَّفُهُمْ »[(٢)] . ومنهم من يعطي لما يرجى من إسلام نظرائه . ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد . ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع ، والله أعلم .

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبيّ ﷺ ؟ فيه خلاف : فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده ؛ لأن الله قد أعزّ الإسلام وأهله ، ومكن لهم في البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون : بل يعطون ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن ، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم .

وأما الرقاب : فروي عن الحسن البصري وسعيد بن جبير أنهم المكاتبون ، وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما . وقال ابن عبّاس والحسن : لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق ، أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالًا ، وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة ، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضوًا من معتقها ، حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلّا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . عن أبي هريرة ﷺ أن النبيّ ﷺ قال : « ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ : الغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّه ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ »[(٣)] . وعن البراء بن عازب قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله دلني على عمل يقرّبني من الجنّة ويباعدني من النار فقال : « أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ » فقال : يا رسول الله أو ليسا واحدًا ؟ قال : « لاَ ، عِتْقُ النَّسَمَةِ أَنْ تفرد بِعِتْقِهَا ، وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تعينَ فِي ثَمَنِهَا »[(٤)] .

وأما الغارمون : فهم أقسام ؛ فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن دينًا فلزمه ، فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه ، أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم ، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال : « أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرُ لَكَ بِهَا » قال : ثم قال : « يَا قُبَيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلَّا لِأَحدِ ثَلاثَة : رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسكَ ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣٦) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) ومسلم في الزكاة (١٤٣) وأحمد في مسنده (٣/٦٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٥١) والنسائي في السنن (٣٢١٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٩٩) والدارقطني في السنن (٢/١٣٥) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٧٣) .

الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَو قَالَ : سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَا مِنْ قَرَابَةِ قَومِهِ ، فَيَقُولُونَ : لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَو قَالَ : سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ المَسْأَلَةِ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا » (١) . وعن أبي سعيد قال : أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه ، فقال النبيّ ﷺ : « تَصَدَّقُوا عَلَيهِ » فتصدَّق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه ، فقال النبيّ ﷺ لغرمائه : « خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَلَيسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ » (٢) . وعن عبد الرَّحمن بن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « يَدْعُو اللَّهُ لِصَاحِبِ الدَّينِ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفَ بَينَ يَدَيهِ فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ فِيمَ أَخَذْتَ هَذَا الدَّينَ وَفِيمَ ضَيَّعْتَ حُقُوقَ النَّاسِ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَخَذْتُهُ فَلَمْ آكُلْ وَلَمْ أَشْرَبْ وَلَمْ أُضَيِّعْ ، وَلَكِنْ أَتَى عَلَى يَدَيَّ إِمَّا حَرَقٌ ، وَإِمَّا سَرَقٌ ، وَإِمَّا وَضِيعَةٌ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : صَدَقَ عَبْدِي أَنَا أَحَقُّ مَنْ قَضَى عَنْكَ اليَومَ ، فَيَدْعُو اللَّهُ بِشَيءٍ فَيَضَعُهُ فِي كِفَّةِ مِيزَانِهِ فَتَرْجَحُ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ » (٣) .

وأما في سبيل الله : فمنهم الغزاة الذين لاحق لهم في الديوان . وعند الإمام أحمد والحسن بن إسحاق : والحج من سبيل الله للحديث ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء ، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه . والدليل على ذلك الآية ، وعن أبي سعيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ : العَامِلِ عَلَيهَا ، أَو رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ ، أَو غَارِمٍ ، أَو غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَو مِسْكِينٍ تُصُدِّقَ عَلَيهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِغَنِيٍّ » (٤) . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، أَو جَارٍ فَقِيرٍ ، فَيُهْدِي لَكَ أَو يَدْعُوكَ » (٥) .

وقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي حكمًا مقدرًا بتقدير اللهِ وفرضه وقسمه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به لا إله إلّا هو ولا رب سواه .

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي من قال له شيئًا صدّقه فينا ، ومن حدّثه صدقه ، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . روي معناه عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٩) وأبو داود في السنن (١٦٤٠) والنسائي في السنن (٢٥٨٠) .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٨) وأحمد في مسنده (٣٦/٣) وأبو داود في السنن (٣٤٦٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٨/١) والهندي في كنز العمال (١٥٥١٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٤/٢) وابن ماجه في السنن (١٨٤١) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٤١) وأبو داود في السنن (١٦٣٤) .

الكاذب ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ﴾ أي وهو حجة على الكافرين ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ الآية : ذكر لنا أن رجلًا من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمّد حقًا لهم شر من الحمير ، قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمّد لحق ولأنت أشر من الحمار ، قال : فسعى بها الرجل إلى النبيّ ﷺ فأخبروه فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : « مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ ؟ » فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللّهمّ صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب ، فأنزل الله الآية (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية : أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادَّ الله ﷻ أي شاقه وحاربه وخالفه ، وكان في حد ، والله ورسوله في حد ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ﴾ أي مهانًا معذبًا ﴿ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير .

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ .

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون : عسى الله أن لا يفشي علينا سرّنا هذا ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وقال في هذه الآية : ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبيّن له أمركم ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ الآية ، لهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة الفاضحة ، فاضحة المنافقين .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

عن محمّد بن كعب القرظي وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءنا هؤلاء إلّا أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ (٢) .

وقال قتادة : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ قال : فبينما النبيّ ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه ، فقالوا : يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها

---

(١) أخرجه : البيهقي في دلائل النبوة (١٣٤) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٠/٢٢١) .

هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا فقال : « عَلَيَّ بِهَؤُلَاءِ النَّفَرِ » فدعاهم فقال : « قُلْتُمْ : كَذَا وَكَذَا ؟ » فحلفوا ما كنا إلّا نخوض ونلعب (١) . قال عكرمة في تفسير هذه الآية : كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : اللهم إني أسمع آية أنا أعني بها تقشعر منها الجلود ، وتجل منها القلوب ، اللّهم فاجعل وفاتي قتلًا في سبيلك ، لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت . قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما من أحد من المسلمين إلّا وقد وجد غيره .

وقوله : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ ﴾ أي لا يعفى عن جمعكم ولابد من عذاب بعضكم ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ ﴾ أي عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿ فَنَسِيَهُمْ ۗ ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق ، الداخلون في طريق الضلالة . وقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾ أي ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ ﴾ أي كفايتهم في العذاب ﴿ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم . وقوله : ﴿ بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ قال الحسن : بدينهم . وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ أي في الكذب والباطل ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآية ، قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّهُمْ حَتَّى لَو دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » (٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ وَبَاعًا بِبَاعٍ ، حَتَّى لَو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٠/٢٢٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٢٧) .

لَدَخَلْتُمُوهُ » قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب : قال : « فَمَنْ ؟ » (١)

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى واعظًا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿ وَعَادٍ ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هودًا عليه السلام ﴿ وَثَمُودَ ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم ، وأهلك ملكهم نمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن ، وقال في الآية الأخرى ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ أي الأمة المؤتفكة وقيل : أم قراهم ، وهي سدوم ، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطًا عليه السلام ، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي بإهلاكه إياهم ؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون ، كما جاء في الحديث : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » (٢) وشبك بين أصابعه . وفي الحديث أيضًا : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » (٣) وقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيما أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي يعز من أطاعه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة ، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٦) ومسلم في العلم (٦) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) وأحمد في مسنده (٤/٤٠٤) والترمذي في السنن (١٩٢٨) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٤/٢٧٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٣٥٣) .

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء عن عبد الله بن قيس الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ القوم وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدنَ » (١) . وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا ، فِي السَّمَاءِ ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيهِمْ لاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا » (٢) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَو حُبِسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » . قالوا : يا رسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال : « إِنَّ فِي الجَنَّةِ مائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوسَ فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ وَأَوسَطُ الجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ ، وَفَوقَهُ عَرْشُ الرَّحْمنِ » (٣) . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءُونَ الغُرَفَ فِي الجَنَّةِ كَمَا تَرَونَ الكَوكَبَ فِي السَّمَاءِ » (٤) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَسَلُوا اللَّهَ لِيَ الوَسِيلَةَ » قيل : يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال : « أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ لاَ يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ » (٥) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبيّ ﷺ يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا لِيَ الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّه ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيهِ الشَّفَاعَةُ يَومَ القِيَامَةِ » (٦) . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ ، وَمِلاَطُهَا المِسْكُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ ، وَيَخْلُدُ لاَ يَمُوتُ ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ » (٧) . وعن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا » فقام أعرابي فقال : يا رسول الله لمن هي ؟ فقال : « لِمَنْ طَيَّبَ الكَلاَمَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى بِاللَّيلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » (٨) . وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلاَ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٤) ومسلم في الإيمان (٢٩٦) وابن ماجه في السنن (١٨٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٢٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٧٩٠) وأحمد في مسنده (٣٣٥/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ومسلم في الجنة (١١) والطبراني في المعجم الكبير (١٧٣/٦) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٢) .
(٦) أخرجه مسلم في الصلاة (١١) وأبو داود في السنن (٥٢٣) والترمذي في السنن (٣١٦٤) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٢) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) .
(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٧) والهندي في كنز العمال (٤٤٣٠٦) .

هَلْ مِنْ مُشَمِّرٍ إِلَى الجَنَّةِ ؟ فَإِنَّ الجَنَّةَ لاَ خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ ، وَرَيحَانَةٌ تَهْتَزُّ ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ ، وَمُقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ وَخُضْرَةٌ وَحُبْرَةٌ ، وَنِعْمَةٌ فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ » قالوا : نعم يا رسول اللّٰه نحن المشمرون لها ، قال : « قُولُوا : إِنْ شَاءَ اللّٰه » . فقال القوم : إن شاء اللّٰه [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي رضا اللّٰه عنهم أكبر وأجلّ وأعظم ممّا هم فيه من النعيم ، كما روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إِنَّ اللّٰه ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيكَ وَالخَيرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أَعْطَيتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبُّ وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » [٢] . وعن جابر بن عبد اللّٰه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ قَالَ اللّٰه ﷻ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيئًا فَأَزِيدَكُم ؟ قَالُوا : يَا رَبَّنَا مَا خَيرٌ مِمَّا أَعْطَيتَنَا ؟ قَالَ : رِضْوَانِي أَكْبَرُ » [٣] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة ، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول اللّٰه ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ وسيف للمنافقين ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ وسيف للبغاة ﴿ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ . وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير . وقال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ قال : بيده ، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه . وقال ابن عبّاس : أمره اللّٰه تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان ، وأذهب الرفق عنهم ، وقال الضحاك : جاهد الكفار بالسيف وأغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم . وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم .

وقوله : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ قال قتادة : نزلت في عبد اللّٰه بن أُبي وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبد اللّٰه للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ؟ واللّٰه ما مثلنا ومثل محمّد إلّا كما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك ،

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٣٣٢) والهندي في كنز العمال (١٣٣٦) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٥٧١٨) ومسلم في الجنة (٩) وأحمد في مسنده (٨٨/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٤) ومسلم في الإيمان (٢٩٧) والحاكم في المستدرك (٨٢/١) .

وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبيّ ﷺ ، فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية . وعن عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك ﷺ يقول : حزنت على من أصيب بالحرة من قومي ، فكتب إليّ زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَلأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ »(١) . وشك ابن الفضل في أبناء الأنصار ، قال ابن الفضل : فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال : هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أَوْفَى اللهُ لَهُ بِإِذْنِهِ » . قال : وذلك حين سمع رجلًا من المنافقين يقول : ورسول الله ﷺ يخطب لئن كان صادقًا فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم : فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار ، ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحده القائل ، فأنزل الله هذه الآية تصديقًا لزيد ، يعني قوله ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ الآية .

وقال محمّد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له : عمير بن سعد فأنكرها ، فحلف بالله ما قالها ، فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسًا تحت ظل شجرة فقال : «إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ فَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيِ الشَّيْطَانِ ، فَإِذَا جَاءَ فَلاَ تُكَلِّمُوهُ »فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : «علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ »فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم فأنزل الله ﷻ ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ الآية (٢) .

وقوله : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ قيل : أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه همّ بقتل ابن امرأته حين قال : لأخبرن رسول الله ﷺ ، وقيل : في عبد الله بن أبيّ : همّ بقتل رسول الله ﷺ ، وقال السدي : نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ ، وقد ورد أن نفرًا من المنافقين همّوا بالفتك بالنبيّ ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلًا . وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده ، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبًا قد اعترضوه فيها ، قال : فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، وصرخ بهم ، فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ: « هَلْ عَرَفْتُمُ القَوْمَ ؟ »قلنا : لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب قال : « هَؤُلاَءِ المُنَافِقُونَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا أَرَادُوا ؟ »قلنا : لا ، قال : «أَرَادُوا أَنْ يُزَاحِمُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي العَقَبَةِ فَيُلْقُوهُ مِنْهَا »قلنا : يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : « لاَ ، أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ العَرَبُ بَيْنَهَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَاتَلَ بِقَوْمٍ ، حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ »ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ ارْمِهِمْ بِالدُّبَيْلَةِ » . قلنا : يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال : « شِهَابٌ مِنْ نَارٍ يَقَعُ عَلَى نِيَاطِ قَلْبِ أَحَدِهِمْ فَيَهْلِكُ » (٣) .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨٧/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٠/١٠ ، ٤١).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/١) والحاكم في المستدرك (٤٨٢/٢).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٣/٥).

ويشهد لهذه القصة ما روي عن أبي الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك ، فقال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم ، وقد كان في حرة يمشي فقال : « إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد ، فوجد قومًا قد سبقوه فلعنهم يومئذٍ » (١) . وروي عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدُونَ رِيحَهَا حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ : ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تكفيكهم الدُّبَيْلَةُ ، سِرَاجٌ مِنْ نَارٍ يَظْهَرُ بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ حَتَّى يَنْجُمَ فِي صُدُورِهِمْ » (٢) ولهذا كان حذيفة يقال له : صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ ﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ للأنصار : « أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي ؟ » (٣) . كلما قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أمنّ (٤) وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ الآية ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ » (٥) . ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ أي وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذابًا أليمًا في الدنيا أي بالقتل والهم والغم ، والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرًا ولا يدفع عنهم شرًا .

﴿ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ .

يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقًا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله ﷻ يوم القيامة عياذًا بالله من ذلك . وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عبّاس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري (٦) ،

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١١) وأحمد في مسنده (٣٩١/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٩) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٥) والبيهقي في السنن الكبرى (١٩٨/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٤/٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (١٣٩) وأحمد في مسنده ٧/٣ .

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (١١) وأبو داود في سننه (١٦٢٣) والنسائي في سننه (٢٤٦٤) .

(٦) قال ابن حجر في الإصابة بعد إيرد الرواية الورادة عن ابن عبّاس بأنه ثعلبة بن حاطب الأنصارى البدري : (وقد ثبت أنه ﷺ قال : « لا يدخل النار أحدٌ شهد بدرًا والحديبية » وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه وينزل فيه ما نزل ؛ الظاهر أنه غيره والله أعلم . الإصابة (٢٠٦/١) .

وقد ورد فيه حديث عن ثعلبة أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقني مالًا ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَ تُطِيقُهُ » قال : ثم قال مرة أخرى فقال : « أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللَّهِ ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ الجِبَالُ مَعِي ذَهَبًا وَفِضَّةً لَسَارَتْ » قال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالًا لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالًا » قال : فاتخذ غنمًا فنمت كما ينمى الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها فنزل واديًا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمى كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا فَعَلَ ثَعْلَبَةُ ؟ » . فقالوا : يا رسول الله اتخذ غنمًا فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره ، فقال : « يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ، يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ، يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ » . وأنزل الله ﷻ ثناؤه : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية ، ونزلت فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلًا من جهينة ورجلًا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : « مُرَّا بِثَعْلَبَةَ وَبِفُلاَنٍ - رَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ - فَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا » فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليَّ ، فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك ، فقال : بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة ، وإنما هي له ، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أروني كتابكما فقرأه فقال : ما هذا إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال : « يَا وَيْحُ ثَعْلَبَة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة ، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي . فأنزل الله ﷻ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ الآية ، قال : وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبيَّ ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : « إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله ﷺ : « هَذَا عَمَلُكَ قَدْ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي » فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا ، ثم أتى أبا بكر ﵁ حين استخلف فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ : وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها ، فلما ولي عمر ﵁ أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك ؟! فقبض ولم يقبلها ، فلما ولي عثمان ﵁ أتاه فقال : اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟! فلم يقبلها منه ، فهلك ثعلبة في خلافة عثمان [1] .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٦٠/٨ ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١/٧) .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ الآية ، أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » (١) .

قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ الآية ، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم ؛ لأنه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن .

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وهذا أيضًا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشيء يسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . كما روي عن أبي مسعود ﷺ قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا : مرائي ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . فنزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الآية (٢) . وعن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال : حدَّثني أبي - أو عمي - أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول : « مَنْ يَتَصَدَّق بِصَدَقَةٍ أَشْهَد لَهُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ ؟ » . قال : فحللت من عمامتي لوثًا أو لوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما ، فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلًا أشد سوادًا ولا أصغر منه ولا أذم ، ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال : يا رسول الله أصدقة ؟ قال : « نعم » قال : دونك هذه الناقة ، قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه ؟! فوالله لهي خير منه ، قال : فسمعها رسول الله ﷺ فقال : « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ، ثم قال : « وَيْلٌ لِأَصْحَابِ المِئِينَ مِنَ الإِبِلِ » ثلاثًا ، قالوا : إلا من يا رسول الله ؟ قال : « إِلَّا مَنْ قَالَ بِالمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا » . وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال : « قَدْ أَفْلَحَ المُزْهِدُ المُجْهِدُ » ثلاثًا . المزهد في العيش المجهد في العبادة (٣) .

وقال ابن عبَّاس أن رسول الله خرج إلى الناس يومًا فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم ، فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر ، فقال : يا رسول الله هذا صاع من تمر ، بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه رجال وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء ؟ ثم إن عبد الرَّحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ : هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرُكَ » فقال له عبد الرَّحمن بن عوف : فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات ، فقال له عمر بن الخطاب ﷺ : أمجنون أنت ؟ قال : ليس

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .
(٢) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١/٣) والهندي في كنز العمال (٦٢٨٠) .

بي جنون ، قال : أفعلت ما فعلت ؟ قال : نعم مالي ثمانية آلاف ، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي ، وأما أربعة آلاف فلي ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت »(١) ولمزه المنافقون فقالوا : والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون ، إنما كان به متطوعًا ، فأنزل الله ﷻ عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ .

وقوله ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصارًا للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابًا أليمًا ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، وقد قيل : إن السبعين إنما ذكرت حسمًا لمادة الاستغفار لهم ؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها . وقيل : بل لها مفهوم . عن ابن عبَّاس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية : « أَسْمَعُ رَبِّي قَدْ رَخَّصَ لِي فِيهِمْ ، فَوَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ »(٢) . فقال الله من شدة غضبه عليهم : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية . وقال الشعبي : لما ثقل عبد الله بن أبيّ انطلق ابنه إلى النبيّ ﷺ فقال : إن أبي يحتضر فأحب أن تشهده وتصلي عليه ، فقال له النبيّ ﷺ : « ما اسمك » قال الحباب بن عبد الله قال : « بل أنت عبد الله بن عبد الله ، إن الحباب اسم شيطان » . فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له : أتصلي عليه ؟ فقال : « إِنَّ اللهَ قَالَ : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وَلأَسْتَغْفِرَنَّ لَهُمْ سَبْعِينَ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِينَ »(٣) .

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذامًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ ﴾ معه ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار ، فلهذا قالوا : ﴿ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مما فررتم منه من الحر ، بل أشد حرًا من النار ، كما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَهَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ »

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٢) والهندي في كنز العمال (٣٦٣٣) .
(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥) .
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/١٠) والهندي في كنز العمال (٤٥٩٩١) .

فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : « فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا » (١) . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَوْقَدَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَلْف سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّت ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ ، فَهِيَ سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِم » (٢) وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ لَمَنْ لَهُ نَعْلاَنِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ، كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ ، لاَ يَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْهُ ، وَإِنَّهُ أَهْوَنُهُمْ عَذَابًا » (٣) .

وقال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ ثم قال تعالى متوعدًا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا ﴾ الآية ، قال ابن عباس : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ﷻ استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدًا . وعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا ، فَإِنَّ أهل النَّارِ يَبْكُونَ حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعهمْ فِي وُجُوهِهِمْ كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ فَتَسِيلَ الدِّمَاءُ فَتَقَرَّحَ العُيُونُ ، فَلَوْ أَنَّ سُفُنًا أُزْجِيَتْ فِيهَا لَجَرَتْ » (٤) .

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ ﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلًا ﴿ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ أي تعزيرًا لهم وعقوبة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فإن جزاء السيئة السيئة بعدها ، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وقوله تعالى : ﴿ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة ، وقال قتادة : أي مع النساء ، قال ابن جرير : وهذا لا يستقيم ؛ لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ، ولو أريد النساء لقال : فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات ، ورجح قول ابن عبّاس ﵄ .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ .

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه ، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين ، كما روي : عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أُبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ومالك في الموطأ (٩٩٤) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٢٠) والهندي في كنز العمال (٣٩٤٩٨) .
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٦٢) ومسلم في الإيمان (٣٦٣) وأحمد في مسنده (٢٧١/٤) .
(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤٩٣/٤) .

تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ فَقَالَ : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وَسَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ » قال : إنه منافق ! قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ آية ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [(١)] وعن ابن عبّاس قال : سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يقول : لما توفي عبد الله أُبيّ دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره ، فقلت : يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أُبيّ القائل يوم كذا وكذا وكذا - يعدّد أيامه - قال : ورسول الله ﷺ يتبسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال : « أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ ، إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ ، قَدْ قِيلَ لِي : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية . لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ » قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه ، قال : فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ما كان إلّا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ الآية . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله ﷻ [(٢)] .

وعن أبي قتادة قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنازة سأل عنها ، فإن أثني عليها خيرًا قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها : « شَأْنَكُمْ بِهَا » ولم يصل عليها [(٣)] ، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان ؛ لأنه كان يعلم أعيان المنافقين ، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ ، ولهذا كان يقال له : صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، أي من الصحابة . وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل فمرزه حذيفة ، كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها . ثم حكي عن بعضهم أن المرز بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع .

ولما نهى الله ﷻ عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك ، وفي فعله الأجر الجزيل ، كما ثبت عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ » . قيل : وما القيراطان ؟ قال : « أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدَ » [(٤)] وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروي عن عثمان ﷺ قال : كان رسول الله إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ » [(٥)] .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد والمنة .

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٤٠٢/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦/١) والترمذي في السنن (٣٠٩٧) والنسائي في السنن (١٩٦٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٣) .
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٢٥) ومسلم في الجنائز (٥٢) وأحمد في مسنده (٤٠١/٢) .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٣٢٢١) وانفرد بإخراجه .

ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا وذامًّا للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول ، واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا : ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش ، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلامًا كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن ، وفي الحرب أجبن شيء .

وقوله : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبيّن ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم فقال : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ ﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم ، وقوله : ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى .

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم بيّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج ، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . قال الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعْذِرون ﴾ بالتخفيف ويقول : هم أهل العذر . وقال ابن جريج عن مجاهد : ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ [1] قال : نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ، والقول الأول أظهر والله أعلم ؛ لما قدمنا من قوله بعده ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم بيّن تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد ، ومنه

(١) قرأ يعقوب (المُعْذِرون) بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢١) .

العمى والعرج ونحوهما ، ولهذا بدأ به . ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنَّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله ، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب ، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم وهم محسنون في حالهم هذا ، ولهذا قال : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وعن أبي ثمامة ﷺ قال : قال الحواريون : يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله ؟ قال : الذي يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا . وقال الأوزاعي : خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة ؟ قالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا نسمعك تقول ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا . وقال قتادة : نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة ، فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ الآية .

وقال ابن عباس في هذه الآية : وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا : يا رسول الله احملنا ، فقال لهم : « وَاللَّهِ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » فتولوا وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ : نزلت في بني مقرن من مزينة .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلاَ سِرْتُمْ سَيْرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ » قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نَعَمْ حَبَسَهُمُ الْعُذْرِ » [1] ، ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرجال ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أي لن نصدقكم ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٣٩) ومسلم في الإمارة (١٥٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٤/٩) .

عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها . ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم ، فلا تؤنبوهم ، فأعرضوا عنهم احتقارًا لهم ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ ﴾ في آخرتهم ﴿ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي من الآثام والخطايا وأخبر أنهم إن رضوا عنهم لحلفهم لهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله ، فإن الفسق هو الخروج ، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد ، ويقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها .

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارًا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أي أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، وعن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ سَكَنَ البَادِيَةَ جَفَا ، وَمَن اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفِلَ ، وَمَنْ أَتَى السلطان افْتُتِنَ » (١) . ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولًا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي ، قال : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أو ثقفيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ » (٢) لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب ، لما في طباع الأعراب من الجفاء .

وعن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم ، قالوا : لكنا والله ما نقبّل ، فقال رسول الله ﷺ : « وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ ؟ » وقال ابن نمير : « من قلبك الرحمة » (٣) .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل ، والإيمان والكفر والنفاق ، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته . وأخبر تعالى أن منهم ﴿ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي : في سبيل الله ﴿ مَغْرَمًا﴾ أي : غرامة وخسارة ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي : ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي : هي منعكسة عليهم ، والسوء دائر عليهم ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٥٧) وأبو داود في السنن (٢٨٥٩) والترمذي في السنن (٢٢٥٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٢) والنسائي في السنن (٣٧٦٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٦٤) وابن ماجه في السنن (٣٦٦٥) .

سميع لدعاء عباده ، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان . وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب ، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، ورضاهم بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم ، قال الشعبي : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ من أدراك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال أبو موسى الأشعري : هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ ، وقال محمّد بن كعب القرظي : مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ فقال : أُبيّ بن كعب ، فقال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم . قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، فقال أُبيّ : تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وفي سورة الحشر ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ الآية ، وفي الأنفال ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ ﴾ الآية [(١)] ، رواه ابن جرير ، قال : وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع الأنصار [(٢)] عطفًا على ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فيا ويل من أبغضهم أو سبَّهم أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصدِّيق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة ﷺ ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبُّونهم ! عياذًا بالله من ذلك ، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبُّون من رضي الله عنهم وأما أهل السنّة فإنهم يترضون عمن ﷺ ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متَّبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون .

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ .

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون ، وفي أهل المدينة أيضًا منافقون ﴿ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ أي مرنوا واستمروا عليه ، ومنه يقال : شيطان مريد ومارد ، ويقال : تمرد فلان على الله أي عتا وتجبّر . وقوله : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لا ينافي قوله

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١١/١٢) .
(٢) قرأ يعقوب ﴿ والأنصارُ ﴾ برفع الراء والباقون بالخفض (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢١) .

تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقًا وإن كان يراه صباحًا ومساء ، وشاهد هذا بالصحة ما روي عن جبير بن مطعم ﷺ قال : قلت : يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال : « لِتَأْتِيَنَّكُمْ أُجُورُكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي جُحْرِ ثَعْلَبٍ » . وأصغى إلى رسول الله ﷺ برأسه فقال : « إِنَّ فِي أَصْحَابِي مُنَافِقِينَ » [١] . ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم ، وتقدم في تفسير قوله ﴿ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾ أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا ، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم ، والله أعلم . وعن أبي الدرداء أن رجلًا يقال له : حرملة أتي النبي ﷺ فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلّا قليلًا ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ لِسَانًا ذَاكِرًا ، وَقَلْبًا شَاكِرًا ، وَارْزُقْهُ حُبِّي وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّنِي ، وَصَيِّرْ أَمْرَهُ إِلَى خَيْرٍ » فقال : يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأسًا فيهم أفلا آتيك بهم ؟ قال : « مَن أَتَانَا اسْتَغْفَرْنَا لَهُ ، وَمَنْ أَصَرَّ فَاللَّهُ أولى بِهِ ، وَلَا تَخْرِقَنَّ عَلَى أَحَدٍ سِتْرًا » [٢] .

وقال ابن عبّاس في هذه الآية قال : قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبًا يوم الجمعة فقال : « اخرج يا فلان فإنك منافق ، واخرج يا فلان فإنك منافق » فأخرج من المسجد ناسًا منهم فضحهم ، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم . قال ابن عبّاس : فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثاني : عذاب القبر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ : يعني القتل والسبي ، وقال في رواية : بالجوع وعذاب القبر ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ . قال ابن جريج : عذاب الدنيا وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم النار ، وقال الحسن البصري : عذاب في الدنيا وعذاب في القبر ، وقال عبد الرّحمن بن زيد : أما العذاب في الدنيا فالأموال والأولاد ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر ، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : النار .

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

لما بيّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكًا ، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ، ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨٣/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٢/٥) .
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤٠٢) .

فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه ، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلَّا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين ، وقد قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة : إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه ، وقال ابن عبّاس ﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال بعضهم : أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل : وسبعة معه ، وقيل : وتسعة معه ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا لا يحلهم إلَّا رسولُ الله ﷺ ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم . وعن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ لنا : « أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي فَانْتَهَيَا بِي إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ ، قَالَا لَهُمْ : اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ فَوَقَعُوا فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ . قَالَا لِي : هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهَذَا مَنْزِلُكَ ، قَالَا : وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ ؛ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ » (١) .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها ، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا ، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، وإنما كان خاصًا بالرسول ﷺ ولهذا احتجوا بقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية ، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصدِّيق وسائر الصحابة وقاتلهم حتى أدُّوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حتى قال الصدِّيق : والله لو منعوني عناقًا - وفي رواية : عقالًا - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه . وقوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم ، كما رواه عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبيّ ﷺ إذا أُتي بصدقة قوم صلى عليهم ، فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى أَبِي أَوْفَى » (٢) . وفي الحديث الآخر : أن امرأة قالت يا رسول الله صلِّ عليّ وعلى زوجي فقال : « صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكِ وَعَلَى زَوْجِكِ » (٣) وقوله : ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قرأ بعضهم صلواتك على الجمع ، وآخرون قرأوا إن صلاتك على الإفراد (٤) ﴿ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس رحمة لهم ، وقال قتادة : وقار . وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي لدعائك ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي : بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له . وعن ابن حذيفة عن أبيه أن النبيّ ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابت ولده وولد ولده (٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم في الزكاة (١٧٦) وأحمد في مسنده (٣٥٣/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/٣) وأبو داود في السنن (١٥٣١) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٣/٢) .

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص ﴿ إن صلاتك ﴾ بالتوحيد وفتح التاء والباقون ﴿ صلواتِك ﴾ بالجمع والكسر (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٨/٨) .

وقوله ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه . ومن تصدّق بصدقة من كسب حلال ؛ فإن اللَّه تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أُحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ ، حَتَّى إِنَّ اللُّقْمَةَ لَتَكُونُ مِثْلَ أُحُدٍ » (١) . وتصديق ذلك في كتاب اللَّه ﷻ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ وقوله : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ قال : عبد اللَّه بن مسعود ﷺ : إن الصدقة تقع في يد اللَّه ﷻ قبل أن تقع في يد السائل ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ .

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال مجاهد : هذا وعيد من اللَّه تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ وقد يظهر اللَّه تعالى ذلك للناس في الدنيا كما روي عن أبي سعيد مرفوعًا عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَأَخْرَجَ اللَّهُ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ » (٢) وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ كما روي عن جابر بن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ فِي قُبُورِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا بِهِ وإن كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا : اللَّهُمَّ أَلْهِمْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِكَ » (٣) . وعن عائشة ﵂ قالت : إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل ﴿ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ . وعن أنس أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ ، فَإِنَّ العَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ أَوْ بُرْهَةً مِنْ دهره بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ لَوْ مات عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّه بِعَبْدِهِ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ » . قالوا : يا رسول اللَّه وكيف يستعمله ؟ قال : « يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ » (٤) .

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا ، أي عن التوبة وهم : مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلًا وميلًا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكًا ونفاقًا ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ،

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٦٦٢) والهندي في كنز العمال (١٥٩٩٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠) .
(٣) أخرجه أحمد مسنده (١٦٤/٣) والطبراني في معجم الكبير (١٥٤/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٨/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٠/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١١/٧) والهندي في كنز العمال (٥٨٩) .

فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجأ هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ ﴾ الآية : ﴿ وَعَلَى الثَّلَٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ وقوله : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، حكيم في أفعاله وأقواله ، لا إله إلّا هو ولا رب سواه .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ .

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالؤهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أُحُد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله ﷻ ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبّوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحُد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، وذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبيّ ﷺ فوعده ومنّاه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يَقْدُم عليهم فيه من يَقْدُمُ من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إِنَّا عَلَى سَفَرٍ وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللَّه » . فلما قفل عليه الصلاة والسّلام راجعًا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلّا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أُسس من أول يوم على التقوى ،

فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة .

كما قال ابن عبّاس في الآية : هم أناس من الأنصار بنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجنود من الروم وأخرج محمّدًا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبيّ ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله ﷻ ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ إلى قوله ﴿ الظالمين ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ أي الذين بنوه ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ أي : ما أردنا ببنيانه إلّا خيرًا ورفقًا بالناس ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما قصدوا وفيما نووا ، وإنما بنوه ضرارًا لمسجد قباء ، وكفرًا بالله ، وتفريقًا بين المؤمنين ، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعنه الله . وقوله : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ نهي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أي يصلي أبدًا . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنيانه على التقوى ، وهي طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمعًا لكلمة المؤمنين ، ومعقلًا وموئلًا للإسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ » (٢) .

وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا (٣) .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسّسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عيّن جهة القبلة ، فالله أعلم .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « نَزَلَتْ هَذَهِ الآيَةُ في أَهْلِ قُبَاءٍ ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ » قَالَ : « كَانُوا يَسْتَنْجُون بِالمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةُ » (٤) .

وعن ابن عبّاس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال : « مَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي أَثْنَى اللهُ عَلَيْكُمْ ؟ » ، فقال : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلّا غسل فرجه - أو قال : مقعدته - فقال النبيّ ﷺ : « هُوَ هَذَا » (٥) .

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، ورواه علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس ، ورواه الزهري عن عروة بن الزبير . وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ١١/٣٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٤١١) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٥١٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٤٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٢٢) والحاكم في المستدرك (١/١٥٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢١٢) .

جوف المدينة هو المسجد الذي أُسّس على التقوى ، وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسّس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا روي عن سهل بن سعد الساعدى قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أُسس على التقوى فقال أحدهما : هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فأتيا النبيّ ﷺ فسألاه فقال : « هُوَ مَسْجِدِي هَذَا » (١) .

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف ، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله .

وقوله : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة القاذورات .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ إن الطهور بالماء لحسن ، ولكنهم المطهرون من الذنوب . وقال الأعمش : التوبة والتطهر من الشرك ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء : « قَدْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ فَمَاذَا تَصْنَعُونَ ؟ » . فقالوا نستنجي بالماء (٢) .

وعن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نتبع الحجارة بالماء .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، ومن بنى مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار أي طرف حفيرة مثاله ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله : رأيت المسجد الذي بني ضرارًا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ . وقال ابن جريج : ذكر لنا أن رجالًا حفروا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي شكًا ونفاقًا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع ، أورثهم نفاقًا في قلوبهم كما أشرب عابدوا العجل حبه . وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي بموتهم ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بأعمال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩،٦/٦) والحاكم في المستدرك (١٥٥/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٣/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٣) والترمذي في سننه (٣٠٩٩) والنسائي في السنن (٦٩٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/٣) والحاكم في المستدرك (١٥٥/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٢/١) .

خلقه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة بايعهم والله فأغلى ثمنهم . وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ - يعني ليلة العقبة - : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : «أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مما تمنعون مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وأموالكم » قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجَنَّةُ » قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية [(١)] . وقوله : ﴿ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ أي سواء قُتلوا أو قَتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة . ولهذا جاء في الحديث : «وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي بِأَنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهَ الجَنَّةَ ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » [(٢)] . وقوله : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ تأكيد لهذا الوعد ، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه الكبار وهي التوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد . هذا كقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ولهذا قال : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ، ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش ﴿ ٱلْعَـٰبِدُونَ ﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد ولهذا قال ﴿ ٱلْحَـٰمِدُونَ ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع وهو المراد بالسياحة ههنا قال ﴿ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ﴾ كما وصف أزواج النبيّ ﷺ بذلك في قوله تعالى : ﴿ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ﴾ أي صائمات ، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال : ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علمًا وعملًا ، فقاموا بعبادة الحق ونصح

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٨٠) والهندي في كنز العمال (١٥٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٧) ومسلم في الإمارة (٢٨) ومالك في الموطأ (٤٤٣) .

الخلق ولهذا قال : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

بيان أن المراد بالسياحة الصيام : عن عبد الله بن مسعود قال ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ : الصائمون . وقال ابن عبّاس : كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون ، وكذا قال الضحاك رحمه الله . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، وقال الحسن البصري ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ : الصائمون شهر رمضان . وقال أبو عمرو العبدي ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « السَّائِحُونَ هُمُ الصَّائِمُونَ » (١) .

وعن أبي أمامة أن رجلًا قال : يا رسول الله ائذن لي في السياحة ، فقال النبيّ ﷺ : « سِيَاحَةُ أُمَّتِي الجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّه » (٢) . وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرين ، وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يُوشِكُ أَنْ يَكونَ خَيْرُ مَالِ الرَّجُلِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ » (٣) وقال ابن عبّاس في قوله ﴿ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ : القائمون بطاعة الله ، وكذا قال الحسن البصري : لفرائض الله ، وعنه رواية القائمون على أمر الله .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبيّ ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال : « أَي عَمِّ ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّه ﷻ» . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبد المطلب ، فقال النبيّ ﷺ : « لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » . فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قال : ونزلت فيه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (٤) وعن علي رضي الله عنه قال : سمعت رجلًا يستغفر لأبويه وهما مشركان ؟ فقلت : أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفروا إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية (٥) . وعن ابن بريدة عن أبيه قال : كنا مع النبيّ ﷺ ونحن في سفر ، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب ، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان ، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله ما لك ؟ قال : « إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ في الاسْتِغْفَارِ

(١) أخرجه الهندي في كنز العمال (٢٩٠٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤/٧) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٤٨٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٨) وأحمد في السنن (٦/٣) .
(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٨٤) والنسائي في السنن (٢٠٣٥) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/١) .

لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنَ النَّارِ ، وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عن ثلاث : نهيتكم عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ ؛ فَزُورُوهَا لِتُذَكِّرَكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضَاحِي بَعْدَ ثَلَاثٍ ، فَكُلُوا وَأَمْسِكُوا مَا شِئْتُمْ ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ الأَشْرِبَةِ فِي الأَوْعِيَةِ ، فَاشْرَبُوا فِي أَيِّ وعاءٍ شِئْتُمْ ، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا » (١) .

وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية ، أن النبيّ ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه اللَّه ﷻ عن ذلك فقال : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّه ﷺ قَدْ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ » فأنزل اللَّه ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ (٢) . الآية ، وقال ابن عبّاس في هذه الآية : كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية ، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآية .

وعن ابن عباس : مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه ، فذكر ذلك لابن عباس فقال : فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح ما دام حيًّا ، فإذا مات وكله إلى شأنه ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ لم يدع ، ويشهد له بالصحة ما روي عن علي ﷺ ، لما مات أبو طالب قلت : يا رسول اللَّه : إن عمك الشيخ الضال قد مات قال : « اذْهَبْ فَوَارِهِ وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينِي » فذكر تمام الحديث (٣) .

وقوله ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ قال ابن عبّاس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبينّ له أنه عدو للَّه تبرأ منه ، وفي رواية : لما مات تبينّ له أنه عدو اللَّه ، وقال عبيد بن عمير وسعيد ابن جبير : إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه وعلى وجه أبيه القترة والغبرة ، فيقول يا إبراهيم : إني كنت أعصيك ، فيقول : أي ربي ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ، فيقال : انظر إلى ما وراءك فإذا هو بذبح متلطخ أي قد مسخ ضبعًا ، ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار . وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ عن عبد اللَّه بن مسعود أنه قال : الأوّاه الدعّاء ، وعن عبد اللَّه بن شداد بن الهاد قال : بينما النبيّ ﷺ جالس قال رجل : يا رسول اللَّه ما الأواه ؟ قال : « المُتَضَرِّعُ » (٤) قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وعن ابن عبّاس الأواه المؤمن ، زاد علي بن أبي طلحة عنه : هو المؤمن التواب ، وقال العوفي عنه : هو المؤمن بلسان الحبشة .

وعن عقبة بن عامر أن رسول اللَّه ﷺ قال لرجل يقال له ذو النجادين : « إِنَّهُ أَوَّاهٌ » وذلك أنه رجل كان إذا ذكر اللَّه في القرآن رفع صوته بالدعاء (٥) ، وقال ابن عبّاس ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ قال : فقيه . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعّاء ، وهو المناسب للسياق ، وذلك أن اللَّه تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ، وقد كان إبراهيم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٥/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٦/١) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر النثور (٢٨٣/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٠/١) والنسائي في السنن (١٩٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٠٤/١) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (٧٠/١١) .
(٥) أخرجه أحمد مسنده (١٥٩/٤) والحاكم في المستدرك (٣٦٨/١) والطبراني في المعجم الكبير (٢٩٥/١٧) .

كثير الدعاء حليمًا عمن ظلمه وأناله مكروهًا ، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ فحلم عنه مع أذاه له ، ودعا له واستغفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لا يضل قومًا إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم ، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ الآية . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ الآية ، قال : بيان الله ﷻ للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه لهم معصيته وطاعته عامة ، فافعلوا أو ذروا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر ، وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه ؛ فإنه لا ولي لهم من دون الله ، ولا نصير لهم سواه . وعن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم : « هَلْ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ ؟ » قالوا : ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لأَسْمَعُ أَطِيطَ السَّمَاءِ ، وَمَا تُلَامُ أَنْ تَئِطَّ وَمَا فِيهَا مِنْ مَوْضِعِ شِبْرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ » (١) .

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء ، وقال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم . وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة ، فقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلًا فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصدّيق : يا رسول الله إن الله ﷻ قد عوّدك في الدعاء خيرًا فادع لنا فقال : « تُحِبُّ ذَلِكَ ؟ » قال : نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت ، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر (٢) . وقال ابن جرير في قوله : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ أي من النفقة والظهر والزاد والماء ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢٥/٣) . (٢) أخرجه : الحاكم في المستدرك ١٥٩/١ .

ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

عن عبد اللَّه بن كعب بن مالك أن عبيد بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدِّث حديثه حين تخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزاة غزاها قط ، إلَّا في غزاة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول اللَّه ﷺ يريد عير قريش حتى جمع اللَّه بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول اللَّه ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر . وكان من خبري حين تخلفت عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، واللَّه ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول اللَّه ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلَّا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول اللَّه ﷺ في حر شديد واستقبل سفرًا بعيدًا ومفاوز ، واستقبل عدوًّا كثيرًا ، فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول اللَّه ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقلَّ رجل يريد أن يتغيَّب إلَّا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من اللَّه ﷻ ، وغزا رسول اللَّه ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول اللَّه ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئًا ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول اللَّه ﷺ غاديًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئًا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا ، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم وليت أني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول اللَّه ﷺ يحزنني أني لا أرى إلَّا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق أو رجلًا ممن عذره اللَّه ﷻ ، ولم يذكرني رسول اللَّه ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل من بني سلمة حبسه يا رسول اللَّه برداه والنظر في عطفيه ، فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت ، واللَّه يا رسول اللَّه ما علمنا عليه إلَّا خيرًا . فسكت رسول اللَّه ﷺ . قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول اللَّه ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك ، حضرني بثي وطفقت أتذكر الكذب . وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إن رسول اللَّه ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل ، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدًا فأجمعت صدقه ، فأصبح رسول اللَّه ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه

المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي : « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : « مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ اشْتَرَيْتَ ظَهْرًا ؟ » فقلت : يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلًا ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله ﷻ ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » . فقمت وقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال : فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ، قال : ثم قلت لهم : هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا : نعم معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أُمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لي ، قال : ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدوا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي : أحرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي فإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم . قال : ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل علي كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتابًا من ملك غسان وكنت كاتبًا فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت حين قرأته : وهذا أيضًا من البلاء ، قال : فتيممت به التنور فسجرته به ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك ، قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها ، قال : وأرسل إلي صاحبيّ بمثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء ، قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله

ﷺ فقالت : يا رسول الله إن هلالًا شيخ ضعيف ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : «لا ، ولكن لا يقربك » قالت : وإنه والله ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، قال : فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب ، قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صارخًا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ، قال : فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله ﷻ بالتوبة علينا فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبيّ مبشرون ، وركض إلي رجل فرسًا وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنؤني بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله ، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال : وهو يبرق وجهه من السرور : « أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ » قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّه » . قال : - وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه - فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » . قال : فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر ، وقلت : يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلَّا صدقًا ما بقيت ، قال : فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله ﷻ فيما بقي (١) . قال : وأنزل الله تعالى : ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إلى آخر الآيات . قال كعب : فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٥٣) وأحمد في مسنده (٤٥٧/٣ ، ٤٥٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥/٩) .

حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين خلفوا فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله ﷻ : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه (١) .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أي مع سعتها ، فسددت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وإنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم ولهذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي : اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا . وقد روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُم بِالصِّدْقِ ؛ فإن الصِّدقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا . وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا » (٢) .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ،ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة ؛ فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وهو العطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وهو التعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ وهي المجاعة ﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ أي ينزلوا منزلًا يرهب عدوهم ﴿ وَلَا يَنَالُونَ ﴾ منه ظفرًا وغلبة عليه ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم ، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالًا صالحة وثوابًا جزيلًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أي قليلًا ولا كثيرًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٠٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣ ، ٥) وابن ماجه في السنن (٣٨٤٩) .

﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ولم يقل ههنا به ؛ بل لأن هذه أفعال صادرة عنهم ولهذا قال : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة ، كما ورد عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال : خطب رسول اللّه ﷺ فحثَّ على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان ﷺ : عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال : ثم حث ، فقال عثمان : عليَّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال : ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حثَّ ، فقال عثمان بن عفان : عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال : فرأيت رسول اللّه ﷺ قال بيده هكذا يحركها – وأخرج عبد الصَّمد يده كالمتعجب – : « مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا » (١) .

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان ﷺ إلى النبيّ ﷺ بألف دينار في ثوبه ، حين جهز النبيّ جيش العسرة ، قال : فصبها في حجر النبيّ ﷺ فرأيت النبيّ ﷺ يقلبها بيده « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددها مرارًا (٢) ، وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ الآية ، ما ازداد قوم في سبيل اللّه بعدًا من أهليهم إلا ازدادوا قربًا من اللّه .

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

هذا بيان من اللّه تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول اللّه ﷺ . ولهذا قال تعالى ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وقال ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ ﴾ الآية ، قال : فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال : إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء . وقال ابن عبّاس في الآية ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ يقول : ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا النبيّ ﷺ وحده ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ يعني عصبة ، يعني السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون عن النبيّ ﷺ ، وقالوا : إن اللّه قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه ، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل اللّه على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى ، فذلك قوله : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ يقول : ليعلموا ما أنزل اللّه نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبيّ ﷺ خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفًا ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم : ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا ، فوجدوا أنفسهم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٤) والترمذي في السنن (٣٧٠٠) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٧٠١) والحاكم في المستدرك (١٠٢/٣) .

من ذلك تحرجًا ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبيّ ﷺ فقال الله ﷻ : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يبغون الخير ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس وما أنزل الله فعذرهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ . وقال قتادة في الآية : هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله أن يغزوا بنبيه ﷺ وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين ، وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرها وقائع الله فيمن خلا قبلهم .

وقال ابن عبّاس ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ : إنها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول الله على مضر بالسنين أجدبت بلادهم ، وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم ، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ الآية . وقال ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبيّ ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ، ويقولون للنبي ﷺ : ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم ، قال : فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا : إن من أسلم فهو منا وينذرونهم ، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه ، وكان النبيّ ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة . وقال عكرمة : لما نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية ، قال المنافقون : هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه ، وقد كان ناس من أصحاب النبيّ ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم ، فأنزل الله ﷻ ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية ، ونزلت ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وقال الحسن البصري في الآية : ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولًا فأولًا ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجًا ، شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيزة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب فبلغ تبوك ، ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه الصلاة والسلام ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يومًا فاختاره الله لما عنده ، وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصدّيق ﷺ وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به ، فوطد القواعد وثبت الدعائم ،

ورد شارد الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام ، وبيَّن الحق لمن جهله ، وأدَّى عن الرسول ما حمله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح اللَّه ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد ، وأنفق كنوزهما في سبيل اللَّه كما أخبر بذلك رسول اللَّه ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولي عهده الفاروق الأوَّاب ، شهيد المحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ ، فأرغم اللَّه به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقًا وغربًا ، وحملت إليه خزائن الأموال سائر الأقاليم بعدًا وقربًا ، ففرقها على الوجه الشرعي ، والسبيل المرضي ، ثم لما مات شهيدًا وقد عاش حميدًا ، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ شهيد الدار فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة ، وأمدت في سائر الأقاليم على رقب العباد حجة اللَّه البالغة ، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وعلت كلمة اللَّه وظهر دينه ، وبلغت الملة الحنيفة من أعداء اللَّه غاية مآربها ، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالًا لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقًا لأخيه المؤمن ، غليظًا على عدوه الكافر كقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : قاتلوا الكفار وتوكلوا على اللَّه واعلموا أن اللَّه معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه ، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة اللَّه تعالى ، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار ، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك ، طمع الأعداء في أطراف البلاد ، وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرة ، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر اللَّه وتوكل على اللَّه فتح اللَّه عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية اللَّه ، واللَّه المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين نواصي أعدائه الكافرين ، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم .

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ فمن المنافقين ﴿ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض : أيكم زادته هذه السورة إيمانًا ؟ قال اللَّه تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك ، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله . ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ أي

زادتهم شكًا إلى شكهم ، وريبًا إلى ريبهم كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببًا لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلَّا خبالًا ونقصًا .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يختبرون ﴿ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي لا يتوبون عن ذنوبهم السالفة ، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم . قال مجاهد : يختبرون بالسنة والجوع ، وقال قتادة : بالغزو في السنة مرة أو مرتين ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ هذا أيضًا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي تلفتوا ﴿ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه ، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أي ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينًا وشمالًا هروبًا من الحق وذهابًا إلى الباطل . وقوله : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه ، ولا يتصدون لفهمه ولا يريدونه ، بل هم في شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه .

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي منكم وبلغتكم ، كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولًا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته [(١)] ... وذكر الحديث . وقال جعفر بن محمّد عن أبيه في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ قال : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية . وقال ﷺ : « خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ » [(٢)] . وقوله تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها ، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » [(٣)] . وفي الحديث : « إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَشَرِيعَتَهُ كُلُّهَا سَهْلَةٌ سَمْحَةٌ كَامِلَةٌ يَسِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ » [(٤)] .

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم . وعن أبي ذر

---

(١) أخرجه : البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٧٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٩٠/٧) والهندي في كنز العمال (٣١٨٦٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٤/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) والهندي في كنز العمال (٩٠٠) .

(٤) أخرجه النسائي في سننه (٥٠٣٤) والبيهقي في السنن (١٨/٣) .

قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلّا وهو يذكر لنا منه علمًا قال: وقال رسول الله ﷺ: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الجنة وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ» (١). وعن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّه لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إِلَّا وقد عَلِمَ أَنَّهُ سَيُطْلِعُهَا مِنْكُمْ مطلع، أَلَا وَإِنِّي آخِذٌ بِحُجزِكُمْ أَنْ تَهَافَتُوا فِي النَّارِ كَتَهَافُتِ الفَرَاشِ أَوْ الذُّبَابِ» (٢). وعن ابن عبّاس: أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضًا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى، فقال: فإن بين أيديكم رياضًا هي أعشب ممن هذه وحياضًا هي أروى من هذه فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه (٣).

وقوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الله كافي ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل. وعن أُبيّ بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر السورة (٤). وعن عباد بن عبد الله بن الزبير ﷺ قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها، فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها، فوضعوها في آخر براءة (٥).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/١٦٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٦٣).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٩٠) والطبراني في المعجم الكبير (١٠/٢٦٥).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٦٧).
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١١٧)
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٩٩).

سورة يونس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾ .

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها ، عن ابن عبّاس في قوله تعالى ﴿ الٓرۚ ﴾ : أي أنا الله أرى . ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين وقوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية . يقول تعالى منكرًا على من تعجب من الكفار ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم : ﴿ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا ﴾ وقال هود وصالح لقومهما : ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ ﴾ وقال ابن عبّاس : لما بعث الله تعالى محمّدًا ﷺ رسولًا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمّد ، قال : فأنزل الله ﷻ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ اختلفوا فيه فقال ابن عبّاس في قوله ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ ﴾ يقول : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول ، وقال ابن عبّاس ﴿ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ يقول : أجرًا حسنًا بما قدموا ، وقال مجاهد : الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم ، قال : ومحمّد ﷺ يشفع لهم ، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان ، وقال قتادة : سلف صدق عند ربهم ، واختار ابن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قدموها كما يقال له قدم في الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولًا منهم ، رجلًا من جنسهم بشيرًا ونذيرًا ﴿ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر ، وهم الكاذبون في ذلك .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قيل : كهذه الأيام ؛ وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدّون كما سيأتي بيانه . ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها . وعن إسماعيل بن أبي خالد قال : سمعت سعدًا الطائي يقول : العرش ياقوتة حمراء ، وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحّين ، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير ، في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ الآية ، وعن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ الآية ، لقيهم ركب عظيم لا يرون إلّا أنهم من العرب فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية . وقوله : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفردوه

بالعبادة وحده لا شريك له ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهًا غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق .

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحدًا حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحموم ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَٰجٌ ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِي اخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورًا ، وهذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل ، وقدّر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيرًا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر ، كقوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾ أي القمر ﴿ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي لم يخلقه عبثًا بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة وقوله : ﴿ يُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه شيئًا ، كقوله تعالى : ﴿ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴾ أي العقول ، وقال ههنا : ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أي عقاب الله وسخطه وعذابه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ، ولا يرجون في لقائه شيئًا ، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها ، بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام ، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات ؛ بأنهم سيهديهم بإيمانهم ، يحتمل أن تكون الباء ههنا سببية فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا بهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم ، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾ قال : يكون لهم نورًا يمشون به ، وقال ابن جريج في الآية : يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنّة فذلك قوله تعالى : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة ، فيلزم صاحبه ويلادّه حتى يقذفه في النار ، وقوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي هذا حال أهل الجنة . قال ابن جريج : أخبرت أن قوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ قال : إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا سبحانك اللهم وذلك دعواهم ، فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ قال : فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم ، فذلك قوله : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال مقاتل بن حيان : إذا أراد أهل الجنة أن يدعو بالطعام قال أحدهم ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ قال : فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى ، قال : فيأكل منهن كلهن ، وقال سفيان الثوري : إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ وهذه الآية فيها شبه من قوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبدًا ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله ، حيث يقول تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ وأنه المحمود في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، في جميع الأحوال ، ولهذا جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس »(١) .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك فلهذا لا يَستجيب لهم والحالة هذه لطفًا ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ الآية ، أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم ، ولكن لا ينبغي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٤٩) .

الإكثار من ذلك كما ورد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ » (١) .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي كثير ، وهما في معنى واحد ، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قَلِقَ لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك ، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه ، وفي جميع أحواله ، فإذا فرّج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه ، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ . ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ . وكقول رسول الله ﷺ : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا له ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ » (٢) .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولًا لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله ، وفي الحديث عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدنيا واتقوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنَ النِّسَاءِ » (٣) . وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر : رأيت فيما يرى النائم كأن سببًا دلي من السماء فانتشط رسول الله ﷺ ، ثم أعيد فانتشط أبو بكر ، ثم ذرع الناس حول المنبر ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر ، فقال عمر : دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها ، فلما استخلف عمر قال : يا عوف رؤياك ؟ قال : وهل لك في رؤياي من حاجة أو لم تنتهرني ؟ قال : ويحك إني كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه ، فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال : أما إحداهن فإنه كان خليفة ، وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم ، وأما الثالثة فإنه شهيد ، قال : فقال : يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ . فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل ؟ وأما قوله : فإني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء ، وأما قوله : شهيد فأنى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به ؟ (٤)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤) وأبو داود في السنن (١٥٣٢) . (٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) وأحمد في مسنده (٥/٢٤) .
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) وأحمد في مسنده (٦/٣٦٤) والترمذي في السنن (٢١٩١) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١١/١٢٤) .

لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه ، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له : ﴿ ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ ﴾ ، أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ ﴾ أي ليس هذا إليّ ، إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلّغ عن الله : ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ ثم قال محتجًا عليهم في صحة ما جاءهم به : ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ ﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته ، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته ؛ أنكم عاجزون عن معارضته ، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله ﷻ لا تنتقدون عليّ شيئًا تغمصوني به ، ولهذا قال : ﴿ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبيّ ﷺ قال هرقل لأبي سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق والفضل ما شهدت به الأعداء ، فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله . وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولًا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه الصلاة والسّلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة (١) ، وعن سعيد بن المسيب ثلاثًا وأربعين سنة ، والصحيح المشهور الأول .

﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامًا ﴿ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ وتقوّل على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظلمًا من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء ، فإن من قال هذه المقالة صادقًا أو كاذبًا فلا بدّ أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمّد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء ، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمّد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي . قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، قال : فكان أول ما سمعته يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ والناس نِيَامٌ ؛ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ » (٢) . ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٧٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٥) والترمذي في سننه (٢٤٨٥) وابن ماجه في سننه (١٣٣٤) .

بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له : من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : « الله » قال : ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » قال : فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : « اللَّهُمَّ نَعَمْ » ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ، ويحلف له رسول الله ﷺ، فقال له : صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص [(١)] . فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا ، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه .

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة ، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة ، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة ، وكم من فرق بين قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ إلى آخرها . وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله قبحه الله : لقد أنعم الله على الحبلى ، إذا أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى . إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلَّا على وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم الحديقة حتفه ، ومزق شمله ، ولعنه صحبه وأهله وقدموا على الصديق تائبين ، وجاءوا في دين الله راغبين ، فسألهم الصدِّيق خليفة الرسول صلوات الله عليه ورضي عنه أن يقرأوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة لعنه الله فسألوه أن يعفيهم من ذلك ، فأبى عليهم إلَّا أن يقرأوا شيئًا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا قال لهم الصدِّيق ﷺ : ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إل . وذكروا أن عمرو ابن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقًا له في الجاهلية وكان عمرو لم يسلم بعد ، فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ إلى آخر السورة ، ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل عليَّ مثله ، فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر ، يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حفر نقر ، كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب ، فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمّد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه ،فكيف بأولي البصائر والنهى ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما في الحديث : «أَعْتَى النَّاسِ عَلَى اللَّهِ رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ » [(٢)] .

---

(١) أخرجه : أحمد في مسنده ٢٦٤/١ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٦/٨).

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع اللّٰه غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند اللّٰه ، فأجبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئًا ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ، ولا يكون هذا أبدًا ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وقال ابن جرير : معناه : أتخبرون اللّٰه بما لا يكون في السموات ولا في الأرض ؟ ثم نزّه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس ، كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام . قال ابن عبّاس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث اللّٰه الرسل بآياته وبيّناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية ، أي لولا ما تقدم من اللّٰه تعالى أنه لا يعذّب أحدًا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجّل الخلق إلى أجل معدود ، لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه ، فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون : لولا أنزل على محمّد آية من ربه ، يعنون كما أعطى اللّٰه ثمود الناقة ، أو أن يحول لهم الصفا ذهبًا ، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا ، أو نحو ذلك مما اللّٰه عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الآية ، يقول تعالى : إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا ، فإن آمنوا وإلّا عاجلتهم بالعقوبة . ولهذا لما خير رسول ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلّا عذبوا ، وبين إنظارهم اختار إنظارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول اللّٰه ﷺ ، ولهذا قال تعالى إرشادًا لنبيّه ﷺ إلى الجواب عما سألوه : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أي الأمر كله للّٰه ، وهو يعلم العواقب في الأمور ﴿ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم اللّٰه فيّ وفيكم ، هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنين ، فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه ، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا ، ولو علم منهم أنهم سألوا ذلك استرشادًا وتثبتًا لأجابهم ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادًا وتعنتًا فتركهم فيما رابهم ، وعلم أنهم لايؤمن منهم أحد كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا ؛ لأنه لا فائدة من جوابهم ، لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم ولهذا قال : ﴿ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا

تَمْكُرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ، ونحو ذلك ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ قال مجاهد : استهزاء وتكذيب كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ الآية ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل - أي مطر - ثم قال : « هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا ؛ وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ »(١) . وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أي أشد استدراجًا وإمهالًا ، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة ، ثم يؤخذ على غرة منه والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه ، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير ، ثم أخبر تعالى أنه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ أي بسرعة سيرهم رافقين ، فبينما هم كذلك إذ ﴿ جَاءَتْهَا ﴾ أي تلك السفن ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أي شديدة ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي اغتلم البحر عليهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي هلكوا ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي لا يدعون معه صنمًا ولا وثنًا يفردونه بالدعاء والابتهال ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ ﴾ أي هذه الحال ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي لا نشرك بك أحدًا ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ ﴾ أي من تلك الورطة ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ . أي كأن لم يكن من ذلك شيء ، ثم قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدًا غيركم ، كما جاء في الحديث : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ »(٢) . وقوله : ﴿ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي مصيركم ومآلكم ﴿ فَنُنَبِّئُكُم ﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلَّا نفسه .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٥) وأحمد في مسنده (١١٧/٤) وأبو داود في السنن (٣٩٠٦) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٠٢) والترمذي في السنن (٢٥١١) والدارمي في السنن (٢٥٢) .

بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

ضرب تبارك وتعالى مثلًا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقضب وغير ذلك ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي زينتها الفانية ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على جذاذها وحصادها ، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ أي يابسًا بعد الخضرة والنضارة ﴿ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ أي كأنها ما كانت حينًا قبل ذلك . وقال قتادة : ﴿ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ ﴾ كأن لم تنعم ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن . ولهذا جاء في الحديث : « يُؤْتَى بِأَنْعَم أَهْلِ الدُّنْيَا فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بك نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا . وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا فَيُغْمَسُ فِي النَّعِيمِ غَمْسَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا » (١) ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعًا مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها وتفلتها عنهم ، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ الآية . لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رغّب في الجنة ودعا إليها وسمّاها دار السلام ، أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال : « إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا ، فَقَالَ : اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ ، وَاعْقِلْ عَقَلَ قَلْبُكَ ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا ، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا ، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً ، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ ، فَاللَّهُ الْمَلِكُ ، وَالدَّارُ الْإِسْلَامُ ، والبيتُ الجنةُ ، وأَنْتَ يا محمد الرسولُ ، فمن أَجابَكَ دخل الإسلامَ ، ومن دخل الإسلامَ دَخَلَ الجَنَّةَ ، ومن دخل الجنة أَكَلَ مِنْهَا » (٢) . وعن أبي الدرداء مرفوعًا قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَبِجَنْبَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، إِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى » قال : وأنزل في قوله : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ الآية (٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٠٣) وابن ماجه في سننه (٤٣٢١) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٨٦٠) والحاكم في المستدرك (٤/٣٩٣) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٤٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٥٦) .

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى في الدار الآخرة ، كقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ وقوله : ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا ، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين ، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصدِّيق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرَّحمن بن أبي ليلى والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمّد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف ، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبيّ ﷺ فمن ذلك ما روي عن صهيب ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ ، فَيَقُولُونَ : وَمَا هُوَ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ ويجرنا من النار » - قَالَ : « فَيَكْشِفُ لَهُمُ الحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ أي قتام وسواد في عرصات المحشر ، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أي هوان وصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر ، بل هم كما قال تعالى في حقهم : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ أي نضرة في وجوههم ، وسرورًا في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك ، عطف بذكر حال الأشقياء ، فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ﴾ أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ : أي مانع ولا واق يقيهم العذاب ، وقوله : ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ الآية ، إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر كقوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ الآية . أي الزموا أنتم وهم مكانًا معينًا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أي يصيرون صدعين ، وهذا يكون إذا جاء

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٣/٤) وابن ماجه في سننه (١٨٧) .

الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك يستشفع المؤمنين إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا ، وفي الحديث الآخر : « نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ فَوْقَ النَّاسِ »(١) وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخبارًا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ الآية ، أنهم أنكروا عبادتهم وتبرأوا منهم كقوله : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ الآية ، وقوله في هذه الآية إخبارًا عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم : ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية ، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها ،وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم ، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا منكم بذلك ، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا ، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده ، بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه ، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه آمرًا بعبادته وحده لا شريك له ، ناهيًا عن عبادة ما سواه .

وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ وقد قرأ بعضهم ﴿ هُنَالِكَ تتلوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾(٢) وفسرها بعضهم بالقراءة ، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر ، وفسرها بعضهم بحديث « لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشمس ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتْبَعُ مَنْ كان يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ »(٣) الحديث ، وقوله : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ . أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ، ففصلها وأدخل أهل الجنّة الجنة ، وأهل النار النار ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي ذهب عن المشركين ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلاهيته فقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقًّا بقدرته ومشيئته ، فيخرج منها حبًّا وعنبًا وقضبًا وزيتونًا ونخلًا وحدائق غلبًا وفاكهة وأبًّا ، أإله مع الله ؟ فسيقولون : الله . وقوله : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة ، والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها .

وقوله : ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٥/٣) .
(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (هنالك تتلوا) بتاءين والباقون بالتاء والباء (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٢) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

وقوله : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم . وقوله : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية ، أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق ، الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ أي فكل معبود سواه باطل ، لا إله إلَّا هو واحد لا شريك له ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء ، والمتصرف في كل شيء . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ ﴾ الآية ، أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع اللّٰه غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ، فلهذا حقت عليهم كلمة اللّٰه أنهم أشقياء من ساكني النار .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا باللّٰه غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق ، ويفرّق أجرام السموات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما ، ثم يعيد الخلق خلقًا جديدًا ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدي الحيارى والضلال ويقلّب القلوب من الغيّ إلى الرشد اللّٰه الذي لا إله إلَّا هو ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ أي أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى ، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلَّا أن يهدى لعماه وبكمه . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم ، كيف سويتم بين اللّٰه وبين خلقه ، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ، وهلا أفردتم الرب جلّ جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده ، ثم بيّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلًا ولا برهانًا ، وإنما هو ظن منهم أي توهم وتخيل ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد ؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلَّا من عند اللَّه الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلَّا من عند اللَّه ، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيمنًا عليه ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل . وقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانًا شافيًا كافيًا لا مرية فيه من اللَّه رب العالمين . وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند اللَّه ، وقلتم كذبًا : إن هذا من عند محمّد ، فمحمد بشر مثلكم ، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله ، أي من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، وهذا هو المقام الثالث في التحدي ؛ فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمّد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده . وليستعينوا بمن شاءوا ، فقال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ،ولكن جاءهم من اللَّه ما لا قبل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له وأشدهم له انقيادًا ، كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلَّا عن مؤيد مسدد مرسل من اللَّه ، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن اللَّه . وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى ، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن اللَّه ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد اللَّه ورسوله . ولهذا جاء في الحديث عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا » (١) .

وقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ يقول : بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلًا وسفهًا ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم السالفة ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوًا وكفرًا وعنادًا وجهلًا ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم . وقوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ الآية ، أي ومن

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٧٤) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمّد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ؟ ومن يستحق الضلالة فيضله ، وهو العادل الذي لا يجور ، بل يعطي كلًّا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدّس وتنزه لا إله إلّا هو .

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٤١ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ٤٢ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ٤٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه محمّد ﷺ : وإن كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ كقوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطرش ، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلّا أن يشاء اللّه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك اللّه من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحدًا شيئًا ، وإن كان قد هدى به من هدى ، وبصر به من العمى ، وفتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صماء ، وقلوبًا غلفًا ،وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرّف في ملكه بما يشاء ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وعن أبي ذر عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا » إلى أن قال في آخره : « يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (١) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى مذكرًا للناس قيام الساعة ، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ الآية . كقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة ، كقوله : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يعرف الأبناء الآباء ، والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ كقوله تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في مسنده (٥/١٦٠) .

الخسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة .

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا لرسوله ﷺ : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم ، والله شهيد على أفعالهم بعدك . وعن حذيفة بن أسيد عن النبيّ ﷺ قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي البَارِحَةَ لَدَى هَذِهِ الحُجْرَةِ أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا » . فقال رجل : يا رسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال : « صُوِّرُوا لِي فِي الطِّينِ حَتَّى إِنِّي لأَعْرَفُ بِالإِنْسَانِ مِنْهُمْ ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِصَاحِبِهِ » (١) . وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ ﴾ قال مجاهد : يعني يوم القيامة ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ الآية ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ الآية ، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضًا ، أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق ، إلّا أنها أول الأمم يوم القيامة ، يفصل بينهم ويقضى لهم ، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، المَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ » (٢) فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ۝ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب ، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين ، مما لا فائدة لهم فيه كقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أي كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينًا ، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ الآية ، أي لا أقول إلّا ما علمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلّا أن يطلعني الله عليه ، فأنا عبده ورسوله إليكم ، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة ، ولم يطلعني على وقتها ولكن ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة ، فإذا انقضى أجلهم : ﴿ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ الآية ، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أي ليلًا أو نهارًا ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ۝ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتًا وتقريعًا .

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ

(١) أخرجه : الطبراني في الكبير ١٨١/٣ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦٩/١٠ .
(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (١٩) والبيهقي في السنن الكبرى (١٧١/٣) .

لَافْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ويستخبرونك ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أي المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابًا ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي ليس صيرورتكم ترابًا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلَّا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وفي التغابن : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي بالحق ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ذلك ، العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا ؛ فإنه أولى ما يفرحون به ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرّحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم : نزلت إنكارًا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ الآيات . وعن عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال : « هَلْ لَكَ مَالٌ ؟ » قُلْتُ نَعَمْ . قَالَ : « مِنْ أَيِّ المَالِ ؟ » قَالَ : قُلْتُ : مِنْ كُلِّ المَالِ ، مِنَ الإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالخَيْلِ وَالغَنَم فقال : « إِذَا آتاكَ اللَّه مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ » وقال : « هَلْ تُنْتِجُ إِبِلُكَ صِحَاحًا آذَانُهَا فَتَعْمَدُ إِلَى مُوسَى فَتَقْطَعُ آذَانَهَا فَتَقُولُ : هَذِهِ بَحْرٌ ، وَتَشُقُّ جُلُودَهَا وَتَقُولُ : هَذِهِ صُرُمٌ ، وَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ » . قال : نعم ، قال : « فَإِنَّ مَا آتاكَ اللَّه لَكَ حِلٌّ ، سَاعِدُ اللَّه أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ ، وَمُوسَى اللَّه أَحَدُّ مِنْ مُوسَاكَ » .

وذكر تمام الحديث (١) ، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال : ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ : أي ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ قال ابن جرير : في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا .

قلت : ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ، ولم يحرم عليهم إلّا ما هو ضارٌّ لهم في دنياهم أو دينهم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا . وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يخبر تعالى نبيّه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة ، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك أكبر إلّا في كتاب مبين كقوله : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات ، وكذلك الدواب السارحة في قوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ الآية ، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء ، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ ﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء ، نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » (٢) .

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم بهم ، فكل من كان تقيًا كان لله وليًا فـ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما وراءهم في الدنيا . وقال عبد الله بن مسعود وابن عبّاس وغير واحد من السلف : أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله ، وقد ورد هذا في حديث مرفوع عن ابن عبّاس قال : قال رجل : يا رسول الله من أولياء الله ؟ قال : « الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ » (٣) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٣/٣) والطبراني في المعجم الكبير (٢٧٧/١٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (١ ، ٥) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .
(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢١٨) والألباني في الصحيحة (١٧٣٣) والهيثمي في مجمع الزوائد ٧٨/١٠ .

عِبَادًا يَغْبِطُهُم الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ » . قيل : من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم ؟ قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا في اللهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ » ثم قرأ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

عن أبي الدرداء في قوله : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ قال : سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدًا سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ فقال : « هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ ، بُشْرَاهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَبُشْرَاهُ فِي الآخِرَةِ الجَنَّةُ » (٢) .

وعن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ، ويثنون عليه به ، فقال رسول الله ﷺ : « تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ » (٣) . وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فقال : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يُبَشَّرُهَا المُؤْمِنُ جُزْءٌ مِنْ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا من النبوة ، فَمَنْ رَأَى ذَلِكَ فَلْيُخْبِرْ بِهَا ، وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزِنَهُ ، فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيُكَبِّرْ ، وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا » (٤) .

وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ وفي حديث البراء ﷺ : أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء (٥) . وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه ، فإن العزة لله جميعًا أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بأحوالهم ، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئًا لا ضرًا ولا نفعًا ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم ، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيئًا لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٩٠) وأحمد في مسنده (٢٢٩/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٢/٦) والحاكم في المستدرك (٣٤٠/٢) .
(٣) أخرجه بسلم في البر والصلة (١٦٦) وأحمد في مسنده (١٥٦/٥) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥/٧) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) .

ومصالحهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها .

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على من ادعى أن له ﴿ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له ، عبد له ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إنكار ووعيد أكيد ، وتهديد شديد . ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولدًا بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة ، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلًا ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ كما قال تعالى ههنا ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي مدة قريبة ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أي الموجع المؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أخبرهم واقصص عليهم ، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أي خبره مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ أي عظم عليكم ﴿ مَّقَامِي ﴾ أي فيكم بين أظهركم ﴿ وَتَذْكِيرِي ﴾ إياكم ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسًا ، بل افصلوا حالكم معي ، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي ولا تؤخروني ساعة واحدة ، أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم ؛ لأنكم لستم على شيء .

وقوله ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئًا ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعًا من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم

وتعددت مناهلهم كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ قال ابن عبّاس : سبيلاً وسنة ، فهذا نوح يقول ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي من هذه الأمة ، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ وَدِينُنَا وَاحِدٌ » [1] أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت شرائعنا ، وذلك معنى قوله علات وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد . وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ ﴾ أي على دينه ﴿ فِي الْفُلْكِ ﴾ وهي السفينة ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ أي في الأرض ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي يا محمّد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ من بعد نوح ﴿ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم كقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل ، وأنجى من آمن بهم ، وذلك من بعد نوح عليه السلام ، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام في الإسلام ، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام ، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة : أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . وقال ابن عبّاس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وقال الله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ . الآية ، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيّد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين ، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال ، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ۝ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ من بعد تلك الرسل ﴿ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي قومه ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أي حججنا وبراهيننا ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٤٣) وأبو داود في السنن (٤٦٧٥) بنحوه .

والانقياد له وكانوا قومًا مجرمين ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَىٰٓ ﴾ منكرًا عليهم ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي تثنينا ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ أي الدين الذي كانوا عليه ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ﴾ أي لك ولهارون ﴿ ٱلْكِبْرِيَآءُ ﴾ أي العظمة والرياسة ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز ؛ لأنها من أعجب القصص ، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر ، فسخره القدر أن ربَّى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ، ثم ترعرع وعقد الله له سببًا أخرجه من بين أظهرهم ، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم ، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه ، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان ، فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام ، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية ، والنفس الخبيثة الأبية ، وقوي رأسه وتولى بركنه ، وادعى ما ليس له وتجهرم على الله وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل ، والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ، ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام ، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئًا بعد شيء ، ومرة بعد مرة ، مما يبهر العقول ، ويدهش الألباب ، مما لا يقوم له شيء ، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ وصمم فرعون وملؤه قبحهم الله على التكذيب بذلك كله ، والجحد والعناد والمكابرة ، حتى أحل بهم بأسه الذي لا يرد ، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هنالك وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء ، وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يبهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين ، بزخارف السحرة والمشعبذين ، فانعكس عليه النظام ، ولم يحصل له ذلك المرام ، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام : ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار ، على رسول عالم الأسرار ، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم ، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ؛ فعند ذلك قال موسى لما ألقوا : ﴿ مَا جِئْتُم

بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وعن ليث وهو ابن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن اللّه تعالى تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور ،الآية التي من سورة يونس : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلّا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب ، على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ؛ لأن فرعون لعنه اللّه كان جبارًا عنيدًا مسرفًا في التمرد والعتو ، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا . قال ابن عبّاس : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ قال : فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير ، منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه . وروى عن ابن عباس في قوله ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ يقول : من بني إسرائيل ، وعن ابن عباس والضحاك وقتادة الذرية القليل ، وقال مجاهد قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم ، واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكرين ، وفي هذا نظر لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب ، وأنهم من بني إسرائيل ، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به ، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة ، وأن اللّه تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئًا ، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى و ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلّا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ ﴾ أي وأشراف قومهم أن يفتنهم ، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون ، فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم ، لكنه كان طاويًا إلى فرعون متصلًا به متعلقًا بحباله ، ومن قال : إن الضمير في قوله : ﴿ وَمَلَإِي۟هِمْ ﴾ عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه ، أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد ، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة . ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلّا مؤمن قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موس أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ أي فإن اللّه كاف من توكل عليه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ وكثيرًا ما يقرن اللّه

تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على باطل فيفتنوا بذلك ، وعن مجاهد ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه ، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوآ أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتًا ، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ فقال ابن عبّاس : أمروا أن يتخذوها مساجد ، وعن إبراهيم قال : كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، وكأن هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بالثواب والنصر القريب ، وقال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم ، أمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة ، وقال مجاهد ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ : لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة ، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرًّا ، وكذا قال قتادة والضحاك ، وقال سعيد بن جبير ﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي يقابل بعضها بعضًا .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق ، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلمًا وعلوًّا وتكبّرًا وعتوًّا ، قال موسى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿ فِى ﴾ هذه ﴿ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ بفتح الياء أي أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم ، استدراجًا منك لهم كقوله تعالى : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ وقرأ آخرون : ﴿ لِيُضِلُّوا۟ ﴾ بضم الياء (١) أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد : أي أهلكها ، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس : جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقوله : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس : أي اطبع عليها ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء ، ولهذا

(١) قرأ الكوفيون ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ بضم الياء ، والباقون بفتحها (حجة القراءات ص ٣٣٧) .

استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمَّن عليها أخوه هارون فقال تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ ، قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمّد بن كعب القرظي والربيع بن أنس : دعا موسى وأمَّن هارون أي قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون ، وقد يحتج بهذه الآية من يقول : إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها ؛ لأن موسى دعا وهارون أمّن ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ الآية ، أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري ، قال ابن عبّاس : ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ فامضيا لأمري وهي الاستقامة ، قال ابن جريج : يقولون : إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ، وقال محمّد بن كعب وعلي بن الحسين : أربعين يومًا .

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ .

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده ، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام ، وهم فيما قيل : ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية ، وقد كانوا استعاروا من القبط حليًّا كثيرًا فخرجوا به معهم ، فاشتد حنق فرعون عليهم ، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه ، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم ، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته ، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلَّا أن يتقاتل الجمعان ، وألحّ أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول : إني أمرت أن أسلك ههنا ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع ، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقًا ، لكل سبط واحد ، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا . وجاوزت بنو إسرائيل البحر ، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى ، وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهمَّ بالرجوع ، وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر . واستجيبت الدعوة ، وجاء جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس وديق حائل ، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها ، واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه ، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئًا ، فتجلد لأمرائه وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم ، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحدًا إلَّا ألحقه بهم ، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهمَّ أولهم بالخروج منه ، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ؛ ولهذا قال الله تعالى في

جواب فرعون حين قال ما قال : ﴿ ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ ﴾ أي أهذا الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ أي في الأرض الذين أضلوا الناس .

وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ ولهذا قد روي عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا قَالَ فِرْعَونُ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ - قَالَ - قال لي جِبْرِيلُ : لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَدَسَسْتُهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ »(١) .

وقوله : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره من السلف : إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون ، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويًّا بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض ، وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ قال مجاهد : بجسدك ، وقال الحسن : بجسم لا روح فيه ، وقال عبد الله بن شداد : سويًّا صحيحًا ، أي لم يتمزق ليحققوه ، ويعرفوه ، وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها وقوله : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ ﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلًا على موتك وهلاكك ، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها ، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما روي عن ابن عبّاس قال : قدم النبيّ ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « مَا هَذَا اليَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ ؟ » فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبيّ ﷺ لأصحابه : « أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ »(٢) .

﴿ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية ، وقوله : ﴿ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ ﴾ قيل : هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه ، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾ ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام ، فاستمر موسى بمن معه طالبًا بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالقة ، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس ، واستقرت أيديهم عليها ، إلى أن أخذها منهم بختنصر حينًا من الدهر ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان فكانت أحكامهم مدة طويلة ، وبعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام في تلك المدة فاستعانت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٩/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٥٤٠٤) ومسلم في الصيام (١٢٨) وأحمد في مسنده (٢٩١/١) .

اليهود قبحهم الله على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ، ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا ، فبعثوا من يقبض عليه فرفعه الله إليه وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره ، فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية ، وكان فيلسوفًا قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل : تقية وقيل : حيلة ، ليفسده ، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها ، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات ، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ، ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلَّا القليل من الرهبان ، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم ، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة ، وعبدوا الصليب من حينئذ ، وصلُّوا إلى الشرق وصوروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ، ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة ، وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول . والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم ، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعًا وشرعًا . وقوله : ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلَّا من بعد ما جاءهم العلم ، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بيَّن الله لهم وأزال عنهم اللبس ، وقد ورد في الحديث : «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، منها واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار . قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» (١) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي يفصل بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ .

قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ» (٢) . وكذلك قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير والحسن البصري ، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية ، مع هذا العلم الذي يعرفونه من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٣) والحاكم في المستدرك (١٢٨/١) .
(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٢١١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣١٧/٣) .

كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي لا يؤمنون إيمانًا ينفعهم بل حين لا ينفع نفسًا إيمانها .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

يقول تعالى : فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل ، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمّد من رسول إلّا كذبه قومه أو أكثرهم ، كقوله تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وفي الحديث : « عُرِضَ عَلَيَّ الأنبياءُ ، فَجَعَلَ النَّبيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الفِئَامُ مِنَ النَّاسِ ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الرَّجُلُ ، والنبيُّ معَهُ الرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ »(١) ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه ، كثرة سدّت الخافقين الشرقي والغربي . والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم مما سلف من القرى ، إلّا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلّا تخوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه .

وخرج رسولهم من بين أظهرهم ، فعندما جأرُوا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا ، كما قال تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي ، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين :

أحدهما : إنما كان ذلك في الحياة كما هو مقيد في هذه الآية .

والثاني : فيهما كقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي ، وهذا هو الظاهر ، والله أعلم .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ﴾ يا محمّد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ ﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي حجج الله وأدلته ، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى ، وإضلال من ضل .

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤١/١٨) .

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يرشد تعالى عباده إلى التفكّر في آلائه وما خلق اللّه في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب ، مما في السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما ، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها ، وما أنزل اللّه منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ، وما في البحر من العجائب والأمواج ، يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله إلّا هو ولا رب سواه . وقوله : ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية ، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون . وقوله : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمّد من النقمة والعذاب إلّا مثل أيام اللّه في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسل ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حقًّا أوجبه اللّه تعالى على نفسه الكريمة كقوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وكما جاء في الحديث عن رسول اللّه ﷺ أي أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي » (١) .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمّد ﷺ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ ﴾ من صحة ماجئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه اللّه إليَّ ، فأنا لا ﴿ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، ولكن أعبد اللّه وحده لا شريك له ، وهو ﴿ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون اللّه حقًّا فأنا لا أعبدها ، فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو اللّه وحده لا شريك له ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الآية ، أي أخلص العبادة للّه وحده حنيفًا ، أي منحرفًا عن الشرك ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهو معطوف على قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الآية ، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى اللّه تعالى وحده ، لا يشاركه في ذلك أحد ، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٥٤) وأحمد في مسنده (٢٧٤/٤) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان ، حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى .

وقوله : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته .

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق ، وأما قوله : ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أي هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها ، فهو كامل صورة ومعنى . وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه ، خبير بعواقب الأمور : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ، وقوله : ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تُصَبِّحُكُمْ ، أَلَسْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ » فقالوا : ما جربنا عليك كذبًا قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »(١) وقوله : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ أي وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله ﷻ فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك : ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ أي في الدنيا : ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ . أي في الدار الآخرة ، قاله قتادة . وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ »(٢) وعن ابن مسعود ﷺ في قوله : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت عليه عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده على أعشاره . وقوله : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله ، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

قال ابن عباس : كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه في تفسير القرآن (٤٩٧١) والترمذي في سننه (٣٣٦٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٦٨/٦) .

الآية ، وعن عباد بن جعفر : أن ابن عباس قرأ : (أَلَآ إِنَّهُمْ تثنوني صُدُورَهُمْ) الآية فقلت : يا أبا العباس ما تثنوني صدورهم ؟ قال : الرجل كان يجامع امرأته فيستحي ، أو يتخلى فيستحي فنزلت : (أَلَآ إِنَّهُمْ تثنوني صُدُورَهُمْ) وفي لفظ آخر له قال ابن عبّاس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم[1] ، وعن عمرو قال : قرأ ابن عباس : (أَلَآ إِنَّهُمْ تثنوني لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ) قال ابن عبّاس ﴿ يَسْتَغْشُونَ ﴾ : يغطون رءوسهم ، وقال ابن عبّاس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية : يعني به الشك في اللّه وعمل السيئات ، أي أنهم يثنون صدورهم إذا قالوا شيئًا أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من اللّه بذلك ، فأخبرهم اللّه تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من القول ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها ، بحريها وبريها ، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها ، أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها . وقال ابن عباس ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أي حيث تأوي ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ حيث تموت . وعن مجاهد : ﴿ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ في الرحم ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ في الصلب ، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند اللّه مبين عن جميع ذلك ، كقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك ، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ عز وجل أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ » وقال : « يَدُ اللَّه مَلأَى لَا يُغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَّاء اللَّيْل وَالنَّهار » . وقال : « أَفَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ »[2] .

وعن لقيط بن عامر بن المنفق العقيلي قال : قلت : يا رسول اللّه : أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ ، ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ بَعْدَ ذَلِكَ »[3] . وقال مجاهد : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ قبل أن يخلق شيئًا ، وقال قتادة ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض ، وقال الربيع بن أنس : فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٢) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١١) والهندي في كنز العمال (١٩٣١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١/٤) والترمذي في سننه (٣١٠٩) وابن ماجه في سننه (٨٨٢) .

قسمين، فجعل نصفًا تحت العرش وهو البحر المسجور . وقال ابن عبّاس : إنما سمي العرش عرشًا لارتفاعه ، وقال إسماعيل بن أبي خالد : سمعت سعدًا الطائي يقول : العرش ياقوتة حمراء .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ولم يخلق ذلك عبثًا كقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي ليختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ولم يقل أكثر عملًا ، بل أحسن عملًا ، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله ﷻ على شريعة رسول الله ﷺ ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حبط وبطل . وقوله : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ الآية ، يقول تعالى : ولئن أخبرت يا محمّد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة ، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي يقولون كفرًا وعنادًا : ما نصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلّا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ الآية ، يقول تعالى : ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيبًا واستعجالًا ما يحبسه أي يؤخر هذا العذاب عنا ، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك ، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد ، والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة ، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية : ﴿ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ وقوله في يوسف ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وتستعمل في الملة والدين كقوله إخبارًا عن المشركين إنهم قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ . وتستعمل في الجماعة كقوله : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ . والمراد من الأمة ههنا : الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ، ثم لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ »(١) . وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلّا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحود لماضي الحال ، كأنه لم ير خيرًا ولم يرج بعد ذلك فرجًا ، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نعمة ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) .

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي يقول : ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي فرح بما في يده ، بطر فخور على غيره ، قال اللَّه تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي في الرخاء والعافية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء ، كما جاء في الحديث : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ وَلَا نَصَبٌ ولا وصبٌ وَلَا حُزْنٌ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا ؛ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » (١) وفي الحديث : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّهُ للمؤمن قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ » (٢) . ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول . أن لا يضيق بذلك سنهم صدره ، ولا يصدنه ذلك ولا يثنينه عن دعائهم إلى اللَّه ﷻ آناء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الآية ، وقال ههنا : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟﴾ أي لقولهم ذلك ، فإنما أنت نذير ، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك ، فإنهم كُذّبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر اللَّه ﷻ ، ثم بيَّن تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ؛ لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدّس وتنزه لا إله إلّا هو ولا رب سواه . ثم قال تعالى : ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند اللَّه متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ .

قال ابن عبّاس في الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرًا ، يقول : من عمل صالحًا التماس الدنيا صومًا أو صلاة أو تهجدًا بالليل ، لا يعمله إلَّا التماس الدنيا يقول اللَّه تعالى : أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين . وقال أنس بن مالك والحسن : نزلت في اليهود والنصارى ، وقال مجاهد وغيره : نزلت في أهل الرياء ، وقال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) وأحمد في مسنده (٣٣٢/٤) .

الله بحسناته في الدنيا ، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ، ويثاب عليها في الآخرة .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلّا هو عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ » (١) الحديث . وعن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لهم ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا » (٢) . فالمؤمن باق على هذه الفطرة . وقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي وجاءه شاهد من الله ، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمّد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . ولهذا قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أنه جبريل عليه السلام ، وعن علي رضي الله عنه والحسن وقتادة : هو محمد ﷺ وكلاهما قريب في المعنى ؛ لأن كلًّا من جبريل ومحمّد صلوات الله عليهما بلّغ رسالة الله تعالى ، فجبريل إلى محمّد ، ومحمّد إلى الأمة ، ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ وهو القرآن بلّغه جبريل إلى النبيّ ﷺ ، وبلّغه النبي محمّد ﷺ إلى أمته .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم وقدوة يقتدون بها ، ورحمة من الله بهم ، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ . ثم قال تعالى متوعدًا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ، ممن بلغه القرآن كما قال تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ . عن سعيد بن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ إلا وجدت مصداقة - أو قال : تصديقه - في القرآن ، فبلغني أن النبي ﷺ قال : « لا يسمَعُ بي أحدٌ من هذهِ الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ، فلا يؤمِنَ بي إلّا دخلَ النارَ » (٣) فجعلت أقول : أين مصداقة في كتاب الله ؟ وقلما سمعت عن رسول الله إلا وجدت له تصديقًا في القرآن حتى وجدت هذه الآية : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ قال : من الملل كلها وقوله : ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية ، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه ، كما قال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) وأبو داود في السنن (٤٧١٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) وأحمد في مسنده (١٦٢/٤) . (٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) .

رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ .

يبينّ تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان ، كما روي عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذًا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل ، قال : كيف سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ، قال سمعته يقول : « إِنَّ اللَّه ﷻ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعطى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأشهاد ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ » (١) . وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى اللَّه ﷻ ويجنبونهم الجنة ، ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجًا غير معتدلة ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ وفي الصحيحين : « إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » (٢) . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الآية ، أي يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن اللَّه تعالى جعل لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، بل كانوا صمًّا عن سماع الحق ، عميًا عن اتباعه ، كما أخبر تعالى عنهم حين دخلوهم النار كقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي خسروا أنفسهم بأنهم أدخلوا نارًا حامية ، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي ذهب عنهم ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من دون اللَّه من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئًا ، بل ضرتهم كل الضرر ، ولهذا قال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ؛ لأنهم استبدلوا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٧٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٩٤) .

الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غسلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ورؤيته ، بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، ثنّى بذكر السعداء ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولًا وفعلًا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات ، المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات ، والحسان الخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والمآكل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، ولا ينامون ولا يتغوطون ، ولا يبصقون ولا يتمخطون ، إن هو إلّا رشح مسك يعرقون . ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي الذين وصفهم أولًا بالشقاء ، والمؤمنين بالسعادة ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ، وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر ، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام ، أنه قال لقومه : ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله ، ولهذا قال : ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذّبكم الله عذابًا أليمًا موجعًا شاقًّا في الدار الآخرة ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أي لست بملك ولكنك بشر ، فكيف أوحي إليك من دوننا ، ثم ما نراك اتبعك إلّا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ أي في أول بادئ ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ ﴾ يقولون : ما رأينا لكم علينا فضيلة في خُلقٍ ولا خَلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم هذا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذ صرتم إليها ،

هذا اعتراض الكافرين على نوح ﷺ وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ؛ فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالبًا أن من يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هم أتباع الرسل . وقولهم : بادي الرأي ليس بمذمة ولا عيب ؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال ، بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ، بل لا يفكر ههنا إلّا غبي أو عيي ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي واضح .

وقوله : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق ، لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون ، وفي الآخرة هم الأخسرون .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما رد به نوح على قومه في ذلك ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها ، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول لقومه لا أسألكم على نصحي لكم مالًا ، أجرة آخذها منكم ، إنما أبتغي الأجر من الله ﷻ ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشامًا ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم ، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنه جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسًا خاصًا فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ الآية .

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك ، ولا يسألهم على ذلك أجرًا ، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع ، فمن استجاب له فقد نجا . ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرّف في خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلّا ما أطلعه الله عليه ، وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات . ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم أنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فإن

كانوا مؤمنين باطنًا كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى ، ولو قطع لهم أحدٌ بشر بعدما آمنوا لكان ظالمًا قائلًا ما لا علم له به .

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق . ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي من النقمة والعذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي إنما الذين يعاقبكم ويعجلها لكم الله لا يعجزه شيء ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي : أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي إغواءكم ودماركم ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور ، له الخلق وله الأمر ، وهو المبدئ المعيد مالك الدنيا والآخرة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ .

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها مقرر لها ، يقول تعالى لمحمّد ﷺ : أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أي فإثم ذلك علي ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أي ليس ذلك مفتعلًا ولا مفترى ؛ لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ يعني السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ أي تعليمنا لك ما تصنعه ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ فقال بعض السلف : أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه وييبسه فكان ذلك في مائة سنة ، ونجرها في مائة سنة أخرى ، وقيل : في أربعين سنة ، والله أعلم . وعن ابن عباس : طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ، وقيل : طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع ، فالله أعلم . قالوا كلهم : وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعًا ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعليا للطيور ، وكان بابها في عرضها ،

ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

وقوله : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ أي يهزأون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق : ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ الآية ، وعيد شديد وتهديد أكيد ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي يهينه في الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائم مستمر أبدًا .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذي لا يقلع ولا يفتر ، وقوله : ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ فعن ابن عبّاس : التنور وجه الأرض ، أي صارت الأرض عيونًا تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار ، صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف ، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ ٱلتَّنُّورُ ﴾ فلق الصبح ، وتنوير الفجر وهو ضياؤه وإشراقه ، والأول أظهر . فحينئذٍ أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل : وغيرها من النباتات اثنين : ذكرًا وأنثى ، فقيل كان أول من أدخل من الطيور الدرة ، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار ، فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه ، فجعل يقول له نوح عليه السلام : ما لك ويحك ادخل ، فينهض ولا يقدر فقال : ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة ، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « لَمَّا حَمَلَ نُوحٌ في السَّفِينَةِ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، قَالَ أَصْحَابُهُ : وَكَيْفَ تَطْمَئِنُّ الْمَوَاشِي وَمَعَهَا الأَسَدُ ؟ فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ الحُمَّى فَكَانَتْ أَوَّلَ حُمَّى نَزَلَتْ في الأَرْضِ ، ثُمَّ شَكَوُا الفَأْرَةَ فَقَالُوا : الْفُوَيْسِقَةُ تُفْسِدُ عَلَيْنَا طعامنا وَمَتَاعَنَا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الأَسَدِ فَعَطَسَ فَخَرَجَت الْهِرَّةُ مِنْهُ فَتَخَبَّأَتِ الفَأْرَةُ مِنْهَا » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته إلَّا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله ، فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده ، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله . وقوله : ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أي من قومك : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا .

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣١/١) وهذا من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس ولم نعثر عليه في أي من كتب الحديث التي تحت أيدينا غير هذين الكتابين ، ويبدو أنه من أخبار بني إسرائيل .

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي بنسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها . وقرأ أبو رجاء العطاردي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مجريها ومرسيها﴾ (١) ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ الآية ، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه فعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « أَمَانُ أُمَّتِي مِنَ الغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا فِي السُّفُنِ أَنْ يَقُولُوا بِسْمِ اللَّهِ المَلِكِ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ » (٢) .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ، فذكر أنه غفور رحيم كقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . وقوله : ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض ، حتى طفت على رءوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعًا وقيل : بثمانين ميلًا ، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه . وقوله : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ الآية ، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافرًا ، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون . قال : ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح عليه السلام : ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله ، وقيل : إن عاصمًا بمعنى معصوم كما يقال : طاعم وكاس بمعنى مطعوم ومكسو ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ .

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلّا أصحاب السفينة ، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي شرع في النقص ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ قال مجاهد : وهو جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت وتواضع هو لله عزّ وجلّ فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام . وقال قتادة : استوت عليه شهرًا حتى نزلوا منها ، قال قتادة : قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رمادًا .

وقال الضحاك : الجودي جبل بالموصل وقال بعضهم : هو الطور ، وعن أبي هريرة قال : مر النبيّ ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال : « مَا هَذَا الصَّوْمُ ؟ » قالوا : هذا اليوم

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (مجريها) بفتح الميم وكسر الراء والباقون بضمها (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٤) .
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/١٢٥) والهندي في كنز العمال (١٧٥٣٧) .

الذي نجّى الله به موسى وبني إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي ، فصام نوح وموسى عليهما السلام شكرًا لله عز وجل ، فقال النبي ﷺ : «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى وَأَحَقُّ بِصَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ » . فصام وقال لأصحابه : « مَنْ كَانَ أَصْبَحَ مِنْكُمْ صَائِمًا فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ ، وَمَنْ كَانَ أَصَابَ مِنْ غِذَاءِ أَهْلِهِ فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ » [(١)] . وقوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي هلاكًا وخسارًا لهم وبعدًا من رحمة الله ، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية . وعن عائشة زوج النبيّ ﷺ أخبرته أن النبيّ ﷺ قال : « لَوْ رَحِمَ اللهُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ » . قال رسول الله ﷺ : « كَانَ نُوحٌ عليه السلام مَكَثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَغْنِي وَغَرَسَ مِائَةَ سَنَةِ الشَّجَرَ فَعَظُمَتْ وَذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ ، ثُمَّ قَطَعَهَا ثُمَّ جَعَلَهَا سَفِينَةً ، وَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ : تَعْمَلُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ فَكَيْفَ تَجْرِي ؟ قَالَ : سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، فَلَمَّا فَرَغَ وَنَبَعَ الْمَاءُ وَصَارَ فِي السِّكَكِ خَشِيَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَلَيْهِ وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا ، فَخَرَجَتْ إِلَى الْجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَهُ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ ارْتَفَعَتْ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثه ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ بِهِ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الْجَبَلِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَقَبَتَهَا رَفَعَتْهُ بِيَدَيْهَا فَغَرِقَا ، فَلَوْ رَحِمَ اللهُ مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ » [(٢)] .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ، ووعدك الحق الذي لا يخلف ، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم ، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحًا عليه السلام ، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية ، واحتج بعضهم بقوله ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ وبقوله : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فممن قاله : الحسن البصري احتج بهاتين الآيتين ، وبعضهم يقول ابن امرأته ، وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازًا لكونه كان ربيبًا عنده ، فالله أعلم ، وقال ابن عبّاس وغير واحد من السلف : ما زنت امرأة نبي قط ، قال : وقوله ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي الذين وعدتك نجاتهم . وقول ابن عبّاس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصدّيق زوج النبيّ ﷺ ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ؛ فعن ابن عبّاس قال : هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية ، وعن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿ إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ ﴾ وسمعته يقول : ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٣٦) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٨/٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٠/٨).

نَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ ولا يبالي ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١) وعن أم سلمة : أن رسول الله ﷺ قرأها ﴿ إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ ﴾ (٢) ، وعن سليمان بن قبة قال : سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال : أما إنه لم يكن بالزنى ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون ، وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ .
وقال بعض العلماء : ما فجرت امرأة نبي قط .

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يخبر تعالى عما قيل لنوح ﷺ حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين قال محمد بن إسحاق : لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحًا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء ، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ الآية ، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدير ، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه ، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رءوس الجبال ، فلما مضى بعد ذلك أربعون يومًا فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم تجد لرجليها موضعًا ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتون ، فعلم نوح أن الماء قد قلَّ عن وجه الأرض ، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر ، وكشف نوح غطاء الفلك ، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا ﴾ الآية (٣) .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه ﷺ هذه القصة وأشباهها ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها ، ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ ﴾ أي نعلمك بها وحيًا منا إليك ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ ﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك ، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخر ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٥٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٩٤) وقرأ الكسائي ﴿ إنه عَمِلَ غير صالح ﴾ بنصب اللام والراء ، والباقون ﴿ عَمَلٌ غير صالح ﴾ بفتح الميم وضم اللام والراء (حجة القراءات ص ٣٤١) .
(٣) يدل سياق هذا الأثر على أنه من أخبار بني إسرائيل .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ آمرًا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ناهيًا لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة ، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة ، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة ، وبالتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسّر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال : ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ، وفي الحديث : « مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ »[1] .

﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أي بمجرد قولك اتركوهم نتركهم ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدقين ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ يقولون : ما نظن إلّا أن بعض الآلهة أصابتك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ﴾ يقول : إني بريء من جميع الأنداد والأصنام ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقًّا ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أي طرفة عين . وقوله : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أي تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه ، فإنه على صراط مستقيم .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ .

يقول لهم هود : فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ، ولا يبالي بكم ، فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هودًا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء ؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به ، فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ تركوا اتباع

(١) أخرجه أبو داود في السنن(١٥١٨) وابن ماجه في السنن(٣٨١٩) والبيهقي(٣/٣٥١) .

رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، فلهذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا ، وينادى عليهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ ﴾ الآية ، قال السدي : ما بعث نبي بعد عاد إلَّا لعنوا على لسانه (١) .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَ ﴾ لقد أرسلنا ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم ﴿ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ، ولهذا قال : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها خلق منها أباكم آدم ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي جعلكم عمارًا تعمرونها وتستغلونها ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ .

﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه ، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ ﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ أي شك كثير ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿ وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أي خسارة .

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ها هنا وبالله التوفيق .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ ﴾ وهم الملائكة ﴿ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ قيل : تبشره بإسحاق ، وقيل : بهلاك قوم لوط ، ويشهد للأول قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ ﴾ أي عليكم ، قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيوه به ؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي ذهب سريعًا فأتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر ﴿ حَنِيذٍ ﴾ مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة . وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٧ .

نكرهم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ قال السدي : لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه ، فلما رآهم أجلهم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ فذبحه ثم شواه في الرضف وأتاهم به ، فقعد معهم وقامت سارة تخدمهم ، فذلك حين يقول (وامرأته قائمة وهو جالس) في قراءة ابن مسعود ﴿ فلما قربه إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قالوا : يا إبراهيم إنا لا نأكل طعامًا إلَّا بثمن ، قال : فإن لهذا ثمنًا ، قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حق لهذا أن يتخذه ربه خليلًا ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول : فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت وقالت : عجبًا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا ! وقوله تعالى إخبارًا عن الملائكة ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ أي قالوا : لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم ، فضحكت سارة استبشارًا بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم وعنادهم ، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس . وقال قتادة : ضحكت وعجبت أن قومًا يأتيهم العذاب وهم في غفلة . وقوله ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ عن ابن عبّاس : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ أي حاضت ، وقول محمّد بن قيس : إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط . وقول وهب بن منبه : إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق وهذا مخالف لهذا السياق فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولد إسحاق كما قال في آية البقرة ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه ولله الحمد ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ الآية ، حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى فإنها ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ ﴿ قَالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي قالت الملائكة لها : لا تعجبي من أمر الله ، فإنه ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزًا عقيمًا وبعلك شيخًا كبيرًا ، فإن الله على ما يشاء قدير ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود ممجد في صفاته وذاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا : اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » (١) .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٠) ومسلم في الصلاة (٦٥) وأحمد في مسنده (١١٨/٤) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط ، أخذ يقول لهم : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنًا ؟ قالوا : لا ، قال : ثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى بلغ خمسة قالوا : لا ، قال : أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ الآية ، فسكت عنهم واطمأنت نفسه . وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها . وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ الآية ، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة ، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطًا عليه السلام ، وهو على ما قيل في أرض له ، وقيل في منزله ، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاءً من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم ، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : شديد بلاؤه ، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك . وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم ، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه : إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلًا ثم أعاد ذلك عليهم ، حتى كرره أربع مرات ، قال قتادة : وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك ، وقال السدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ، ولقوا بنت لوط تستقي ، فقالوا : يا جارية هل من منزل ؟ فقالت : مكانكم حتى آتيكم ، وفرقت عليهم من قومها فأتت أباها ، فقالت : يا أبتاه أدرك فتيانًا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك ، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلًا ، فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال ، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلَّا أهل بيته ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه . وقوله : ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك . وقوله : ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال .

وقوله : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يرشدهم إلى نسائهم فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة ، قال مجاهد : لم يكنَّ بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ، وكذا روي عن قتادة وغير واحد . وقال ابن جريج : أمرهم أن يتزوجوا النساء لم يعرض

عليهم سفاحًا . وقال سعيد بن جبير : يعني نساءهم هن بناته وهو أب لهم ، وقوله : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ أي اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي فيه خير يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي ليس لنا غرض إلَّا في الذكور وأنت تعلم ذلك ، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك ؟ قال السدي ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنما نريد الرجال .

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيّه لوط ﷺ أن لوطًا توعدهم بقوله : ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ الآية ، أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي ، ولهذا ورد في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « رَحْمَةُ اللهِ عَلَى لُوطٍ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ - يعني الله ﷻ - فَمَا بَعَثَ اللهُ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » (١) . فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم ، أي يكون ساقة لأهله ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم ، ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قال الأكثرون : هو استثناء من المثبت وهو قوله : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ تقديره ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ وكذلك قرأها ابن مسعود ، ونصب هؤلاء امرأتك لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم ، وقال آخرون من القرّاء والنحاة . هو استثناء من قوله : ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ فجوزوا الرفع والنصب (٢) . وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت : وا قوماه ، فجاءها حجر من السماء فقتلها ، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيرًا له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة فقالوا : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه ، وهم لا يقبلون منه بل يتوعدونه ويتهددونه ، فعند ذلك خرج عليهم جبريل ﷺ فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق .

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ .

يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ وهي سدوم ﴿سَافِلَهَا﴾ أي أمطرنا عليها حجارة من سجيل وهي بالفارسية حجارة من طين ، قاله ابن عبّاس وغيره . وقال بعضهم : أي من سنك وهو الحجر وكل هو الطين ، وقال البخاري : ﴿سِجِّيلٍ﴾ : الشديد الكبير ، سجيل اللام والنون أختان (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٢/٣٣٢) والترمذي في سننه(٣١١٦) .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إلا امرأتُك﴾ بالرفع ، وقرأ الباقون ﴿إلا امرأتَك﴾ بالنصب(حجة القراءات ص : ٣٤٧ - ٣٤٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن(٤٦٨٤) .

وقوله : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ قال بعضهم : منضودة في السماء أي معدة لذلك . وقال آخرون : أي يتبع بعضهم بعضًا في نزولها عليهم . وقوله : ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه . وقال قتادة وعكرمة : مطوقة بها نضح من حمرة ، وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها ، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره ، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد . وقال مجاهد : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم ، حملهم بمواشيهم وأمتعهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن ، قال : ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها . وقال قتادة : بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم ، ثم دمر بعضها على بعض ، ثم اتبع شذاذ القوم صخرًا . قال : وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى ، في كل قرية مائة ألف ، وفي رواية : ثلاث قرى الكبرى منها سدوم ، قال : وبلغنا أن إبراهيم ﵇ كان يشرف على سدوم ويقول : سدوم يوم هالك . يقول الله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ فأهلكها الله وما حولها من المؤتكفات . وقال السدي : لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أراضين فحملها حتى بلغ بها السماء ، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ، ثم قلبها فقتلهم ، فذلك قوله : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ، ومن كان منهم شاذًا في الأرض يتبعهم في القرى فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله ، فذلك قوله ﷻ : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي في القرى الحجارة من سجيل ، هكذا قال السدي . وقوله : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه ، وقد ورد في الحديث المروي عن ابن عبَّاس مرفوعًا « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » (١) وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصنًا أو غير محصن عملًا بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ .

يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبًا من معان ، بلادًا تعرف بهم يقال لها مدين ، فأرسل الله إليهم شعيبًا وكان من أشرفهم نسبًا ، ولهذا قال : ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٠٠) وأبو داود في سننه (٤٤٦٢) والترمذي في سننه (١٤٥٦) وابن ماجه في سننه (٢٥٦١).

ينهاهم أولًا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ، ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد ، وقد كانوا يقطعون الطريق . وقوله : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : رزق اللّٰه خير لكم ، وقال الحسن : رزق اللّٰه خير لكم من بخسكم الناس ، وقال مجاهد : طاعة اللّٰه ، وقال قتادة : حظكم من اللّٰه خير لكم ، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : الهلاك في العذاب والبقية في الرحمة ، وقال أبو جعفر بن جرير : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس ، قال : وقد روي هذا عن ابن عبّاس . قلت : ويشبه قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي برقيب ولا حفيظ ، أي افعلوا ذلك للّٰه عَزَّ وَجَلَّ ، لا تفعلوا ليراكم الناس بل للّٰه عَزَّ وَجَلَّ .

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ .

يقولون له على سبيل التهكم قبحهم اللّٰه ﴿ أَصَلَوٰتُكَ ﴾ قال الأعمش : أي قراءتك ﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾ فنترك التطفيف عن قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد ، قال الحسن في قوله : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ أي واللّٰه إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ، وقال الثوري في قوله : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾ يعنون الزكاة ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ قال ابن عبّاس وابن جرير : يقولون ذلك أعداء اللّٰه على سبيل الاستهزاء قبحهم اللّٰه ولعنهم عن رحمته وقد فعل .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

يقول لهم : هل رأيتم يا قوم إن كنت ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ قيل : أراد النبوة ، وقيل : أراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين . وقال الثوري : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أي فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ ﴾ أي في إصابة الحق فيما أريده ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع ، عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكًا قال : يا معاوية إن محمدًا أخذ جيراني فانطلق إليه فإنه قد كلمك وعرفك ، فانطلقت معه فقال : دع لي جيراني فقد كانوا أسلموا . فأعرض عنه ، فقام مغضبًا فقال : أما واللّٰه لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا بالأمر وتخالف إلى غيره ، وجعلت أجرّه وهو يتكلم فقال رسول اللّٰه ﷺ : « مَا تَقُولُ ؟ » فقال : إنك واللّٰه لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره ، قال فقال : « أَوَ قَدْ قَالُوهَا - أي قائلهم - وَلَئِنْ فَعَلْتُ مَا ذَاكَ إِلَّا عَلَيَّ وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ ذلك من شَيْءٍ أَرسِلُوا لَهُ جِيرَانَهُ » (١)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٥) والطبراني في الكبير (١٩/٤١٤) .

ومن هذا القبيل الحديث الذي روي عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال : سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولون عنه ﷺ أنه قال : « إِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وأبشاركم ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنكُمْ قَرِيبٌ ؛ فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنكُمْ بَعِيدٌ ؛ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ » (١) . وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث : « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُم المَسْجِدَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِيَ أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ » (٢) ومعناه والله أعلم : مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به ، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : تنهى عن الواصلة ؟ قال : نعم ، قالت : فعله بعض نسائك ، فقال : ما حفظت وصية العبد الصالح إذًا ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ . وعن أبي سليمان الضبي قال : كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي ، فيكتب في آخرها وما كانت من ذلك إلّا كما قال العبد الصالح : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

يقول لهم : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب . وقال قتادة : يقول : لا يحملنكم فراقي ، وقال السدي : عداوتي ، على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم . وقوله : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ قيل : المراد في الزمان ، قال قتادة : يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل : في المكان ، ويحتمل الأمران ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾ من سالف الذنوب ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة . وقوله ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ لمن تاب .

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

يقولون : ﴿ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ ما نفهم ﴿ كَثِيرًا ﴾ من قولك ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ ﴾ قال سعيد ابن جبير : وكان ضرير البصر ، وقال الثوري : كان يقال له خطيب الأنبياء ، قال السدي : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ ﴾ قال : أنت واحد ، ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ ﴾ أي قومك لولا معزتهم علينا لرجمناك ، قيل : بالحجارة ، وقيل : لسببناك ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي ليس عندنا لك معزة ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يقول : أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظامًا لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيّه بمساءة ، وقد اتخذتم جانب الله ﴿ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ ﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم .

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٢٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٤٩) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٦٨) وأحمد في مسنده (٥/ ٤٢٥) .

وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ .

لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال : يا قوم ﴿ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي طريقتكم ، وهذا تهديد شديد ﴿ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ على طريقتي ﴿ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ أي مني ومنكم ﴿ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ أي انتظروا ﴿ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ وقوله : ﴿ جَٰثِمِينَ﴾ أي هامدين لا حراك بهم . وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ؛ ففي الأعراف : لما قالوا : ﴿ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ ﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم عى نبيهم ذكر الصيحة التي استلبتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا : ﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ قال : ﴿ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة . وقوله : ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريبًا منهم في الدار ، وشبيهًا بهم في الكفر وقطع الطريق ، وكانوا عربًا مثلهم .

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ
قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها ، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر ﴿ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة وقوله : ﴿ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ الآية ، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان ، وقال ابن عبّاس : لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة .

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ
عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ .

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال : ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي أخبارهم ﴿ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾ أي عامر ﴿ وَحَصِيدٞ﴾ أي هالك ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكم ﴿ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي غير تخسير ، وذلك

أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ عن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ الآية (١) .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿ لَءَايَةً ﴾ أي عظة واعتبارًا على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها . وقوله : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي ما نؤخر إقامة القيامة إلَّا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلَّا بإذن الله ، كقوله : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ . وفي الصحيحين في حديث الشفاعة : « وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » (٢) . وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ . أي فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد . عن عمر قال : لما نزلت : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ سألت النبيّ ﷺ فقلت : يا رسول الله : علام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال : « عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ يَا عُمَرُ وَجَرَتْ بِهِ الأَقْلَامُ ، وَلَكِنْ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » (٣) . ثم بيّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال ابن عبّاس : الزفير في الحلق والشهيق في الصدر ، أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياذًا بالله من ذلك ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا قالت : هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليل والنهار ، وما سمر أبناء سمير ، وما لألأت العير بأذنابهم يعنون بذلك كله أبدًا ، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٩٤/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٠٦) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في القدر (٩) والترمذي في السنن (٣١١١) وأبو داود في السنن (٤٧٠٩) .

الجنس ؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ ولهذا قال الحسن البصري في قوله : ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ قال : يقول سماء غير هذه السماء ، وأرض غير هذه ، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض ، وعن ابن عبّاس قال : لكل جنة سماء وأرض ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : ما دامت الأرض أرضًا والسماء سماء .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ كقوله : ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ . وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة ، فعن ابن عبّاس والحسن أيضًا أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم اللَّه من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيرًا قط ، وقال يومًا من الدهر : لا إله إلَّا اللَّه . ولا يبقى بعد ذلك في النار إلَّا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها ، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الآية الكريمة . وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عبّاس وأبي هريرة وعبد اللَّه بن عمرو وجابر وأبي سعيد من الصحابة ، وعن أبي مجلز والشعبي وغيرهما من التابعين ، وعن عبد الرَّحمن بن زيد ين أسلم وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة في أقوال غريبة ، وقال السدي : هي منسوخة بقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ ﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبدًا ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة اللَّه تعالى ، فله المنة عليهم دائمًا ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس ، وقال الضحاك والحسن البصري : هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها ، وعقّب ذلك بقوله : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع ، قاله مجاهد وابن عبّاس وأبو العالية وغير واحد : لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء ، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع ، كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائمًا مردود إلى مشيئته ، وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ وقد جاء في الحديث : «يُؤْتَى بِالمَوْتِ في صورة كَبْش أَمْلَح ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْت »[(١)] . وفي الصحيح أيضًا : «فَيُقَالُ : يا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا »[(٢)] .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ

(١)أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣٠)وأحمد في مسنده (٢/٢٦١).

(٢)أخرجه مسلم في الجنة (٢٢)وأحمد في مسنده (٢/٣١٩).

منقوص ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ المشركون أنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلّا اتباع الآباء في الجهالات ، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذبهم عذابًا لا يعذبه أحدًا ، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة . قال ابن عبّاس : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ قال : ما وعدوا من خير أو شر . وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص ، ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ولا يهيدنك ذلك ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ . قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدًا إلّا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر فقال : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها ، وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناها كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ .

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ، ونهى عن الطغيان وهو البغي فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك ، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء . وقوله : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ ابن عبّاس : لا تداهنوا ، وقال ابن عبّاس : هو الركون إلى الشرك ، وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم ، وقال ابن جرير عن ابن عبّاس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، وهذا القول حسن ؛ أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ ﴾ يعني الصبح والمغرب ، وقال الحسن في رواية قتادة والضحاك وغيرهم : هي الصبح والعصر ، وقال مجاهد : هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى : ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم : يعني صلاة العشاء ، وقال الحسن ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ يعني المغرب والعشاء ، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع

الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضًا في قول ، والله أعلم .

وقوله ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث عن علي بن أبي طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثًا نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي صدقته ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يذنب ذنبًا فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له »[١] وفي الحديث عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال : « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه »[٢] وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرًا غمرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقي من درنه شيئًا ؟ » قالوا : لا يا رسول الله قال : « كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا »[٣] . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر »[٤] .

وعن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها ، قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك ، فافعل بي ماشئت ، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئًا فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال : « رُدُّوهُ عَلَيَّ » فردوه عليه فقرأ عليه ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ فقال معاذ : وفي رواية عمر : يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : « بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً »[٥] . وعن عبد الله بن مسعود أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّه قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّه يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يحب ومن لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّه الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسْلِمُ عبدٌ حتى يسلم قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » قال : قلنا : وما بوائقه يا نبي الله ؟ قال : « غِشُّهُ وَظُلْمُهُ ، وَلَا يَكْسَبُ عَبْدٌ مَالًا حَرَامًا فَيُنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارَكُ لَهُ فِيهِ ، وَلَا يَتَصَدَّقُ فَيُقْبَلُ مِنْهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنَّ اللَّه لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالحَسَن ، إِنَّ الخَبِيثَ لَا يَمْحُو الخَبِيثَ »[٦]

وعن أبي عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ منها غصنًا يابسًا فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟ قال : هكذا فعل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠١/١) . (٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٩) .
(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨) ومسلم في المساجد (٢٨٣) وأحمد في مسنده (٣٧٩/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤ ، ١٥ ، ١٦) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والترمذي في السنن (٢١٤) .
(٥) أخرجه مسلم في التوبة (٤٢) وأحمد في مسنده (٤٤٥/١) والبيهقي في السنن (٢٤١/٨) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في المستدرك (٣٣/١) .

رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ المُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الوَرَقُ » ، قال : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ .

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض . وقوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرًا ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وفي الحديث : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا المُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ » (٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلَّا وهي ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم ، قال عكرمة : مختلفين في الهدى ، وقال الحسن البصري : مختلفين في الرزق يسخر بعضهم بعضًا ، والمشهور الصحيح الأول . وقوله : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ أي إلَّا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اليَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا في النار إلا فِرْقَةً وَاحِدَةً » قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » (٣) . وقال عطاء : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ يعني الحنيفية . وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٥) والدارمي في السنن (١٨٣/١) والطبراني في الكبير (٣١٦/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١) ، وابن ماجه في السنن (٤٠٠٥) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦/١ ، ١٢٨) .

وقوله : ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه : وللاختلاف خلقهم ، وقال ابن عباس : خلقهم فريقين كقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ وقيل : للرحمة خلقهم ، وعن ابن عبّاس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، كذا قال مجاهد والضحاك وقتادة .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ الجَنَّةُ : مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ ؟ وَقَالَتِ النَّارُ : أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ ، وَقَالَ لِلنَّارِ : أَنْتِ عَذَابِي أَنْتَقِمُ بِكِ مِمَّنْ أَشَاءُ ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا ، فَأَمَّا الجَنَّةُ : فَلَا يَزَالُ فيها فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا يسْكُنُ فَضْلَ الجَنَّةِ ، وَأَمَّا النَّارُ : فَلَا تَزَالُ تَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا رَبُّ العِزَّةِ قَدَمَهُ فَتَقُولُ : قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ » (١) .

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما نثبت به فؤادك أي قلبك يا محمّد ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة . وقوله : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ ﴾ أي في هذه السورة ، عن الحسن في رواية عنه وقتادة : في هذه الدنيا ، والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبأ صدق ، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : آمرًا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على طريقتكم ومنهجكم ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا ﴿ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيّده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ، فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه . وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمّد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٥) وأحمد في مسنده (٢/٥٠٧) .

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي ، الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن ، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما روي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : أنزل على النبي ﷺ القرآن ، قال : فتلاه عليهم زمانًا ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ، فأنزل ﷻ : ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ثم تلا عليهم زمانًا ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل ﷻ ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (١) .

وبما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ماسواه من الكتب ما روي عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغيّر وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّد رسولًا ، قال : فسري عن النبيّ ﷺ وقال : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لضللتم ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ » (٢) .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمّد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه ، وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام كما قال ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ » (٣) وعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال : « أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ » قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ » قالوا : ليس عن هذا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٤٥ . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٦٦) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩٠) وأحمد في مسنده (٢/٩٦) .

نسألك ، قال : « فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا » (١) .

وقال ابن عبّاس : رؤيا الأنبياء وحي ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلًا سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه .

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا بحيث يخرّون له ساجدين إجلالًا واحترامًا وإكرامًا ، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسدًا منهم له ، ولهذا قال له : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها ، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ ؛ فَلْيَتَحَوَّلْ إِلَى جَنْبِهِ الآخَرِ ، وَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا ، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّه مِنْ شَرِّهَا ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ » (٢) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لولده يوسف إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : يعني تعبير الرؤيا ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك ، ولهذا قال : ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وهو الخليل ﴿ وَإِسْحَٰقَ ﴾ ولده وهو الذبيح في قول وليس بالرجيح ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته .

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه ، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ أي حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه ، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة ، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يعنون في تقديمهما علينا ، ومحبته إياهما أكثر منا .

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٢٢) وابن ماجه في السنن (٣٩٠٨) وأحمد في مسنده (٥/٢٩٦) .

الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ وهذا فيه احتمال ؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالًا لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم ، والله أعلم . ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ ﴾ يقولون : هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم إما بأن تقتلوه ، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ قال قتادة ومحمّد بن إسحاق : وكان أكبرهم واسمه روبيل ، وقال السدي : الذي قال ذلك يهوذا ، وقال مجاهد : هو شمعون الصفا ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله ؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لابد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو أسفله . قال قتادة : وهي بئر بيت المقدس ﴿ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أي المارة من المسافرين ، فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون .

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل ، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا : ما بالك ﴿لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا ﴾ أي ابعثه معنا ﴿غَدٗا نرتع ونلعب ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ ﴾[1] قال ابن عبّاس : يسعى وينشط ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ يقولون : ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء : ﴿ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ ﴾ أي يشق عليَّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخُلق والخَلق صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ يقول : وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة : ﴿لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذًا لهالكون عاجزون .

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ .

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿يرتع ونلعب ﴾ بالنون وقرأ أهل المدينة ﴿يرتع ويلعب ﴾(انظر حجة القراءات ص ٣٥٥ ، ٣٥٦) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكرامًا له وبسطًا وشرحًا لصدره وإدخالًا للسرور عليه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها .

وقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر ، إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييبًا لقلبه وتثبيتًا له إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا ، وسينصرك اللَّه عليهم ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع . وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك .

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي نترامى ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه . وقوله : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه ، يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدّقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب ، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي اللَّه يعقوب ، بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه اللَّه بعونه ولطفه ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال . وقال ابن عبّاس ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ : لو أكله السبع لخرق القميص ، وقال مجاهد : الصبر الجميل الذي لا جزع فيه .

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : مخبرًا عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيدًا فريدًا ، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش ، وقال محمّد بن إسحاق : لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يُصنع به ، فساق اللَّه له سيارة فنزلوا قريبًا من تلك البئر ، وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال : ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ وقرأ بعض القراء ﴿ يا بشراي ﴾ (١) فزعم السدي أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه معلمًا له أنه أصاب غلامًا ، وهذا القول من السدي غريب ؛ لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلّا في رواية عن ابن عبّاس ، واللَّه أعلم ، وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى ، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه وحذف ياء الإضافة وهو يريدها ، كما تقول العرب : يا نفس اصبري ، ويا غلام أقبل ، بحذف حرف الإضافة ، ويجوز الكسر حينئذٍ والرفع وهذا منه ، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿ يا بشراي ﴾ واللَّه أعلم . وقوله : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا : اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره ، وقال ابن عبّاس قوله ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ يعني إخوة يوسف ، أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ يباع فباعه إخوته . وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه ، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ولكن له حكمة وقدر سابق ، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وفي هذا تعريض لرسوله محمّد ﷺ وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك ، وأنا قادر على الإنكار عليهم ولكني سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم ، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته .

وقوله : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ يقول تعالى : وباعه إخوته بثمن قليل . وقاله جاهد وعكرمة ، والبخس : هو النقص كما قال تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ أي اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل ، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي ليس لهم رغبة فيه ، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا . وقال ابن عبّاس ومجاهد والضحاك : إن الضمير في قوله ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ عائد على إخوة يوسف ، وقال قتادة : بل هو عائد على السيارة ، والأول أقوى ؛ لأن قوله : ﴿ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة ، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه ، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ إنما هو لإخوته ، وقيل : المراد بقوله ﴿ بَخْسٍ ﴾ الحرام ، وقيل : الظلم ، وهذا وإن كان كذلك ليس المراد هنا لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد لأن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد ، لأنه نبي ابن نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن ،

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ يا بُشْرَى ﴾ بترك الإضافة ، وقرأ الباقون ﴿ يا بشراي ﴾ بإثبات ياء الإضافة وفتحها . حجة القراءات ص ٣٥٧ .

فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما ، ولهذا قال : ﴿ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٍ ﴾ فعن ابن مسعود ﷺ باعوه بعشرين درهمًا ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهمًا ، وقال محمّد بن إسحاق وعكرمة : أربعون درهمًا . وقال الضحاك في قوله : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند اللّٰه ﷻ ، وقال مجاهد : لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم : استوثقوا منه لا يبقى حتى وقوفه بمصر ، فقال : من يبتاعني وليبشر؟ فاشتراه الملك وكان مسلمًا .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى بألطافه بيوسف ﷺ أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته : ﴿ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها . وعن ابن عبّاس : وكان اسمه قطفير ، وقال محمّد بن إسحاق : اسمه أطفير بن روحيب وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذٍ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، قال : واسم امرأته راعيل بنت رعاييل ، وقال غيره : اسمها زليخا ، وقال ابن عبّاس : كان الذي باعه بمصر مالك بن ذعر بن قريب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم فاللّٰه أعلم . وعن عبد اللّٰه بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لأمرأته ﴿ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾ وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يعني بلاد مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ قال مجاهد والسدي : هو تعبير الرؤيا ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾ أي إذا أراد شيئًا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه ، قال سعيد بن جبير : أي فعال لما يشاء . وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يقول : لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد . وقوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ ﴾ أي يوسف ﷺ ﴿ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ أي : استكمل عقله وتم خلقه ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ ﴾ يعني : النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أي أنه كان محسنًا في عمله ، عاملًا بطاعة اللّٰه تعالى ، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة ، وعن ابن عبّاس بضع وثلاثون ، وقال الضحاك : عشرون ، وقال الحسن : أربعون سنة ، وقيل غير ذلك ، واللّٰه أعلم .

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه أي حاولته على نفسه ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حبًا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع و ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَۖ ﴾ وكان يطلقون الرب على

السيد والكبير ، أي : إن بعلك ربي أحسن مثواي أي : منزلي ، وأحسن إليّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وقد اختلف القراء في قوله : ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء . وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : معناه أنها تدعوه إلى نفسها ، وقال ابن عبّاس ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تقول هلم لك ، وعن الحسن : وهي كلمة بالسريانية أي عليك ، وقال السدي : أي هلم وهي بالقبطية ، وقال مجاهد : هي لغة عربية تدعوه بها ، وقال البخاري : وقال عكرمة : أي هلم لك بالحورانية : هكذا ذكره معلقًا وعن عكرمة مولى ابن عبّاس قال : هلم لك ، قال : هي بالحورانية(١) ، وكان الكسائي يحكي هذه القراءة يعني ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ويقول : هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز ومعناها تعال .

وقرأ ذلك آخرون ﴿هِئْتُ لَكَ﴾ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء ، بمعنى تهيأت لك من قول القائل : هئت بالأمر أهيء هئة ، وممن روي عنه هذا القراءة ابن عبّاس ، وأبو عبد الرّحمن السلمي ، وأبو وائل ، وعكرمة ، وقتادة ، وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك . قال ابن جرير : وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة ، وقرأ عبد اللّه بن إسحاق ﴿هَيْتِ﴾ بفتح الهاء وكسر التاء وهي غريبة ، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة ﴿هَيْتُ﴾ بفتح الهاء وضم التاء وعن ابن مسعود قال : ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا تهمز ، وقال آخرون : ﴿هِيتُ لَكَ﴾ بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء(٢) ، قال أبو عبيد معمر بن المثنى : لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث ، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد ، فيقال : هيتَ لكَ ، وهيتَ لكم ، وهيتَ لكما ، وهيتَ لكن ، وهيتَ لهن .

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ .

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام ، وقد روي عن ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف المراد بهمه بها خطرات حديث النفس ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يَقُولُ اللَّه تَعَالَى : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَم يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً ، فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا »(٣) وقيل : همَّ بضربهَا ، وقيل : تمناها زوجة ، وقيل : ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي فلم يهم بها ، وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضًا ؛ فعن ابن عبّاس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمّد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمّد بن إسحاق وغيرهم : رأى صورة أبيه يعقوب عاضًا على إصبعه بفمه ، وقيل عنه في رواية : فضرب في صدر يوسف . وقال ابن عبّاس : رأى خيال الملك يعني سيده .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن(باب قوله : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾) .
(٢) قرأ أهل العراق ﴿هَيْتَ لك﴾ بفتح الهاء والتاء ، وقرأ أهل المدينة والشام ﴿هِيتَ﴾ وقرأ ابن كثير ﴿هَيْتُ﴾ بفتح الهاء ، وضم التاء وقرأ هشام ﴿هِئْتُ﴾ .(انظر حجة القراءات ص ٣٥٧ ، ٣٥٨) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد(٧٥٠١) .

قال ابن جرير : والصواب أنه يقال : إنه رأى آية من آيات الله نزجره عما كان همَّ به ، وجائز أن يكون صورة يعقوب وجائز أن يكون صورة الملك وجائز أن يكون ما رآه مكتوبًا من الزجر عن ذلك ، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك ، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى [1] .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ أي كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته قدًّا فظيعًا ، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ أي فاحشة ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ ﴾ أي يحبس ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يضرب ضربًا شديدًا موجعًا ، فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق وتبرأ مما رمته به من الخيانة ، و ﴿ قَالَ ﴾ بارًّا صادقًا ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ أي من قدامه ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها ؛ لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه .

وقد اختلف في هذا الشاهد هل هو صغير أو كبير ؟ على قولين لعلماء السلف : فعن عكرمة عن ابن عبّاس ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ قال : ذو لحية ، وعن ابن أبي مليكة عن ابن عبّاس : كان من خاصة الملك . وقال ابن عبّاس : في قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ قال : كان صبيًّا في المهد .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ أي : إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال آمرًا ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ أي اضرب عن هذا صفحًا أي فلا تذكره لأحد ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾ يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلًا أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ، فقال لها : استغفري لذنبك أي

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٢/٢٥٠) .

الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ينكرن على امرأة العزيز وهو الوزير ويعبن ذلك عليها ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه ، ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قال بعضهم بقولهن : ذهب الحب بها ، وقال محمّد بن إسحاق : بل بلغهن حُسْن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته ، فعند ذلك ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم : هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿ وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿ فَلَمَّا ﴾ خرج و ﴿ رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أي أعظمن شأنه وأجللن قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشًا برؤيته وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين ، والمراد أنهن حززن أيديهن بها ، ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا ، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبًا منه ، فإنه ﷺ كان قد أعطي شطر الحسن ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح من حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف ﷺ في السماء الثالثة قال : « فَإِذَا هُوَ قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ » (١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الحُسْنِ » (٢) فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : معاذ الله ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ وقرأ بعضهم (مَا هَٰذَا بشري) أي بمشترى بشراء ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أي فامتنع ، قال بعضهم : لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن وهي العفة مع هذا الجمال ، ثم قالت تتوعده : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف ﷺ من شرهن وكيدهن ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ أي من الفاحشة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٨٦) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٧٠) .

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ، ولا أملك لها ضرًّا ولا نفعًا إلَّا بحولك وقوتك ، أنت المستعان وعليك التكلان ، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ الآية ، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة وحماه ، فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفًا من الله ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ، إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وتفرقا عليه ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» [(١)] .

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ .

يقول تعالى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أي إلى مدة ، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته ، وكأنهم والله أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهامًا أنه راودها عن نفسه وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه . وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه فيفضحها .

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

قال قتادة : كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه . قال محمّد بن إسحاق : كان اسم الذي على شراب نبوا والآخر مجلث . قال السدي : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه ، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة صلوات الله عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم ، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبًّا شديدًا وقالا له : والله لقد أحببناك حبًّا زائدًا ، قال بارك الله فيكما إنه ما أحبني أحد إلَّا دخل عليَّ من محبته ضرر ، أحبتني عمتي فدخل عليَّ الضرر بسببها ، وأحبني أبي فأوذيت بسببه ، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك ، فقالا : والله ما نستطيع إلَّا ذلك ثم إنهما رأيا منامًا فرأى الساقي أنه يعصر خمرًا يعني عنبًا ، وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود (إني أراني أعصر عنبًا) وعن ابن مسعود أنه قرأها أعصر عنبًا . وقال الضحاك في قوله : ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يعني عنبًا قال :

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠) ومسلم في الزكاة (٩١) .

وأهل عمان يسمون العنب خمرًا : وقال عكرمة : قال له : إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك ، فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمرًا . وقال الآخر وهو الخباز ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ ﴾ الآية ، والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره .

﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ .

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ ﴾ قال مجاهد : يقول ﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ ﴾ في يومكما ﴿ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ﴾ وقال ابن عبّاس : إنما هو من تعليم اللّه إياي لأني اجتنبت ملة الكافرين باللّه واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا في المعاد ﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ ﴾ الآية ، يقول هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين ، فإن اللّه يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إمامًا يقتدى به في الخير ، وداعيًا إلى سبيل الرشاد ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ﴿ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا ﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ أي لا يعرفون نعمة اللّه عليهم بإرسال الرسل إليهم بل ﴿ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ عن ابن عبّاس أنه كان يجعل الجد أبًا ويقول : واللّه لمن شاء لأعنته عند الحجر ما ذكر اللّه جدًا ولا جدة قال اللّه تعالى : يعني إخبارًا عن يوسف ﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ ﴾ .

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ .

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما فقال : ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ أي الذي ذلّ كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه ، ثم بيّن لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند اللّه . ولهذا قال : ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ أي حجة ولا برهان ، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله للّه ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلّا إياه ، ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد اللّه وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم

الذي أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين .

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

يقول لهما ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا ، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك ، ولهذا أبهمه في قوله ﴿ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبَّر فإذا عُبِّرَتْ وقعت . وعن إبراهيم بن عبد الله قال : لما قالا ما قالا وأخبرهما ، قالا : ما رأينا شيئًا فقال ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ وحاصله أن من تحلم بباطل وفسره فإنه يلزم بتأويله والله تعالى أعلم . وقد ورد عن أنس مرفوعًا : « الرُّؤْيَا لأَوَّلِ عَابِرٍ » (١) .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ .

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقي ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم – لئلا يشعره أنه المصلوب – قال له : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ يقول : اذكر قصتي عند ربك وهو الملك ، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ عائد على الناجي ويقال : إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام وأما البضع فقال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع ، وقال وهب بن منبه : مكث أيوب في البلاء سبعًا ، ويوسف في السجن سبعًا ، وعذب بختنصر سبعًا ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ قال : ثنتا عشرة سنة ، وقال الضحاك : أربع عشرة سنة .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ .

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززًا مكرمًا ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن(٣٩١٥) والألباني في الصحيحة(١٢٠) .

فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا إليه بأنها ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا أن معرفة بتأويلها وهو تعبيرها ، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف ، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك ، فعند ذلك تذكر بعد أمة أي مدة ، وقرأ بعضهم ﴿ بعد أمه ﴾ أي بعد نسيان ، فقال لهم أي للملك والذين جمعهم لذلك ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن ، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك بل قال : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التي تشتغل منها الثمرات والزروع وهن السنبلات الخضر ، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذي تأكلونه وليكن قليلًا قليلًا لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد ، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان ؛ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب وهن السنبلات اليابسات ، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ولهذا قال : ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس أي يأتيهم الغيث وهو المطر ، وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه ، وسكر ونحوه ، حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضًا ، قال ابن عبّاس ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يحلبون .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه فقال : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه ، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز ، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه ، بل كان ظلمًا وعدوانًا فقال : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ الآية . وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه . وعن

أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ - الآية - وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِي » (١) وعن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ حِينَ سُئِلَ عَنِ البَقَرَاتِ العِجَافِ وَالسِّمَانِ ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ مَا أَجَبْتُهُمْ حَتَّى أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجُونِي ، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ، حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَبَادَرْتُهُمُ البَابَ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ العُذْرُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطبًا لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز ، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي شأنكن وخبركن ﴿ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ يعني يوم الضيافة ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ أي قالت النسوة جوابًا للملك حاش لله أن يكون يوسف متهمًا ، والله ما علمنا عليه من سوء ، فعند ذلك ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ قال عبّاس ومجاهد وغير واحد : تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي في قوله ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ تقول إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ تقول المرأة ولست أبرئ نفسي ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأن ﴿ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره ، وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ﷺ يقول ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في زوجته ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ الآيتين ، أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي ، وليعلم العزيز ﴿ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في زوجته ﴿ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الآية ، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه .

وعن ابن عبّاس قال : لما جمع الملك النسوة فسألهن هل راودتن يوسف عن نفسه ؟ ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية ، فقال يوسف ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ فقال له جبريل ﷺ : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ الآية (٣) ، والقول الأول أقوى وأظهر ؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف ﷺ عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٧) ومسلم في الفضائل (١٥٢) .

(٢) أخرجه : الطبراني في الكبير ٢٤٩/١١ ، والألباني في الصحيحة (١٩٤٥) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٣/١٣) .

ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خُلق وخَلق وكمال ، قال له الملك ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة ، فقال يوسف عليه السلام ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة ، وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أي خازن أمين ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه . وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ، ولهذا قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرض مصر ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يتصرف فيها كيف يشاء ، وقال ابن جرير : يتخذ منها منزلًا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار[1] ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، فلهذا أعقبه الله عز وجل النصر والتأييد ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيّه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر ، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام قاله مجاهد .

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

جاء إخوة يوسف - عن أمر أبيهم لهم - ليوسف للميرة ، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعامًا ، وركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف ، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته ، عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون أي لا يعرفونه ؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث ، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ، ولا كانوا يستشعرون في

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٥٦) .

أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم .

فذكر السدي : غيره أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ فقالوا : أيها العزيز إنا قدمنا للميرة ، قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله ، قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم ، قال : ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ ؟ يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رهّبهم فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ الآية . أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ۝ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقي مجهودًا لتعلم صدقنا فيما قلناه ، وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم ، وفي هذا نظر ؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيرًا وهذا لحرصه على رجوعهم ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أي غلمانه ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضًا عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بها ، قيل : خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ، وقيل : تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضًا عن طعام ، وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجًا وتورعًا ، لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين لا نكتل ، فأرسله معنا نكتل وإنا له لحافظون ، قرأ بعضهم بالياء أي يكتل هو[1] ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أي لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك ، قال لهم : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه ؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ وقرأ بعضهم - حفظًا -[2] ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أي هو أرحم الراحمين بي ، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي ، وأرجو من الله أن يرده عليّ ويجمع شملي به ، إنه أرحم الراحمين .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وهي التي كان أمر

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (يكتل) بالياء والباقون بالنون (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٧) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (حافظا) بألف بعد الحاء والباقون من غير ألف (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٧) .

يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم ، فلما وجدوها في متاعهم ﴿ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ أي ماذا نريد ﴿ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كما قال قتادة : ما نبغي وراء هذا إن بضاعتنا ردت إلينا ، وقد أوفى لنا الكيل ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير ، وقال مجاهد : حمل حمار ، وقد يسمى في بعض اللغات بعيرًا ، كذا قال ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أكده عليهم فقال : ﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدًا من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن يعقوب عليه السلام أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة فإنه كما قال ابن عباس وقتادة والسدي وغير واحد : أنه خشي عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء ، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم ، فإن العين حق ، تستنزل الفارس عن فرسه ، وروي عن إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ قال : علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب وقوله : ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، فإن الله إذا أراد شيئًا لا يخالف ولا يمانع ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ قالوا : هي دفع إصابة العين لهم ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ . قال قتادة والثوري : لذو علم بعلمه ، وقال ابن جرير : لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له وعرّفه أنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس أي لا تأسف على ماصنعوا بي ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا معظمًا .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟

عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ .

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعامًا أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، قاله ابن زيد، كان يشرب فيه ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، وعن ابن عبّاس ﴿ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ الملك قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية. فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ أي صاعه الذي يكيل به ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ وهذا من باب الجعالة ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا؛ لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، إنّا ﴿ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أي ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ أي: أيُّ شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتّشها قبله تورية ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزامًا لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلّا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل، وعن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عبّاس فحدّث بحديث عجيب فتعجب رجل فقال: الحمد لله فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عبّاس: بئس ما قلت، الله العليم فوق كل عالم، وكذا روي عن ابن عبّاس قال: يكون هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا والله فوق كل عالم، وقال قتادة: حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بُدئ وتعلمت العلماء، وإليه يعود. وفي قراءة عبد الله: وفوق كل عالم عليم.

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ يتنصلون إلى العزيز من التشبه به ، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف عليه السلام . وعن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنمًا لجده أبي أمه فكسره ، وقوله : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي تذكرون ، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم ، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، قال العوفي عن ابن عبّاس : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾ قال : أسر في نفسه ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ .

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم ، شرعوا يترققون له ويعطّفونه عليهم ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يعنون : وهو يحبه حبًّا شديدًا ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ أي بدله يكون عندك عوضًا عنه ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ أي كما قلتم واعترفتم ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ أي إن أخذنا بريئًا بسقيم .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه وعاهدوه على ذلك فامتنع عليهم ذلك ﴿ خَلَصُوا۟ ﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيًّا ﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو روبيل : وقيل : يهوذا ، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله قال لهم : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لتردنه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي لن أفارق البلدة ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ في الرجوع إليه راضيًا عني ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ قيل : بالسيف ، وقيل : بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذرًا لهم عنده ، ويتنصلوا إليه ويبرؤوا مما وقع بقولهم . وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئًا ، إنما سألنا ماجزاء السارق ؟ ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ قيل : المراد مصر قاله قتادة ، وقيل غيرها ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : لمّا جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه وصح قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ؛ ولهذا قال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي العليم بحالي ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي أعرض عن بنيه وقال متذكرًا حزن يوسف القديم الأول ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ جدّد له حزن الابنين الحزن الدفين ، وعن سعيد بن جبير أنه قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق . وقال الضحاك : فهو كظيم كئيب حزين .

فعند ذلك رق له بنوه وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أي لا تفارق تذكر يوسف ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أي ضعيف القوة ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ يقولون : إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي أجابهم عما قالوا بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ ﴾ أي همي وما أنا فيه ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وحده ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أرجو من الله كل خير .

وعن ابن عباس ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني رؤيا يوسف أنها صدق ، وأن الله لا بد أن يظهرها . وقال العوفي عنه في الآية : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأني سوف أسجد له [(١)] .

﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين ، والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله ، أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون . وقوله : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ يعنون من

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٦٠) .

الجدب والقحط وقلة الطعام ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل ، وقال ابن عبّاس : الرديء لا ينفق مثل خلق الغرارة والحبل والشيء ، وفي رواية عنه الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلّا بنقصان . وقال سعيد بن جبير : هي الدراهم الفسول . وقال الضحاك : كاسدة لا تنفق .

وقوله إخبارًا عنهم ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾ أي : أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك ، وقرأ ابن مسعود - فأوقر ركابنا وتصدق علينا - وقال ابن جريج : وتصدق علينا برد أخينا إلينا ، وقال سعيد بن جبير والسدي : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ يقولون : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوز فيها ، وسُئل سفيان بن عيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبيّ ﷺ ؟ فقال : ألم تسمع ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته ، وبدره البكاء فتعرف إليهم ، فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة وقال ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل وقرأ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ الآية ، والظاهر والله أعلم أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك والله أعلم ، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق فعند ذلك قالوا : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ وقرأ أُبيّ بن كعب ﴿ إنك لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ وقرأ ابن محيصن (أنت يُوسُفُ) والقراءة المشهورة هي الأولى ؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ .

وقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الآية ، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلق والخُلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضًا على قول من لم يجعلهم أنبياء ، وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطأوا في حقه ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ يقول أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم ، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال : ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ .

يقول اذهبوا بهذا القميص ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي بجميع بني يعقوب ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ تنسبوني إلى الفند والكبر . وعن ابن عبّاس يقول : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ قال : لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ قال : فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام[1] ، وقال الحسن وابن جريج : كان بينهما ثمانون فرسخًا ، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة . وقوله : ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير : تسفهون ، وقال مجاهد أيضًا والحسن : تهرمون . وقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ قال ابن عبّاس : لفي خطئك القديم ، وقال قتادة : أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي اللّه ﷺ .

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قال ابن عبّاس والضحاك : ﴿ الْبَشِيرُ ﴾ البريد ، وقال مجاهد والسدي : كان يهوذا بن يعقوب، قال السدي : إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا ، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرًا ، وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم أن اللّه سيرده إليّ ، وقلت لكم ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي من تاب إليه تاب عليه ، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر ، وعن محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنسانًا يقول : اللّهمّ دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت وهذا السحر فاغفر لي ، قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد اللّه بن مسعود ، فسأله عبد اللّه عن ذلك فقال: إن يعقوب أخّر بنيه إلى السحر بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام ، وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٧٧ ، ٧٨) .

يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام ، ويقال : إن الملك خرج أيضًا لتلقيه وهو الأشبه ، وقد أشكل قوله : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ ﴾ على كثير من المفسرين فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ومعنى الكلام ﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش ، ورد ابن جرير هذا وأجاد في ذلك ، ثم اختار ما حكاه السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما ، ثم لما وصلوا إلى باب البلد قال : ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وفي هذا نظر أيضًا ؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزلة ، كقوله : ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ ﴾ وفي الحديث : « مَنْ آوَى مُحْدِثًا » [(١)] وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه ادخلوا مصر ، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط . ويقال والله أعلم : إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم ، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال : « اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ » ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام [(٢)] .

وقوله ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ قال السدي : إنما كان أباه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديمًا ، وقال ابن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ، قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها وهذا الذي نصره هو المنصور الذي عليه السياق . وقوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : يعني السرير ، أي أجلسهما معه على سريره ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلًا ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ ﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل ﴿ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا ﴾ الآية ، وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام ، فحرم هذا في الملة وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى ، وفي الحديث : أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما سجد لرسول الله ﷺ فقال : « مَا هَذَا يَا مُعَاذُ ؟ » فقال إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله ، فقال : « لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » [(٣)] .

وقوله : ﴿ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾ أي صحيحة صدقًا ، يذكر نعم الله عليه ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ أي البادية ، قال ابن جريج وغيره : كانوا أهل بادية وماشية ، وقال : كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام ، قال : وبعض يقول كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمي ، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل ، ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾ أي إذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا وقدّره ويسّره ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ بمصالح عباده ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده ، عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة ، قال عبد الله بن شداد : وإليها ينتهي أقصى

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٠٦) ومسلم في الحج (٤٦٣) وأحمد في مسنده (٨٨/١) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٤) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٥٣) والطبراني في الكبير (٣٦/٨) .

الرؤيا ، وعن الحسن قال : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة [(١)] ، وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها ، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه . وعن عبد الله بن مسعود قال : دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنسانًا وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفًا . وعن عبد الله بن شداد : اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنسانًا صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

هذا دعاء من يوسف الصدِّيق دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه ، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره كما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول : « اللَّهُمَّ في الرَّفِيقِ الأَعْلَى » ثلاثًا [(٢)] . ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأله ذلك منجزًا كما يقول الداعي لغيره أماتك الله على الإسلام ، ويقول الداعي : اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين ، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزًا وكان ذلك سائغًا في ملتهم ، وكان ابن عبّاس يقول : ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام ، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عبّاس أنه أول نبي دعا بذلك ، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام ، كما أن نوحًا أول من قال : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾ .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ وَلَابُدَّ مُتَمَنِّيًا المَوْتَ فَلْيَقُلِ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي » وأخرجاه في الصحيحين وعندهما : « لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ إِمَّا مُحسِنًا فَيَزْدَادُ ، وَإِمَّا سَيِّئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ ، وَلَكِنْ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي » [(٣)] . وعن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء وقال : يا ليتني مت ، فقال النبيّ ﷺ : « يَا سَعْدُ أَعِنْدِي تَتَمَنَّي المَوْتَ ؟ » فردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : « يَا سَعْدُ إِنْ كُنْتَ خُلِقْتَ للجنة فَمَا طَالَ مِنْ عُمْرِكَ وَحَسُنَ مِنْ عَمَلِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » [(٤)] . وهذا فيما إذا كان الضرر خاصًا به ، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت كما قال الله تعالى إخبارًا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٩٢) .
(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٤) وأحمد في مسنده (٦/٢٠٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٠) والترمذي في السنن (٩٧٠) والنسائي في السنن (٤/٣) وأحمد في مسنده (٣/١٠٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٦٧) والطبراني في الكبير (٨/٢٥٨) .

قال أبو جعفر بن جرير : وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا استغفر لهم أبوهم فتاب عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ذنوبهم (١) .

وذكر السدي أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق ، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام فدفن عندهما عليهما السلام .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى لمحمّد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، وما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام ، هذا وأمثاله يا محمّد من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونعلمك به يا محمّد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حاضرًا عندهم ، ولا مشاهدًا لهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي على إلقائه في الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ، ولكنا أعلمناك به وحيًا إليك ، وإنزالًا عليك ، كقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ الآية ، يقول تعالى إنه رسوله ، وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي ما تسألهم يا محمّد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أي من جعالة ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحًا لخلقه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء ، والصمدية للأسماء والصفات ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله وهم مشركون به . وفي الحديث : أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلّا شريك وهو لك ، تملكه وما ملك . وفي صحيح مسلم : أنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك ، قال رسول الله ﷺ : « قَدْ قَدْ » أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا (٢) ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَل لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » (٣) وفي الحديث : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّه فَقَدْ

---

(١) تفسير الطبري (٩٧/١٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) والبيهقي في السنن (٤٥/٥) وأحمد في مسنده (٤٥٣/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٦١) ومسلم في الإيمان (١٤١) .

أَشْرَكَ » (١) ، وعن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرُّقى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شِرْكٌ » وفي لفظ لهما : « الطِّيَرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِنَّا إِلَّا ، وَلَكِنَّ اللَّه يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ » (٢) وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، قالت : وإنه إذا جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبي فرأى في عنقي خيطًا فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه ، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شِرْكٌ » قالت : قلت له : لم تقل هذا وقد كانت عيني تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها فكان إذا رقاها سكنت ، فقال : إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبيّ ﷺ : « أَذْهِبِ البَاسَ ، رَبَّ النَّاسِ ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا » (٣) .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا جَمَعَ اللَّه الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ يُنَادِي مُنَادٍ : مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ للَّه فَلْيَطْلُب ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّه ، فَإِنَّ اللَّه أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ » (٤) . وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللَّه تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَازَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً ؟ » (٥) .

وعن أبي موسى الأشعري قال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون ، قال : بل أخرج مما قلت ؛ خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ » فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُهُ » (٦) .

وقوله : ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون .

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن ، آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨٧/٢) والألباني في الصحيحة (١٥٥/٣) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٨٣) وابن ماجه في السنن (٣٥٣٠) والحاكم في المستدرك (٤١٨/٤) .
(٣) أخرجه : أحمد في مسنده (٣٨١/١) .
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٠٢) والمنذري في الترغيب (٦٩/١) والعجلوني في كشف الخفاء (١٥٠/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٩/٥) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٣/٤) والمنذري في الترغيب (٧٦/١) .

بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي ، وقوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أي وأنزّه الله وأجلّه وأعظمه وأقدّسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدّس وتنزّه وتعالى عن ذلك كله علوًّا كبيرًا ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشّرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وبقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية ، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى عليه السلام ، وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صدّيقات كما قال تعالى مخبرًا عن أشرفهنّ مريم بنت عمران حيث قال تعالى : ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام ، فهي صدّيقة بنص القرآن . وقال الضحاك عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ الآية ، أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وهذا القول من ابن عبّاس يعتضد بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعًا وأخلاقًا ، وهذا هو المعروف أن أهل المدن أرق طباعًا وألطف من أهل بواديهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالًا من الذين يسكنون في البوادي ، ولهذا قال تعالى ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ الآية ، وقال قتادة في قوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود ، وفي الحديث الآخر أن رجلًا من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتَّهِبَ هبة إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ » (١) .

وعن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ - قال الأعمش هو عمر - عن النبيّ ﷺ أنه قال : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٥) والبيهقي في السنن (٨٩/١٠) .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمّد في الأرض ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمر اللّه عليهم وللكافرين أمثالها ، وقال تعالى : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير ، وأضاف الدار إلى الآخرة فقال : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ كما يقال صلاة الأولى ، ومسجد الجامع ، وعام أول ، وبارحة الأولى ، ويوم الخميس .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من اللّه في أحوج الأوقات إليه ، كقوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، وفي قوله : ﴿ كُذِبُواْ ﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد ﴿ قَدْ كُذِّبوا ﴾ وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها ، وعن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول اللّه تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ قال : قلت : أكذِبوا أم كذِّبوا ؟ قالت عائشة : كذِّبوا ، قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ ؟ قالت : معاذ اللّه لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر اللّه عند ذلك (١) ، وعن الزهري قال : أخبرنا عروة فقلت لها : لعلها قد كذبوا مخففة ؟ قالت : معاذ اللّه (٢) . وعن ابن أبي مليكة أن ابن عبّاس قرأها ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ خفيفة ، قال عبد اللّه هو ابن أبي مليكة : ثم قال لي ابن عبّاس : كانوا بشرًا ثم تلا ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ وعن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت : ما وعد اللّه محمّدًا ﷺ من شيء إلّا قد علم أنه سيكون حتى مات ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي ملكية في حديث عروة كانت عائشة تقرؤها ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ مثقلة من التكذيب (٣) .

والقراءة الثانية بالتخفيف ، واختلفوا في تفسيرها ، فقال ابن عباس ما تقدم ، وعن مسروق عن عبد اللّه أنه قرأ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ مخففة قال ابن مسعود : هو الذي تكره ، وهذا عن ابن عبّاس وابن مسعود رضي الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما . أما ابن عباس قال : لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم ، جاءهم النصر على ذلك ﴿ فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ﴾ وعن إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال : أخبرنا أبا عبد اللّه كيف هذا الحرف ؟ فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿ حَتَّىٰٓ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٦) .
(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿ كُذِّبوا ﴾ وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ كُذِبُواْ ﴾ (انظر : زاد المسير ٢٩٦/٤) .

إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ قال : نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ، فقال الضحاك بن مزاحم : ما رأيت كاليوم قط رجلًا يدعى إلى علم فيتلكأ ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلًا ، وعن تميم بن حزم قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف [1] .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وهي العقول ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أي يكذب ويختلق ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ويبتغون به الرحمة من رب العباد ، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١١١/١٣) .

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة ، وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ، ولهذا قال : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن ، وقيل : التوراة والإنجيل . قاله مجاهد وقتادة [1] وفيه نظر ، بل هو بعيد ، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ خبر تقدم مبتدؤه وهو قوله : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة ، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدًا لا تنال ولا يدرك مداها ، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء ، من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت ، وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام وسمكها خمسمائة عام ، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ الآية . وفي الحديث : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ ، وَالكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ المَجِيدِ كَتِلْكَ الحَلَقَةِ فِي تِلْكَ الفَلَاةِ » وفي رواية : « وَالعَرْشُ لَا يَقْدُرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّه ﷻ » [2] وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ روي عن ابن عبَّاس وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا ترى ، وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعني بلا عمد ، والظاهر من قوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ فعلى هذا يكون قوله : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تأكيدًا لنفي ذلك ، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ، وهذا هو الأكمل في القدرة .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علوًّا كبيرًا . وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

---

(١) تفسير الطبري (١٢٠/١٣) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٩٨/٣) .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ وقيل : المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر ، فإنها وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش ، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه وليس بمحيط كسائر الأفلاك ؛ لأن له قوائم وحملة يحملونه ، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير ، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة ولله الحمد والمنة . وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت ، فإذا كان قد سخَّر هذه فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى وقوله : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى العالم العلوي شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض ، وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح من كل ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أي جعل كلًّا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر ، فيتصرف أيضًا في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله . وقوله : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضًا ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئًا . ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض ، فهذه تربة حمراء وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكل متجاورات ، فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلَّا هو ولا رب سواه . وقوله : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات فيكون ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ مرفوعين ، ويحتمل أن يكون معطوفًا على أعناب فيكون مجرورًا ، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة . وقوله : ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك ، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ، ومنه سمي عم الرجال صنو أبيه ، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر : « أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ » (١) وعن البراء ﷺ : الصنوان هي النخلات في أصل واحد ، وغير الصنوان المتفرقات . وقوله : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ عن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ :

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١١) والبيهقي في السنن (٦/١٦٤) .

﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ قال : « الدقل وَالفَارِسِيُّ وَالحُلْوُ وَالحَامِضُ » (١) أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها ، فهذا في غاية الحلاوة ، وهذا في غاية الحموضة ، وهذا في غاية المرارة ، وهذا عفص ، وهذا عذب ، وهذا جمع وهذا وهذا ، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى ، وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق ، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ، ففي ذلك آيات لمن كان واعيًا ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمّد ﷺ ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه ، على أنه القادر على ما يشاء ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكوّنها بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقًا جديدًا ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به فالعجب من قولهم : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل ثم نعت المكذبين بهذا فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أي يسحبون بها في النار ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي ماكثون فيها أبدًا لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ أي هؤلاء المكذّبون ﴿ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أي بالعقوبة كما قال تعالى ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ﴾ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية ، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم . ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس ، مع أنهم يظلمون ويخطؤون بالليل والنهار ، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وعن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « لَوْلَا عَفْوُ اللَّهِ وَتَجَاوُزُهُ مَا هَنَأَ أَحَدًا العَيْشُ ، وَلَوْلَا وَعِيدُهُ وَعِقَابُهُ لَاتَّكَلَ كُلُّ أَحَدٍ » (٢) .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١١٨) . (٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٨٥/٩) .

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين أنهم يقولون كفرًا وعنادًا : لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبًا ، وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجًا وأنهارًا ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها ، وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال ابن عبّاس : أي ولكل قوم داع ، وقال العوفي عن ابن عبّاس في الآية : يقول الله تعالى : أنت يا محمد منذر ، وأنا هادي كل قوم ، وعن مجاهد : أي نبي كقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ وعن عكرمة وأبي الضحى قالا : هو محمّد ﷺ . وقال مالك : يدعوهم إلى الله ﷻ .

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ .

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ أي ما حملت من ذكر أو أنثي ، أو حسن أو قبيح ، أو شقي أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره ، كقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ أي خلقكم طورًا من بعد طور ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَة ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَة مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغة مِثْلَ ذلك ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّه إِلَيْهِ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، بِكَتْبِ رِزْقِهِ ، وَعُمْرِهِ ، وَعَمَلِهِ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ » وفي الحديث الآخر « فَيَقُولُ المَلَكُ أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ أَيْ رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ ؟ فَمَا الأَجَلُ ؟ فَيَقُولُ اللَّه وَيَكْتُبُ المَلَكُ » (١) .

وقال العوفي عن ابن عبّاس : ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ ﴾ يعني السقط ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يقول ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تمامًا ، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى ، وكل ذلك بعلمه تعالى . وقال الضحاك عن ابن عبّاس قال : ما نقصت من تسعة وما زاد عليها ، وقال الضحاك : وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين ، وولدتني وقد نبتت ثنيتي . وعن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل ، وقال مجاهد : ما ترى من الدم في حملها وما تزداد على تسعة أشهر .

وقال قتادة : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ أي بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلًا معلومًا . وفي الحديث الصحيح : أن إحدى بنات النبيّ ﷺ بعثت إليه أن ابنًا لها في الموت وأنها تحب أن يحضره ، فبعث إليها يقول : « إِنَّ للَّه مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمَّى ، فَمُرُوهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » (٢) . وقوله : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ أي على كل شيء ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ وقهر كل شيء فخضعت له

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ومسلم في الجنائز (١١) أحمد في مسنده (٢٠٤/٥) والبيهقي في السنن (٦٥/٤) .

الرقاب ودان له العباد طوعًا وكرهًا .

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به فإنه يسمعه ، لا يخفى عليه شيء كقوله : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها : سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا في جنب البيت وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها ، فأنزل الله ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ ﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل ﴿ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه ، فإن كلاهما في علم الله على السواء كقوله تعالى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلًا ، حافظان وكاتبان كما جاء في الصحيح : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ العَصْرِ ، فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ - كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ » (١) وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ والمعقبات من الله هي الملائكة ، وقال عكرمة عن ابن عبّاس ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وقال مجاهد : ما من عبد إلّا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه يريده إلّا قال له الملك : وراءك ، إلّا شيء أذن الله فيه فيصيبه .

وقال العوفي عن ابن عبّاس ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ يعني ولي السلطان يكون عليه الحرس ، وقال عكرمة في تفسيرها : هؤلاء الأمراء المواكب من بين يديه ومن خلفه ، وقال الضحاك في الآية : هو السلطان المحروس من أمر الله وهم أهل الشرك ، والظاهر والله أعلم أن مراد ابن عبّاس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ المَلَائِكَةِ » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وَإِيَّايَ وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ » (٢) .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم في المساجد (٢١٠) وأحمد في مسنده (٤٨٦/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٦٩) وأحمد في مسنده (٣٩٧/١) .

وقوله : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ قيل المراد حفظهم له من أمر الله ، وقال قتادة : قال وفي بعض القراءات - يحفظونه بأمر الله - وقال أبو أمامة : ما من آدمي إلَّا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدّر له ، وقال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى علي ﷺ وهو يصلي فقال : احترس فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جنة حصينة . وقال بعضهم : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ بأمر الله كما جاء في الحديث أنهم قالوا : يا رسول الله أرأيت رقيًا نسترقي بها هل ترد من قدر الله شيئًا ؟ فقال : « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّه » (١) . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ قد ورد في حديث مرفوع ، عن علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال : كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأني ، وإذا سألته عن الخبر أنبأني ، وإنه حدَّثني عن ربه ﷻ قال : « قَالَ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَارْتِفَاعِي فَوْقَ عَرْشِي ، مَا مِنْ قَرْيَةٍ وَلَا أَهْلِ بَيْتٍ كَانُوا عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ مَعْصِيَتِي ثُمَّ تَحَوَّلُوا عَنْهَا إِلَى مَا أَحْبَبْتُ مِنْ طَاعَتِي إِلَّا تَحَوَّلْتُ لَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُونَ مِنْ عَذَابِي إِلَى مَا يُحِبُّونَ مِنْ رَحْمَتِي » (٢) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ .

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخّر البرق وهو ما يرى من الشرر اللامع ساطعًا من خلال السحاب ، وعن ابن عبّاس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق فقال : البرق : الماء (٣) . وقوله ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قال قتادة : خوفًا للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعًا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة ، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض ، قال مجاهد : السحاب الثقال الذي فيه الماء . قال : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ وعن إبراهيم بن سعد أخبرني أبي قال : كنت جالسًا إلى جنب حميد ابن عبد الرَّحمن في المسجد ، فمر شيخ من بني غفار فأرسل إليه حميد ، فلما أقبل قال : يا ابن أخي وسع فيما بيني وبينك ، فإنه قد صحب رسول الله ﷺ فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه فقال له حميد : ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ ؟ فقال له الشيخ : سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبيّ ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّه يُنْشِيءُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النُّطْقِ وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضحْكِ » (٤) وعن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ » (٥) وعن أبي هريرة رفعه أنه كان إذا سمع الرعد قال : « سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » (٦) وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ رَبُّكُمْ ﷻ : لَوْ أَنَّ عَبِيدِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ ، وَأَطْلَعْتُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٤٨) وابن ماجه في السنن (٣٤٢٧) والحاكم في المستدرك (٤٠٢/٤) .
(٢) ذكره المنذري في الترغيب (٢٣٤/٤) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٢/١٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٥/٥) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٠/٢) والبيهقي في السنن (٣٦٢/٣) والحاكم في المستدرك (٢٨٦/٤) .
(٦) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٩/٩) والطبري في تفسيره (١٦٢/١٣) .

عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ »[(١)] وعن ابن عبّاس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّعْدَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّهُ لَا يُصِيبُ ذَاكِرًا »[(٢)] . وقوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر في آخر الزمان ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال : « تَكْثُرُ الصَّوَاعِقُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ فَيَقُولُ مَنْ صُعِقَ قَبْلَكُمُ الْغَدَاةَ ؟ فَيَقُولُونَ : صُعِقَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ »[(٣)] . وقد روي في سبب نزولها عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ بعث رجلًا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال : « اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي » قال : فذهب إليه فقال : يدعوك رسول اللَّه ﷺ ، فقال له : من رسول اللَّه ؟ وما اللَّه ؟ أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو ؟ قال : فرجع إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبره ، فقال : قد خبرتك أنه أعتى من ذلك ، قال لي كذا وكذا ، فقال له : « ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ » فذهب فقال له مثلها ، فرجع إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، فقال : « ارْجِعْ إِلَيْهِ فَادْعُهُ» فرجع إليه الثالثة قال : فأعاد عليه ذلك الكلام فبينما هو يكلمه إذ بعث اللَّه ﷻ سحابةً حيال رأسه فرعدت ، فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه ، فأنزل اللَّه ﷻ ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾ الآية[(٤)] .

وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلًا أنكر القرآن وكذّب النبيّ ﷺ ، فأرسل اللَّه صاعقة فأهلكته ، وأنزل اللَّه ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾ الآية ، وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة لما قدما على رسول اللَّه ﷺ المدينة فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر ، فأبى عليهما رسول اللَّه ﷺ فقال له عامر بن الطفيل لعنه اللَّه : أما واللَّه لأملأنها عليك خيلًا جردًا ورجالًا مردًا ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « يَأْبَى اللَّهُ عَلَيْكَ ذَلِكَ وَأَبْنَاءُ قَيْلَةَ » يعني الأنصار ، ثم إنهما همَّا بالفتك برسول اللَّه ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه ، فحماه اللَّه تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام ، فأرسل اللَّه على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأما عامر بن الطفيل فأرسل اللَّه عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول : يا آل عامر غدة كغدة البكر وموت في بيت سلولية ، حتى ماتا لعنهما اللَّه ، وأنزل اللَّه في مثل ذلك : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾[(٥)] وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أربد يرثيه :

أَخْشَى عَلَى أَرْبد الحُتُوفَ وَلَا ... أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسدِ
فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّواعِقُ بِالْـ ... ـفَارِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجدِ[(٦)]

وقوله : ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ أي يشكُّون في عظمته وأنه لا إله إلّا هو ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ قال ابن جرير : مما حلته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره[(٧)] ، وعن علي رضي الله عنه ﴿ وَهُوَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والحاكم في المستدرك (٢٥٦/٤) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥١/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٣) .
(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٤٦٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢/٧) .
(٥) أسباب النزول للواحدي (ص : ٢٠٤) ، وتفسير الطبري (١٥٨/١٣) .
(٦) الحتوف : الآجال . والنجد : الشديد ، (انظر : ديوان لبيد ص : ١٥٨) مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤ .
(٧) تفسير الطبري (١٦٦/١٣) .

شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي شديد الأخذ ، وقال مجاهد : شديد القوة .

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ .

قال علي بن أبي طالب ﷺ : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ قال : التوحيد ، وقال محمّد بن المنكدر ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ لا إله إلّا الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الآية ، أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ قال علي بن أبي طالب : كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده ، فهو لا يناله أبدًا بيده ، فكيف يبلغ فاه ؟ وقال مجاهد : ﴿ كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبدًا . وقيل : المراد كقابض يده على الماء فإنه لا يحكم منه على شيء كما قال الشاعر :

فَأَصْبحتُ مِمّا كَانَ بَيْنِي وبَيْنَهَا ... مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ الماءَ بالْيَدِ (١)

ومعنى هذا الكلام أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلًّا للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهًا غيره لا ينتفعون بهم أبدًا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء طوعًا من المؤمنين ، وكرهًا من الكافرين ﴿ وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ ﴾ أي البكر ﴿ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ وهو جمع أصيل وهو آخر النهار .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾ .

يقرر تعالى أنه لا إله إلّا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعًا ولا ضرًّا ، فهل يستوي مَن عبَد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ؟ ولهذا قال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركين مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ، أي ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ندّ له ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة ﴿ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك (٢) وكما أخبر تعالى عنهم في قوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث

(١) البيت للأحوص بن محمد الأنصاري . انظر : مجاز القرآن لأبي عبيدة (٣٢٧/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾ أي مطرًا ﴿ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أي أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرًا من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علمًا كثيرًا ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ، ﴿ فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ ﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه ، هذا مثلٌ . وقوله : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ ﴾ الآية ، هذا هو المثل الثاني ، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية أي ليجعل حلية أو نحاسًا أو حديدًا فيجعل متاعًا ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ ﴾ أي إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولامع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل ، ولهذا قال : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ ﴾ أي لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء ، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ .

وقال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلًا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن اللّه تعالى يقول : ﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : هذا مثل ضربه اللّه احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع اللّه به أهله ، وهو قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ ﴾ وهو الشك ﴿ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ وهو اليقين ، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار ، فكذلك يقبل اللّه اليقين ويترك الشك . وقال العوفي عن ابن عبّاس قوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ ﴾ يقول : احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد ، فللنحاس والحديد خبث ، فجعل اللّه مثل خبثه كزبد الماء ، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت ، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله ، والعمل السيّئ يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد ، وكذلك الهدى والحق جاءا من عند اللّه ، فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض ، وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل ، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك ، وينتفع أهل الحق بالحق . وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين

مثلين ناريًا ومائيًا وهما قوله ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ الآية ، ثم قال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ الآية .

وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين ، أحدهما : قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر ، ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون : أي ربنا عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا تردون ؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضًا (١)، ثم قال تعالى في المثل الآخر ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ الآية ، وعن أبي موسى الأشعري ﷺأن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّه بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللَّه بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَزَرَعُوا وَسَقَوْا وَزرعُوا ، وَأَصَابَتْ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّه وَنَفَعَهُ اللَّه بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّه الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » (٢) فهذا مثلٌ مائيٌّ ، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَجَعَلَ يَحْجزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قَالَ - فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ ، أَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونني فَتَقْتَحِمُون فِيهَا » (٣) ، فهذا مثلٌ ناريٌّ .

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدّقوا أخباره الماضية والآتية فلهم ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ ﴾ أي لم يطيعوا الله ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي في الدار الآخرة ، أي يناقشون على النقير والقطمير والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عذب ، ولهذا قال : ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

يقول تعالى : لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يا محمّد ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧٣) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) وأحمد في مسنده (٣٦٨/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧٩) ومسلم في الفضائل (١٥) وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٦) ومسلم في الفضائل (٢١) وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) .

بعضًا ، فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمّد ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدّقه ولا اتبعه : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ أي أفهذا كهذا ؟ لا استواء . وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان . ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة ، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية . ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أي عن المحارم والمآثم ففطموا أنفسهم عنها لله ﷿ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي في السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، آناء الليل وأطراف النهار ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرًا واحتمالًا وصفحًا وعفوًا ولهذا قال مخبرًا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسّر ذلك بقوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ والعدن الإقامة أي جنات إقامة يخلدون فيها .

وقوله : ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنّة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى أنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانًا من الله وإحسانًا من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، وقوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنّة دار السلام في جوار الصدّيقين والأنبياء والرسل الكرام .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ الفُقَرَاءُ المُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمِ الثُّغُورُ ، وَتُتَّقَى بِهِم المَكَارِهُ ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ

لَهَا قَضَاءً ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ : ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ وَخِيرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هؤلاء وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وتُسَدُّ بِهِمِ الثُّغُورُ ، وَتُتَّقَى بِهِمِ المكَارِهُ ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً - قال - فَتَأْتِيهِمِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ » (١) .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ .

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر مآلهم في الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا ، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء ﴿ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ كما ثبت في الحديث : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » وفي رواية « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » (٢) ولهذا قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل ﴿ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتر على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجًا لهم وإمهالًا كما قال : ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال : ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾ وعن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ » وأشار بالسبابة (٣) ، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسكَّ ميت والأسك الصغير الأذنين فقال : « وَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَى أَهْلِهِ حِينَ أَلْقَوْهُ » (٤) .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾ .

يخبر تعالى عن قيل المشركين : ﴿ لَوۡلَآ ﴾ أي هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ كقوله : ﴿ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ وفي الحديث أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٨/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٢) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٨٨/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٥٥) وأحمد في مسنده (٢٢٨/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الزهد (٢) وأحمد في مسنده (٣٦٥/٣) .

ذهبًا، وأن يجري لهم ينبوعًا، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمّد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال: «بَلْ تَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ»(١) ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطًا بذلك ولا عدمه ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرًا، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي هو حقيق بذلك.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ عن ابن عباس: فرح وقرة عين، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: هي كلمة عربية يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيرًا، وقال سعيد بن جبير عن ابن عبّاس ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ قال: هي أرض الجنة بالحبشية، وقال العوفي عن ابن عبّاس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ وذلك حين أعجبته.

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طُوبَى لمن رَآني وَآمَنَ بِي، وَطُوبَى ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي ولم يَرَنِي» قال له رجل: وما طوبى، قال: «شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مَسِيرَتُهَا مِائَةِ عَامٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»(٢) وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فِي الجَنَّةِ شَجَرَة يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»(٣).

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمّد في هذه الأمة ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذّب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرّحمن لا يقرّون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرّحمن الرّحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرّحمن الرّحيم وقالوا: ما ندري ما الرّحمن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٤٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٤٨) والحاكم في المستدرك (٤/٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٢) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨).

الرَّحيم [(١)] ، وقد قال الله تعالى ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَحَبَّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَٰنِ » [(٢)] ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به معترف ، مقر له بالربوبية والإلهية هو ربي لا إله إلّا هو ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي في جميع أموري ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

يقول تعالى مادحًا للقرآن الذي أنزله على محمّد ﷺ ومفضلًا له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله ﷻ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهد الله فما له من مضل ، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة ؛ لأنه مشتق من الجمع . فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ القُرْآنُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ تُسْرَجَ ، فَكَانَ يَقْرَأُ القُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ » [(٣)] والمراد بالقرآن هو الزبور .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فإنه ليس ثمّ حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في القول والنفوس ، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله ﷻ على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أوحاه الله إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ » [(٤)] معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله . وعن عطية العوفي قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ الآية ، قالوا لمحمّد ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه ، فأنزل الله هذه الآية ، قال : قلت : هل

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٥١) .
(٢) أخرجه مسلم في الآداب (٢) بلفظ « إن أحب أسمائكم .. » والبيهقي في السنن (٩/٣٠٦) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٣) وأحمد في مسنده (٢/٣١٤) .
(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٧٤) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبيّ ﷺ ؟ قال : نعم ، عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ ، وكذا روي عن ابن عبّاس والشعبي وقتادة والثوري وغير واحد في سبب نزول هذه الآية والله أعلم . وقال قتادة : لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم . وقوله : ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ قال ابن عبّاس : أي لا يصنع من ذلك إلَّا ما شاء ولم يكن ليفعل . ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا ، وقرأ آخرون : أفلم يتبين الذين آمنوا ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، وقال أبو العالية : قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعًا .

وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا . قال الحسن ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أي القارعة ، وهذا هو الظاهر من السياق ، وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال : سرية ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ قال محمّد ﷺ ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ قال : فتح مكة ، وقال العوفي عن ابن عبّاس ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال : عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم ، وقال عكرمة في رواية عن ابن عبّاس ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ أي نكبة ، وكلهم قال : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ يعني فتح مكة ، وقال الحسن البصري : يوم القيامة ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أخذة رابية ، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وفي الحديث « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة ، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعًا لأنفسها ولا لعابديها ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه ، وهو قوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم ، ولهذا قال : ﴿ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لا وجود له ؛ لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ أَم بِظَٰهِرٍ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (٦١) والبيهقي في السنن (٦/٩٤) .

﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ قال مجاهد بظن من القول ، وقال الضحاك وقتادة : بباطل من القول ، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ قال مجاهد : قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار كقوله تعالى : ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾ الآية ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه أنه لما زين لهم ما فيه وأنه حق ، دعوا إليه وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل ، ومن قرأها بالضم أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ، ولهذا قال : ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ (١) .

﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٣٤ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ .

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار ، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلًا وأسرًا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَشَقُّۖ﴾ أي من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : «إِنَّ عَذَابَ الدُّنيا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ » (٢) وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبدًا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما قال تعالى : ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ ولهذا قرن هذا بقوله : ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ أي صفتها ونعتها ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرًا ، أي يصرفونها كيف شاءوا وأين شاؤوا كقوله : ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ﴾ الآية .

وقوله : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء ، وما روي عن ابن عبّاس في صلاة الكسوف وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت فقال : « إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ - أَوْ أُرِيتُ الجَنَّةَ - فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيا » (٣) وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « يَأْكُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبُولُونَ ، طَعَامُهُمْ جُشَاءٌ كَرِيحِ المِسْكِ ، وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمونَ النَّفَسَ » (٤) .

وعن ثمام بن عقبة سمعت زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم : تزعم أن أهل الجنّة يأكلون ويشربون ؟ قال : « نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالجِمَاعِ وَالشَّهْوَةِ » قال : إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿وصُدوا﴾ بضم الصاد على ما لم يسم فاعله ، وقرأ الباقون ﴿وصَدوا﴾ بفتح الصاد (انظر حجة القراءات ص ٣٧٣ ، ٣٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم في اللعان (٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٤٨) ومسلم في الكسوف (١٧) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٩) وأحمد في مسنده (٣٤٩/٣) .

الجنة أذى ؟ قال : « تَكُونُ حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رَشْحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ كَرِيحِ المِسْكِ فَيَضْمُرُ بَطْنُهُ » (١) .

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ .

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذّر من النار ، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمّد ﷺ حقًا وصدقًا مفعولًا لا محالة وكائنًا ، فسبحانه ما أصدق وعده فله الحمد وحده . وقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك وقال مجاهد ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أي بعض ما جاءك من الحق ، وهذا كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ الآية ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له ، كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا ﴾ أي إلى سبيله أدعو الناس ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أي مرجعي ومصيري . وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكمًا معربًا شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي وقوله : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ﴾ أي آراءهم ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي من الله سبحانه ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة ، بعدما صاروا إليه من سلوك السنّة النبوية والمحجة المحمديّة على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمّد رسولًا بشريًا ، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرًا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ ، وَآكُلُ اللَّحْمَ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » (٢)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٦٧) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (٥) وأحمد في مسنده (٥/٤٠٩) .

وقال أبو أيوب : قال رسول الله ﷺ : «أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ : التَّعَطُّرُ وَالنِّكَاحُ وَالسِّوَاكُ وَالْحِنَّاءُ »[١].

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق إلَّا إذا أذن له فيه ليس ذلك إليه ، بل إلى الله ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها ، وكل شيء عنده بمقدار ، وكان الضحاك بن مزاحم يقول في قوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل كتاب أجل ، يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين فلهذا ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ منها ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك ، فعن ابن عبّاس : يدبر أمر السنّة فيمحو الله ما يشاء إلَّا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وفي رواية ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قال : كل شيء إلَّا الموت والحياة والشقاء والسعادة ، فإنه قد فرغ منهما . وقال مجاهد : إلَّا الحياة والموت والشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران . وقال منصور : سألت مجاهدًا فقلت : أرأيت دعاء أحدنا يقول : اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم ، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء، فقال : حسن ، ثم لقيته بعد ذلك بحول وأكثر فسألته عن ذلك . فقال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ الآيتين ، قال يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير .

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا القول بما روي عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ »[٢] وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : «يُفْتَحُ الذِّكْرُ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ ، فِي السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْهَا يَنْظُرُ فِي الذِّكْرِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ »[٣] .

وقال عكرمة عن ابن عبّاس : الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وقال العوفي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ يقول : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله ، وهو الذي يثبت . وروي عن سعيد بن جبير أنها بمعنى ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ يقول يبدل ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢١/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٧/٥) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٣/١٣) .

نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ يا محمّد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ أي قبل ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أي إنما أرسالناك لتبلغهم رسالة الله ، وقد فعلت ما أمرت به ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أي حسابهم وجزاؤهم ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال ابن عبّاس : أو لم يروا أنا نفتح لمحمّد ﷺ الأرض بعد الأرض ، وقال في رواية : أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية ، وقال مجاهد وعكرمة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال : خرابها ، وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين ، وقال العوفي عن ابن عبّاس : نقصان أهلها وبركتها ، وقال ابن عباس في رواية : خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها . والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزي كل عامل بعمله ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكافر ﴾ والقراءة الأخرى ﴿ الْكُفَّارُ ﴾ (١) ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل ، كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة ولله الحمد والمنة .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

يقول تعالى يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون : ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ أي ما أرسلك الله ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم ، شاهد عليّ فيما بلّغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . وقوله : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ قيل : نزلت في عبد الله بن سلام ، قاله مجاهد وهذا القول غريب لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله ابن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبيّ ﷺ المدينة ، والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال : هم من اليهود والنصارى ، وقال قتادة : منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري ، وقال مجاهد في رواية عنه : هو الله تعالى ، وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ، ويقول : هي مكية وكان يقرؤها ﴿ وَمَنْ عِندِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ ﴾ ويقول : من عند الله .

والصحيح في هذا أن ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمّد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ الآية وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة . وقد ورد في حديث الأحبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة .

(١) قرأ المدنيان وابن كثير وأبو عمرو ﴿ الكافر ﴾ على التوحيد والباقون ﴿ الكفار ﴾ على الجمع - (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٩) .

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ① ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمّد وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء ، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض ، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي إنما بعثناك يا محمّد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي ، إلى الهدى والرشد وقوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه ، الصادق في خبره . وقوله : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ قرأ بعضهم مستأنفًا مرفوعًا ، وقرأ آخرون على الإتباع صفة للجلالة [(١)] ، وقوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة ؛ إذ خالفوك يا محمّد وكذبوك ، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ ﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة عائلة ، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلًا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، كما روي عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ » [(٢)] .

وقوله : ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم ، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك ، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبيًا في أمة إلَّا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمّد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر

---

(١) قرأ المدنيان وابن عامر ﴿ الله الذي ﴾ برفع الهاء في الحالين ووافقهم رويس في الابتداء والباقون بالخفض في الحالين . تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٩ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨/٥) .

الناس ، كما ثبت عن جابر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »[١] وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمّد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا ، قال مجاهد : وهي التسع الآيات ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ أي أمرناه قائلين له ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال ، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم الغمام ، وإنزاله عليهم المنّ والسلوى إلى غير ذلك من النعم ، وعن أُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ قال : « بِنِعَمِ اللَّه »[٢] وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة لكل صبار أي في الضراء ، شكور أي في السراء ، كما جاء عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « إِنَّ أَمْرَ المُؤْمِنِ كله عجب ، لا يقضي اللَّه له قضاء إلا كان خيرًا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، وإن أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[٣] .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موسى حين ذكّر قومه بأيام اللَّه عندهم ونعمه عليهم ؛ إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ويتركون إناثهم ، فأنقذهم اللَّه من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ولهذا قال : ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها . وقيل وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بَلَآءٌ ﴾ أي اختبار عظيم . ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا واللَّه أعلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أي آذنكم وأعلمكم

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٥/١٦١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٢٢) .
(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٤) وأحمد في صحيحه (٤/٣٣٣) .

بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ وقوله : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها ، وقد جاء الحديث : « إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمِ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » [١] .

وعن أنس قال : أتى النبيَّ ﷺ سائلٌ فأمر له بتمرة فلم يأخذها أو وحّش بها - قال - وأتاه آخر فأمر له بتمرة ، فقال سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ فقال للجارية : « اذْهَبِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، فأعطيه الأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا الَّتِي عِنْدَهَا » [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي هو غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفر ، كقوله : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ الآية ، وعن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال : « يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخركم وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المَخِيطُ إِذَا دَخَلَ البَحْرَ » [٣] فسبحانه وتعالى الغني الحميد .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

قال ابن جرير : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل ، وفيما قال ابن جرير نظر ، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم لا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة والله أعلم . وبالجملة فالله تعالى قد قصّ علينا خبر قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات . فعن عبد الله أنه قال في قوله : ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ كذب النسابون . وقوله : ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، قيل : معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لمّا دعوهم إلى الله ﷻ ، وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيبًا لهم ، وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل ، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فكأن هذا والله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٤/٣) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .

أعلم تفسير لمعنى ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ وعن عبد الله في قوله : ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ قال : عضوا عليها غيظًا ، وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ووجهه ابن جرير مختارًا له بقوله تعالى عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ ﴾ وقال ابن عباس : لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ ﴾ الآية ، يقولون : لا نصدقكم فيما جئتم به ، فإن عندنا فيه شكا قويًّا .

﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠
قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له قالت الرسل : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ ﴾ وهذا يحتمل شيئين :

أحدهما : أفي وجوده شكٌّ ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلَّا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه .

والمعنى الثاني في قولهم : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ ﴾ أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلَّا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى .

وقالت لهم رسلهم : ﴿ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ أي في الدنيا ، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول وحاصل ما قالوه : ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة ﴿ فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ أي خارق نقترحه عليكم ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾ أي بالرسالة والنبوة ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي بعد سؤالنا إياه ، وإذنه في ذلك ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي في جميع أمورهم . ثم قالت الرسل : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ ﴾ أي من الكلام السيئ والأفعال السخيفة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ

جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ .

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ الآية . وكما قال قوم لوط : ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ ﴾ الآية ، وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندًا يقاتلون في سبيل الله تعالى ، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته ، ومكن له فيها وأرغم أنوف أعدائهم ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا ، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي .

وقوله : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ ﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ويحتمل أن يكون هذا مرادًا وهذا مرادًا ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ الآية ، والله أعلم ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي متجبر في نفسه ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق كقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ وفي الحديث : « إِنَّهُ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَتُنَادِي الخَلَائِقَ فَتَقُولُ : إِنِّي وُكِّلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » (١) . وقوله : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ وراء هنا بمعنى أمام كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ وكان ابن عباس يقرؤها (وكان أمامهم ملك) (٢) أي من وراء الجبار العنيد جهنم ، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلدًا يوم المعاد ، ويعرض عليها غدوًّا وعشيًّا إلى يوم التناد ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ أي في النار ليس له شراب إلَّا من حميم وغساق ، فهذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد والنتن ، وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم ، وقال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده ، وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قلت : يا رسول الله ما طينة الخبال ؟ قال : « صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ » وفي رواية « عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ » (٣) وعن أبي أمامة ﷺ عن النبيّ ﷺ في قوله : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ قال : « يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ ، فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ » (٤) يقول الله تعالى : ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ أي يتغصصه ويتكرهه ، أي يشربه قهرًا وقسرًا لا يضعه في فمه حتى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٦/٢) والترمذي بنحوه في جامعه (٢٥٧٤) .

(٢) وهي قراءة أبي بن كعب وابن مسعود . انظر زاد المسير (١٧٨/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٢) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) .

يضربه الملك بمطراق من حديد ، ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه ، قال عمرو بن ميمون بن مهران : من كل عظم وعصب وعرق ، وقال عكرمة : حتى من أطراف شعره ، وقال ابن جرير : أي من أمامه وخلفه ، وفي رواية وعن يمينه وشماله ومن فوقه ومن تحت أرجله ومن سائر أعضاء جسده . وقال الضحاك عن ابن عبّاس : أنواع العذاب الذي يعذبه اللَّه بها يوم القيامة في نار جهنم ، ليس منها نوع إلّا يأتيه الموت منه لو كان الموت ، ولكن لا يموت لأن اللَّه تعالى قال : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ومعنى كلام ابن عبّاس ﵁ أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلّا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ ، أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ .

هذا مثل ضربه تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوه رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من اللَّه تعالى ؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئًا ، ولا ألفوا حاصلًا إلّا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا ، إلّا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ وقوله في هذه الآية : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والحركات المختلفات والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبراري وصحاري وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها وأشكالها وألوانها ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ .

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أي برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدًا ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاؤُا ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل قالوا لهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا ! فقالت القادة لهم : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله ﷿ ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا : إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبرًا لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك ، فعند ذلك قالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ (١) الآية .

قلت : والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ .

وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ .

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيبًا ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم ، وغبنًا إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ أي على ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعدًا حقًّا وخبرًا صدقًا ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٢٦٠) .

كما قال الله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ بمجرد ذلك هذا ، وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ فَلَا تَلُومُونِى ﴾ اليوم ﴿ وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ أي بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ قال قتادة أي بسبب ما أشركتمون من قبل . وقال ابن جرير يقول : إني جحدت أن أكون شريكا لله ﷻ [1] .

وهذا الذي قاله هو الراجح كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا ، ولكن قد ورد في حديث عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخرِينَ فَقَضَى بَيْنَهُمْ فَفرغَ مِنَ القَضَاءِ ، قَالَ الْمُؤْمِنُونَ : قَدْ قَضَى بيْنَنَا رَبُّنَا فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا ؟ فَيَقُولُونَ : انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى آدَمَ ، وَذكر نوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، فَيَقُولُ عِيسَى : أَدُلُّكُمْ عَلَى النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ، فَيأْتُونِي فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِي أَنْ أَقُومَ إِلَيْهِ ، فَيَثُورُ مِنْ مَجْلِسِي مِنْ أَطْيَبِ رِيح شَمَّهَا أَحَدٌ قَطُّ ، حَتَّى آتي رَبِّي فَيُشَفِّعَنِي ، وَيَجْعَلُ لِيْ نُورًا مِنْ شَعْرِ رَأْسِي إِلَى ظُفْرِ قَدَمِي ، ثُمَّ يَقُولُ الكَافِرُون : هَذَا قَدْ وَجَدَ المُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا ؟ مَا هُوَ إِلَّا إِبْلِيسُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا ، فَيَأْتُونَ إِبْلِيسَ فَيَقُولُونَ : قَدْ وَجَدَ المُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ ، فَقُمْ فَاشْفَعْ لَنَا فَإِنَّكَ أَنْتَ أَضْلَلْتَنَا ، فَيَقُومُ فَيَثُورُ مِنْ مَجْلِسِهِ مِنْ أَنْتَنِ رِيح شَمَّهَا أَحَدٌ قَطُّ ثُمَّ يَعْظُمُ نَحِيبُهُمْ ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ » [2] وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله لما قال أهل النار : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ قال لهم إبليس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ الآية ، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ .

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، وأن خطيبهم إبليس عطف بمآل السعداء فقال : ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ماكثين أبدًا لا يحولون ولا يزولون ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٥/١٣) .
(٢) أخرجه الدارمي في السنن (٣٢٧/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٦/١٠) .

أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ .

قال ابن عبّاس : قوله : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ شهادة أن لا إله إلّا الله ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو المؤمن ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ يقول لا إله إلّا الله في قلب المؤمن ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء ، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن قوله الطيب وعمله الصالح ، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء ، وهكذا عن ابن مسعود قال : هي النخلة ، وعن أنس أن رسول الله ﷺ أتي بقناع بسر فقرأ ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال : هي النخلة ، وعن ابن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : « أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ - أَوْ - كَالرَّجُلِ المُسْلِمِ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا صَيْفًا وَلَا شِتَاءً ، وَتُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئًا قال رسول الله ﷺ : « هِيَ النَّخْلَةُ » فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة ، قال : ما منعك أن تتكلم ؟ قلت : لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئًا ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا[1] .

وعن ابن عبّاس : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال : هي شجرة في الجنة ، وقوله : ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ قيل غدوة وعشيًا ، وقيل : كل شهر ، وقيل : كل شهرين ، وقيل : كل ستة أشهر ، وقيل : كل سبعة أشهر ، وقيل : كل سنة . والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار ، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار ، في كل وقت وحين ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ ﴾ أي كاملًا حسنًا كثيرًا طيبًا مباركًا ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات ، مشبه بشجرة الحنظل ويقال لها الشريان . فعن أنس بن مالك : أنها شجرة الحنظل ، قوله : ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ أي استؤصلت ﴿ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء .

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ .

وعن علقمة بن مرثد قال : سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « المُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي القَبْرِ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ ﴾ » .

وعن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به الأرض ،

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٨) .

فرفع رأسه فقال : « اسْتَعِيذُوا بِاللَّه مِنْ عَذَابِ القَبْرِ » مرتين أو ثلاثًا ثم قال : « إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ ، وَحُنُوطٌ مِنْ حُنُوطِ الجَنَّةِ ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّه وَرِضْوَانٍ - قَالَ - فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كما تسيل القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحُنُوط ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يَعْنِي عَلَى مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ - إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلَانُ ابن فلان بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فيفتح له ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللَّه : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خلقتهم وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، قَالَ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ اللَّه ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِي الإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّه ، فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا عِلْمُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّه فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ - قَالَ - فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسرك ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بِالخَيْرِ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي - قَالَ - وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ سُودُ الوُجُوه ، مَعَهُمُ المُسُوحُ ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ : اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّه وَغَضَبٍ - قَالَ - فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهُ كما ينتزع السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ ريح جِيفَةٍ وجدت على وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذِهِ الرُّوحُ الخَبِيثَةُ ؟ فَيَقُولُون : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَقْبح أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى ينتهي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ فيقولُ اللَّه : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينَ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هاه هَاه لَا أَدْرِي فَيَقُولَانَ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاه هَاه لَا أَدْرِي ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِث فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاه هَاه لَا أَدْرِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ

حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَختَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، ويأتيه رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيح فَيقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ؛ فَيقُولُ : وَمَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ ؟ فَيقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ ، فَيقُولُ : رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ »(١) .

وعنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه وفيه « فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدعُونَ اللَّهَ ﷻ أَنْ يُعَرَّجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ » وفي آخره « ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ ، وَفِي يَدِهِ مِرْزَبَّةٌ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَكَانَ تُرَابًا فيضربه ضربة فَيَصِيرَ تُرَابًا ، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ ﷻ كَمَا كَانَ فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخرَى فَيَصِيحُ صَيْحَة يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ » ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار (٢) .

وعنه أيضًا قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ قال : عذاب القبر . وقال المسعودي عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره فيقال له : ما ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيثبته الله فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبي محمّد ﷺ ، وقرأ عبد الله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ عن أبي الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبتَلَى فِي قُبُورِهَا ، فَإِذَا أُدخِلَ المُؤْمِنُ قَبْرَهُ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ جَاءَهُ مَلَكٌ شَدِيدُ الانْتِهَارِ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَبْدُهُ ، فَيَقُولُ لَهُ المَلَكُ : انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ الذي كَانَ لَكَ فِي النَّارِ قَدْ أَنْجَاكَ اللَّهُ مِنْهُ وَأَبْدَلَكَ بِمَقْعَدِكَ الَّذِي تَرَى مِنَ النَّارِ بِمَقْعَدِكَ الَّذِي تَرَى مِنَ الجَنَّةِ ، فَيَرَاهُمَا كِلَيْهِمَا ، فَيَقُولُ المُؤْمِنَ : دَعُونِي أُبَشِّر أَهْلِي، فَيُقَالُ لَهُ : اسْكُنْ ، وَأَمَّا المُنَافِقُ فَيُقْعَدُ إِذَا تَوَلَّى عَنْهُ أَهْلُهُ فَيُقَالُ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ : لا أَدْرِي ، أَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ ، فَيُقَالُ لَهُ : لَا دَرَيْتَ ، هَذَا مَقْعَدُكَ الَّذِي كَانَ لَكَ فِي الجَنَّةِ قَدْ أُبْدِلْتَ مَكَانَهُ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ » قال جابر : فسمعت النبيّ ﷺ يقول : « يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ فِي القَبْرِ عَلَى مَا مَاتَ ، المُؤْمِنُ عَلَى إِيمَانِهِ ، وَالمُنَافِقُ عَلَى نِفَاقِهِ » (٣) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ المَيِّتَ تَحْضُرُهُ المَلَائِكَةُ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كانت فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اخْرُجِي حَمِيدة وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٌّ غَيْرِ غَضْبَانَ - قَالَ - فلا يزالُ يقالُ لها ذلكَ حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السَّماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقولون : مرحبًا بالرُّوح الطيبة كانت في الجسد الطيِّبِ ، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان وربٌّ غير غضبان - قال - فلا يزال يقالُ لها ذلك حتى يُنْتَهَى بها إلى السَّماءِ التي فيها اللَّهُ ﷻ . وإذا كان الرجلُ السُّوْءُ قالوا اخرجي أيتها النفسُ الخبيثةُ كانت في الجسدِ الخبيثِ ، اخرجي ذميمَة وأبشري بحميم وَغَسَّاقٍ وآخر من شكله أزواج ، فلا يزالُ يقال لها

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) والنسائي في السنن (٥٠٤٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٥/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٣) .

ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيثِ ، ارجعي ذميمة فإنه لا تفتح لكِ أبواب السماء ، فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول » (١) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : إذا خرجتْ روحُ العبدِ المؤمنِ تَلَقَّاها مَلَكانِ يَصْعَدَانِ بها ، قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال - ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه ﷻ ، فيقول انطلقوا به إلى آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من نتنها وذكر مقتًا ، ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل - قال أبو هريرة فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت على أنفه هكذا (٢) .

وعنه عن النبيّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ المَيِّتَ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعالِكُم حِينَ تُوَلُّونَ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلاةُ عِنْدَ رَأسِهِ ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَالصَّوْمُ عَنْ يَسَارِهِ ، وَكَانَ فِعْلُ الخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصِّلَةِ وَالمَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلاَةُ ما قبلي مَدْخَلٌ ، فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فتقولُ الزَّكاةُ : ما قبلي مَدْخَلٌ ، فَيُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَيَقُولُ الصِّيامُ : ما قبلي مَدْخَلٌ ، فَيُؤْتَى مِنْ عِنْدِ رِجْلَيْهِ فيقولُ : فعلُ الخَيْرَاتِ ما قبلي مَدْخَلٌ ، فيقالُ لَهُ : اجْلِسْ فيجلس قَدْ مثلت له الشمسُ قد دنت للغروب ، فيقالُ له : أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ فيقولُ : دَعْنِي حتى أُصَلِّي ، فيقالُ له : إنكَ سَتَفْعَلُ فَأَخْبِرْنَا عَمَّا نسألكَ ، فيقولُ : وَعَمَّ تسألوني ؟ فيقالُ : أرأيتَ هذا الرَّجُل الذي كانَ فيكم ماذا تَقُولُ فيهِ ، وماذا تشهدُ بِهِ عليه ؟ فيقولُ أَمُحَمَّدٌ ؟ فيقالُ له : نعم ، فيقول أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّه ، وَأَنَّهُ جاءنا بالبينات مِنْ عِندِ اللَّه فَصَدَّقْنَاهُ ، فيقالُ له : على ذلكَ حَيِيتَ وَعَلَى ذلكَ مِتَّ وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إن شاءَ اللَّه ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ في قَبْرِهِ سبعونَ ذراعًا ، وَيُنَوَّرُ له فِيهِ ، وَيُفْتَحُ له بابٌ إلى الجَنَّةِ ، فيقالُ له : انظرْ إلى ما أَعَدَّ اللَّه لكَ فيها فيزدادُ غِبْطَة وَسُرُورًا ، ثم تُجْعَلُ نَسَمَتُهُ في النَّسَمِ الطَّيبِ ، وَهِيَ طَيْرٌ يعلقُ بشجرِ الجَنَّةِ وَيُعَادُ الجَسَدُ إلى ما بُدِئَ مِنَ التُّرابِ » وذلك قول اللَّه : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (٣) .

وعن محمّد بن المنكدر قال : كانت أسماء - يعني بنت الصدّيق رضي الله عنهما - تحدث عن النبيّ ﷺ قالت : قال : « إذا دخلَ الإنسانُ قبره ، فَإِنْ كانَ مؤمنًا خفَّ به عَمَلُهُ الصَّلاةُ وَالصِّيامُ ، قال فيأتيهِ المَلَكُ مِنْ نَحْوِ الصَّلاة فَتَرُدُّهُ وَمِنْ نَحْوِ الصِّيَامِ فَيَرُدُّهُ ، قال فيناديه اجْلِسْ فَيَجْلِسُ ، فيقولُ له : ماذا تقولُ في هذا الرَّجُلِ - يعني النَّبِيَّ ﷺ ؟ قال : مَنْ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، قالَ أشهدُ أنهُ رسولُ اللَّه ، قالَ وما يُدْرِيكَ ، أَدْرَكْتَهُ ؟ قال أَشْهَدُ أنه رسول اللَّه ، قالَ : يقول : على ذلكَ عِشْتَ ، وَعَلَيْهِ متَّ ،

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٥) ، وأحمد في مسنده ٢٨٧/٤ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) . (٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٧٩/١) .

وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ . وإن كان فاجِرًا أو كافرًا جاءَهُ المَلَكُ لَيْسَ بَينهُ وبينهُ شيءٌ يَرُدُّهُ ، فأَجْلَسَهُ فيقولُ له : ماذا تقولُ في هذا الرَّجُلِ ؟ قال : أيُّ رَجُلٍ ؟ قال : محمدٌ ؟ قال : يقولُ : واللَّه ما أدري سمعت الناسَ يقولون شيئًا فَقلْتُهُ ، قال له الملكُ : على ذلكَ عِشْتَ ، وَعَلَيْهِ مِتَّ ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ ، قال ويسلطُ عليه دابةٌ في قبره معها سَوْطٌ ثمرتهُ جَمْرَةٌ مِثْلُ عرفِ البَعِيرِ ، تضربهُ ما شاء اللَّه صَمَّاء لا تسمعُ صَوتَهُ فَتَرْحَمُهُ » (١) .

وعن ابن طاوس عن أبيه ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ قال : لا إله إلَّا اللَّه ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ المسألة في القبر . وقال قتادة : أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ في القبر ، وعن عثمان ﷺ قال : كان النبيُّ ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : « اسْتَغفِرُوا لأخِيكُمْ واسْألُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فإنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ » (٢) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ .

قال البخاري قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ ألم تعلم كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ ﴿ الْبَوَارِ ﴾ الهلاك بار يبور بورًا ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ هالكين . عن عطاء سمع ابن عبّاس ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال : هم كفار أهل مكة (٣) ، وقال العوفي عن ابن عبّاس في هذه الآية : هو جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم ، والمشهور الصحيح عن ابن عبّاس هو القول الأول ، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ، فإن اللَّه تعالى بعث محمّدًا ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار ، وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول . وعن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل عليًا عن ﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قال : هم كفار قريش يوم بدر . وقال ابن أبي حسين : قام عليّ بن أبي طالب ﷺ فقال : ألا أحد يسألني عن القرآن ؟ فو اللَّه لو أعلم اليوم أحدًا أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأتيته ، فقام عبد اللَّه بن الكواء فقال : من الذين بدلوا نعمة اللَّه كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار ؟ قال : مشركو قريش ، أتتهم نعمة اللَّه الإيمان فبدلوا نعمة اللَّه كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار .

وقال السدي في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ الآية ، ذكر مسلم المستوفي عن علي أنه قال : هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر ، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أُحُد ، وكان أبو جهل يوم بدر وأبو سفيان يوم أُحُد ، وأما دار البوار فهي جهنم .

وعن عمرو بن مرة قال : سمعت عليًا قرأ هذه الآية ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قال : هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٣) والنسائي في السنن (٢٧/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٠) .

حين. وقال ابن عبّاس لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ قال : هم الأفجران من قريش أخوالي وأعمامك ، فأما أخوالي فاستأصلهم اللّٰه يوم بدر ، وأما أعمامك فأملى اللّٰه لهم إلى حين . وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد : هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر .

وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ، ودعوا الناس إلى ذلك ، ثم قال تعالى مهددًا لهم ومتوعدًا لهم على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا ، فمهما يكن من شيء ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي مرجعكم وموئلكم إليها .

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه ، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة اللّٰه وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب ، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها ، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية ، والعلانية وهي الجهر ، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه كما قال تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ قال ابن جرير : يقول ليس هناك مخالفة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته ، بل هنالك العدل والقسط ، والخلال مصدر من قول القائل خاللت فلانًا فأنا أخاله مخالة وخلالاً .

وقال قتادة : إن اللّٰه قد علم أن في الدنيا بيوعًا وخلالاً يتخالُّون بها في الدنيا ، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب ، فإن كان للّٰه فليداوم ، وإن كان لغير اللّٰه فسيقطع عنه ، قلت : والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدًا بيع ولا فدية ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا لو وجده ، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي اللّٰه كافرًا قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ .

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفًا محفوظًا والأرض فراشًا ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر ، تجري عليه بأمر اللّٰه تعالى ، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك ، وما هناك إلى هنا ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقًا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من

أنواع المنافع ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ أي يسيران لا يفتران ليلًا ولا نهارًا ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر .

وقوله : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ يقول : هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم . وقال بعض السلف : من كل ما سألتموه وما لم تسألوه ، وقرأ بعضهم - وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه - وقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلًا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يذكر تعالى في هذا المقام محتجًا على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة تبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ الآية ، وقال في هذه القصة : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها ، ولهذا قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضًا فقال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصًى مطولًا . وقوله : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته . ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها ، ورد أمرهم إلى الله ، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم ، كقول عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى ، لا تجويز وقوع ذلك . وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الآية ، وقول عيسى عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ الآية ، ثم رفع يديه ثم قال : « اللَّهُمَّ أُمَّتي اللَّهُمَّ أُمَّتي ، اللَّهُمَّ أُمَّتي » وبكى ، فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمّد - وربك أعلم - وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال ، فقال الله : اذهب إلى محمّد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك (١) .

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها ،

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٦) .

وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيدًا ورغبة إلى الله ﷻ ولهذا قال : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ وقوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قال ابن جرير وهو متعلق بقوله : ﴿ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ أي إنما جعلته محرمًا ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره : لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكن قال : ﴿ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فاختص به المسلمون . وقوله : ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي ليكون ذلك عونًا لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثمارًا يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته ، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة ، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم خليله أنه قال : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء ، ثم حمد ربه ﷻ على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ أي إنه يستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد ثم قال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي محافظًا عليها ، مقيمًا لحدودها ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أي فيما سألتك فيه كله ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ قرأ بعضهم ﴿ ولوالدي ﴾ بالإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله ﷻ ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كلهم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ أي يوم الحساب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾ يا محمّد ﴿ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عليهم عدًا ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة ، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين كما قال تعالى ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : رافعي رؤوسهم ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة ، مديمون النظر لا يطوفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياذًا بالله العظيم من ذلك ،

ولهذا قال : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف ، ولهذا قال قتادة وجماعة : إن أمكنة أفئدتهم خالية ؛ لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف ، وقال بعضهم : هي خراب لا تعي شيئًا لشدة ما أخبر به تعالى عنهم ، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ وقال تعالى مخبرًا عنهم في حال محشرهم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ ﴾ الآية ، قال تعالى رادًّا عليهم في قولهم هذا ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا بذلك . وقال مجاهد وغيره : ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة ، كقوله : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ الآية ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ .

وعن عبد الرحمن بن رباب أن عليًّا ﷺ قال في هذه الآية ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ قال : أخذ ذلك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه نسرين صغيرين فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشبا ، قال : فأوثق رِجْلَ كل واحد منهما بوتد إلى تابوت ، وجوعهما وقعد هو ورجل آخر في التابوت ، قال : ورفع في التابوت عصًا على رأسه اللحم فطارا ، وجعل يقول لصاحبه : انظر ما ترى ؟ قال : أرى كذا وكذا ، حتى قال : أرى الدنيا كلها كأنها ذباب ، قال : فصوب العصا فصوبها فهبطا جميعًا ، قال : فهو قوله ﷻ ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ قال أبو إسحاق : وكذلك هي في قراءة عبد الله ﴿ وإن كاد مكرهم ﴾ قلت وكذا روي عن أُبيّ بن كعب وعمر بن الخطاب ﵄ أنهم قرآ ﴿ وإن كاد ﴾ كما قرأ علي ، وروي عن عكرمة أن سياق هذه القصة لنمروذ ملك كنعان أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر ، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط ببناء الصرح فعجزا وضعفا وهما أقل وأحقر وأصغر وأدحر ، وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها نودي أيها الطاغية أين تريد ؟ ففرق ، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح فصوبت النسور ، ففزعت الجبال من هدتها وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك فذلك قوله : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها ﴿ لَتَزُولُ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية[1] ، وروى العوفي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ يقول ما كان لتزول منه

(١) قرأ الكسائي لَتزولُ بفتح اللام الأولى وضم الثانية والباقون بكسر الأولى وفتح الثانية حجة القراءات ٣٧٩ .

الجبال ، وكذا قال الحسن البصري : ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئًا من الجبال ولا غيرها ، وإنما عاد وبال ذلك عليهم قلت : ويشبه هذا قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ والقول الثاني في تفسيرها : ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ يقول شركهم كقوله : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ الآية ، وهكذا قال الضحاك وقتادة .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكدًا : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب ، ذو انتقام ممن كفر به وجحده ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة ، كما جاء عن سهل بن سعد قال : قال رسولِ اللَّه ﷺ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ »(١) وعن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « عَلَى الصِّرَاطِ »(٢) .

وعن معاوية بن سلام عن زيد يعني أخاه أنه سمع أبا سلام حدَّثني أبو أسماء الرحبي أن ثوبان مولى رسول اللَّه ﷺ حدَّثه قال : كنت قائمًا عند رسول اللَّه فجاءه حبر من أحبار يهود فقال : السلام عليك يا محمّد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول يا رسول اللَّه ، فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهله ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي » فقال اليهودي : جئت أسألك ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَيَنْفَعُكَ شَيْئًا إِنْ حَدَّثْتُكَ » قال : أسمع بأذني ، فنكتَ(٣) رسول اللَّه ﷺ بعود معه فقال : « سَلْ » فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ » قال : فمن أول الناس إجازة ؟ فقال : « فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ » فقال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال : زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ » قال : فما غذاؤه في أثرها ؟ قال : « يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا » قال : صدقت ، قال : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلّا نبي أو رجل أو رجلان قال : « أَيَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ » ؟ قال : أسمع بأذني ، قال جئت أسألك عن الولد ، قال : « مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ المَرْأَةِ أَصْفَرُ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ المَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّه تَعَالَى ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ المَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّه » قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لنبي ثم انصرف ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٢١) ومسلم في صفات المنافقين (٢٨) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٩) وابن ماجه في السنن (٤٢٧٩) .

(٣) نَكَتَ أي خط بالعود في الأرض خطًا يؤثر فيها ، وهو فعل من ينكر .

« لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الذي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِي اللَّه بِهِ » (١) .

وعن أبي أيوب الأنصاري أن حبرًا من اليهود سأل النبيّ ﷺ فقال : أرأيت إذ يقول اللَّه تعالى في كتابه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين الخلق عند ذلك ؟ فقال : « أَضْيَافُ اللَّه فَلَنْ يَعْجِزَهُمْ مَا لَدَيْهِ » (٢) وعن عمرو بن ميمون يقول ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ، حفاة عراة كما خلقوا - قال : أراه قال : قيامًا - حتى يلجمهم العرق . وعن زيد قال : أرسل رسول اللَّه ﷺ إلى اليهود فقال : « هل تدرون لم أرسلت إليهم ؟ » قالوا اللَّه ورسوله أعلم ، قال : « فَإِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ أَسْأَلُهُمْ عَنْ قَوْلِ اللَّه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ إِنَّهَا تَكُونُ يَوْمَئِذٍ بَيْضَاءَ مِثْلَ الفِضَّةِ » فلما جاءوا سألهم ، فقالوا : تكون بيضاء مثل النقي (٣) . وهكذا روي عن علي وابن عبّاس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبير أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة ، وعن علي رضي الله عنه أنه قال : تصير الأرض فضة والسموات ذهبًا ، وقال الربيع : عن أبي العالية عن أُبيّ بن كعب قال : تصير السموات جنانًا ، وقال أبو معشر : عن محمّد بن كعب القرظي عن محمّد بن قيس في قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم ، وكذا روي سعيد بن جبير في قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه .

وعن كعب في قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ قال : تصير السموات جنانًا ، ويصير مكان البحر نارًا ، وتبدل الأرض غيرها . وفي الحديث الذي رواه أبو داود : « لَا يَرْكَبُ البَحْرَ إِلَّا غَازٍ أَوْ حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٍ ، فَإِنَّ تَحْتَ البَحْرِ نَارًا - أَوْ تَحْتَ النَّارِ بَحْرًا » (٤) وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « يُبَدِّلُ اللَّه الأَرْضَ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّموَات فَيَبْسُطُهَا وَيَمُدُّهَا مَدَّ الأَدِيمِ العُكَاظِيِّ لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ، ثُمَّ يَزْجُرُ اللَّه الخَلْقَ زَجْرَة فَإِذَا هُمْ فِي هذِهِ المبدلة » (٥) .

وقوله : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم للَّه ﴿ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب .

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ وتبرز الخلائق لديانها ترى يا محمّد يومئذ المجرمين ، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي بعضهم إلى بعض ، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف ، كما قال تعالى : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهو الذي تهنأ به الإبل أي تطلى ، قال قتادة : وهو ألصق شيء بالنار . ويقال فيه : قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها ،

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض (٣٤) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٣٣٣) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٣٢٩) .
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢٤٨٩) .
(٥) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٣٣١) .

وبكسر القاف وتسكين الطاء .

وكان ابن عبّاس يقول : القطران هو النحاس المذاب وربما قرأها ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي من نحاس حار قد انتهى حره ، وقوله : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ كقوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ : الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ ، والطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، والنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ ، وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » [(١)] . وعن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ رفعه « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ تُوقَفُ فِي طَرِيقٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَسَرَابِيلُهَا مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وَجْهَهَا النَّارُ » [(٢)] .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ يحتمل أن تكون كقوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز ، لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم .

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الآية ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ أي ليتعظوا به ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلّا هو ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي ذوو العقول .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٤٢/٥) والبيهقي في السنن (٦٣/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/٥) .

سورة الحجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية ، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وعن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين ، وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنًا ، وقيل هذا إخبار عن يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وعن عبد الله في قوله ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ قال : هذا في الجهنميين إذ رأوهم يخرجون من النار (١) . وعن ابن عبّاس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار ، قال فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم ، فذلك حين يقول : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ وعن مجاهد قال : يقول أهل النار للموحدين : ما أغنى عنكم إيمانكم ؟ فإذا قالوا ذلك ، قال الله : أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فعند ذلك قوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ وهكذا روي عن الضحاك وقتادة وأبي العالية وغيرهم .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه يَدْخُلونَ النَّارِ بِذُنُوبِهِمْ ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى مَا أَغْنَى عَنْكُمْ قَوْلُكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ ؟ فَيَغْضَبُ اللَّه لَهُمْ فَيُخْرِجُهُمْ فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَبْرَؤُونَ مِنْ حَرْقِهِمْ ، كَمَا يَبْرَأُ الْقَمَرُ مِنْ خُسُوفِهِ ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيُسَمَّوْنَ فِيهَا الْجَهَنَّمِيِّينَ » ، فقال رجل : يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا (٢) .

وعن محمّد بن علي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « منهمْ مَنْ تأخذه النارُ إلى رُكبتِهِ ، ومنهمْ مَنْ تأخذه إلى حُجْزَتِهِ ، ومنهم من تأخذهُ النّارُ إلى عُنُقِهِ على قَدْرِ ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهمْ مَن يمكثُ فيها شهرًا ثم يخرجُ منها ، ومنهم من يمكثُ فيها سنةً ثم يخرج منها ، وأطولُهُمْ فيها مُكثًا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى وَمَنْ في النار من أهل الأديان والأوثان لمن في النار ومن أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٦/١٤ .

(٢) ذكره الهيثمي مجمع الزوائد(٣٧٩/١٠) وعزاه للطبراني في الأوسط .

ورسله فنحنُ وأنتمُ اليومَ في النار سواءٌ ، فيغضبُ اللَّه لهم غضبًا لم يَغْضَبْهُ لشيء فيما مَضَى ، فيخرجهم إلى عَيْنٍ في الجنَّةِ وهو قوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ »(1) .

وقوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة أمرهم .

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلَّا بعد قيام الحجّة عليها وانتهاء أجلها ، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ، ولا يتقدمون عن مدتهم ، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك .

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ أي الذي تدعي ذلك ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿ لَّوْ مَا ﴾ أي هلا ﴿ تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ ، وكذا قال في هذه الآية ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ وقال مجاهد : بالرسالة والعذاب ، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى ﴿ لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ على النبيّ ﷺ كقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة من رسول إلَّا كذبوه واستهزؤوا به ، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى ، قال أنس والحسن البصري ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ يعني الشرك ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى اللَّه الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم بابًا من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل قالوا ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾ قال مجاهد وابن كثير والضحاك : سدت أبصارنا ، وقال ابن عبّاس : أخذت أبصارنا ، وقال العوفي عن ابن عبّاس : شبّه علينا وإنما سحرنا .

---

(1) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٣) وأحمد في مسنده (١٠/٥) والطبراني في الكبير (٢٨٢/٧) .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ .

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات ، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات ، ما يحار نظره فيه ، ولهذا قال مجاهد وقتادة : البروج ههنا هي الكواكب ، ومنهم من قال : هي منازل الشمس والقمر ، وقال عطية العوفي : البروج ههنا هي قصور فيها الحرس ، وجعل الشهب حرسًا لها من مردة الشياطين ، لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى ، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه ، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه ، فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه كما جاء مصرحًا به في الصحيح ، كما روي عن أبي هريرة يبلغ النبيّ ﷺ قال : «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ »[1] . وقال علي : وقال غيره صفوان ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده وفرّج بين أصابع يده اليمنى نصبها بضعها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقًّا للكلمة التي سمعت من السماء .

ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها ، وما جعل فيها من الجبال الرواسي والأودية والأراضي والرمال ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة ، وقال ابن عباس : ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي معلوم ، وقال ابن زيد : من كل شيء يوزن ويقدر بقدر ، وقال ابن زيد : ما يزنه أهل الأسواق . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش ، وهي جمع معيشة وقوله : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ قال مجاهد : هي الدواب والأنعام ، وقال ابن جرير : هم العبيد والإماء والدواب والأنعام ، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسّر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها ، والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد والإماء التي يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله تعالى .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ، وأن عنده خزائن الأشياء

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠١) .

من جميع الصنوف ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ كما يشاء وكما يريد ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده ، لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة . وعن عبد الله : ما من عام أمطر من عام ، ولكن الله يقسمه حيث شاء عامًا ههنا وعامًا ههنا ، ثم قرأ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ الآية . وعن الحكم بن عيينة في قوله : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ قال : ما عام بأكثر مطرًا من عام ولا أقل ، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون بما كان في البحر ، قال : وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم ، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « خَزَائِنُ اللَّهِ الْكَلَامُ ، فَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ أي تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها ، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج ، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج ، لأنه لا يكون إلَّا بين شيئين فصاعدًا ، وعن عبد الله بن مسعود في قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ قال : ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ، ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة ، وقال الضحاك يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء ، وقال عبيد ابن عمير الليثي يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قمًّا ، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر ثم تلا ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « الرِّيحُ الْجَنُوبُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَفِيهَا مَنَافِعُ لِلنَّاسِ » (٢) وقوله : ﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ أي أنزلناه لكم عذبًا يمكنكم أن تشربوا منه ، ولو نشاء جعلناه أجاجًا . وقوله ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ قال سفيان الثوري : بمانعين ، ويحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين . بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ، ونجعله معينًا وينابيع في الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبًا ، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ليبقى لهم في طول السنة ، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ إخبار عن قدرته تعالى عن بدء الخلق وإعادته ، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع ، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾ الآية ، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام ، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة ، وعن مروان بن الحكم أنه قال : كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : كانت تصلي خلف النبيّ ﷺ امرأة حسناء ، قال ابن عباس : لا والله ما رأيت مثلها قط ، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعني لئلا يروها ، وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فأنزل الله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ (٣) .

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٩٨٢٨) وعزاه لأبي الشيخ في العظمة .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٢/٥) وعزاه لأبي الشيخ في العظمة وابن مردويه والديلمي في مسند الفردوس .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/١) والترمذي في السنن (٣١٢٢) وابن ماجه في السنن (١٠٤٦

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة : المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس ، كقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ وعن مجاهد أيضًا الصلصال : المنتن ، وتفسير الآية بالآية أولى ، وقوله : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين . والمسنون الأملس ؛ ولهذا روي عن ابن عبّاس أنه قال : هو التراب الرطب ، وعن ابن عبّاس ومجاهد أيضًا والضحاك أن الحمأ المسنون هو المنتن ، وقيل المراد بالمسنون ههنا المصبوب . وقوله : ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل الإنسان ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ قال ابن عبّاس : هي السموم التي تقتل ، وقال بعضهم : السموم بالليل والنهار ، ومنهم من يقول السموم بالليل والحرور بالنهار ، وعن عبد الله بن مسعود يقول : هذه السموم جزء من سبعين جزءًا من السموم التي خلق منها الجان ، ثم قرأ ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ وعن ابن عبّاس أن الجان خلق من لهب النار وفي رواية من أحسن النار ، وعن عمرو بن دينار من نار الشمس ، وقد ورد في الصحيح : « خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ ، وَخُلِقَتِ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وصف لكم » (١) والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له ، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسدًا وكفرًا وعنادًا واستكبارًا وافتخارًا بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ .

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمرًا كونيًا لا يخالف ولا يمانع ، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى ، وأنه رجيم أي مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبير أنه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورن رنة فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها ، وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة وهو يوم البعث ، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالًا ، فلما تحقق النظرة قبحه الله :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٠) وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) والبيهقي في السنن (٣/٩) .

يقول تعالى مخبرًا عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ قال بعضهم أقسم بإغواء الله له قلت : ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ، وأأزهم إليها وأزعجهم إليها إزعاجًا ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي كما أغويتني وقدّرت عليّ ذلك ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى له متهددًا ومتوعدًا ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي مرجعكم كلكم إليّ ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ وقيل طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي ، قاله مجاهد والحسن وقتادة كقوله : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وقرأ قيس بن عبادة ومحمّد بن سيرين وقتادة ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلِىٌّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي رفيع ، والمشهور القراءة الأولى . وقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أي الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ استثناء منقطع .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال عن القرآن ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه ، أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بقدر عمله . وعن علي بن أبي طالب وهو يخطب قال : إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون - أطباقًا بعضها فوق بعض . وعن علي رضي الله عنه قال : أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض ، فيمتلئ الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، حتى تمتلئ كلها ، وقال عكرمة : سبعة أطباق ، وقال ابن جريج سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . وقال قتادة ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ هي والله منازل بأعمالهم (١) ، وقال الضحاك ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ قال : باب لليهود ، وباب للنصارى ، وباب للصابئين ، وباب للمجوس ، وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب ، وباب للمنافقين ، وباب لأهل التوحيد ، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبدًا .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « لِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ بَابٌ مِنْهَا لِمَنْ سَلَّ السَّيْفَ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ قَالَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ » (٢) . وعن سمرة بن جندب عن النبيّ ﷺ في قوله : ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ قال : « إِنَّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارِ إِلَى حُجْزَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرَاقِيهِ ، مَنَازِلُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ » (٣) .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون . وقوله :

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٤/٤٨) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٣) وأحمد في مسنده (٥/١٠) .

﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ أي سالمين من الآفات مسلم عليكم ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أي من كل خوف وفزع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء . وقوله : ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ، ثم قرأ ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ﴾ هكذا في هذه الرواية ، وعن أبي أمامة أيضًا قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل ، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري . وهذا موافق لما في الصحيح عن أبي سعيد الخدري حدَّثهم أن رسول الله ﷺ قال : « يَخلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بين الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بعضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ »[(١)] وعن محمّد هو ابن سيرين قال : استأذن الأشتر على عليّ رضي الله عنه وعنده ابن لطلحة فحبسه ثم أذن له ، فلما دخل قال : إني لأراك إنما احتبستني لهذا ؟ قال : أجل ، قال : إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني ، قال : أجل ، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ .

وعن أبي موسى سمع الحسن يقول : قال عليّ : فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية : ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ وقال كثير النوا : دخلت على أبي جعفر محمّد بن علي فقلت وليي وليكم ، وسلمي سلمكم ، وعدوي عدوكم ، وحربي حربكم ، أنا أسألك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر ؟ فقال : ﴿ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ تولهما يا كثير ، فما أدركك فهو في رقبتي هذه ، ثم تلا هذه الآية ﴿ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ قال أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين وعن أبي صالح في قوله : ﴿ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ قال : هم عشرة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم . وقوله : ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ قال مجاهد لا ينظر بعضهم في قفا بعض .

وعن زيد بن أبي أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية ﴿ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض ، وقوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ ﴾ يعني المشقة والأذى ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ »[(٢)] وقوله : ﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ كما جاء في الحديث : « يقالُ يا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فلا تَمْرَضُوا أبدًا ، وَإِنَّ لكم أن تعيشُوا فلا تَمُوتُوا أبدًا ، وإِنَّ لكم أن تَشُبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدًا ، وإن لكم أن تُقِيمُوا فلا تَظْعَنُوا أبدًا » وقال الله تعالى ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾[(٣)] .

وقوله : ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ أي أخبر يا محمّد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم ، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة ، وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف ، وذكر في سبب نزولها ما روي عن مصعب بن ثابت قال : مر رسول الله

(١) أخرجه البخاري في الرقائق (٦٥٣٥) وأحمد في مسنده (٣/٥٧) .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب العمرة (١٧٩٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٧١) .
(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٢) والترمذي في السنن (٣٣٤٦) وأحمد في مسنده (٢/٣١٩) .

ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال : «اذْكُرُوا الجَنَّةَ وَاذْكُرُوا النَّارَ» فنزلت ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (١) وعن ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ قال : طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال : «لَا أَرَاكُمْ تَضْحَكُونَ» ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع علينا القهقرى فقال : «إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِمَ تُقَنِّطْ عِبَادِي ؟ ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (٢) » . وعن قتادة في قوله : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «لَوْ يَعْلَمُ العَبْدُ قَدْرَ عَفْوِ اللَّهِ لَمَا تَوَرَّعَ مِنْ حَرَامٍ ، وَلَوْ يَعْلَمُ العبدُ قدر عَذَابِ اللَّهِ لَبَخَعَ نَفْسَهُ » (٣) .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ .

يقول تعالى : وخبرهم يا محمّد عن قصة ﴿ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر ، وكيف ﴿ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي خائفون ، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قرّبه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيذ ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ ﴾ أي لا تخف ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود ثم ﴿ قَالَ ﴾ متعجبًا من كبره وكبر زوجته ومتحققًا للوعد ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقًا وبشارة بعد بشارة ﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴾ وقرأ بعضهم - القنطين - فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى أنه شرع يسألهم عما جاؤوا له ، فقالوا : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون قوم لوط ، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلّا امرأته فإنها من الهالكين ، ولهذا قالوا : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين المهلكين .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٢/٤) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٥٢/١٤) والسيوطي في الدر المنثور (٨٦/٥) .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٢/٤) .

الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم ، ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به ومن نجاته وإهلاك قومه .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ .

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل ، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو ، إنما يكون ساقة يزجي الضعيف ويحمل المنقطع . وقوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي وقت الصباح .

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله ، فقالوا له مجيبين : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحدًا ، فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته ، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصبحهم من العذاب المستقر . ولهذا قال تعالى لمحمّد ﷺ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض . وعن ابن عبّاس : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمّد ﷺ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يقول وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ رواه ابن جرير وقال قتادة : ﴿ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي في ضلالهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يلعبون ، وقال ابن عبّاس : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ لعيشك ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال : يترددون .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ، كما قال مجاهد في قوله : ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال : المتفرسين ، وعن ابن عبّاس والضحّاك : للناظرين ، وقال قتادة : للمعتبرين ، وقال مالك عن بعض أهل المدينة ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للمتأملين . وعن أبي سعيد مرفوعًا قال : قال رسول الله ﷺ : « اتّقوا

فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّه » ثم قرأ النبيّ ﷺ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [(١)] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي ، والقذف للحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع ، مسالكه مستمرة إلى اليوم ، وقال مجاهد والضحّاك : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ قال : معلم ، وقال قتادة : بطريق واضح ، وقال قتادة أيضًا : بصقع من الأرض واحد ، وقال السدي : بكتاب مبين ، يعني كقوله ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا والله أعلم . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار ، وإنجائنا لوطًا وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله .

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، قال الضحاك وقتادة وغيرهما : الأيكة الشجر الملتف وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريبًا من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي طريق مبين ، قال ابن عبّاس وغيره : طريق ظاهر ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في إنذاره إياهم : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحًا نبيّهم ﵇ ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين ، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح ، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ وذكر تعالى أنهم ﴿ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشرًا وبطرًا وعبثًا ، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله ﷺ ، وهو ذاهب إلى تبوك ، فقنع رأسه وأسرع دابته وقال لأصحابه : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » [(٢)] وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه ، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٦٨) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٠) ومسلم في الزهد والرقائق (٣٩) وأحمد في مسنده (٢/٦٦) .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴾ أي بالعدل ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ الآية ، ثم أخبر نبيّه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة ، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم لما جاءهم به ، كقوله : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : كان هذا قبل القتال ، وهو كما قالا فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ، فإنه الخلّاق الذي لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه ﷺ : كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم بما هم فيه ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنًا عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك ، ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ألن لهم جانبك وقد اختلف في السبع المثاني ما هي ؟ .

فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عبّاس وغيرهم : هي السبع الطوال يعنون : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس . نص عليه ابن عبّاس وسعيد بن جبير ، وقال سعيد : بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام ، وقال ابن عبّاس : بينَّ الأمثال والخبر والعبر ، وعن ابن أبي عمر قال : قال سفيان : المثاني البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والأنفال وبراءة سورة واحدة ، قال ابن عباس : ولم يعطهن أحد إلّا النبيّ ﷺ ، وأعطي موسى منهن ثنتين [(١)] .

وقال مجاهد : هي السبع الطوال ، ويقال : هي القرآن العظيم ، وعن زياد بن أبي مريم في قوله : ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ قال : أعطيتك سبعة أجزاء : مر ، وانه ، وبشر ، وأنذر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، وانبئك بنبأ القرآن [(٢)] .

والقول الثاني : أنها الفاتحة ، وهي سبع آيات . وروي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عبّاس ، قال ابن عبّاس : والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها . وقال قتادة : ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب ، وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع . وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين :

أحدهما : عن أبي سعيد بن المعلى قال : مرّ بي النبيّ ﷺ وأنا أصلي ، فدعاني فلم آته حتى صليت ، فأتيته فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟ » فقلت : كنت أصلي ، فقال : « أَلَمْ يَقُلِ اللَّه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ » فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال : « ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ » [(٣)] .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن باب الافتتاح (٢٦) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٧٦/١٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٠/٣) والنسائي في السنن (٩١٣) .

الثاني : عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ »[١] . فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم ، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة ، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضًا كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه ، وهو القرآن العظيم أيضًا ، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فأشار إلى مسجده ، والآية نزلت في مسجد قباء ، فلا تنافي فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أي استعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرْآنِ »[٢] إلى أنه يستغنى به عما عداه ، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير .

وعن أبي رافع صاحب النبيّ ﷺ قال : ضاف النبيّ ﷺ ضيف ولم يكن عند النبيّ ﷺ شيء يصلحه فأرسل إلى رجل من اليهود « يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه أَسْلِفْنِي دَقِيقًا إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ » قال : لا ، إلَّا برهن ، فأتيت النبيّ ﷺ فأخبرته فقال : « أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لأَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، وَأَمِينٌ مَنْ فِي الأَرْضِ ، وَلَئِنْ أَسْلَفَنِي أَوْ بَاعَنِي لأُوَدِيَنَّ إِلَيْهِ » فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية ، كأنه يعزيه عن الدنيا[٣] ، قال العوفي عن ابن عباس ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ قال نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه . وقال مجاهد : ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ هم الأغنياء .

﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يأمر تعالى نبيّه ﷺ أن يقول للناس ﴿ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ البين النذارة ، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه ، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها ، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام . وقوله : ﴿ ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي المتحالفين ، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، وعن أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ ، فَقَالَ يَا قَوْمُ إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنِي ، وَإِنِّي أنا النَّذِيرُ العُرْيَانُ ، فَالنَّجاء النَّجَاء ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا وَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمْ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ ما

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٤) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٢٧) وأحمد في مسنده (١٧٢/١) وأبو داود في السنن (١٤٦٩) .
(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٤) وأحمد في مسنده (٤/٣) .

جئت بِهِ مِنَ الحقِّ »[1] وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أي جزؤوا كتبه المنزلة عليهم ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض . عن ابن عبّاس ﴿ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قال هم أهل الكتاب جزؤوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[2] . وعن ابن عبّاس أيضًا ﴿ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قال : هم أهل الكتاب جزؤوها أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[3] .

وعن ابن عبّاس ﴿ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ قال : السحر ، وقال عكرمة : العضه السحر بلسان قريش ، تقول للساحرة : إنها العاضهة ، وقال مجاهد : عضوه أعضاء ، قالوا : سحر وقالوا : كهانة وقالوا : أساطير الأولين ، وقال عطاء قال : بعضهم ساحر ، وقالوا مجنون ، وقال كاهن ، فذلك العضين . وكذا روي عن الضحاك وغيره . وعن ابن عبّاس إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا شرف فيهم وقد حضر الموسم ، فقال لهم يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ، ويرد قولكم بعضه بعضًا ، فقالوا وأنت يا أبا عبد شمس فقل : وأقم لنا رأيًا نقول به ، قال : بل أنتم قولوا لأسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : ما هو بكاهن ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، قالوا : فماذا نقول ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلّا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ، فتفرقوا عنه بذلك ، وأنزل الله فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أصنافًا ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله . وعن ابن عمر في قوله ﴿ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ قال : عن لا إله إلا الله ، وعن مجاهد قال : عن لا إله إلّا الله . وعن أنس عن النبيّ ﷺ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال : عن لا إله إلّا الله ، وقال عبد الله - هو ابن مسعود - والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلّا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر فيقول : ابن آدم ماذا غرّك مني بي ؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ وعن أبي العالية في قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ قال : يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة ، عما كانوا يعبدون ، عماذا أجابوا المرسلين . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ قال : لا يسألهم هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا .

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به وهو مواجهة المشركين به ،

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٣) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٥) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٦) .

كما قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ أي أمضه ، وفي رواية : افعل ما تؤمر . وقال مجاهد : هو الجهر بالقرآن في الصلاة ، وعن عبد الله بن مسعود : ما زال النبيّ ﷺ مستخفيًا حتى نزلت ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه . وقوله : ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ أي بلغ ما أنزل إليك من ربك ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾ ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم ، وعن أنس قال في هذه الآية ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ قال مرَّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم ، فجاء جبريل - أحسبه قال فغمزهم - فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا .

وقال محمّد بن إسحاق : كان عظماء المستهزئين كما حدَّثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر ، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم : من بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، الأسود ابن المطلب أبو زمعة ، ومن بني زهرة : الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومن بني مخزوم : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ومن بني سهم : ابن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي : العاص بن وائل بن هشام بن سُعَيد بن سعد ، ومن خزاعة : الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد بن عمرو بن ملكان . فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ . وعن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فقام ، وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فمر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه ، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر إزاره ، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلًا له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش وليس بشيء ، فانتقض به فقتله ، ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شبرقة فدخلت في أخمص قدمه فقتلته، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحًا فقتله .

وعن ابن عبّاس قال : كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبودًا آخر . وقوله : ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي وإنا لنعلم يا محمّد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض ، فلا يهيدنك ذلك ولا يثنينّك عن إبلاغك رسالة الله ، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ، ولهذا قال : ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ كما روي عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَعْجَزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ » [(١)] ، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٨٧) .

وقوله : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ قال البخاري : قال سالم الموت [١] وسالم هذا هو سالم بن عبد اللَّه بن عمر ، والدليل على ذلك قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ وعن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول اللَّه ﷺ ما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت أم العلاء : رحمة اللَّه عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك اللَّه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّه أَكْرَمَهُ ؟ » فقلت بأبي وأمي يا رسول اللَّه فمن ؟ قال : « أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ، وَإِنِّي لأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ » [٢] .

ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتًا ، فيصلي بحسب حاله كما ثبت عن عمران ابن حصين رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال : « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ » [٣] ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهما إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا وأصحابهم أعلم الناس باللَّه وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا الموت كما قدمناه وللَّه الحمد والمنة .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب قوله : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾) .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٣) وأحمد في مسنده (٤٣٦/٦) والبيهقي في السنن (٤٠٦/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٤) .

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبّرًا بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة ، كقوله : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه ، يحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب ، وكلاهما متلازم ، وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب فقال في قوله ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أي فرائضه وحدوده ، وقد رده ابن جرير فقال : لا نعلم أحدًا استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها ، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوا قبل كونه استبعادًا وتكذيبًا ، قلت كما قال تعالى ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « تطلعُ عليكم عندَ السَّاعَةِ سحابةٌ سوداءُ مِنَ المغربِ مثل التُّرْسِ ، فما تزالُ ترتفعُ في السَّماءِ ، ثم ينادي منادٍ فيها : يا أيها النَّاسُ فيقبل النَّاسُ بعضهم على بعض : هل سمعتم ؟! فمنهم من يقول نعم ، ومنهم من يشكُّ ، ثم ينادي الثانيةَ : يا أيها النَّاسُ ، فيقول النَّاسُ بعضهم لبعض : هل سمعتم ! فيقولون نعم ، ثم ينادي الثالثةَ : يا أيها النَّاسُ أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال رسول الله ﷺ : « فوالذي نَفْسِي بِيدِه إنَّ الرجلين لَيَنْشُرَانِ الثوبَ فما يَطْوِيانِهِ أبدًا ، وإنَّ الرجلَ لَيَمُدَّنَّ حَوْضَهُ فما يسقي فيه شيئًا أبدًا ، وإنَّ الرجلَ ليحلبُ ناقته فما يشربه أبدًا - قال - ويشتغلُ النَّاسُ » (١) ثم إنه تعالى نزّه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدّس علوًّا كبيرًا ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ ﴾ أي الوحي وقوله : ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ وهم الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وقوله : ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ ﴾ أي لينذروا ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ أي : فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه العالمَ العلوي وهو السموات ، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث ، بل ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ ثم نزّه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له ، ثم نبّه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله ، وهو إنما خُلق ليكون عبدًا لا ضدًّا ، كقوله

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣٩/٤) والمنذري في الترغيب (٣٨٢/٤) .

تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ وعن بشر بن جحاش قال : بصق رسول الله ﷺ في كفه ثم قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ابْنُ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتُ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟ » (١) .

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها ، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ولهذا قال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ وهو وقت رجوعها عشيًّا من المرعى فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروعًا وأعلاه أسنمة ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أي غدوة حين تبعثونها المرعى ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾ وذلك في الحجّ والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أي ثياب ﴿ وَمَنَٰفِعُ ﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة ، وعنه : ﴿ دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ نسل كل دابة ، وقال مجاهد : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أي لباس ينسج ومنافع مركب ولحم ولبن ، وقال قتادة : ﴿ دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ يقول لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة .

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم ، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها ، وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها كالإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير ، وهي حرام كما ثبتت به السنّة النبوية وذهب إليه أكثر العلماء ، وعن مولى نافع بن علقمة عن ابن عبّاس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير وكان يقول : قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فهذه للأكل ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ فهذه للركوب (٢) ، واستأنسوا بحديث عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/٤) وابن ماجه في السنن (٢٧٠٧) .
(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١١٠/١٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨٩/٤) والنسائي في السنن (٢٠٢/٧) وأبو داود في السنن (٣٧٩٠) .

وعن المقدام بن معد يكرب قال : غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة فقدم أصحابنا إليّ اللحم فسألوني رمكة فدفعتها إليهم فحلبوها ، وقلت مكانكم حتى آتي خالدًا فأسأله ، فأتيته فسألته فقال غزونا مع رسول اللّه ﷺ غزوة خيبر فأسرع الناس في حظائر يهود ، فأمرني أن أنادي : الصلاة جامعة ولا يدخل الجنة إلَّا مسلم ، ثم قال : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ قَدْ أَسْرَعْتُمْ في حَظَائِرِ يَهُود ، أَلاَ لاَ يَحِلُّ أَمْوَالُ المُعَاهِدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَرَامٌ عَلَيْكُم لُحُومُ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ وَخَيْلِهَا وَبِغَالِهَا ، وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ ، وَكلُّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ » [(١)] والرمكة هي الحجرة ، وقوله حبلوها أي أوثقوها في الحبل ليذبحوها ، والحظائر البساتين القريبة من العمران ، وكأن هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهدَ ومعاملتهم على الشطر واللّه أعلم . فلو صح هذا الحديث لكان نصًا في تحريم لحوم الخيل ، ولكن لا يقاوم ما ثبت عن جابر بن عبد اللّه قال : نهى رسول اللّه ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل [(٢)] .

وعن أسماء ابنة أبي بكر رضي الله عنهما قالت : نحرنا على عهد رسول اللّه ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن بالمدينة [(٣)] . فهذه أدل وأقوى وأثبت ، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف واللّه أعلم .

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية ، نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيرًا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فبيَّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ كقوله : ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ قال مجاهد في قوله : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قال طريق الحق على اللّه ، وقال السدي : الإسلام ، وقال ابن عبّاس : وعلى اللّه البيان أي يبين الهدى والضلالة ، وكذا قال قتادة والضحاك ، وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق ؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقًا تسلك إليه فليس يصل إليه منها إلَّا طريق الحق ، وهي الطريق التي شرعها ورضيها ، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ﴾ أي حائد مائل زائل عن الحق . قال ابن عبّاس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، وقرأ ابن مسعود : ﴿ومنكم جَآئِرٌۚ ﴾ ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال : ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨٩/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٢١) ومسلم في الصيد والذبائح (٢٤) وأحمد في مسنده (٢١٩/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (٣٨) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب ، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء ، وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال : ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أي جعله عذبًا زلالًا يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحًا أجاجًا ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرًا ترعون فيه أنعامكم . كما قال ابن عبّاس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي ترعون ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعي ، وروي أن رسول اللّه ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس (١) ، وقوله : ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلّا اللّه .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام في تسخيره الليلَ والنهارَ يتعاقبان ، والشمسَ والقمرَ يدوران ، والنجومَ الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورًا وضياء ليهتدي بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله اللّه تعالى فيه ، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة ، وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن اللّه ويفهمون حججه . وقوله : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي آلاء اللّه ونعمه فيشكرونها .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن تسخيره البحرَ المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه ، وجَعْلِه السمكَ والحيتان فيه ، وإحلالِه لعباده لحمَها حيَّها وميتَها في الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حليةً يلبسونها ، وتسخيره البحرَ لحمل السفن التي تمخره أي تشقه ، وقيل تمخر الرياح ، وكلاهما صحيح ، وقيل : تمخره بجؤجئها - وهو صدرها المسنم - الذي أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك إرثًا عن أبيهم

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٢٠٦) .

نوح عليه السلام ، فإنه أول من ركب السفن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي نعمه وإحسانه .

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد ، أي لا تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ، ولهذا قال ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا ﴾ أي جعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر رزقًا للعباد ، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبراري والقفار ويخترق الجبال والآكام فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله ، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة وجنوبًا وشمالًا وشرقًا وغربًا ما بين صغار وكبار ، وأودية تجري حينًا وتنقطع في وقت ، وما بين نبع وجمع ، وقويّ السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدّر وسخّر ويسّر ، فلا إله إلّا هو ولا رب سواه ، وكذلك جعل فيها سبلًا أي طرقًا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد ، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممرًا ومسلكًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ﴾ أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون برًا وبحرًا إذا ضلوا الطرق . وقوله : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي في ظلام الليل ، قاله ابن عبّاس ، وعن مالك في قوله ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يقول : النجوم وهي الجبال ، ثم نبّه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلّا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تَخْلُقُ شيئًا بل هم يُخلقون ، ولهذا قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازي على اليسير ، وقال ابن جرير : يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر . ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يَخلُقون شيئًا وهم يُخلَقون ، وقوله : ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يُرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يُرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء .

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا إله إلّا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك

كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده ولهذا قال : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقًّا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ ﴾ معرضين عن الجواب ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي لم ينزل شيئًا ، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين ، أي مأخوذة من كتب المتقدمين كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالًا متضادة مختلفة كلها باطلة . قال الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم ، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم كما جاء في الحديث : « مَنْ دَعَا إِلىَ هُدَى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » (١) وروى عن ابن عبّاس في الآية : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : إنها كقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وقال مجاهد : يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئًا .

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هو النمروذ الذي بنى الصرح ، وعن زيد بن أسلم : أول جبار كان في الأرض النمروذ ، وهو الذي بني الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالى : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ وقال آخرون : بل هو بختنصر ، وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا ، وقال آخرون : هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذي كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره ، كما قال نوح عليه السلام ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة ، وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة ، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم . ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أي يظهر فضائحهم ، وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أي تظهر وتشتهر ، كما ورد عن ابن عمر

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٧/٢) وأبو داود في السنن (٤٦٠٩) .

قال : قال رسول الله ﷺ : « يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ ، فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ »(١) وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رءوس الخلائق ، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعًا لهم وموبخًا : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم ، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة ، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضرّه وما لا ينفعه .

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ قال الله مكذبًا لهم في قيلهم ذلك ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان مكتبرًا عن آيات الله واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ ﴾ .

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء فإن أولئك قيل لهم ﴿ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ ﴾ قالوا معرضين عن الجواب : لم ينزل شيئًا إنما هذا أساطير الأولين ، وهؤلاء قالوا خيرًا ، أي أنزل خيرًا ، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به ، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ ﴾ الآية ، كقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة ، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير ، أي من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، كقوله : ﴿ وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وقال رسول الله ﷺ ﴿ وَلَلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من دار المتقين ، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ ﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١١١) ومسلم في الجهاد والسير (١٠) وأحمد في مسنده (٢/ ٧٠) .

أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله . ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ، أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

يقول تعالى مهددًا للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا هل ينتظر هؤلاء إلّا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم ، قاله قتادة ﴿ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله ، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك ممّا كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطانًا ، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهًا لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه ، قال تعالى رادًّا عليهم شبهتهم ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم ، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه آكد النهي ، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولًا ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمّد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا

حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة ، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل ؛ فلهذا قال : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلهذا قال : ﴿ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ أي من أضله ، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله ؟ أي لا أحد ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه .

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ۝ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أي اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت ، أي استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه ، فقال تعالى مكذبًا لهم ورادًّا عليهم : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أي لابد منه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر . ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أي للناس ﴿ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أي من كل شيء ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾ أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت ، ولهذا يُدعُّون يوم القيامة إلى نار جهنم دعًّا ، وتقول لهم الزبانية ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء . ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن ، كما قال الشاعر :

إِذَا مَا أَرَادَ اللّٰهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ كُنْ قَوْلَةً فَيَكُونُ

أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف ؛ لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء ، فلا إله إلّا هو ولا رب سواه . وعن عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول : قال الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم

ولم يكن ينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ قال : وقلت : ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أما شتمه إياي فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ وقلت : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلّان رجاء ثواب اللّه وجزائه ، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم عثمان ابن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول اللّه ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ، وأبو سلمة ابن عبد الأسود في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصدِّيقة ﷺ وأرضاهم وقد فعل ، فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قال ابن عباس والشعبي وقتادة : المدينة ، وقيل : الرزق الطيب ، قاله مجاهد ، ولا منافاة بين القولين ؛ فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم اللّه خيرًا منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئًا للّه عوضه اللّه بما هو خير له منه وكذلك وقع ، فإن اللّه مكن لهم في البلاد وحكّمهم على رقاب العباد وصاروا أمراء حكامًا وكل منهم للمتقين إمامًا ، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال : ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر اللّه لمن أطاعه واتبع رسوله ؛ ولهذا قال هشيم عن العوام عمن حدَّثه أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول : خذ بارك اللّه لك فيه ، هذا ما وعدك اللّه في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم وصفهم تعالى فقال : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على اللّه الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : لما بعث اللّه محمّدًا رسولًا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم ، وقالوا : اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرًا فأنزل اللّه : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ الآية . وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشرًا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشرًا فلا تنكروا أن يكون محمّد ﷺ رسولًا قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ ليسوا من أهل السماء ، كما قلتم ، وكذا روي عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر أهل

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٥) .

الكتاب ، وقول عبد الرحمن بن زيد : الذكر القرآن واستشهد بقوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ صحيح ، لكن ليس هو المراد ههنا ؛ لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه ، وكذا قول أبي جعفر الباقر : نحن أهل الذكر ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر صحيح ، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة . وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنّة المستقيمة كعلي وابن عبّاس وابني علي الحسن والحسين ومحمّد ابن الحنيفة وعلي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس وأبي جعفر الباقر وهو محمّد بن علي بن الحسين وجعفر ابنه وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم ، وعرف لكل ذي حق حقه ونزّل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله ، واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين ، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمّد ﷺ كانوا بشرًا كما هو بشر كما قال تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرًا إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشرًا أو ملائكة .

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ وهي الكتب ، قاله ابن عبّاس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، والزبر جمع زبور تقول العرب : زبرت الكتاب إذا كتبته . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من ربّهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين .

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاةَ الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها ، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم . وقوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملهية ، قال قتادة والسدي تقلبهم أي أسفارهم ، وقال مجاهد والضحّاك وقتادة ﴿ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ في الليل والنهار ، قوله : ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه . وقوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ، ولهذا قال العوفي عن ابن عبّاس ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ يقول إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة كما ثبت في الحديث « لا أحَدَ أصبرُ على أذًى سَمِعَهُ من الله ، إنهم يجعلونَ له ولدًا وَهُوَ يرزقهم ويعافيهم » (١) وفيهما « إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِتْهُ » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤٩) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ، أي بكرة وعشيًّا فإنه ساجد بظله للّه تعالى . قال مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شيء للّه ﷻ ، وقوله : ﴿ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أي صاغرون ، وقال مجاهد أيضًا : سجود كل شيء فيؤه ، وذكر الجبال قال : سجودها فيؤها . وقال أبو غالب الشيباني : أمواج البحر صلاته ، ونزّلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي تسجد للّه أي غير مستكبرين عن عبادته ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب ﷻ ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره ، وترك زواجره .

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا إله إلّا هو وأنه لا ينبغي العبادة إلّا له وحده لا شريك له ، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد : أي دائمًا ، وعن ابن عبّاس أيضًا : أي واجبًا ، وقال مجاهد : أي خالصًا له ، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض كقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ هذا على قول ابن عبّاس وعكرمة فيكون من باب الخبر . وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب أي ارهبوا أن تشركوا بي شيئًا ، وأخلصوا لي الطاعة كقوله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ ثم أخبر أنه مالك النفع والضر وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلّا هو ، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه وتسألونه وتلحّون في الرغبة إليه مستغيثين به ، وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ قيل : اللام ههنا لام العاقبة ، وقيل : لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا ، أي يستروا ويجحدوا نعم اللّه عليهم ، مع أنه المسدي إليهم النعمَ ، الكاشف عنهم النقمَ ، ثم توعدهم قائلًا : ﴿ فَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلًا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة ذلك .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (٦١) .

عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيبًا مما رزقهم الله فقالوا : ﴿ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي جعلوا لآلهتهم نصيبًا مع الله ، وفضلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه ، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا ، وجعلوها بنات لله فعبدوها معه فأخطؤوا خطأ كبيرًا في كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدًا ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ وقوله ههنا ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ﴾ أي عن قولهم وإفكهم وقوله : ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا . فإنه ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أي كئيبًا من الهمّ ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ أي يئدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ! ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه ، وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة ، أي لأهلك دواب الأرض تبعًا لإهلاك جميع بني آدم ، ولكن الرب ﷻ يحلم ويستر ، وينظر إلى أجل مسمى ، أي لا يعاجلهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدًا . فعن أبي الأحوص أنه قال : كاد الجعل أن يعذب بذنب بني آدم وقرأ الآية ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ : وعن أبي سلمة قال : سمع أبو هريرة رجلًا وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلّا نفسه ، قال : فالتفت إليه فقال بلى والله ، حتى إن الحُبَارَى لتموت في وكرها بظلم الظالم[١]

(١) الأثر ذكره الطبري في تفسيره (١٦٦/١٤) والسيوطي في الدر المنثور (١٤٠/٥) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب ، والحُبَارَى : طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوَزّة في منقاره طول ، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء والمعنى أن الله يحبس عنها القطر بشؤم ذنوب الظالمين . لسان العرب (٧٥١/٢) ، المعجم الوسيط (١٥٨/١) .

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ اللَّه لا يُؤَخِّر شَيْئًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ ، وَإِنَّمَا زِيَادَةُ العُمْرِ بِالذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ يَرْزُقُهَا اللَّه العَبْدَ فَيَدْعُونَ لَهُ من بَعْدِهِ فَيَلْحَقُهُ دُعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ فذلك زِيَادَةُ العُمْرِ »(١) .

وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده ، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله . وقوله : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا ، وإن كان ثم معاد ففيه أيضًا لهم الحسنى ، وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ . قال مجاهد وقتادة ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي الغلمان ، وقال ابن جرير ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي يوم القيامة وهو الصواب ولله الحمد ، ولهذا قال تعالى رادًّا عليهم في تمنيهم ذلك ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقًّا لابد منه ﴿ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم : منسيون فيها مضيعون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ وعن قتادة أيضًا ﴿ مُّفْرَطُونَ ﴾ أي معجلون إلى النار من الفرط وهو السابق إلى الورد ، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلًا فكذّبت الرسل ، فلك يا محمّد في إخوتك من المرسلين أسوة فلا يهيدنك تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه . ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصًا ، ولا صريخ لهم ، ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله : إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وَهُدًى ﴾ أي للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي لمن تمسك به ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ۝ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ فِي الْأَنْعَامِ ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ أفرده ههنا عودًا على معنى النعم ، أو الضمير عائد على الحيوان ، فإن الأنعام حيوانات ، أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان ،

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٣٦٦١) وابن حجر في فتح الباري (١٠/٤١٦)

وفي الآية الأخرى ﴿ مِّمَّا فِى بُطُونِهَا ﴾ ويجوز هذا وهذا ، وقوله : ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم إلى العروق ، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به . وقوله : ﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي لا يغص به أحد ، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابًا للناس سائغًا ، ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب ، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، ولهذا امتن به عليهم فقال : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ دل على إباحته شرعًا قبل تحريمه ، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل كما جاءت السنة بتفصيل ذلك وليس هذا موضع بسط ذلك ، كما قال ابن عباس في قوله ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ السكر ما حرم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما . وفي رواية : السكر حرامه ، والرزق الحسن حلاله ، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان ، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوي إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذنًا قدريًا تسخيريًا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها ، أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل ، فتبني الشمع من أجنحتها ، وتقيء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها . وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ أي مطيعة ، فجعلاه حالًا من السالكة . قال ابن زيد : وهو كقول الله تعالى ﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ قال : ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم ، والقول الأول هو الأظهر ، وهو أنه حال من الطريق ، أي فاسلكيها مذللة لك ، نص عليه مجاهد . وقال ابن جرير : كلا القولين صحيح ، وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « عُمْرُ الذُّبَابِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، والذُّبَابُ كُلُّهُ فِي النَّارِ إِلَّا النَّحْلَ »(١) وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها .

وقوله : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي في العسل شفاء للناس أي من أدواء تعرض لهم ، قال بعض من

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٢٣١ ، ٤٢٩٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤١/٤) .

تكلم على الطب النبوي : لو قال فيه شفاء للناس لكان دواء لكل داء ، ولكن قال : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ : أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، فإنه حار والشيء يداوى بضده . وقال مجاهد وابن جرير في قوله : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ : يعني القرآن ، وهذا قول صحيح في نفسه ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية ، إنما ذكر فيها العسل ، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا ، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والدليل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ هو العسل . الحديث الذي روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخي استطلق بطنه فقال : « اسْقِهِ عَسَلًا » فذهب فسقاه عسلًا ثم جاء فقال : يا رسول الله سقيته عسلًا فما زاده إلا استطلاقًا قال : « اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا » فذهب فسقاه عسلًا ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلّا استطلاقًا ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ ، اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا » فذهب فسقاه عسلًا فبرئ (١) .

قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلًا وهو حار تحللت فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالًا ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ، ببركة إشارته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام . وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل (٢) ، وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ : فِي شَرْطَةِ مِحجَمٍ ، أَوْ شُرْبَةِ عَسَلٍ ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ » (٣) .

وعن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ : العَسَلِ وَالْقُرْآنِ » (٤) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَعِقَ العَسَلَ ثَلَاثَ غَدَوَاتٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ لَمْ يُصِبْهُ عَظِيمٌ مِنَ البَلَاءِ » (٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة ، إلى السلوك في هذه المهامه ، والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل وهو أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة كما قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ الآية ، وقد روي عن علي ﷺ أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفي هذا

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (٩١) والترمذي في السنن (٢٨٢) وأحمد في مسنده (٩٢/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٦٨٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الطب (٥٦٨١) والبيهقي في السنن (٣٤١/٩) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٤٥٢) والبيهقي في السنن (٣٤٤/٩) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٤٥٠) .

السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ، ولهذا قال : ﴿ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ أي بعد ما كان عالمًا أصبح لا يدري شيئًا من الفند والخرف ؛ ولهذا روي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو : « أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ ، وَالْكَسَلِ ، وَالْهَرَمِ ، وَأَرْذَلِ الْعُمرِ ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ » (١) .

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم : لبيك لا شريك لك إلَّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك ، فقال تعالى منكرًا عليهم أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم ، قال العوفي عن ابن عبّاس في هذه الآية يقول : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني فذلك قوله : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وقال في الرواية الأخرى : عنه فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم ، وقال مجاهد في هذه الآية هذا مثل الآلهة الباطلة ، وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه ، فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه منك . وقوله : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا ، فجحدوا نعمته وأشركوا معه غيره ، وعن الحسن البصري قال : كتب عمر بن الخطاب ﷺ هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري : واقنع برزقك من الدنيا ، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلي به كلًا ، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِالْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورًا وإناثًا ، وجعل الإناث أزواجًا للذكور ، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين ، وعن ابن عبّاس ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ : هم الولد وولد الولد . وعن عكرمة عن ابن عبّاس قال : بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك .

وقال مجاهد : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ : ابنه وخادمه . وقال في رواية : الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ، وقال طاووس وغير واحد : الحفدة الخدم . وعن عكرمة أنه قال : الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك ، قال الضحّاك :إنما كانت العرب تخدمها بنوها ، وقال العوفي عن ابن عبّاس قوله ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ يقول بنو امرأة الرجل ليسوا منه ، ويقال : الحفدة الرجل

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٧) .

يعمل بين يدي الرجل ، يقال : فلان يحفد لنا أي يعمل لنا ، قال : وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل ، وقال ابن جرير : وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت : وإليك نسعى ونحفد ، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ قلت : فمن جعل ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ متعلقًا بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار ؛ لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة ، وكذا قال الشعبي والضحاك فإنهم يكونون غالبًا تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته ، وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث نضرة بن أكثم « وَالوَلَدُ عَبْدٌ لَكَ » [(١)] . وأما من جعل الحفدة الخدم ، فعنده أنه معطوف على قوله ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي جعل لكم الأزواج والأولاد خدمًا .

وقوله : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي من المطاعم والمشارب ، ثم قال تعالى منكرًا على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي يسترون نعم اللَّه عليهم ويضيفونها إلى غيره . وفي الحديث الصحيح « إِنَّ اللَّه يَقُولُ لِلعَبْدِ يوم القِيَامَةِ مُمْتَنًّا عَلَيْهِ : أَلَمْ أُزَوِّجْكَ ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبْلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ » [(٢)] .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا ، أي لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر ، ولا يملكون ذلك لأنفسهم أي ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أي لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلَّا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن عبَّاس : هذا مثل ضربه اللَّه للكافر والمؤمن ، وكذا قال قتادة ، واختاره ابن جرير ، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر ، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا هو المؤمن ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهرًا واضحًا بيِّنًا لا يجهله إلَّا كل غبي قال اللَّه تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣١) والبيهقي في السنن (١٥٧/٧) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

قال مجاهد : وهذا أيضًا المراد به الوثن والحق تعالى ، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية ، فلا مقال ولا فعال ، وهو مع هذا كَل ، أي عيال وكلفة على مولاه ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ أي يبعثه ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ مَن هذه صفاته ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أي بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقيل : الأبكم مولى لعثمان ، وبهذا قال السدي وقتادة وعطاء الخرساني ، واختار هذا القول ابن جرير [1] .

وعن ابن عبّاس : هو مثل للكافر والمؤمن أيضًا كما تقدم ، عن ابن عبّاس في قوله ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ قال : نزلت في رجل من قريش وعبده قوله ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ الآية . وفي قوله : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ إلى قوله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال : هو عثمان بن عفان ، قال : والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير قال : هو مولى لعثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة ، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما [2] .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض ، واختصاصه بعلم الغيب فلا اطلاع لأحد على ذلك إلّا أن يطلعه تعالى على ما يشاء ، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع ، وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون ، كما قال : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم ذكر تعالى مننه على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا ، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات ، والأبصار التي بها يحسون المرئيات ، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح ، وقيل : الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها ، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلًا قليلًا كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده . وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه ، كما ورد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أفضل مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وبصره الذي يبصر به ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٤/١٩٨) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٤/١٩٨) والسيوطي في الدر المنثور (٥/١٥٢) وعزاه لابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر وابن أبي حاتم .

دَعَانِي لأُجِيبَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤمِنِ يَكْرَهُ الموت وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ » (١) فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ ، فلا يسمع إلَّا لله ، ولا يبصر إلَّا لله ، أي ما شرعه الله له ولا يبطش ولا يمشي إلَّا في طاعة الله ﷻ ، مستعينًا بالله في ذلك كله . ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله : ورجله التي يمشي بها « فَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يَمْشِي » ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

ثم نبّه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ، ما يمسكه هناك إلَّا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخّر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك ، كما قال تعالى في سورة الملك : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ، ويستترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر . ولهذا قال : ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أي الغنم ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أي الإبل ﴿ وَأَشْعَارِهَآ ﴾ أي المعز ، والضمير عائد على الأنعام ﴿ أَثَـٰثًا ﴾ أي تتخذون منه أثاثًا وهو المال ، وقيل المتاع ، وقيل الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله ، فإنه يتخذ من الأساس البسط والثياب وغير ذلك ، ويتخذ مالًا وتجارة ، وقال ابن عبّاس : الأثاث المتاع ، وقوله : ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا ﴾ قال قتادة : يعني الشجر ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا ﴾ أي حصونًا ومعاقل كما ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ هكذا فسره الجمهور وقرؤوه بكسر اللام من تسلِمون أي من الإسلام ، وقال قتادة في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ : هذه السورة تسمى سورة النعم ، وعن ابن عبّاس أنه كان يقرؤوها ﴿ تسلَمون ﴾ بفتح اللام يعني من الجراح (٢) ،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) .
(٢) هكذا قرأها ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وأبو رجاء بفتح التاء واللام على معني لعلكم إذا لبستم الدروع تسلمون في الحرب . زاد المسير (٤٧٨/٤) .

وأخرجه ابن جرير من الوجهين ورد هذه القراءة (١) .

قال عطاء الخرساني : إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب . ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ وما جعل من السهل أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وما جعل من غير ذلك أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ لعجبهم من ذلك ، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ولكنهم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ وما تقي من البرد أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب حر .

وقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وقد أديته إليهم ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، عن مجاهد أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ فقال الأعرابي : نعم ، قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا ﴾ الآية ، قال الأعرابي : نعم ، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي : نعم ، حتى بلغ ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ فولى الأعرابي فأنزل الله : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ الآية .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ؟ وأنه يبعث من كل أمة شهيدًا ، وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي في الاعتذار ؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ فلهذا قال : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي الذين أشركوا ﴿ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعًا من الموقف بلا حساب ، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فيشرف عنق منها على الخلائق ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلَّا جثا لركبتيه ، فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد ، الذي جعل مع الله إلها آخر ، وبكذا وبكذا وتذكر أصنافًا من الناس كما جاء في الحديث (٢) ، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب ، قال الله تعالى ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ

(١) انظر تفسير الطبري (٢٠٤/١٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٦/٢) والترمذي في السنن (٢٥٧٤) .

فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال : ﴿ وإذا رءا الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ أي قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ، كما قال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله ءالهة ليكونوا لهم عزا ۞ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ .

وقوله : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ قال قتادة وعكرمة : ذلوا واستسلموا يومئذ ، أي استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع . وكقوله : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ وقوله : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير . ثم قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا ﴾ الآية ، أي عذابًا على كفرهم ، وعذابًا على صدّهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى ﴿ وهم ينهون عنه وينئون عنه ﴾ أي ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضًا ، وعن عبد الله في قول الله : ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ قال : زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال . وعن ابن عبّاس في الآية أنه قال : هي خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل وببعضها في النهار .

﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمّدًا ﷺ ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ يعني أمتك ، أي اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فقال له رسول الله ﷺ : « حسبك » فقال ابن مسعود ﷺ : فالتفت فإذا عيناه تذرفان [١] . وقوله : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ قال ابن مسعود : قد بيّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء ، وقال مجاهد : كل حلال وكل حرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل ، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي ، وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ وقال الأوزاعي ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ أي بالسنة ، ووجه اقتران قوله ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ مع قوله ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ أن المراد والله أعلم أن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك اليوم وقال تعالى : ﴿ إن الذي فرض عليك القرءان لرادك إلى معاد ﴾ أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة ، وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال وهو متجه

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٢) .

حسن .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وقال ابن عباس : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ : شهادة أن لا إله إلّا اللّه ، وقال سفيان بن عيينة : العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل للّه عملًا ، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته . وقوله : ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام وقوله : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ فالفواحش المحرمات ، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ، ولهذا قال في الموضع الآخر : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وأما البغي فهو العدوان على الناس ، وقد جاء في الحديث : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللّهُ عُقُوبَتَهُ في الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ في الآخِرَةِ مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ »(١) وقوله : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أي بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وعن ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ الآية ، وقال سعيد بن قتادة : قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ الآية ، ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلّا أمر اللّه به ، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلّا نهى اللّه عنه وقدم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها قلت ولهذا جاء في الحديث : « إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا »(٢) .

وعن عبد اللّه بن عباس قال : بينما رسول اللّه ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون ، فكشر إلى رسول اللّه ﷺ فقال له رسول اللّه ﷺ : « أَلاَ تَجْلِسُ » فقال : بلى ، قال : فجلس رسول اللّه ﷺ مستقبله ، فبينما هو يحدِّثه إذ شخص رسول اللّه ﷺ ببصره إلى السماء ، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض ، فتحرف رسول اللّه ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره ، فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له وابن مظعون ينظر ، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول اللّه ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة ، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء ، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى ، فقال : يا محمّد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة فقال : « وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ ؟ » قال رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئًا يقال لك ، قال : « وَفَطِنْتَ لِذَلِكَ ؟ » فقال عثمان : نعم ، قال : رسول اللّه ﷺ : « أَتَانِي رَسُولُ اللّهِ آنِفًا وَأَنْتَ جَالِسٌ » قال : رسول اللّه ؟ قال : « نَعَم » قال : فما قال لك ؟ قال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٦) وابن ماجه في السنن (٤٢١١) .
(٢) ذكره الألباني في الصحيحة (١٦٢٧) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية ، قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي أحببت محمدًا ﷺ [١]

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

هذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدات ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ الآية ، وبين قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ أي لا تتركوها بلا كفارة ، وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا - وفي رواية - وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي » [٢] لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة هاهنا ، وهي قوله : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يعني الحلف ، أي حلف الجاهلية . ويؤيده ما رواه جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُهُ الإِسْلاَمُ إِلَّا شِدَّةً » [٣] . ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه . وأما ما ورد عن أنس ﷺ أنه قال : حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا [٤] فمعناه أنه آخى بينهم ، فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله أعلم .

وعن بريدة في قوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ قال : نزلت في بيعة النبيّ ﷺ ، كان من أسلم بايع النبيّ ﷺ على الإسلام ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ لا يحملنكم قلة محمّد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام . وعن نافع قال : لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال : أما بعد : فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنٍ ، وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الغَدْرِ - إلا أن يكون الإشراك بالله - أَنْ يُبَايِعَ رَجُلٌ رجُلًا عَلَى بَيْعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَنْكُثُ بَيْعَتَهُ ، فَلاَ يَخْلَعَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَدًا ، وَلاَ يَسْرِفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي هَذَا الأَمْرِ فَيَكُونُ فَصْلٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ » [٥] وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ شَرَطَ لِأَخِيهِ شَرْطًا لاَ يُرِيدُ أَنْ يَفِيَ لَهُ بِهِ ، فَهُوَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٨/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الأيمان (٩) وأحمد في مسنده (٣٩٨/٤) .
(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٨٣/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٤٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٠٥) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨/٢) والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) .

كَالْمُدْلِي جَارَهُ إِلَى غَيْرِ مَنْعَةٍ »(١) . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ قال السدي : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئًا نقضته بعد إبرامه ، وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا . وقوله : ﴿ أَنكَـٰثًا ﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر ، نقضت غزلها أنكاثًا أي أنقاضًا ، ويحتمل أن يكون بدلًا عن خبر كان ، أي لا تكونوا أنكاثًا جمع نكث من ناكث ، ولهذا قال بعده ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ أي خديعة ومكرًا ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم ، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم ، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى ، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه ، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى .

وقد قدمنا ولله الحمد في سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد ، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل ، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون ، فقال له عمرو بن عنبسة : الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ أَجَلٌ فَلاَ يَحُلَّنَّ عُقْدَةً حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا » فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش(٢) . قال ابن عباس : ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي أكثر ، وقال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعزّ ، فنهوا عن ذلك . وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني بالكثرة ، وقال ابن جرير : أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافًا ولا تباغض ولا شحناء ، وقال ههنا ﴿ وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ، على الفتيل والنقير والقطمير . ثم حذّر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلًا أي خديعة ومكرًا ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها ، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله ؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام ، ولهذا قال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٤/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٤ ، ١١٣) والبيهقي في السنن (٢٣١/٩) .

﴿ وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ ﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له ، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده ، ولهذا قال : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ ﴾ أي يفرغ وينقضي ، فإنه إلى أجل محصور مقدر متناه ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ ﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له ، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ، أي ويتجاوز عن سيئها .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا ، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ ، من ذكر أو أنثى من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة ، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت ، وقد روي عن ابن عبّاس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن علي بن أبي طالب ؓ أنه فسرها بالقناعة ، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس : إنها هي السعادة ، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » (١) وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا » (٢) .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيّه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا أمر ندب ليس بواجب ، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة ، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة ، مبسوطة في أول التفسير ولله الحمد والمنة . والمعني في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ، ويخلط عليه ويمنعه من التدبّر والتفكر ، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة ، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة ، واحتجا بهذه الآية ، ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضًا ، ومحمّد بن سيرين وإبراهيم النخعي ، والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة والله أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) والبيهقي في السنن (١٩٦/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٦) وأحمد في مسنده (١٢٣/٣) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ قال الثوري : ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه ، وقال آخرون معناه : لا حجة له عليهم ، وقال آخرون : كقوله ﴿ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ ﴾ قال مجاهد : يطيعونه ، وقال آخرون : اتخذوه وليًا من دون الله ﴿ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ أي أشركوه في عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى ، وقال آخرون : معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد .

﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين ، وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ ﴾ أي كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وقال مجاهد : ﴿ بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ أي ورفعناها وأثبتنا غيرها ، وقال قتادة هو كقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا ﴾ الآية ، فقال تعالى مجيبًا لهم : ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ ﴾ أي جبريل ﴿ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي بالصدق والعدل ﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيصدقوا بما أنزل أولًا ، وثانيًا وتخبت له قلوبهم ﴿ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ أي وجعله هاديًا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله .

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمّدًا إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي ، كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعًا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه ، فلهذا قال الله تعالى رادًّا عليهم في افترائهم ذلك ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ أي القرآن ، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل . قال محمّد بن إسحاق بن يسار في السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى سبيعة غلام نصراني يقال له جبر عبد لبعض بني الحضرمي فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ (١) . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلم قينًا بمكة وكان اسمه بلعام ، وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ

---

(١) سيرة ابن هشام (٣٩٣/٢) .

عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) . وقال الضحاك بن مزاحم : هو سلمان الفارسي ، وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسلمان إنما أسلم بالمدينة (٢) ، وقال عبيد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتابًا لهما بلسانهما ، فكان النبيّ ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما ، فقال المشركون : يتعلم منهما ، فأنزل الله هذه الآية ، وعن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام وافترى هذه المقالة قبّحه الله .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره ، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله ، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة ، ثم أخبر تعالى أن رسول الله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب ، لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمّد ﷺ كان أصدق الناس وأبرّهم وأكملهم علمًا وعملًا وإيمانًا وإيقانًا ، معروفًا بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم ، بحيث لا يدعى بينهم إلّا بالأمين محمّد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله ﷻ .

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر ، وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه ، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وختم على سمعهم وأبصارهم ، فلا ينتفعون بها ولا أغنت عنهم شيئًا ، فهم غافلون عما يراد بهم ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي لابد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . وأما قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ، ووافق المشركين بلفظه : مكرهًا لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روى العوفي عن ابن عبّاس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذّبه المشركون حتى يكفر بمحمّد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرهًا ، وجاء معتذرًا إلى النبيّ ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وعن أبي عبيدة محمّد بن عمار بن ياسر

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٤) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٧/٥) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٤/١٤) .

قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ ، فقال النبيّ ﷺ : « كَيفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قال : مطمئنًا بالإيمان ، قال النبيّ ﷺ : « إِنْ عَادُوا فَعُدْ » ، وفيه أنه سبَّ النبيّ ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول اللَّه ما تُرِكتُ حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير قال : « كَيفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قال : مطمئنًا بالإيمان ، فقال : « إِنْ عَادُوا فَعُد »[(١)] وفي ذلك أنزل اللَّه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءً لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال ﷺ يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك باللَّه فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : واللَّه لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها ، ﷺ وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمّدًا رسول اللَّه ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول اللَّه ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إربًا إربًا وهو ثابت على ذلك . وعن عكرمة أن عليًا ﷺ حرق ناسًا ارتدوا عن الإسلام ، فبلغ ذلك ابن عبّاس فقال : لم أكن لأحرقهم بالنار ، إن رسول اللَّه ﷺ قال : « لا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّه » وكنت قاتلهم بقول رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ » فبلغ ذلك عليًّا فقال : ويح أم ابن عبّاس[(٢)]

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله ، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد اللَّه بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي ، فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمّد ﷺ طرفة عين ما فعلت ، فقال : إذًا أقتلك ، فقال : أنت وذاك ، فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموا قريبًا من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر - وفي رواية ببقرة من نحاس - فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين ، فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها فرُفِعَ في البكرة ليلقى فيها فبكى ، فطمع فيه ودعاه ، فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في اللَّه ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في اللَّه ، وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أيامًا ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك بي ، فقال له الملك : فقبل رأسي ، وأنا أطلقك ، فقال : وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ قال : نعم ، فقبّل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب ﷺ : حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد اللَّه بن حذافة وأنا أبدأ ، فقام فقبّل رأسه ﷺ .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٠٨/٨) والحاكم في المستدرك (٣٥٧/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٧) وأحمد في مسنده (٢١٧/١) والبيهقي في السنن (٧١/٩) .

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان اللّٰه وغفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا ، فأخبر تعالى أنه من بعدها - أي تلك الفعلة ، وهي الإجابة إلى الفتنة - لغفور بهم رحيم بهم يوم معادهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ ﴾ أي تحاج ﴿ عَن نَّفْسِهَا ﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي من خير وشر ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ، ولا يزاد على ثواب الشر ، ولا يظلمون نقيرًا .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ .

هذا مَثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمنًا لا يخاف كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أي هنيئًا سهلًا ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ أي جحدت آلاء اللّٰه عليها وأعظمها بعثة محمّد ﷺ إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ ولهذا بدلهم اللّٰه بحاليهم الأولين خلافهما فقال : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليها ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ، وذلك أنهم استعصوا على رسول اللّٰه ﷺ وأبو خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم (١) ، فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه . وقوله : ﴿ وَالْخَوْفِ ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفًا من رسول اللّٰه ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها اللّٰه على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه اللّٰه فيهم منهم ، وامتن به عليهم في قوله ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية ، وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدل اللّٰه المؤمنين من بعد خوفهم أمنًا ، ورزقهم بعد العيلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عبّاس .

وعن سليم بن نمير يقول : صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبيّ ﷺ وعثمان ﷺ محصور بالمدينة ، فكانت تسأل عنه ما فعل ؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما ، فقالا : قتل ، فقالت حفصة : والذي نفسي بيده إنها القرية - تعني المدينة - التي قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤٣/١٤) .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب ، وبشكره على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أي ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي احتاج من غير بغي ولا عدوان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته ولله الحمد ، ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وغير ذلك مما كان شرعًا لهم ابتدعوه في جاهليتهم فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي ، أو حلل شيئًا مما حرم الله ، أو حرم شيئًا مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه ، وما في قوله ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ مصدرية ، أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم ، ثم توعد على ذلك فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الدنيا فمتاع قليل ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به ، وإنما أرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى - ذكر ﷻ ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج فقال ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي فاستحقوا ذلك ؛ ثم أخبر تعالى تكرمًا وامتنانًا في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي ، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا

كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فأما الأمة : فهو الإمام الذي يقتدى به والقانت : هو الخاشع المطيع ، والحنيف : المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وعن أبي العبيدين أنه سأل عبد اللَّه بن مسعود عن الأمة القانت فقال : الأمة معلم الخير ، والقانت المطيع للَّه ورسوله ، وعن مالك قال : قال ابن عمر : الأمة الذي يعلِّم الناس دينهم ، وعن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد اللَّه فقال : من نسأل إذا لم نسألك ؟ فكأن ابن مسعود رق له فقال : أخبرني عن الأمة ؟ فقال : الذي يعلِّم الناس الخير ، وعن فروة بن نوفل الأشجعي قال : قال ابن مسعود إن معاذًا كان أمة قانتًا للَّه حنيفًا ، فقلت في نفسي غلط أبو عبد الرَّحمن وقال : إنما قال اللَّه ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ فقال : تدري ما الأمة وما القانت ؟ قلت : اللَّه أعلم ، فقال : الأمة الذي يعلِّم الخير ،والقانت المطيع للَّه ورسوله ، وكذلك كان معاذ ، وقال مجاهد : أمة أي أمة وحده ، والقانت : المطيع ، وقال مجاهد أيضًا كان إبراهيم أمة أي مؤمنًا وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار ، وقال قتادة : كان إمام هدى والقانت : المطيع للَّه . وقوله : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أي قائمًا بشكر نعم اللَّه عليه . وقوله : ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ أي اختاره واصطفاه ثم قال : ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو عبادة اللَّه وحده لا شريك له على شرع مرضي . وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي لسان صدق . وقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ثم قال تعالى منكرًا على اليهود :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

لا شك أن اللَّه تعالى شرع في كل ملة يومًا من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل اللَّه فيه الخليقة ، واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده ، ويقال : إن اللَّه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى ، فعدلوا عنه واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئًا من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة ، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمّد ﷺ إذا بعثه ، وأخذ مواثيقهم وعهودهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ قال مجاهد : اتبعوه وتركوا الجمعة ، ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث اللَّه عيسى ابن مريم ، فيقال : إنه حولهم إلى يوم الأحد ، ويقال : إنه لم يترك شريعة التوراة إلّا ما نسخ من بعض أحكامها ، وإنه لم يزل محافظًا على السبت حتى رفع ، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود ، وتحولوا إلى الصلاة شرقًا عن الصخرة واللَّه أعلم .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، بيْدَ أَنَّهُمْ

أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّه عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّه لَهُ ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبعٌ ، اليَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ »[(١)] ، وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا : قال رسول اللَّه : « أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ ، فَجَعَلَ الجُمُعَةَ والسَّبْتَ والأَحَدَ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القِيَامَةِ ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَالمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ »[(٢)] .

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله محمّدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى اللَّه بالحكمة . قال ابن جرير : وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنّة والموعظة الحسنة ، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكرهم بها ليحذروا بأس اللَّه تعالى ، وقوله : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ الآية ، أي قد علم الشقي منهم والسعيد .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ .

يأمر تعالى بالعدل في القصاص ، والمماثلة في استيفاء الحق ، فعن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى ﴿ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ إن أخذ منكم رجل شيئًا فخذوا مثله ، وقال ابن زيد : كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين ، فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا : يا رسول اللَّه لو أذن اللَّه لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب ، فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك الجهاد .

وقال الشعبي وابن جريج : نزلت في قول المسلمين يوم أُحد فيمن مثَّل بهم لنمثّلن بهم ، فأنزل اللَّه فيهم ذلك ، وعن أُبيّ بن كعب قال : لما كان يوم أُحُد قتل من الأنصار ستون رجلًا ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول اللَّه ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : إن رسول اللَّه ﷺ قد أمَّن الأسود والأبيض إلَّا فلانًا وفلانًا - ناسًا سماهم - فأنزل اللَّه تبارك وتعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ إلى آخر السورة ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « نَصْبِرُ وَلَا نُعَاقِبُ »[(٣)] وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن ، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل ، كما في قوله : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ . وقال في هذه الآية : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ تأكيد للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلَّا

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٦) ومسلم في الجمعة (١٩) وأحمد في مسنده (٢/٢٤٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٣٥) .

بمشيئة الله وإعانته وحوله وقوّته ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أي غم ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه ، وهذه معية خاصة كقوله لموسى وهارون : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وقول النبيّ ﷺ للصدّيق وهما في الغار : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّه مَعَنَا » [1] وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ومعنى ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ أي تركوا المحرمات ﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم .

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٥) ومسلم في الزهد (٧٥) .

سورة الإسراء

عن ابن مسعود ﷺ قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادي [(١)] . وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر [(٢)] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

يمجد تعالى نفسه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ﴿ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ لَيْلًا ﴾ أي في جنح الليل ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم ؛ ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في دارهم فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ أي محمدًا ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ أي العظام ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، البصير بهم فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

عن أنس بن مالك يقول : ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة : إنه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة ، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه . وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيمانًا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا . فضرب بابًا من أبوابها فناداه أهل السماء : من هذا ؟ فقال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : معي محمد ، قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : فمرحبًا به وأهلًا ، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله في الأرض حتى يعلمهم ، فوجد في السماء آدم فقال له جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، وردّ عليه آدم فقال : مرحبًا وأهلًا بابني ، نعم الابن أنت ، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : « مَا هَذَانِ النَّهْرَانِ يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : هذان النيل والفرات عنصرهما ، ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال : « مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك . ثم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٦) .

عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى : من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحبًا به وأهلًا . ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فقالوا له ما قالت الأولى والثانية ، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك ، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى ، فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع علي أحدًا ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ﷻ حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحي خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : « عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِيْنَ صَلَاة كُلَّ يَوْم وَلَيْلَةٍ » قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه : « يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا فَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تَسْتَطِيعُ هَذَا » فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَ صَلَوَاتٍ ، ثُمَّ رَجِعَ إِلَى مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَرُدُّهُ مُوسَى إِلَى رَبِّه حَتَّى صَارَتْ إِلَى خَمْسِ صَلَوَات ، ثُمَّ احْتَبَسَهُ مُوسى عِنْدَ الخَمْسِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ، ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال : « يَا رَبِّ إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ ؛ فَخَفِّفْ عَنَّا » فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد ، قال : « لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ » قال : إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب ، فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك . فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : « خَفَّفَ عَنَّا ، أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا » قال موسى : قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضًا ، قال رسول الله ﷺ : « يَا مُوسَى ! قَدْ واللهِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي ﷻ مِمَّا أَخْتَلِفُ إِلَيْهِ » قال : فاهبط باسم الله . قال : واستيقظ وهو في المسجد الحرام [1] .

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ، ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء : افتح ، قال : من هذا ؟ قال : جبريل ، قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معي محمد ﷺ فقال :

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥١٧) .

أرسل إليه ؟ قال : نعم ، فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح – قال : قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : « هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى . ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها : افتح ، فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ففتح » قال أنس : فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ، ولم يثبت كيف منازلهم ، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة ، قال أنس : فلما مر جبريل والنبي ﷺ بإدريس قال : مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : إدريس . ثم مر بموسى فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى . ثم مررت بعيسى فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا عيسى . ثم مررت بإبراهيم فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا إبراهيم – قال الزهري : فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان قال النبي ﷺ : « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » قال أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « ففرض الله على أمتي خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام » فقال : ما فرض الله على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة ؛ قال : موسى فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فرجعت فوضع شطرها ، فرجعت إلى موسى قلت : وضع شطرها ، فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فرجعت فوضع شطرها ، فرجعت إليه فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعته فقال : هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي ، فرجعت إلى موسى فقال : ارجع إلى ربك ، قلت : قد استحييت من ربي ، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » (١) .

وعن أم هانئ ، قالت : بات رسول الله ﷺ ليلة أسري به في بيتي ففقدته من الليل فامتنع مني النوم ؛ مخافة أن يكون عرض له بعض قريش ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَانِي فَأَخَذَ بِيَدِي فَأَخْرَجَنِي ، فَإِذَا عَلَى الْبَابِ دَابَّةٌ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ ، فَحَمَلَنِي عَلَيْهَا ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَأَرَانِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام يُشْبِهُ خَلْقُهُ خَلْقِي وَيُشْبِهُ خُلُقِي خُلُقَهُ ، وَأَرَانِي مُوسَى آدَمَ طَوِيلًا سَبْطَ الشَّعَرِ شَبَّهْتُهُ بِرِجَالِ أَزْدِ شَنُوءَةَ ، وَأَرَانِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَبْعَةً أَبْيَضَ يُضْرَبُ إِلَى الْحُمْرَةِ بِعُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ ، وَأَرَانِي الدَّجَّالَ مَمْسُوخَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى شَبَّهْتُهُ بِقَطَنِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى » قَالَ : « وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأُخْبِرَهُمْ بِمَا رَأَيْتُ » . فأخذت بثوبه فقلت : إني أذكرك الله إنك تأتي قومك يكذبونك ، وينكرون مقالتك فأخاف أن يسطوا بك ، قالت : فضرب

(١) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٣٤٩) ورواه من طريق آخر في (أحاديث الأنبياء) (٣٣٤٢) وأخرجه مسلم في الإيمان (٢٦٣) .

ثوبه من يدي ، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس ، فأخبرهم ما أخبرني ، فقام جبير بن مطعم فقال : يا محمد ، أن لو كنت لك شأن كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا . فقال رجل من القوم : يا محمد هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا ؟ قال : « نَعَمْ واللَّهِ ؛ قَدْ وَجَدْتُهُمْ قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ فَهُمْ فِي طَلَبِه » . قال : هل مررت بإبل لبني فلان ؟ قال : « نَعَمْ وَجَدْتُهُمْ فِي مَكَانِ كَذَا وكذا وَقَدْ انْكَسَرَتْ لَهُمْ نَاقَةٌ حَمْرَاءُ ، وَعِنْدَهُمْ قَصْعَةُ مَاءٍ فَشَرِبْتُ مَا فِيهَا » . قالوا : فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة قال : « قَدْ كُنْتُ عَنْ عِدَّتِها مَشْغُولًا » . فقام فأوتي بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة ثم أتى قريشًا فقال لهم : « سَأَلْتُموني عَنْ إِبِلِ بَنِي فُلَانٍ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا ، وَفِيهَا مِنَ الرُّعَاةِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، وسَأَلْتُمُونِي عَنْ إِبِلِ بَنِي فُلَانٍ فَهِيَ كَذَا وكذَا ، وَفِيهَا مِنَ الرُّعَاةِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَفُلانٌ وفُلانٌ ، وَهِيَ تُصبحُكُمْ بِالغَدَاةِ عَلَى الثَّنِيَّةِ » . قال : فقعدوا على الثنية ينظرون أَصَدَقَهُم ما قال ، فاستقبلوا الإبل فسألوهم هل ضل لكم بعير ؟ فقالوا : نعم ، فسألوا الآخر هل انكسرت لكم ناقة حمراء ؟ قالوا : نعم قالوا : فهل كانت عندكم قصعة ؟ قال أبو بكر : أنا واللَّه وضعتها فما شربها أحد ولا أهراقوه في الأرض فصدقه أبو بكر وآمن به فسمي يومئذ الصديق (١) .

فصل : وإذا حصل الوقوف على مجموع الأحاديث الواردة في الإسراء والمعراج صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة .

قال الزهري : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة . وقد أسري به يقظة لا منامًا من مكة إلى بيت المقدس راكبًا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتي بالمعراج – وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها – فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السماوات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى في السادسة وإبراهيم في السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، أي أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى ، وغشيها من أمر اللَّه تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفًا أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسندًا ظهره إليه ؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ورأى الجنة والنار ، وفرض اللَّه عليه هنالك الصلوات خمسين ، ثم خففها إلى خمس ؛ رحمةً منه ولطفًا بعباده . ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة . ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه وروحه ؟ أو بروحه فقط ؟

---

(١) أورده السيوطي في الدر (١٤٨/٤) والهندي في كنز العمال (٣٨٥١) .

على قولين : فالأكثرون على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا منامًا ، ولا ينكرون أن يكون رأى قبل ذلك منامًا ثم رآه بعده يقظة ؛ لأنه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء ، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم ، وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم (١) . وقال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ والبصر من آلات الذات لا الروح ؛ وأيضًا فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان ، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح ؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه ، والله أعلم .

فائدة حسنة : روى الأصبهاني في دلائل النبوة عن محمد بن كعب القرظي قال : بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر ، فذكر وروده عليه وقدومه إليه ، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ، ثم استدعى من بالشام من التجار ، فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه ، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم (٢) - كما سيأتي بيانه - وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده . قال في هذا السياق عن أبي سفيان : والله ما منعني من أن أقول عليه قولًا أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ ولا يصدقني في شيء - قال - : حتى ذكرت قوله ليلة أسري به - قال : فقلت : أيها الملك ألا أخبرك خبرًا تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ - قال : قلت : إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ، ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح - قال : - وبطريق إيلياء عند رأس قيصر فقال بطريق إيلياء : قد علمت تلك الليلة - قال : - فنظر إليه قيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه بعمالي ، ومن يحضرني كلهم معالجة فغلبنا ، فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلًا ، فدعوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح ، فننظر من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما ، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة ، قال : فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلى الليلة في مسجدنا وذكر تمام الحديث .

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۞ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله ، وكليمه أيضًا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٦) .

(٢) انظر البخاري في بدء الوحي (٧) ومسلم في الجهاد (٧٤) .

فإنه تعالى كثيرًا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن ، ولهذا قال : بعد ذكر الإسراء ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني التوراة ، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي الكتاب ، ﴿ هُدًى ﴾ أي هاديًا ﴿ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ ﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ أي وليًا ولا نصيرًا ولا معبودًا دوني ؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له ، ثم قال : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ تقديره : يا ذرية من حملنا مع نوح ، فيه تهييج وتنبيه على المنة ، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح ، في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمدًا ﷺ ، وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحًا عليه السلام ، كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله ؛ فلهذا سمي عبدًا شكورًا .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها » (١) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » - بطوله ، وفيه - « فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ، إِنَّكَ أَنتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ » (٢) . وذكر الحديث بكماله .

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى : أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ، أي أخبرهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ، يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي سلطنا عليكم جندًا من خلقنا أولي قوة وعدة وسلطنة شديدة ﴿ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم ، أي بينها ووسطها ، وانصرفوا ذاهبين وجائين ، لا يخافون أحدًا ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزري وجنوده سلط عليه أولًا ، ثم أديلوا عليه بعد ذلك . وقتل داود جالوت ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ ﴾ .

وعن سعيد بن جبير : أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده ، وعنه أيضًا وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل ، وقد روي عن سعيد بن المسيب قال : ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم ، ثم أتى دمشق فوجد بها دمًا يغلي على كبا فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا : أدركنا آباءنا على هذا ، وكلما

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٩) والإمام أحمد في مسنده (٣/١٠٠ ، ١١٧) والترمذي في السنن (١٨١٦) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠) .

ظهر عليه الكبا ظهر ، قال : فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم فسكن (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي فعليها . وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي إذا أفسدتم الكرّة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أي يقهروكم . ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أي بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أي يخربوا ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ أي فيصرفهم عنكم ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال ، ﴿ حَصِيرًا ﴾ أي مستقرًا ومحصرًا وسجنًا لا محيد لهم عنه .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

يمدح تعالى كتابه العزيز - وهو القرآن - بأنه يهدي لأقوم الطرق ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ به ﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ على مقتضاه ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أي يوم القيامة ، ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ ، أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر ؛ أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، وفي الحديث : « لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ أَنْ تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةَ إِجَابَةٍ يَسْتَجِيبُ فِيهَا » (٢) .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ .

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام ، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام ، والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات ، والمعاملات ، والإجارات وغير ذلك ، ولهذا قال : ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ ، فإنه لو كان الزمان كله نسقًا واحدًا ، وأسلوبًا متساويًا لما عرف شيء من ذلك . قال ابن جريج : عن عبد الله بن كثير في قوله : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ قال : ظلمة الليل وسدف النهار . وقال مجاهد : الشمس آية النهار والقمر آية الليل ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ السواد الذي في القمر وكذلك خلقه الله تعالى ، وقال ابن عباس : كان القمر يضيء كما تضيء الشمس ،

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/٣٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤) .

والقمر آية الليل والشمس آية النهار ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ السواد الذي في القمر ، وقد روى ابن جرير أن ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب فقال : يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر ؟ فقال : ويحك أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ فهذه محوه (١) .

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ .

يقول تعالى : بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه أعمال بني آدم ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله ، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه ، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ، ويكتب عليه ليلًا ونهارًا صباحًا ومساءً .

وقوله : ﴿ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيدًا أو بشماله إن كان شقيًا ﴿ مَنشُورًا ﴾ أي مفتوحًا يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ أي إنك تعلم لم تظلم ، ولم يكتب عليك إلا ما عملت لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحدٌ شيئًا مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي . وقوله : ﴿ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ ﴾ إنما ذكر العنق ؛ لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه ، وعن عقبة بن عامر ﷺ عن النبي ﷺ قال : « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه ، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة : يا ربنا عبدك فلان قد حبسته ، فيقول الرب ﷻ : اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت » (٢) وقال قتادة : ﴿ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ ﴾ قال : عمله ﴿ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ قال : نخرج ذلك العمل ﴿ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ قال معمر : وتلا الحسن البصري ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشورًا ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ ﴾ الآية . فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك . هذا من أحسن الكلام الحسن رحمه الله .

﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ .

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ أي عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجني على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد ، ولا يجني جان إلا على نفسه .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/٦٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٤٦) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ والنَّارُ » فذكر الحديث إلى أن قال : « وَأَمَّا الجَنَّةُ فَلاَ يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا ، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ خَلْقًا فَيُلْقَوْنَ فِيهَا فَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ » ثَلاثًا (١) فهذا إنما جاء في الجنة ؛ لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه .

بقي هاهنا مسألة قد اختلف الأئمة فيها قديمًا وحديثًا ، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار ، وآباؤهم كفار ، ماذا حكمهم ، وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته ، وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه ، ثم نذكر فصلًا ملخصًا من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان .

عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال : « أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَومَ القِيَامَةِ : رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا ، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ ، ورَجُلٌ هَرِمٌ ، ورَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ ، فَأَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ : رَبِّ قَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا ، وَأَمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ : رَبِّ قَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ والصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بالبَعَرِ ، وَأَمَّا الهَرِمُ فَيَقُولُ : رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا ، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الفَتْرَةِ فَيَقُولُ : رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ . فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وسَلَامًا » (٢)

وعن البراء بن عازب ﷺ قال : سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ » وسئل عن أولاد المشركين ، فقال : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ » فقيل : يا رسول الله ما يعملون ، قال : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمْ » (٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بهيمةً جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فيها مِنْ جَدْعَاءَ » (٤) . وفي رواية قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيرًا ، قال : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » (٥) .

وعن خنساء بنت معاوية ، عن بني صريم ، قالت : حدثني عمي قال : قلت : يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : « النَّبِيُّ فِي الجَنَّةِ ، وَالشَّهِيدُ فِي الجَنَّةِ ، وَالمَوْلُودُ فِي الجَنَّةِ ، وَالوَئِيدُ فِي الجَنَّةِ » (٦) .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٩) والإمام أحمد في مسنده (٥٠٧/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤/٤) وأورده السيوطي في الدر (١٦٨/٤) والهندي في كنز العمال (٣٨٩٨٠) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٤/٦) والطبراني في الكبير (١٠٣/٨) .
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٢-٢٥) وأبو داود في سننه (٤٧١٤ ، ٤٧١٦) .
(٥) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٤) ومسلم في القدر (٢٣) والترمذي في السنن (٢١٣٨) وأبو داود في السنن (٤٧١١) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥٨/٥ ، ٤٠٩) وأبو داود في سننه (٢٥٢١) .

فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام ، قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولداه فقال له جبريل : هذا إبراهيم ﷺ ، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا : يا رسول اللّٰه وأولاد المشركين ؟ قال : « نَعَمْ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ » . ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله ﷺ : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ » . ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات ، فمن أطاع دخل الجنة ، وانكشف علم اللّٰه فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخرًا ، وانكشف علم اللّٰه فيه بسابق الشقاوة . وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها . وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض . وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن البر النمري بعدما تقدم من أحاديث الامتحان ثم قال : وأحاديث هذا الباب ليست قوية ، ولا تقوم بها حجة ، وأهل العلم ينكرونها ؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء ، فكيف يكلفون دخول النار ، وليس ذلك في وسع المخلوقين واللّٰه لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

والجواب عما قال : أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء ، ومنها ما هو حسن ، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح ، والحسن ، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله : إن الدار الآخرة دار جزاء ، فلا شك أنها دار جزاء ، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار ، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري ، عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال وقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ الآية ، وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجدون للّٰه يوم القيامة . وأن المنافق لا يستطيع ذلك ، ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقًا واحدًا كلما أراد السجود خر لقفاه ، وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجًا منها ، أن اللّٰه يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه ، ويتكرر ذلك مرارًا ويقول اللّٰه تعالى : يا ابن آدم ما أغدرك ، ثم يأذن له في دخول الجنة [(١)] . وأما قوله : فكيف يكلفهم اللّٰه دخول النار ، وليس ذلك في وسعهم ، فليس هذا بمانع من صحة الحديث ، فإن اللّٰه يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط ، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة ، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم ، كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل ، والركاب ومنهم الساعي ، ومنهم الماشي ، ومنهم من يحبو حبوًا ، ومنهم المكدوش على وجهه في النار . وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم . وأيضًا فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه ، أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار ؛ فإنه يكون عليه بردًا وسلامًا ، فهذا نظير ذاك ، وأيضًا فإن اللّٰه تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم ، فقتل بعضهم بعضًا حتى قتلوا ، فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفًا يقتل الرجل أباه وأخاه ، وهم في عماية غمامة أرسلها اللّٰه عليهم ، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل . وهذا أيضًا شاق على

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧٣) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) .

النفوس جدًّا لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور ، والله أعلم .

فصل : إذا تقرر هذا فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال :

أحدها : أنهم في الجنة ، واحتجوا بحديث سمرة أنه ﷺ رأى مع إبراهيم ﷺ أولاد المسلمين وأولاد المشركين . وأيضًا بما تقدم عن خنساء عن عمها . وهذا استدلال صحيح ولكن أحاديث الامتحان أخص منه ، فمن علم الله منه أن يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم ، وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجيب فأمره إلى الله تعالى ، ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ، ونقله الأشعري عن أهل السنة ، ثم إن هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة منهم من يجعلهم مستقلين فيها ، ومنهم من يجعلهم خدمًا لهم .

والقول الثاني : أنهم مع آبائهم في النار ، واستدل عليه بحديث عبد الله بن أبي قيس مولى غطيف : أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت : قال رسول الله ﷺ : « هُمْ تَبَعٌ لآبَائِهِمْ » فقلت : يا رسول الله بلا أعمال ؟ فقال : « اللَّه أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » (١) .

القول الثالث : التوقف فيهم ، واعتمدوا على قوله ﷺ : « اللَّه أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف ، وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة ؛ لأن الأعراف ليس دار قرار ومآل أهلها إلى الجنة . كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف ، والله أعلم .

فصل : وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء ؛ فعن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة ، وهذا هو المشهور بين الناس ، وهو الذي نقطع به إن شاء الله ﷻ فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن بعض العلماء أنهم توقفوا في ذلك ، وأن الولدان كلهم تحت المشيئة ، قال أبو عمر : ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث ، منهم : حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم . وقالوا : وهو يشبه ما رسم مالك في موطئه في أبواب القدر ، وما أورده من الأحاديث في ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه ، وليس عن مالك فيه شيء منصوص إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة ، وأطفال المشركين خاصة في المشيئة انتهى كلامه ، وهو غريب جدًّا ، وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب التذكرة نحو ذلك ، وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة قالت : دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال : « أو غير ذلكَ يا عائشَةَ ؟ إن اللَّه خلقَ الجنةَ وخلقَ لهَا أهلًا وهم في أصلابِ آبائِهم ، وخلقَ النارَ وخلقَ لها أهلًا وهمْ في أصلابِ آبائِهم » (٢) .

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة ، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧١٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١/٦) وأبو داود في السنن (٢٢٩/٤) .

الشارع ، كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روي ذلك عن ابن عبّاس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد ابن الحنفية وغيرهم .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ .

اختلف القراء في قراءة قوله : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ فالمشهور قراءة التخفيف ، واختلف المفسرون في معناها ، فقيل : معناه أمرنا مترفيها أمرًا قدريًا ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ، قالوا : معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب ، وقيل معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش ، وقال ابن جرير : يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء .

قلت : إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ (أمَّرنا مترفيها) (١) قال ابن عباس في قوله : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ : يقول : سلطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم اللَّه بالعذاب . وهو قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ الآية . وقال ابن عباس : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ يقول : أكثرنا عددهم . وعن الزهري ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أكثرنا ، وقد استشهد بعضهم بحديث : « خَيْرُ مَالِ امْرِئٍ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ » (٢) قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الغريب : المأمورة كثيرة النسل ، والسكة الطريقة المصطفة من النخل ، والمأبورة من التأبير .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى منذرًا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ : بأنه قد أهلك أممًا من المكذبين للرسل من بعد نوح ، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على اللَّه منهم ، وقد كذبتم أشرف الرسل ، وأكرم الخلائق ، فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية سُبْحَانَهُ .

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له ، بل إنما يحصل لمن أراد اللَّه ، وما يشاء ، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات ، فإنه قال : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾ . أي في الدار الآخرة ﴿ يَصْلَىٰهَا ﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه . ﴿ مَذْمُومًا ﴾ أي في حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه ؛ إذ اختار الفاني على الباقي . ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مبعدًا مقصيًا حقيرًا ذليلًا مهانًا ، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لاَ دَارَ لَهُ ، وَمَالُ مَنْ لاَ مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ » (٣) . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ

---

(١) قرأ يعقوب ﴿ أمرنا ﴾ بمد الهمزة ، والباقون بقصرها (تقريب النشر في القراءات العشر ص : ١٣٣) .

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٨/٣) والبيهقي في السنن (٦٤/١٠) والطبراني في الكبير (١٠٧/٧) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧١/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٨/١٠) والهندي في كنز العمال (٦٠٨٦) .

﴿ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي قلبه مؤمن أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ .

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ كُلًّا ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا ، والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه ﴿ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور ، فيعطي كلاًّ ما يستحقه من السعادة والشقاوة ، فلا راد لحكمه ، ولا مانع لما أعطى ، ولا مغيِّر لما أراد ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أي لا يمنعه أحد ولا يرده راد .

ثم قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي في الدنيا ، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك ، والحسن ، والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيرًا ، ومن يعمر حتى يبقى شيخًا كبيرًا ، وبين ذلك ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا ، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم ، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون ، فإن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، وفي الحديث « إنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى لَيَرونَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ ، كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ في أُفُقِ السَّمَاءِ » (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ . عن سلمان مرفوعًا « ما مِنْ عَبْدٍ يُرِيدُ أَنْ يَرْتَفِعَ فِي الدُّنْيَا دَرَجَةً فَارْتَفَعَ إِلَّا وَضَعَهُ اللَّهُ فِي الآخِرَةِ مِنْهَا » . ثم قرأ : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (٢) .

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ .

يقول تعالى : والمراد المكلفون من الأمة لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا . ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ أي على إشراكك به ﴿ مَّخْذُولًا ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك ، بل يكلك إلى الذي عبدت معه ، وهو لا يملك لك ضرًا ولا نفعًا ؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا باللَّه أَرْسَلَ اللَّه لَهُ بِالغِنَى إِمَّا آجِلًا وَإِمَّا غِنَى عَاجِلًا » (٣) .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له ، فإن القضاء هاهنا بمعنى الأمر ، قال مجاهد : ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ يعني وصى ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٣ ، ٢٧ ، ٩٣ ، ٩٨) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٩٤/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٩/٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) وأبو داود في السنن (١٦٤٥) والبيهقي في السنن (١٩٦/٤) .

إِحْسَٰنًا ﴾ أي وأمر بالوالدين إحسانًا . وقوله : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي لا تسمعهما قولًا سيئًا حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي لينًا طيبًا حسنًا بتأدب وتوقير وتعظيم ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أي تواضع لهما بفعلك ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ أي في كبرهما ، وعند وفاتهما ، قال ابن عباس : ثم أنزل اللّه ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية . وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها : عن أنس ، وغيره أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال : « آمين آمين آمين » قيل : يا رسول اللّه علام ما أمنت ؟ قال : « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فلمْ يصلِّ عليْكَ ، قُلْ : آمين ، فقلتُ : آمين ، ثم قالَ : رَغِمَ أنفُ رجلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، قُلْ : آمين ، فَقُلْتُ : آمين ، ثُمَّ قَالَ : رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلاهُ الجَنَّةَ ، قُلْ : آمين ، فَقُلْتُ : آمين » [١] .

وعن مالك بن الحارث ، عن رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول : « مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا مِنْ أَبَوَيْنِ مُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ ، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ البَتَّة ، وَمَنْ أَعْتَقَ امرأً مُسْلِمًا ، كَانَ فَكَاكُه مِنَ النَّارِ يُجْزَى بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ » [٢] .

وعن مالك بن عمرو القشيري ، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً فَهِيَ فِدَاؤُهُ مِنَ النَّارِ ، فَإِنَّ كُلَّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ مُحَرَّرَةٌ بِعَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَحَدَ وَالِدَيْهِ ، ثُمَّ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللّه ﷻ ، وَمَنْ ضَمَّ يَتِيمًا مِنْ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يُغْنِيه اللّه وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةَ » [٣] .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ .

قال سعيد بن جبير : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه ، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ، وفي رواية : لا يريد إلا الخير بذلك فقال : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ قال قتادة : للمطيعين أهل الصلاة ، وعن ابن عباس : المسبحين . وفي رواية عنه : المطيعين المحسنين ، وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين ، وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى .

وقال سعيد بن المسيب ، في قوله ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ، ويصيبون الذنب ثم يتوبون . وقال سعيد بن جبير وغيره : هم الراجعون إلى الخير ، وقال عبيد بن عمير : هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر اللّه منها . وعنه قال : كنا نعد الأواب الحفيظ ، أن يقول : اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا . وقال ابن جرير : والأولى في ذلك قول من قال : هو التائب من الذنب ، الرجاع من المعصية إلى الطاعة ، مما يكره اللّه إلى ما يحبه ويرضاه [٤] ، وهذا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٤/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٤/٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١/٣ ، ٣٤٧) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٠/٤ ، ٣٤٤) والطبراني في الكبير (٢٩٩/١٩) .

(٤) انظر تفسير الطبرى (٨٩/١٥ - ٩٢) .

الذي قاله هو الصواب ؛ لأن الأواب مشتق من الأوب ، وهو الرجوع ، يقال : آب فلان إذا رجع .

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ .

لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ، وفي الحديث : « أُمَّكَ وأَبَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطًا ، ثم قال منفرًا عن التبذير والسرف : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي أشباههم في ذلك .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول إني ذو مال كثير ، وذو أهل وولد وحاضرة فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ : « تُخْرِجُ الزَّكَاةُ مِنْ مَالِكَ إِنْ كَانَ فَإِنَّهَا طهرةٌ تُطَهِّرُكَ ، وَتَصِلُ أَقْرِبَاءَكَ ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ ، والجَارِ وَالمِسْكِينِ » فقال : يا رسول الله أقلل لي ؟ قال : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ فقال : حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ إِذَا أَدَّيْتَهَا إِلَى رَسُولِي فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهَا ، وَلَكَ أَجْرُهَا ، وَإِثْمُهَا عَلَى مَنْ بَدَّلَها » (٢) . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي في التبذير والسفه ، وترك طاعة الله ، وارتكاب معصيته ، ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ أي جحودًا ؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ، ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته . وقوله : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ الآية . أي إذا سألك أقاربك ، ومن أمرناك بإعطائهم ، وليس عندك شيء ، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ، ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أي عدهم وعدًا بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش ذامًّا للبخل ناهيًا عن السرف ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي لا تكن بخيلًا منوعًا لا تعطي أحدًا شيئًا ، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله : يد الله مغلولة ، أي نسبوه إلى البخل تعالى ، وتقدس الكريم الوهاب . وقوله : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ وهذا من باب اللف والنشر أي فتقعد إن بخلت ملومًا يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك .

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه . فتكون كالحسير ، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفًا وعجزًا ، فإنها تسمى الحسير ، وهو مأخوذ من الكلال ، وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مَثَلُ البَخِيلِ وَالمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثَدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا المُنْفِقُ : فَلَا يُنْفِقُ إِلاَّ سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخفي بَنَانه وَتَعْفُو

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢) وأحمد في مسنده ٦٥/٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٦/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥١٦/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/٣) .

أَثَرَهُ . وَأَمَّا البَخِيلُ : فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ »[١] .

وعن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « أَنْفِقِي هكذا وهكذا وهكذا ، ولا توعِي فَيوعِي اللَّهُ عليكِ ، وَلاَ تُوكِي فيوكي اللَّه عَلَيْكِ » . وفي لفظ : « وَلاَ تُحْصِي فَيُحْصِي اللَّه عَلَيْكِ »[٢] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « إِنَّ اللَّه قَالَ لِي : أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ »[٣] وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا »[٤] .

وعنه مرفوعًا : « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَمَا زَادَ اللَّه عَبْدًا أَنْفَقَ إِلَّاعِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّه رَفَعَهُ اللَّه »[٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء ، فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ؛ لما له في ذلك من الحكمة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أي خبيرًا بصيرًا بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر قد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجًا ، والفقر عقوبة عياذًا بالله من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الولد بولده ؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته . فنهى الله تعالى عن ذلك وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ . أي خوف أن تفتقروا في ثاني الحال ، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ وفي الأنعام : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ أي من فقر ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أي ذنبًا عظيمًا ، وعن عبد الله بن مسعود ، قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ، قُلْتُ : ثم أَيٌّ ؟ قَالَ : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ »[٦] .

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده عن الزنى وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أي ذنبًا عظيمًا ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي وبئس طريقًا ومسلكًا .

وعن أبي أمامة ، أن فتىً شابًا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا : مه مه فقال : « ادنه » فدنا منه قريبًا ، فقال : « اجلس » فجلس فقال : « أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ ؟ » قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم » قال : « أَفَتُحِبُّهُ

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٣) ومسلم في الزكاة (٧٦ ، ٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩١) ومسلم في الزكاة (٨٨) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٥/٦ ، ٣٤٦) .

(٣) أخرجه الإمام مسلم في الزكاة (٣٧) والإمام أحمد في مسنده (٣١٤/٢) والبيهقي في السنن (١٨٧/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ومسلم في الزكاة (٥٧) والبيهقي في السنن (١٨٧/٤) .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٥/٢) .

(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) ومسلم في الإيمان (١٤١) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٤/١) .

لابنتِكَ ؟ »قال : لا واللَّه يا رسول اللَّه جعلني اللَّه فداك ، قال : «ولاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ »قال : «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟ »قال : لا واللَّه جعلني اللَّه فداك ، قال : «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ »قال : «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ »قال : لا واللَّه جعلني اللَّه فداك ، قال : «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ »قال : «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ »قال : لا واللَّه جعلني اللَّه فداك ، قال : «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ »قال : فوضع يده عليه وقال : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَأَحْصِنْ فَرْجَهُ ». قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء [١]. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : «مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّه مِنْ نُطفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ في رَحِمٍ لاَ يَحِلُّ لَهُ » [٢].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عن قتل النفس بغير حق شرعي . كما ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال : «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إلا اللَّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ : النَّفْسُ بالنفس ، وَالزَّانِي المُحصنُ ، والتَّارِكُ لِدِينِه المُفَارِقُ للجمَاعَةِ » [٣]. وقوله : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا ﴾ أي سلطنة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قودًا ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجانًا . كما ثبتت السنة بذلك . وقد أخذ ابن عباس من عموم هذه الآية ولاية معاوية السلطنة أنه سيملك ؛ لأنه كان ولي عثمان ، وقد قتل عثمان مظلومًا . وكان معاوية يطالب عليًا ﷺ أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم ؛ لأنه أموى ، وكان علي يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك ، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة وأبى أن يبايع عليًا هو وأهل الشام ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه . كما قاله ابن عباس واستنبطه من هذه الآية . وهذا الأمر من العجب .

وقوله : ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ﴾ قالوا : معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل . وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أي إن الولي منصور على القاتل شرعًا وغالبًا قدرًا .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة . وقد جاء أن رسول اللَّه ﷺ قال لأبي ذر : «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيم » [٤]. وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس ، والعقود التي تعاملونهم بها ﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ أي عنه . وقوله :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٦/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٧٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٧/٥) والبيهقي في السنن (١١٨/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨) ومسلم في (القسامة) (٢٥) وأبو داود في السنن (٤٣٥٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٧) وأبو داود في السنن (٢٨٦٨) والبيهقي في السنن (١٢٩/٣) .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أي من غير تطفيف ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ قرئ بضم القاف ، وكسرها كالقرطاس [١] ، وهو الميزان قال مجاهد : هو العدل بالرومية . وقوله : ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ، ولا انحراف ، ولا اضطراب ، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم ، ولهذا قال : ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي مآلًا ومنقلبًا في آخرتكم .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ .

قال ابن عباس : لا تقل ، وقال العوفي : لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم ، وقال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، وفي الحديث : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَب الحَدِيثِ » [٢] وفي الصحيح « مَنْ تَحَلَّمَ حِلْمًا كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِفَاعِلٍ » [٣] . وقوله : ﴿ كُلُّ أُولَٰئِكَ ﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أي سيسأل عنها يوم القيامة ، وتسأل عنه وعما عمل فيها .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده عن التجبر والتبختر في المشية ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي متبخترًا متمايلًا مشي الجبارين ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك .

وقوله : ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ ، أي بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما ثبت في الصحيح « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ يَتَبَخْتَرُ فِيهِمَا إِذْ خسفَ بِهِ الأَرْض ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » [٤] . وكذلك أخبر تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته ، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض . وفي الحديث « مَنْ تَوَاضَعَ للَّه رَفَعَهُ اللَّه ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ ، وَمَن اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ اللَّه فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ ، وَعِنْدَ النَّاسِ حَقِيرٌ ، حَتَّى لَهُوَ أَبْغَضُ إِلَيْهِمْ مِنَ الكَلْبِ والخِنْزِيرِ » [٥] .

ورأى البختري العابد رجلًا من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته ، فقال له : يا هذا ، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته ، قال : فتركها الرجل بعد . ورأى ابن عمر رجلًا يخطر في مشيته ، فقال : إن للشياطين إخوانًا . وقوله : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ وأما من قرأ - سيئه [٦] - أي فاحشة ، فمعناه عنده كل هذا الذي نهيناه عنه من قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ إلى هنا فهو سيئةٌ مؤاخذ عليها مكروهًا عند الله لا يحبه ولا يرضاه ، وأما من قرأ - سيئه - على الإضافة ، فمعناه عنه كل هذا الذي ذكرناه من قوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ إلى هنا فسيئه أي فقبيحه

---

(١) قرأها حمزة والكسائي وخلف وحفص بكسر القاف والباقون بضمها (تقريب النشر ص ١٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في سننه (١٩٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٢) والإمام أحمد في مسنده (٢١٦/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٣٨/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٠/٢) .

(٥) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٥/١٠) والمنذري بنحوه في الترغيب والترهيب (٥٦٠/٣) .

(٦) قرأها الكوفيون وابن عامر بضم الهمزة والهاء وصلتها بواو لفظًا على التذكير ، والباقون بفتح الهمزة وتأنيث منصوبه . تقريب النشر ١٣٤ .

مكروه عند الله .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ .

يقول تعالى : هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة ، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ أي تلومك نفسك ويلومك الله والخلق ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ أي مبعدًا من كان خير ، قال ابن عباس وقتادة : مطرودًا ، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ ؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم .

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى رادًّا على المشركين الكاذبين الزاعمين عليهم لعائن الله أن الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا ، ثم ادعوا أنهم بنات الله ، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيمًا ، فقال تعالى منكرًا عليهم : ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ . أي خصصكم بالذكور ﴿ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات ، ثم شدد الإنكار عليهم ، فقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أي في زعمكم أن لله ولدًا ، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكنَّ لكم ، وربما قتلتموهن بالوأد ، فتلك إذًا قسمة ضيزى .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ .

أي صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي الظالمين منهم ، ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أي عن الحق وبعدًا منه .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكًا من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفًا ، لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة ، فاعبدوه أنتم وحده ، كما يعبده من تدعونه من دونه ، فقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أي تعاليًا كبيرًا ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

يقول تعالى : تقدسه السماوات السبع والأرض ، ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ أي من المخلوقات ، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره ، عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في في ربوبيته وإلهيته .

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ؛ لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام

في الحيوانات والجمادات والنباتات . وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل (١) .

وقال آخرون : إنما يسبح من كان فيه روح ، يعنون من - حيوان ونبات - قال قتادة في قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ قال : كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه .

وعن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ مر بقبرين قال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، ثم قال : « لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسا » (٢) . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء : إنما قال : ما لم ييبسا لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة ، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما ، واللَّه أعلم ، وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أي أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر . كما جاء في الصحيحين « إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِم حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ الآية (٣) .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ﴾ يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن ، جعلنا بينك وبينهم حجابًا مستورًا ، وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، قالت : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ جاءت العوراء أم جميل ، ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول : مذممًا أتينا - أو أبينا - قال أبو موسى : الشك مني - ودينه قلينا ، وأمره عصينا ، ورسول اللَّه ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » . وقرأ قرآنًا اعتصم به منها ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ قال : فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، قال : فانصرفت وهي تقول : لقد علمت قريش أني بنت سيدها (٤) . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ، ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ أي إذا وحدت اللَّه في تلاوتك . وقلت : لا إله إلا اللَّه ﴿ وَلَّوْا۟ ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ ونفور جمع نافر كقعود جمع قاعد ، ويجوز أن يكون مصدرًا من غير الفعل واللَّه أعلم . قال قتادة في قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ الآية . أن المسلمين لما قالوا : لا إله إلا اللَّه أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم ، فضاقها إبليس وجنوده ، فأبى اللَّه إلا أن

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة (٥) والبخاري في المناقب (٣٥٧٩) وأحمد في مسنده ٤٦٠/١ .
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٨) ومسلم في الطهارة (١١١) والترمذي في السنن (٧٠) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر (٦٢) والبيهقي في السنن (٩٤/٦) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٦١/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٤/٧) .

يمضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فلج ، ومن قاتل بها نصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل ، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى نبيه محمدًا ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش ، حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سرًّا من قومهم ، بما قالوا : من أنه رجل مسحور له رئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ، ومنهم من قال : شاعر ، ومنهم من قال : كاهن ، ومنهم من قال : مجنون ، ومنهم من قال : ساحر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ . أي فلا يهتدون إلى الحق ، ولا يجدون إليه مخلصًا ، وحدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بن زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسًا ، يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه (١) .

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد ، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ أي ترابًا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : غبارًا ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي يوم القيامة قد بلينا ، وصرنا عدمًا لا نذكر . فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم ، فقال : ﴿ قُل كُونُوا۟

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٣٧) .

حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ إذ هما أشد امتناعًا من العظام والرفات ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قال ابن عباس : هو الموت . وقال ابن عمر : لو كنتم موتى لأحييتكم ، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء ؛ فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده .

وقال مجاهد : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يعني السماء والأرض والجبال - وفي رواية : ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم . وقوله تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أي من يعيدنا إذا كنا حجارة ، أو حديدًا ، أو خلقًا آخر شديدًا ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي الذي خلقكم ، ولم تكونوا شيئًا مذكورًا ، ثم صرتم بشرًا تنتشرون ، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يحركونها استهزاء .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك . وقوله : ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أي احذروا ذلك ، فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ أي الرب تبارك وتعالى ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي تقولون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته . قال ابن عباس : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي بأمره . وقال قتادة : بمعرفته وطاعته . وقال بعضهم : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي وله الحمد في كل حال . وقد جاء في الحديث : « لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لاَ إله إِلَّا اللَّه وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ ، كَأَنِّي بِأَهْلِ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّه يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُسِهِمْ يَقُولُونَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه » (١) . وفي رواية يقولون : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ وسيأتي في سورة فاطر . وقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ أي يوم تقومون من قبوركم ، ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ .

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ .

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا في محاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك ، نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، ولهذا نهي أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزع في يده أي فربما أصابه بها .

فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار » (٢) .

عن الحسن قال : حدثني رجل من بني سليط ، قال : أتيت النبي ﷺ وهو في رفلة من الناس فسمعته يقول : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى هَهُنَا » (٣) .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ .

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٧٢) ومسلم في (البر والصلة) (١٢٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٥١) ومسلم في (البر) (٣٢) .

يقول تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أي إنما أرسلناك نذيرًا فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار . وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ » (١) . فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية ، لا بمقتضى الدليل فإذا دل على شيء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون نصًّا في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ وفي الشورى في قوله ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ ولا خلاف أن محمدًا ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى عليه السلام على المشهور ، وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ تنبيه على فضله وشرفه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ القُرْآنُ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجَ ، فَكَانَ يَقْرَؤُهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ » (٢) يعني القرآن .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم فإنهم لا ﴿ يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ ﴾ أي بالكلية ، ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أي بأن يحولوه إلى غيركم ، والمعنى : أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، قال ابن عباس في قوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ الآية : كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا ، وهم الذين يدعون يعني في الملائكة والمسيح وعزير .

وعن عبد الله في قوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال : ناس من الجن كانوا يُعْبَدُون فأسلموا (٣) ، وفي رواية قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء يدينهم (٤) . وفي رواية عن ابن مسعود : كانوا يعبدون صنفًا من الملائكة يقال لهم الجن فذكره . وقال ابن عباس : هم عيسى وعزير والشمس والقمر ، وقال مجاهد : عيسى والعزير والملائكة ، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة ، وقال : والوسيلة هي القربة . كما قال قتادة . ولهذا قال : ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف يكف عن المناهي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٤) ومسلم في الفضائل (١٥٩) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٣) والإمام أحمد في مسنده ٣١٤/٢ والبيهقي في السنن (١٢٧/٦) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٥) . (٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٤)

عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ، ويخاف من وقوعه وحصوله عياذًا بالله منه .

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ بأنه قد حتم وقضى ، بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم .

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ .

عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا ، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا ، فقيل له : إن شئت أن نستأني بهم وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم قال : « لا بل استأن بهم » وأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [(١)] ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ أي نبعث الآيات ، ونأتي بها على ما سأل قومك منك ، فإنه سهل علينا يسير لدينا إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها ، وجرت سنتنا فيهم ، وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها . كما قال الله تعالى في المائدة : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ، ناقة تخرج من صخرة عينوها فدعا صالح عليه السلام ربه ، فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا ، فلما ظلموا بها أي كفروا بمن خلقها ، وكذبوا رسوله وعقروها ، فقال : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ أي دالة على وحدانية من خلقها ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها . ﴿ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها ، وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم ، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ . قال قتادة : إن الله تعالى ، يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه ، فقال : يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه . وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات ، فقال عمر : أحدثتم . والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، وَإِنَّهُمَا لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللهَ ﷻ يُخوف بِهِمَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ » - ثم قال - : « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ والله مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أو تزني أَمَتُهُ ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ والله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » [(٢)] .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴾ .

---

(١) أخرجه : أحمد في مسنده ٢٥٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الكسوف (١٠٤٠) ومسلم في الكسوف (١ ، ٣ ، ١٧ ، ٢١) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضًا له على إبلاغ رسالته ، ومخبرًا له بأنه قد عصمه من الناس ، قال مجاهد في قوله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ : أي عصمك منهم . وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به . ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ ، شجرة الزقوم [1] . وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء مجاهد وغيره ، وتقدم أن ناسًا رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق ، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك ، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه . وجعل اللّه ذلك ثباتًا ويقينًا لآخرين ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ أي اختبارًا وامتحانًا . أما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم لما أخبرهم رسول اللّه ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم ، فكذبوا بذلك ، حتى قال أبو جهل عليه لعائن اللّه : هاتوا لنا تمرًا وزبدًا وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا [2] . وكل من قال : إنها ليلة الإسراء فسره كذلك بشجرة الزقوم . واختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء ، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم ، قال : لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك [3] - أي في الرؤيا والشجرة - وقوله : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ أي تماديًا فيما هم فيه من الكفر والضلال وذلك من خذلان اللّه لهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه اللّه لآدم وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارًا عليه واحتقارًا له ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ وقال أيضًا : ﴿ أَرَأَيْتَكَ ﴾ يقول للرب جراءة وكفرًا والرب يحلم وينظر ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ قال ابن عباس : يقول : لأستولين على ذريته إلا قليلًا . وقال مجاهد : لأحتوين ، وقال ابن زيد : لأضلنهم ، وكلها متقاربة ، والمعنى : أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته علي لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلًا منهم .

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ .

لما سأل إبليس النظرة قال اللّه تعالى له : ﴿ اذْهَبْ ﴾ فقد أنظرتك ، ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ أي على أعمالكم ﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ . قال مجاهد : وافرًا ، وقال قتادة : موفورًا عليكم لا ينقص لكم منه . وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قيل : هو الغناء ، وقال ابن عباس : كل داع دعا إلى معصية اللّه ﷻ ، وقوله

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٦) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٧٤) .
(٣) انظر تفسير الطبري (١٥/١٤١) .

تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ، ومعناه : تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، وهذا أمر قدري . وقال ابن عباس : كل راكب وماش في معصية اللّه ، وقال قتادة : إن له خيلًا ورجالًا من الجن والإنس ، وهم الذين يطيعونه ، تقول العرب : أجلب فلان على فلان ، إذا صاح عليه ومنه نهي في المسابقة عن الجلب والجنب ، ومنه اشتقاق الجلبة ، وهي ارتفاع الأصوات ، وقوله تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ قال ابن عباس : هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي اللّه تعالى . وقال عطاء : هو الربا ، وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام ، أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم ، يعني من البحائر والسوائب ونحوها ، وقال ابن جرير ، والأولى أن يقال : إن الآية تعم ذلك كله . وقوله : ﴿ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ قال ابن عباس : أولاد الزّنى ، وقال ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهًا بغير علم . وقال قتادة عن الحسن البصري : قد واللّه شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهوّدوا ونصّروا وصبّغوا غير صبغة الإسلام ، وجزأوا من أموالهم جزءًا للشيطان . وقال ابن عباس : هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان . قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب ، أن يقال : كل مولود ولدته أنثى عصي اللّه فيه بتسميته بما يكرهه اللّه ، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه اللّه ، أو بالزنى بأمه أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي اللّه بفعله به أو فيه فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه ؛ لأن اللّه لم يخصص ، بقوله : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصي اللّه فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة (١) ، وهذا الذي قاله متجه وكل من السلف رحمهم اللّه ، فسر بعض المشاركة . فعن عياض بن حمار أن رسول اللّه ﷺ قال : «يَقُولُ اللّه ﷻ : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ » (٢) . وفي الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذا أرادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهلهُ ، قال : باسم اللّه اللّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيطانَ وَجَنِّبِ الشَّيطانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فإنه إنْ يقدرْ بينهما ولدٌ في ذلكَ لم يضره الشيطانُ أبدًا » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس ، أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين ، وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي حافظًا ومؤيدًا ونصيرًا ، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال : « إِنَّ المُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيَاطِينَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ » (٤) ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/١٥٢) . (٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢٨٦ ، ٢١٧) وأورده ابن حجر في الفتح (١١/١٩١) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٣٨٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/١١٦) .

﴿ رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلكَ في البحر ، وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة ، من إقليم إلى إقليم ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ .

يخبر تبارك وتعالى ، أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ ، أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًّا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هاربًا فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك عليَّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رءوفًا رحيمًا ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ﷺ وأرضاه . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ ، أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر ، ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ أي سجيته هذا ، ينسى النعم ، ويجحدها إلا من عصم الله .

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ .

يقول تعالى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر ، أمنتم من انتقامه وعذابه ، أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبًا ، وهو المطر الذي فيه حجارة . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أي ناصرًا يرد ذلك عنكم وينقذكم منه .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : أم أمنتم أيها المعرضون عنا ، بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر ، وخرجوا إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية ، فيرسل عليكم قاصفًا من الريح ، أي يقصف الصواري ويغرق المراكب . قال ابن عباس وغيره : القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها . وقوله : ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ ، أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ ، قال ابن عباس : نصيرًا وقال مجاهد : نصيرًا ثائرًا ، أي يأخذ بثأركم بعدكم .. وقال قتادة : ولا نخاف أحدًا يتبعنا بشيء من ذلك .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها ، ﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ ﴾ أي على الدواب من الأنعام ، والخيل ، والبغال ، وفي البحر أيضًا على السفن الكبار والصغار ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ، أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم

والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها ، مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي . ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ، أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة .

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تبارك وتعالى : عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم . وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد وقتادة : أي بنبيهم . وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث ؛ لأن إمامهم النبي ﷺ . وقال ابن زيد : بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير وروي عن مجاهد أنه قال : بكتبهم [1] فيحتمل أن يكون أراد هذا ، وأن يكون أراد ما رواه ابن عباس في قولهم : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ أي بكتاب أعمالهم : وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ الآية . ويحتمل أن المراد ﴿ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ أي ، كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم . كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ . وفي الصحيحين : « لِتَتَّبع كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ » [2] . الحديث ، وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته فإنه لابد أن يكون شاهدًا على أمته بأعمالها كقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ ولكن المراد هاهنا بالإمام هو كتاب الأعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾ أي من فرحته وسروره ، بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قد تقدم أن الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة . وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ قال : « يُدْعَى أَحَدُهُمْ فَيُعْطَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ وَيَبْيَضُّ وَجْهُهُ ، وَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ يَتَلأْلأُ ، فَيَنْطَلِقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيَرَوْنَهُ مِنْ بَعِيدٍ فَيَقُولُونَ : اللَّهُمَّ ائتِنَا بهَذَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي هَذَا فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ : أَبْشِرُوا ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيَسْوَدُّ وَجْهُهُ وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ باللَّه مِنْ هَذَا - أَوْ مِنْ شَرِّ هَذَا - اللَّهُمَّ لاَ تَأْتِنَا بِهِ فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ : اللَّهُمَّ أَخْزِهِ ، فَيَقُولُ : أَبْعَدَكُمُ اللَّه ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُل مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا » [3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ ﴾ الآية ، قال ابن عباس : أي في الحياة الدنيا ﴿ أَعْمَىٰ ﴾ أي عن حجة اللّه وآياته وبيناته ﴿ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ أي كذلك يكون ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أي وأضل

(١) انظر تفسير الطبري (١٥٩/١٥) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) .
(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٣٦) وذكره بنحوه الحاكم في المستدرك (٢٤٣/٢) .

منه كما كان في الدنيا عياذًا بالله من ذلك .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى عن تأييده رسولَه ﷺ وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه ، وناصره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ .

قيل : نزلت في اليهود عن عبد الرحمن بن غنم : أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يومًا ، فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقًا أنك نبي فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء ، فصدق ما قالوا ، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ إلى قوله ﴿ تَحْوِيلًا ﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة ، وقال : فيها محياك ومماتك ومنها تبعث . وفي هذا الإسناد نظر . والأظهر أن هذا ليس بصحيح ؛ فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود وإنما غزاها امتثالًا لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه .

وقيل : نزلت في كفار قريش هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية . وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرًا وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم ، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ الآية ، أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا ، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم ، يأتيهم العذاب ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ الآية .

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ .

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ : آمرًا له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ قيل : لغروبها . قال ابن عباس : دلوكها زوالها ، واختاره ابن جرير ، ومما استشهد عليه حديث جابر بن عبد الله : دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال : « اخْرُجْ يَا أَبَا بَكْرٍ فَهَذَا حِينَ دَلَكَتِ الشَّمْسُ » (١)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٨/٣ بنحوه ، والطبري في تفسيره ١٧٠/١٥ ، ١٧١ بلفظه .

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس . فمن قوله : ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ ، وهو ظلامه . وقيل : غروب الشمس أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء . وقوله : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ يعني صلاة الفجر ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواترًا من أفعاله وأقواله ، بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفًا عن سلف وقرنًا بعد قرن كما هو مقرر في مواضعه ولله الحمد ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في هذه الآية قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « فَضْلُ صَلاَةِ الجَمِيعِ عَلَى صَلاَةِ الوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ درَجَةً ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » (٢) .

وفي الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ ، وَفِي صَلاَةِ العَصْرِ ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَتَركنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ » (٣) وقال ابن مسعود : يجتمع الحرسان في صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة كما ورد عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه سئل : أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « صَلاةُ اللَّيلِ » ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد ما كان بعد نوم ، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه (٤) . وقال الحسن البصري : هو ما كان بعد العشاء ، ويحمل على ما كان بعد النوم ، واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فقيل : معناه : أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجبًا في حقه دون الأمة ، عن ابن عباس ، وهو أحد قولي العلماء ، وأحد قولي الشافعي رحمه الله ، واختاره ابن جرير ، وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وغيره من أمته إنما تكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه .

وقوله : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقامًا محمودًا يحمدك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى . قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم (٥) .

ذكر من قال ذلك : عن حذيفة قال : يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة ، كما خلقوا قيامًا لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادي يا محمد : فيقول : « لَبَّيْكَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٧٤/٢) والترمذي في السنن (٣١٣٥) وابن ماجه في السنن (٦٧٠) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٧) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم في المساجد (٢١٠) وأحمد في مسنده (٤٨٦/٢) .
(٤) انظر صحيح البخاري كتاب التهجد (١١٤٦) .
(٥) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٩/١٥) .

وَسَعْدَيْكَ ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، وَالمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ ، وَعَبْدُكَ بِيْنَ يَدَيْكَ ، وَمِنْكَ وَإِلَيْكَ ، لاَ مَنْجَى وَلاَ مَلْجَأَ مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ سُبْحَانَكَ رَبَّ البَيْتِ » (١) .

وقال ابن عباس : هذا المقام المحمود مقام الشفاعة ، وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع . وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ . قلت : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض ، ويبعث راكبًا إلى المحشر ، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر واردًا منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ، ثم نوحًا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكل يقول : لست لها ، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : « أَنَا لَهَا ، أَنَا لَهَا » (٢) .

وفي حديث الصور أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته ، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغهم أعمالهم ، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ، ولا يساويه في ذلك . ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان .

عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء ، كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع . حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله مقامًا محمودًا (٣) .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الشَّمْسَ لَتَدْنُو حَتَّى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بآدَمَ فَيَقُولُ : لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ : كَذَلِكَ ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ بَيْنَ الخَلْقِ . فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الجَنَّةِ ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّه مَقَامًا مَحْمُودًا » . وزادفي رواية : « فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم » (٤) . وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ القَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ ، وابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ ؛ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ » (٥) .

وعن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ الأَنْبِياءِ وَخَطِيبَهُمْ ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غَيْرَ فَخْرٍ » (٦) . وفي حديث أبي بن كعب في قراءة القرآن على سبعة أحرف ، قال ﷺ في آخره : « فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأُمَّتِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي ، وَأَخَّرْتُ

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٩/١٥) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥١٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٦) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٨) .
(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٥) .
(٥) أخرجه البخاري في الدعوات (٦١٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٤/٣) والبيهقي في السنن (٤١٠/١) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٧/٥) والترمذي في السنن (٣٦١٣) وابن ماجه في السنن (٤٣١٤) .

الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ فِيهِ الخَلْقُ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ عليه السلام » (١) .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْهَمُونَ ذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ : لو اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَأَرَاحنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ : أَنْتَ أَبُو البَشَرِ خَلَقَكَ اللَّه بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا . فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ : لَسْتُ هُناكم ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ الَّذِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ عز وجل مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُ : وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّه إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَيَأْتُونَ نُوحًا ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هناكم ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَةَ سُؤَالِهِ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُ : وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمنِ . فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هناكم ، وَلَكِن ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّه ، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ : لَسْتُ هناكم ، وَيَذْكُرُ لَهُمُ النَّفْسَ الَّتِي قَتَلَ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ . وَيَقُولُ : وَلَكِنِ ائْتُوا عيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرسُولَهُ وَكلِمَتَهُ وَرُوحَهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ : لَسْتُ هناكم ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا غَفَرَ اللَّه لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي - قال الحسن هذا الحرف - : فَأَقُومُ فَأَمْشِي بَيْنَ سِمَاطَيْنِ منَ المُؤْمِنِينَ - قَالَ أَنس : حَتَّى أَسْتَأْذِن عَلَى رَبِّي - فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ - أو خررت - سَاجِدًا لِرَبِّي ، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَدَعَنِي - قال : - ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ مُحَمَّدُ قُل يُسْمَع وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، وَسَلْ تُعْطَهُ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ - قال : - ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ - أو خررت - سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَدَعَنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، قُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تَعْطه ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّة - قال : - ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ - أو خررت - سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يدَعَنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، قُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَه ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّة ، ثُمَّ أَعودُ الرَّابِعَةَ فأقُولُ : يَا رَبِّ مَا بَقِيَ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ » . فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « فَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لاَ إِله إِلاَّ اللَّه ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ ، مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً » (٢) . وعن كعب بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال : « يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي عَلَى تَلٍّ وَيَكْسُونِي رَبِّي عز وجل حُلَّةً خَضْرَاءَ ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّه أَنْ أَقُولَ فَذَلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ » (٣) .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بالسُّجُودِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ ، فَأَنْظُرُ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيَّ فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ ، وَمِنْ خَلْفِي مِثْلَ

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٧٣) والإمام أحمد في مسنده (١٢٧/٥ ، ١٢٩) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٧٦) ومسلم في الإيمان (٣٢٢) والإمام أحمد في المسند (١١٦/٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥٦/٣) .

ذَلِكَ ، وَعَنْ يَمِينِي مِثْلُ ذَلِكَ ، وَعَنْ شِمَالِي مِثْلُ ذَلِكَ » . فقال رجل : يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : « هم غرٌّ محجَّلون من أثر الوضوءِ ليس أحدٌ كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانِهم ، وأعرفُهم تسعَى مِن بينِ أيديهم ذريتُهم » (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتي رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ ؟ يَجْمَعُ اللّه الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُم الدَّاعِي ، وَيَنْفُذُهُمُ البصَرُ ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِن الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يَطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْض : أَلاَ تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِمَّا قَدْ بَلَغكُمْ ؟ أَلَّا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْض : عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ أَنتَ أَبُو البَشَرِ خَلَقَكَ اللّه بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ؟ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللّه عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنَا ؟ فَيَقُولُ نُوحٌ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَب قبلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مثلَهُ قَطُّ . وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُها عَلَى قَوْمِي . نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ . فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللّه وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، فَذَكَرَ كِذْبَاتِهِ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي . اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى ، عليه السلام فَيَقُولُونَ : يَامُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللّه اصْطَفَاكَ اللّه بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَه مِثْلَه ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا ، لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى فيأتونَ عيسَى فيقولونَ : يا عيسَى أنتَ رَسُولُ اللّهِ وكلمَتُهُ ألقاهَا إلى مَريمَ وروحٌ منه ، وكلَّمتَ الناس في المَهْدِ صبيًّا فاشفعْ لنا إلى رَبِّك . ألا ترَى ما نحنُ فيهِ ؟ ألا ترَى ما قد بلغَنا ؟ فيقول لهُم عيسى : إن ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغْضَبْ قبلَهُ مِثلَهُ ولَنْ يغضَبْ بعدَهُ مِثْلَه ، ولم يذْكُرْ ذنبًا . نَفْسِي نَفْسِي نَفسِي . اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى محمَّدٍ ﷺ ، فيأْتُونَ مُحمّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللّه ، وَخاتَمُ الأَنبياءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللّه لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فَأَقُومُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عز وجل ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللّه عَلَيَّ ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ ، وحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ، فَيُقَالُ : يَا مُحمدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١) .

فَأَرْفَعَ رَأْسِي فَأَقُولُ : أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي ، يا رب أُمَّتِي يَا رَب ؟ فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيما سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ . ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحمدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى »(١) وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبْرُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ »(٢) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ سئل عنها فقال : « هِيَ الشَّفَاعَةُ »(٣) .

وعنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ قال : « هُوَ المَقَامُ الذِي أَشْفَعُ لأُمَّتِي فِيهِ »(٤) .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ .

عن ابن عباس ، قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل اللّٰه ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾ ، وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول اللّٰه ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه ، فأراد اللّٰه قتال أهل مكة فأمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال اللّٰه ﷻ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾ الآية . وقال قتادة : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ ﴾ يعني المدينة ، ﴿ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾ يعني مكة ، وهذا القول هو أشهر الأقوال . وقال ابن عباس : ﴿ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ ﴾ يعني الموت ، ﴿ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾ يعني الحياة بعد الموت وقوله : ﴿ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾ قال الحسن البصري في تفسيرها : وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له ، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له . وقال قتادة فيها : إن نبي اللّٰه ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر ، إلا بسلطان فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب اللّٰه ، ولحدود اللّٰه ، ولفرائض اللّٰه ، ولإقامة دين اللّٰه ، فإن السلطان رحمة من اللّٰه جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، فأكل شديدهم ضعيفهم ، قال مجاهد : ﴿ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾ حجة بينة ، واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة(٥) ، وهو الأرجح ؛ لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ ﴾ الآية . وفي الحديث : « إن اللّٰه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ، وقوله : ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ ﴾ الآية ، تهديد ووعيد لكفار قريش فإنه قد جاءهم من اللّٰه الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به ، وهو ما بعثه اللّٰه به من القرآن والإيمان والعلم النافع ،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢٧) والإمام أحمد في مسنده (١٤٤/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٨١/١) والترمذي في سننه (٣١٤٨ ، ٣٦١٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٣٧) . وذكره الطبري في تفسيره (١٨١/١٥)

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٤١/٢ ، ٥٢٨) .

(٥) انظر تفسير الطبري (١٨٦/١٥ ، ١٨٧) .

وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك ، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ، عن ابن مسعود قال : دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : « ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد »(١) .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق ، وشرك وزيغ وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله . وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ، وليس هذا إلا لمن آمن به ، وصدقه واتبعه فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وكفرًا والآفة من الكافر لا من القرآن . قال قتادة : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي لا ينتفع به ، ولا يحفظه ، ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء ، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية ، وفتح ورزق ونصر ونال ما يريد ، أعرض عن طاعة الله وعبادته ، ونأى بجانبه . قال مجاهد : بعد عنا ، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ ﴾ وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب ، والحوادث والنوائب ﴿ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ أي قنط أن يعود ، ويحصل له بعد ذلك خير . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ . قال ابن عباس : على ناحيته . وقال مجاهد : على حدته وطبيعته . وقال قتادة : على نيته . وقال ابن زيد : دينه . وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم . ولهذا قال : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ أي منا ومنكم ، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث وهو متوكئ على عسيب إذ مر اليهود . فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؟ فقال : ما رابكم إليه ، وقال بعضهم : لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه ، فقالوا : سلوه فسألوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا فعلمت أنه يوحى إليه فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ الآية(٢) . وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية ، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٠) ومسلم في الجهاد (٨٤ ، ٨٧) .
(٢) أخرجه البخاري تفسير القرآن (٤٧٢١) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٩/١) .

بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه . وهي هذه الآية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ، ما رواه ابن عباس قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح . فسألوه فنزلت : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قالوا : أوتينا علمًا كثيرًا أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرًا كثيرًا . قال وأنزل الله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾ الآية [(١)] . وعن عكرمة : قال : سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح ، فأنزل الله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ ﴾ الآية ، فقالوا : تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلًا ، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ قال : فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ الآية . قال : ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب ، وهو في علم الله قليل [(٢)] .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح هاهنا على أقوال :

أحدها : أن المراد أرواح بني آدم . وقال ابن عباس : ذلك أن اليهود . قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التي في الجسد ، وإنما الروح من الله ، ولم يكن نزل عليه فيه شيء فلم يجر إليهم شيئًا . فأتاه جبريل فقال له : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . فأخبرهم النبي ﷺ بذلك . فقالوا : من جاءك بهذا ؟ قال : « جاءني به جبريل من عند الله » فقالوا له : والله ما قاله لك إلا عدونا فأنزل الله ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

وقيل : المراد بالروح هاهنا جبريل . قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه .

وقيل : المراد به هاهنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الروح ملك .

وقوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أي من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم . ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى ، والمعنى : أن علمكم في علم الله قليل ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى ، وقال السهيلي : قال بعض الناس لم يجبهم عما سألوا ؛ لأنهم سألوا على وجه التعنت ، وقيل : أجابهم . وعول السهيلي على أن المراد بقوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أي من شرعه أي فادخلوا فيه ، وقد علمتم ذلك ؛ لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة ، وإنما ينال من جهة الشرع ، وفي هذا المسلك الذي طرقه ، وسلكه نظر ، والله أعلم . ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس ، أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد ، كسريان الماء في عروق الشجر . وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢٥٥) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/١٩٣) .

واكتسابها بسببه ، صفات مدح أو ذم فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء ، قال : كما أن الماء هو حياة الشجر ، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسمًا خاصًا فإذا اتصل بالعنبة ، وعصر منها صار ماء مصطارًا أو خمرًا ، ولا يقال له : ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز ، وكذا لا يقال للنفس : روح إلا على هذا النحو وكذا لا يقال للروح : نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه ، فحاصل ما نقول : إن الروح هي أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ، ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه ، وهو معنى حسن ، والله أعلم .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ ، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . قال ابن مسعود ﷺ : يطرق الناسَ ريحٌ حمراء - يعني في آخر الزمان - من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية . ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله ، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا ، فإن هذا أمر لا يستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ، ولا مثال له ولا عديل له . وعن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به فأنزل الله هذه الآية . وفي هذا نظر لأن السورة مكية وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة ، فالله أعلم . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ ﴾ الآية . أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق ، وشرحناه وبسطناه ومع هذا ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحودًا للحق وردًا لصواب .

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ .

عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلًا من بني عبد الدار وأبا البختري أخا بني الأسد والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيهًا ومنبهًا ابني الحجاج السهميين اجتمعوا - أو من اجتمع منهم - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء ، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم ، فقالوا : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنّا

والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك . فقال رسول الله ﷺ : « مَا بِي مَا تَقُولُونَ ، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ ، وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ ؛ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ ؛ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . أو كما قال رسول الله ﷺ تسليمًا . فقالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادًا ولا أقل مالًا ، ولا أشد عيشًا منا ، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخًا صدوقًا فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولًا كما تقول : فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَا بِهَذَا بُعِثْتُ ؛ إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِه فَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ تَقْبَلُوهُ ؛ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ ؛ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . قالوا : فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك تبتغي ؛ فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، مَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا ، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُم اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . قالوا : فأسقط السماء كما زعمت ، أن ربك إن شاء فعل ذلك ، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِكُمْ ذَلِكَ » . فقالوا : يا محمد ؟ أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له : الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا فقد أعذرنا إليك يا محمد . أما والله لا نتركك ، وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلًا . فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا محمد

عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تجعل لهم ما تخوفهم به من العذاب ، فوالله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتي معك بصحيفة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه(١) .

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادًا لأجيبوا إليه ، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرًا وعنادًا ، فقيل لرسول الله ﷺ : إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال : « بَلْ تَفْتَحُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الينبوع : العين الجارية سألوه أن يجري لهم عينًا معينًا في أرض الحجاز هاهنا وهاهنا . وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا ، ولكن علم أنهم لا يهتدون . وقوله تعالى : ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، وتهي وتدلي أطرافها فعجل ذلك في الدنيا ، وأسقطها كسفًا أي قطعًا . كقولهم : ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ . الآية وكذلك سأل قوم شعيب منه . فقالوا : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما نبي الرحمة ، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين ، فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئًا . وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال ، أسلم إسلامًا تامًا ، وأناب إلى الله ﷻ . وقوله تعالى : ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو الذهب ، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود - أو يكون لك بيت من ذهب - ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ قال مجاهد : أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي ﷻ وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه ، وملكوته بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك وأمركم فيما سألتم إلى الله ﷻ .

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي ﷻ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ : لَا يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا - أو نحو ذلك - فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ ، وَإِذَا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٢٠٤) . (٢) أخرجه : البيهقي في السنن ٩/٨ .

شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ »[(١)] .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي أكثرهم ﴿ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثه البشر رسلًا . وقالت الأمم لرسلهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، ثم قال تعالى منبهًا على لطفه ورحمته بعباده : أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته ، ولو بعث إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ أي كما أنتم فيها ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ أي من جنسهم . ولما كنتم أنتم بشرًا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى مرشدًا نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به إنه شاهد عليّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني أشد الانتقام . وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أي عليمًا بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان ، والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة ولهذا قال :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : مخبرًا عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه ، وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه أي يهدونهم . وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ عن أنس بن مالك . قال : قيل : يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : « الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ »[(٢)] . وعن حذيفة بن أسد قال : قام أبو ذر فقال : يا بني غفار . قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدوق حدثني ، أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج ، فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار ، فقال قائل منهم : هذان قد عرفناهما فما بال الذين يمشون ويسعون ؟ قال : « يُلْقِي اللَّهُ ﷻ الآفَةَ عَلَى الظَّهْرِ حَتَّى لاَ يَبْقَى ظَهْرٌ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الحَدِيقَةُ المُعْجِبَةُ فَيُعْطِيهَا بِالشَّارِفِ ذَاتِ القَتَبِ فَلاَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا »[(٣)] . وقوله : ﴿ عُمْيًا ﴾ أي لا يبصرون ، ﴿ وَبُكْمًا ﴾ يعني لا ينطقون ، ﴿ وَصُمًّا ﴾ لا يسمعون ، وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٤/٥) والترمذي في السنن (٢٣٤٧) والطبراني في الكبير (٢٤٥/٨) .
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٦٠) ومسلم في المنافقين (٥٤) الإمام أحمد في مسنده (٣٥٤/٢ ، ٣٦٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٥/٥) .

الدنيا بكمًا وعميًا وصمًّا عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه . ﴿ مَّأْوَاهُمْ ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم ﴿ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ . قال ابن عباس : سكنت ، وقال مجاهد : طفئت . ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي لهبًا ووهجًا وجمرًا .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

يقول تعالى هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمي والبكم والصمم ، جزاؤهم الذي يستحقونه ؛ لأنهم كذبوا ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أي بأدلتنا وحجتنا ، واستبعدوا وقوع البعث . ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أي بالية نخرة ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك ، بأنه خلق السماوات والأرض فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ الآية . وقال هاهنا : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم ، وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروبًا ، ومدة مقدرة لابد من انقضائها وقوله : ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم .

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه : قل لهم يا محمد ، لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق . قال ابن عباس وقتادة : أي الفقر أي خشية أن تذهبوها مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبدًا ؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ . قال ابن عباس وقتادة : أي بخيلًا منوعًا ، وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أي لو أن لهم نصيبًا في ملك الله لما أعطوا أحدًا شيئًا ، ولا مقدار نقير ، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له . وقد جاء في الحديث « يَدُ اللَّه مَلأَى لاَ يُغِيضُهَا نَفَقَة سحاء اللَّيْل والنَّهار أَرأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يغضْ مَا فِي يَمِينِهِ » (١) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ۝ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات ، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي العصا واليد ، والسنين والبحر ، والطوفان والجراد ،

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤) ومسلم في الزكاة (٣٦) والإمام أحمد في مسنده (٣١٣/٢ ، ٥٠٠) .

والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات . قاله ابن عباس . وقال محمد بن كعب : هي اليد والعصا والخمس في الأعراف والطَّمْسَة والحجر ، وقال ابن عباس أيضًا ومجاهد وعكرمة وغيرهم : هي يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع والدم . وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي ، وجعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة ، وعنده أن التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون ﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ . أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا وما نجعت فيهم ، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا إلى آخرها ، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله . كما قال فرعون لموسى : وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ . قيل : بمعنى ساحر والله تعالى أعلم . فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هاهنا ، وهي المعنية في قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ إلى قوله ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ . فذكر هاتين الآيتين العصا واليد ، وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصَّلها . وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخرى كثيرة منها : ضربه الحجر والعصا وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا ولهذا قال موسى لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ ، أي حججًا وأدلة على صدق ما جئتك به . ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ . أي هالكًا ، قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس : ملعونًا . وقال أيضًا هو والضحاك : ﴿ مَثْبُورًا ﴾ أي مغلوبًا والهالك - كما قال مجاهد - يشمل هذا كله .

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله : ﴿ عَلِمتُ ﴾ (١) وروي ذلك عن علي بن أبي طالب ، ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون . والمراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا ، واليد ، والسنين ، ونقص من الثمرات ، والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه ، وخوارق ودلائل على صدق موسى ، ووجود الفاعل المختار الذي أرسله . وقوله : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها . ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ ﴾ . وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع . فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ الآيتين . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا . كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون ، وأموالهم وثمارهم وكنوزهم ، كما قال : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وقال هاهنا : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ . أي

(١) قرأها الكسائي بضم التاء والباقون بفتحها . (تقريب النشر ١٣٥) .

جميعكم أنتم وعدوكم . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : لفيفًا أي جميعًا .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد : إنه بالحق نزل أي متضمنًا للحق كما قال تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ ، أي متضمنًا علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه ، وأمره ونهيه وقوله : ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ ، أي ونزل إليك يا محمد محفوظًا محروسًا لم يشب بغيره ، ولا زيد فيه ولا نقص منه ، بل وصل إليك بالحق ، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى . وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ، مبشرًا لمن أطاعك من المؤمنين ، ونذيرًا لمن عصاك من الكافرين . وقوله : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف ، فمعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا . ثم نزل مفرقًا منجمًا على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة . قاله عكرمة عن ابن عباس : وعن ابن عباس أيضًا أنه قرأ ﴿ فرّقناه ﴾ [1] بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبينًا مفسرًا ، ولهذا قال : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم أي ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أي مهل ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ أي شيئًا من بعد شيء .

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ، ﴿ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ أي سواء آمنتم به أم لا فهو حق في نفسه أنزله الله ، ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ، ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه . ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا القرآن ، ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ جمع ذقن ، وهو أسفل الوجه ﴿ سُجَّدًا ﴾ أي لله ﷻ شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب . ولهذا يقولون : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ أي تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة ، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثه محمد ﷺ . ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ أي خضوعًا لله ﷻ وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله ، ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ أي إيمانًا وتسليمًا .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ .

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله ﷻ ، المانعين من تسميته بالرحمن ﴿ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله

(١) قرأها الجمهور بالتخفيف وقرأها بالتشديد علي وسعد بن أبي وقاص وأبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وأبو رزين ومجاهد والشعبي وقتادة والأعرج وأبو محيصن . زاد المسير ٩٦/٥ .

أو باسم الرحمن فإنه ذو الأسماء الحسنى ، وقد روى مكحول وابن عباس أن رجلًا من المشركين سمع النبي ﷺ يقول وهو يقول في سجوده : « يَا رَحْمنُ يَا رَحِيمُ » فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحدًا ، وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية (١) ، وقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ الآية . وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ورسوله الله ﷺ متوار بمكة . ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ . قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ، وسبوا من أنزله ، ومن جاء به قال : فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبو القرآن ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (٢) . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه ، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقًا منهم ، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع . فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئًا فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ ، فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به ، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ وعن هلال عن ابن مسعود قال : ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ من أسمع أذنيه ، قال محمد بن سيرين : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته فقيل لأبي بكر : لم تصنع هذا؟ قال : أناجي ربي ﷻ وقد علم حاجتي ، فقيل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، قيل : أحسنت . فلما نزلت : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قيل لأبي بكر : ارفع شيئًا ، وقيل لعمر اخفض شيئًا (٣) .

وعن ابن عباس ، عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في الدعاء .

وعنها رضي الله عنها : نزلت هذه الآية في التشهد (٤) .

وعن ابن عباس فيها قال : لا تصل مراءاة للناس ، ولا تدعها مخافة الناس .

وعن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : أهل الكتاب يخافتون ، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به ، ويصيحون هم به وراءه . فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء ، وأن يخافت كما يخافت القوم ، ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سن له جبريل من الصلاة .

وقوله : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص فقال : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٧/١٥) .
(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٢٢) ومسلم في الصلاة (١٤٥ ، ١٤٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٣/١) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٥) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٥) .

له ، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له ، قال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ : لم يحالف أحدًا ولم يبتغ نصر أحد ، ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا . وقال قتادة : ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ الآية ، الصغير من أهله والكبير [١] . قلت : وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمى هذه الآية آية العز ، وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة والله أعلم .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٢٣٥) .

سورة الكهف

ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال

روي عن البراء قال : قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « اقْرَأْ فُلَانُ فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنْزِلُ عِنْدَ الْقُرْآنِ أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ » (١) . وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير ، كما تقدم في تفسير سورة البقرة . وروي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ » (٢) .

وعنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ ، عُصِمَ مِنْ فتنةِ الدجال » (٣) .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ » (٤) ، وورد عنه ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا نَزَلَتْ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٥) .

وورد عن علي مرفوعًا : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها ، فإنه المحمود على كل حال ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض ، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، حيث جعله كتابًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، بل يهدي إلى صراط مستقيم ، واضحًا بينًا جليًا نذيرًا للكافرين بشيرًا للمؤمنين . ولهذا قال : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيغًا ولا ميلًا ، بل جعله معتدلًا مستقيمًا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَيِّمًا ﴾ أي مستقيمًا ، ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أي لمن خالفه وكذبه ، ولم يؤمن به وينذره بأسًا شديدًا عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرى ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أي من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أَنَّ

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١١) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤١) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٤/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٧) والإمام أحمد في مسنده (٤٤٩/٦) وأبو داود في سننه (٤٣٢٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٤٦/٦) . (٤) أخرجه البيهقي في سننه (٢٤٩/٣) .
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٦٤/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٠٩/٤) .

﴿ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ أي مثوبة عند الله جميلة ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ ﴾ في ثوابهم عند الله ، وهو الجنة خالدين فيه ﴿ أَبَدًا ﴾ ، دائمًا لا زوال له ولا انقضاء . وقوله : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ قال ابن إسحاق : وهم مشركو العرب في قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله . ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه ، ﴿ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ﴾ أي لأسلافهم ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه . وقيل : على التعجب تقديره أعظم بكلمتهم كلمة . وقرأ ذلك بعض قراء مكة - كبرت كلمةٌ [١] - كما يقال : عظم قولك وكبر شأنك ، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر ، فإن هذا تبشيع لمقالتهم ، واستعظام لإفكهم ولهذا قال : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم . ولهذا قال : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ . وفي سبب نزول هذه السورة الكريمة قال ابن عباس : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما قريش فقالا : يا معشر قريش جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « أُخْبِرُكُمْ غَدًا عَمَّا سَأَلْتُمْ عَنْهُ » . ولم يستثن فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيًا ولا يأتيه جبرائيل ﷺ ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدًا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبرائيل ﷺ من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف وقول الله ﷻ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ ﴾ الآية [٢] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان ، وبعدهم عنه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ ، يعني القرآن ﴿ أَسَفًا ﴾ يقول : لا تهلك نفسك أسفًا ، قال قتادة : قاتل نفسك غضبًا وحزنًا عليهم ، وقال مجاهد : جزعًا والمعنى متقارب ، أي لا

(١) قرأها الجمهور على النصب وقرأ ابن مسعود والحسن ومجاهد وأبو زين وغيرهم على الرفع . زاد المسير (٥/١٠٤) .
(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٢١ - ٣٣٠

تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة اللّه فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا دارًا فانية مزينة بزينة زائلة ، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . عن أبي سعيد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، واتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ »(١) . ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها ، وفراغها وانقضائها ، وذهابها وخرابها . فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فنجعل كل شيء عليها هالكًا ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ لا ينبت ولا يتنفع به . كما قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ : يهلك كل شيء عليها ويبيد . وقال مجاهد : ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ بلقعًا ، وقال قتادة : الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يعني الأرض ، وإن ما عليها لفان وبائد . وإن المرجع لإلى اللّه ، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ .

يقول اللّه ﷻ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يعني يا محمد ، ﴿ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أي ليس أمرهم عجيبًا في قدرتنا وسلطاننا ، فإن خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار وغير ذلك من الآيات العظيمة ، الدالة على قدرة اللّه تعالى ، وأنه على ما يشاء قادر ، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف . كما قال مجاهد : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ يقول : قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك ، وقال ابن عباس : الذي آتيتك من العلم والسنة ، والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم ، وقال محمد بن إسحاق : ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم ، وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ إليه الفتية المذكورون . وأما الرقيم فقال ابن عباس : هو واد قريب من أيلة . وقال الضحاك : أما الكهف فهو غار الوادي والرقيم اسم الوادي . وقال مجاهد : الرقيم كتاب بنيانهم . ويقول بعضهم : هو الوادي الذي فيه كهفهم . وقال ابن عباس : الرقيم : الجبل الذي فيه الكهف وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرقيم الكتاب ، ثم قرأ : ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ وهذا هو الظاهر من الآية ، وهو اختيار ابن جرير(٢) . قال : الرقيم : فعيل بمعنى مرقوم ، كما يقال للمقتول : قتيل ، وللمجروح جريح واللّه أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٦/٦) والترمذي في سننه (٢١٩١) .
(٢) تفسير الطبري (٢٤٩/١٥) .

وقوله : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم ، لئلا يفتنوهم عنه ، فهربوا منهم فلجؤوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين من اللّه تعالى رحمته ولطفه بهم : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها ، وتسترنا عن قومنا ، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشدًا ، أي اجعل عاقبتنا رشدًا . وقوله : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ ، أي ألقينا عليهم النوم حينَ دخلوا إلى الكهف ، فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعامًا يأكلونه ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ أي المختلفين فيهم ، ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ قيل : عددًا . وقيل : غاية فإن الأمد الغاية كقوله : سبق الجواد إذا استولى على الأمد .

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ .

من هنا شرع في بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب ، وهم أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين للّه تعالى ولرسوله ﷺ شبابًا ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل . وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا . وقال مجاهد : بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة . يعني الحلق فألهمهم اللّه رشدهم ، وآتاهم تقواهم فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالوحدانية ، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ كما قال : ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح ابن مريم فاللّه أعلم . والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية ؛ فإنهم لو كانوا على دين النصرانية ، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشًا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول اللّه ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح ؛ فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب ، وأنه متقدم على دين النصرانية ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يقول تعالى : وصبَّرناهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، والسعادة والنعمة ، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف ، أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم ، وسادتهم وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها ، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس ،

وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ، ويدعوهم إليه ، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك ، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم ، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض ، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه ، وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية ، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم جلس تحت ظل الشجرة ، فجاء الآخر فجلس إليها عنده ، وجاءالآخر فجلس إليهما ، وجاء الآخر فجلس إليهم ، وجاء الآخر وجاء الآخر ، ولا يعرف واحد منهم الآخر ، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان ، كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » (١). والناس يقولون : الجنسية علة الضم . والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفًا منهم ، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم : تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره . فقال آخر : أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه ، فعرفت أنه باطل ، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله ، الذي خلق السموات والأرض وما بينهما . وقال الآخر : وأنا والله وقع لي كذلك . وقال الآخر كذلك . حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة فصاروا يدًا واحدة ، وإخوان صدق . فاتخذوا لهم معبدًا يعبدون الله فيه فعرف بهم قومهم ، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه ، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه ، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل . ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ ولن لنفي التأبيد . أي لا يقع منا هذا أبدًا ؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلًا . ولهذا قال عنهم : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ أي باطلًا وكذبًا وبهتانًا ، ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلًا واضحًا صحيحًا ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ يقولون : بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك .

فيقال : إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم ، وتهددهم وتوعدهم ، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم ، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه ، وكان هذا من لطف الله بهم ، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة . وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه ، كما جاء في الحديث : « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ أَحَدِكُمْ غَنَمًا يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ القَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ » (٢) . ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ، ولا تشرع فيما عداها ؛ لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع . فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم ، واختار الله تعالى لهم ذلك ، وأخبر عنهم بذلك في قوله : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم . ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٣٦) ومسلم في البر والصلة (١٥٩ ، ١٦٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٩) والإمام أحمد في مسنده (٦/٣) وأبو داود في سننه (٤٢٦٧) .

﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم ﴾ الذي أنتم فيه ﴿ مِّرْفَقًا ﴾ أي أمرًا ترتفقون به فعند ذلك خرجوا هربًا إلى الكهف فأووا إليه ، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك . فيقال : إنه لم يظفر بهم ، وعمّى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق ، حين لجأ إلى غار ثور .

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال ؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي يتقلص الفيء يمنة . كما قال ابن عباس ﴿ تَّزَٰوَرُ ﴾ أي تميل (١) ، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها ، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه ، وهو من ناحية المشرق . فدل على صحة ما قلناه ، وهذا بين لمن تأمله ، وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب ، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ، ولا عند الغروب ، ولا تزاور الفيء يمينًا ولا شمالًا ، ولو كان من جهة الغرب ، لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ، ولم تزل فيه إلى الغروب فتعين ما ذكرناه ولله الحمد . وقال ابن عباس وغيره : ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ : تتركهم . وقد أخبر الله تعالى بذلك ، وأراد منا فهمه وتدبره . ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض ؛ إذ لا فائدة لنا فيه ، ولا قصد شرعي .

وقال : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ قال ابن زيد بن أسلم : تميل ، ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ﴾ أي في متسع منه داخلًا بحيث لا تصيبهم ؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم ، قاله ابن عباس : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ ثم قال : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ ﴾ الآية أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم ، فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضله فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ .

ذكر بعض أهل العلم ، أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم ، لئلا يسرع إليها البلى .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ ﴾ قال بعض السلف : يقلبون في العام مرتين . قال ابن عباس : لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض . وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ ﴾ قال ابن عباس وغيره : الوصيد الفناء ، وعنه أيضًا : بالباب . وقيل : بالصعيد - وهو التراب - والصحيح أنه بالفناء ، وهو الباب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب ،

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٣/١٥) .

وهذا من سجيته وطبيعته ، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب ؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب - كما ورد في الصحيح - ولا صورة ولا جنب ولا كافر [1] .

وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقوله تعالى : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ . أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر ، لئلا يدنو منهم أحد ، ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم لما في ذلك من الحكمة والحجة البالغة ، والرحمة الواسعة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ .

يقول تعالى : كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئًا ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ؛ ولهذا تساءلوا بينهم : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أي كم رقدتم ، ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم في آخر نهار ، ولهذا استدركوا فقالوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم فالله أعلم . ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك ، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ ﴾ .

أي فضتكم هذه وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها فتصدقوا منها وبقي منها ، فلهذا قالوا : ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها ، والألف واللام للعهد ، ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي أطيب . ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره ، وقيل : أكثر طعامًا .

والصحيح الأول ؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال سواء كان كثيرًا أو قليلًا وقوله : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه ، يقولون : وليختفِ كل ما يقدر عليه ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أي : ولا يعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إن علموا بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطّلعوا على مكانكم ، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعبدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا ، وإن وافقتموهم على العود في الدين ، فلا فلاح لكم في الدنيا ، ولا في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ، ﴿ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ

(١) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣٣٢٢) ومسلم بنحوه في (اللباس) (٨١ - ٨٤) ومسند الإمام أحمد (١/ ٨٠) .

ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث ، وفي أمر القيامة فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك .

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه تنكر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة ، وهو يظن أنه قريب العهد بها ، وكان الناس قد تبدلوا قرنًا بعد قرن ، وجيلًا بعد جيل وتغيرت البلاد ومن عليها .

فجعل لا يرى شيئًا من معالم البلد التي يعرفها ، ولا يعرف أحدًا من أهلها فجعل يتحير في نفسه ويقول : لعل بي جنونًا ، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة ، ثم قال : إن تعجيل الخروج من هاهنا لأولى لي ، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة ، وسأله أن يبيعه بها طعامًا ، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها ، فدفعها إلى جاره وجعلوا يتداولونها بينهم ، ويقولون : لعل هذا وجد كنزًا ، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة لعله وجدها من كنز وممن أنت ؟ فجعل يقول : أنا من أهل هذه البلدة ، وعهدي بها عشية أمس ، وفيها دقيانوس ، فنسبوه إلى الجنون ، فحملوه إلى ولي أمرهم فسأله عن شأنه ، وخبره حتى أخبرهم بأمره ، وهو متحير في حاله وما هو فيه ، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف ، فقال لهم : دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال : إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه ، وأخفى الله عليهم خبرهم ، ويقال : بل دخلوا عليهم ورأوهم ، وسلم عليهم الملك واعتنقهم ، وكان مسلمًا فيما قيل واسمه يندوسيس ، ففرحوا به وآنسوه بالكلام ، ثم ودعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم ، وتوفاهم الله ﷻ والله أعلم .

قوله : ﴿ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أي في أمر القيامة ، فمن مثبت لها ومن منكر ، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ، ﴿ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين : أحدهما : أنهم المسلمون منهم ، والثاني : أهل الشرك منهم ، فالله أعلم (١) . والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لعن الله اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » (٢) يحذر ما فعلوا ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس ، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على

---

(١) تفسير الطبري (١٥/٢٨١) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٣٠ ، ١٣٩٠) ومسلم في المساجد (١٩ ، ٢١) .

أنه لا قائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أي قولًا بلا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث ، وسكت عليه أو قرره بقوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فدل على صحته ، وأنه هو الواقع في نفس الأمر ، وقوله : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا . وقوله : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي من الناس . قال ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله ﷻ كانوا سبعة .

وقد قال تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أي سهلًا هينًا ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ، ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجمًا بالغيب . أي من غير استناد إلى كلام معصوم . وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ، ولا مرية فيه فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ .

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ علام الغيوب الذي يعلم ما كان ، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليه السلام : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً - وفي رواية تسعين امرأة ، وفي رواية مائة امرأة - تَلِدُ كُلُّ امرأةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقِيلَ لَهُ : - وفي رواية قال له الملك - قُلْ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ يَقُلْ ، فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ يَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ ، فَقَالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ » وفي رواية « وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ » (١) وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف « غَدًا أُجِيبُكُمْ » فتأخر الوحي خمسة عشر يومًا ، وقوله : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قيل : معناه إذا نسيت الاستثناء ، فاستثن عند ذكرك له ، وعن ابن عباس في الرجل يحلف قال : له أن يستثني ولو إلى سنة ، ومعنى قوله أنه يستثني ، ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله ، وذكر ولو بعد سنة ، فالسنَّة له أن يقول ذلك ليكون آتيًا بسنَّة الاستثناء ، حتى ولو كان بعد الحنث ، قاله ابن جرير رحمه الله . ونص على ذلك لا أن يكون رافعًا لحنث اليمين ، ومسقطًا للكفارة ، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح ، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم . وقال عكرمة : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا غضبت .

وروي أيضًا عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الاستثناء فاستثن إذا ذكرت ، وقال : هي خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه ، ثم قال : انفرد به الوليد عن عبد العزيز بن الحصين ، ويحتمل في الآية وجه آخر ، وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد

(١) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان (٦٧٢٠) ومسلم في (الأيمان) (٢٣) بلفظ « تسعين امرأة » .

من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى ؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان ، كما قال فتى موسى : ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ وذكر الله تعالى يطرد الشيطان ، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان ، فذكر الله تعالى سبب للذكر ولهذا قال : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ وقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك .

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد بالهلالية ، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلاثمائة : ﴿ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ ، وقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم ، وليس عندك علم في ذلك ، وتوقيف من الله تعالى ، فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذا : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . أي لا يعلم ذلك إلا هو ، ومن أطلعه عليه من خلقه .

وقوله : ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ أي إنه لبصير بهم سميع لهم . قال ابن جرير : وذلك في معنى المبالغة في المدح ، كأنه قيل ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شيء . ثم روي عن قتادة في قوله : ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وقوله : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر الذي لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ، ولا شريك ولا مشير تعالى وتقدس .

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس : ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل . وقوله : ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ عن مجاهد ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ قال : ملجأ وعن قتادة : وليًا ولا مولى ، قال ابن جرير : يقول : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك ، فإنه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة . وقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ، ويهللونه ويحمدونه ، ويسبحونه ويكبرونه ، ويسألونه بكرة وعشيًا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء ، أو أقوياء أو ضعفاء ، يقال : إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار ، وصهيب ، وخباب ، وابن مسعود ، وليفرد أولئك

بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك فقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ الآية ، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء .

وعن سعد ابن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع ، فحدث نفسه فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ قال ابن عباس : ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ، ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أي أعماله وأفعاله سفه ، وتفريط وضياع ، ولا تكن مطيعًا له ، ولا محبًّا لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : وقل يا محمد للناس : هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا ﴾ أي أرصدنا ، ﴿ لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ، ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أي سورها وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لِسُرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ ، كَثَافَةُ كُلِّ جِدَارٍ مَسَافَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً » (٢) .

وقال ابن عباس : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال : حائط من نار ، وقوله : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ﴾ الآية ، قال ابن عباس : المهل الماء الغليظ مثل دردي الزيت ، وقال مجاهد : هو كالدم والقيح ، وقال عكرمة : هو الشيء الذي انتهى حره ، وقال آخرون : هو كل شيء أذيب . وقال قتادة : أذاب ابن مسعود شيئًا من الذهب في أخدود فلما انماع وأزبد قال : هذا أشبه شيء بالمهل . وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود ، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر ، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها فهو أسود منتن غليظ حار ، ولهذا قال : ﴿ يَشْوِى الْوُجُوهَ ﴾ أي من حره إذا أراد الكافر أن يشربه ، وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه ، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَاءٌ كَالْمُهْلِ – قال – : كَعَكَرِ الزَّيْتِ فَإِذَا قَرَّبَهُ إِلَيْهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ » (٣) .

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ قال : « يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ ، فَإِذَا قُرِّبَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ ، يقول الله تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩/٣) والترمذي في سننه (٢٥٨٤) والحاكم في المستدرك (٦٠١/٤) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧١/٣) والترمذي في سننه (٢٥٨١) .

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾ [(١)] » وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم ، فيأكلون منها فاختلبت جلود وجوههم ، فلو أن مارًا بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة : ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾ أي بئس هذا الشراب ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي وساءت النار منزلًا ، وموضعًا للارتفاق .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة فلهم جنات عدن ، والعدن الإقامة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم . ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أي من الحلية ، ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ وقال في المكان الآخر : ﴿ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ وفصله هاهنا فقال : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان ، وما جرى مجراها ، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق ، وقوله : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ الاتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع في الجلوس ، وهو أشبه بالمراد هاهنا ، ومنه الحديث الصحيح « أما أنا فلا آكل متكئًا » [(٢)] فيه القولان . والأرائك جمع أريكة ، وهي السرير تحت الحجلة ، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة والله أعلم .

وقوله : ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي نعمت الجنة ثوابًا على أعمالهم ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي حسنت منزلًا ، ومقيلًا ومقامًا كما قال في النار : ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ .

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم ، فضرب لهم ولهم مثلًا برجلين جعل الله لأحدهما جنتين - أي بستانين - من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع ، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة ؛ ولهذا قال : ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أي أخرجت

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٦٥) والحاكم في المستدرك (٢/٣٥١ ، ٤٥٧) .
(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٨ ، ٥٣٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٥/٨٦) .

ثمرها ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أي ولم تنقص منه شيئًا ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ أي والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا ، ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ قيل : المراد به المال ، وقيل : الثمار ، وهو أظهر هاهنا ، ﴿ فَقَالَ ﴾ أي صاحب هاتين الجنتين ، ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أي يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويترأس ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا . قال قتادة : تلك والله أمنية الفاجر كثرة المال ، وعزة النفر . وقوله : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره ، وتجبره وإنكاره المعاد ، ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار ، والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف ؛ وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا ، وزينتها وكفره بالآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي كائنة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ .

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظًا له وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار : ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ الآية ، وهذا إنكار وتعظيم ، لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه ، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ولهذا قال المؤمن : ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ، ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له ، ثم قال : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك ، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك ، وقلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ؛ ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل : ما شاء الله لاقوة إلا بالله ، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة .

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله »[1] وقوله : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أي في الدار الآخرة ، ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ، ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال ابن عباس : أي عذابًا من السماء والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ؛ ولهذا قال : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي بلقعًا ترابًا أملس لا يثبت فيه قدم . وقال ابن عباس : كالجرز الذي لا ينبت شيئًا ، وقوله : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي غائرًا في الأرض ، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض ، فالغائر يطلب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٩/٢) وابن ماجه في السنن (٣٨٢٤ ، ٣٨٢٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨/١٠) .

أسفلها كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ أي جار وسائح .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ بأمواله أو بثماره على القول الآخر ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغترَّ بها ، وألهته عن الله ﷻ . ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ وقال قتادة : يصفق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ ﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ، ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ اختلف القراء هاهنا فمنهم من يقف على قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله فلا منفذ له منه ، ويبتدئ بقوله : ﴿ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، ومنهم من يقف على : ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ويبتدئ بقوله : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، ثم اختلفوا في قراءة ﴿ ٱلْوَلَـٰيَةُ ﴾ [(١)] فمنهم من فتح الواو من الولاية ، فيكون المعنى هناك الموالاة لله أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله ، وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ ومنهم من كسر الواو ، من الولاية أي هنالك الحكم لله الحق ، ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله ﷻ ، كقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أي جزاء ، ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي الأعمال التي تكون لله ﷻ ثوابها خير ، وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ ﴾ يا محمد للناس ، ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ، ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ما فيها من الحب ، فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة . ثم بعد هذا كله ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ يابسًا ، ﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي هو قادر على هذه الحال ، وهذه الحال ، وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل ، كما قال تعالى في سورة يونس : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ ﴾ الآية . وفي الحديث الصحيح : « الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ » [(٢)] ، وقوله : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كقوله : ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي الإقبال عليه ، والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم

---

(١) قرأها ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم بفتح الواو ﴿ الوَلاية ﴾ خفضًا . وقرأها حمزة بكسر الواو ﴿ الوِلاية ﴾ بكسر القاف أيضًا وقرأها أبو عمرو بفتح الواو رفع الحق ووافقه الكسائي في رفع القاف لكنه كسر الوِلاية . زاد المسير (١٤٧/٥) .

(٢) السلسلة الصحيحة للألباني (١٥٩٢) .

بهم ، والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ . قال ابن عباس وغيره : الباقيات الصالحات الصلوات الخمس . وقال : الباقيات الصالحات سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات ما هي ؟ فقال : هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وروي عن سعيد بن المسيب ، قال : الباقيات الصالحات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّه ، والحَمْدُ للَّه ، وَلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، واللَّه أَكْبَرُ هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » [(١)] . وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « اسْتَكْثِرُوا مِنَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الملة » . قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « التَّكْبِيرُ والتَّهْلِيلُ ، والتَّسْبِيحُ ، والحَمْدُ للَّه ، وَلَا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ باللَّه » [(٢)] .

وفي الحديث : « أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَمَالأَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَلَمْ يُمَالِئْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ . أَلاَ وَإِنَّ سُبْحَانَ اللَّه ، والحَمْدُ للَّه ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، واللَّه أَكْبَرُ هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » [(٣)] .

وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ هي ذكر الله ، قول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وتبارك الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله ، والصيام والصلاة والحج والصدقة ، والعتق والجهاد ، والصلة وجميع أعمال الحسنات ، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها ، واختاره ابن جرير رحمه الله .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تذهب من أماكنها ، وتزول كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض قاعًا صفصفًا ، أي سطحًا مستويًا لا عوج فيه ، ولا أمتًا أي لا وادي ولا جبل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ، ولا مكان يواري أحدًا ، بل الخلق

---

(١) أخرجه مسلم في (الذكر والدعاء) (٣٢) وأحمد في مسنده (٣٥٦/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) والحاكم في المستدرك (٥١٣/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٧/١٠) .

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٢/٧) .

كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية . قال مجاهد وقتادة : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ لا حجر فيها ولا غيابة . قال قتادة : لا بناء ولا شجر . وقوله : ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحدًا لا صغيرًا ولا كبيرًا . كما قال : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ . وقوله : ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جمع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًا واحدًا ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ ويحتمل أنهم يقومون صفوفًا صفوفًا . كما قال : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وقوله : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، ولهذا قال تعالى مخاطبًا لهم : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن .

وقوله : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير ، والفتيل والقطمير ، والصغير والكبير . ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي من أعمالهم السيئة ، وأفعالهم القبيحة ، ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا . ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ أي لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ، ولا عملًا وإن صغر ﴿ إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ، أي ضبطها وحفظها . وروي عن سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين ، نزلنا قفرًا من الأرض ليس فيه شيء . فقال النبي ﷺ : « اجْمَعُوا مَنْ وَجَدَ عُودًا فَلْيَأْتِ بِهِ ، وَمَنْ وَجَدَ حَطَبًا أَوْ شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِهِ » قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركامًا ، فقال النبي ﷺ : « أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جَمَعْتُمْ هذَا ، فَلْيَتَّقِ اللّه رَجُلٌ وَلاَ يُذْنِبْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ، فإِنَّهَا مُحْصَاةٌ عَلَيْهِ »(١) . وقوله : ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ أي من خير وشر . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أي تظهر المخبآت والضمائر . فقد روي عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « لِكُل غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ »(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا ، ولا يظلم أحدًا من خلقه بل يعفو ويصفح ، ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بقدرته ، وحكمته وعدله ، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ، ثم ينجي أصحاب المعاصي ، ويخلد فيها الكافرين ، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ الآية . عن جابر بن عبد الله قال : بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ فاشتريت بعيرًا ، ثم شددت عليه رحلًا فسرت عليه شهرًا ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله ابن أنيس ، فقلت للبواب : قل له : جابر على الباب ، فقال : ابن عبد الله ، قلت : نعم فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَحْشُرُ اللّه ﷻ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ -

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٩٠) والطبراني في الكبير (٦/٦٤) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٢٢٦) .
(٢) أخرجه البخاري في (الجزية والموادعة) (٣١٨٦ ، ٣١٨٧) ومسلم في (الجهاد) (١١ ، ١٢) وأحمد في مسنده (١/٤١١) .

أو قال العباد - عُرَاةً غُرْلًا بَهْمًا » . قلت : وما بهما ؟ قال : « لَيسَ مَعَهُمْ شَيءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بُعْدَ ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبَ : أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقْضِيَهُ مِنْهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَلَهُ عِنْدَ رَجُل مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَقٌّ حَتَّى أَقْضِيَه مِنْهُ ، حَتَّى اللَّطْمَةُ » قَالَ : قُلْنَا كيف وإنما تأتي الله ﷻ حفاة عراة غرلًا بهما ؟ قال : « بِالحَسَنَاتِ والسَّيِّئاتِ » [(١)] .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ .

يقول تعالى منبهًا بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ، ومقرعًا لمن اتبعه منهم ، وخالف خالقه ومولاه ، وهو الذي أنشأه وابتدأه ، وبألطافه رزقه وغذاه ، ثم بعد هذا كله والى إبليس ، وعادى الله ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي لجميع الملائكة كما تقدم تقديره في أول سورة البقرة ﴿ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ ﴾ أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور . فقد روي عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُور ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ » [(٢)] . ونبه تعالى هاهنا على أنه من الجن - أي على أنه خلق من نار - كما قال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ . قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي من خزان الجنان ، كما يقال للرجل مكي ومدني وبصري وكوفي . وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها .

ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بين أيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس منه ، فرضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم .

وقوله : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أي فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج ، يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها ، وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعبث والفساد . ثم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٤٢) .

(٢) أخرجه مسلم في (الزهد) (٦٠) وأحمد في مسنده (٦/١٥٣ ، ١٦٨) .

قال تعالى مقرعًا وموبخًا لمن اتبعه وأطاعه : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ الآية . أي بدلًا عني ، ولهذا قال : ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ . وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة ، وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ .

يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئًا ، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض ، ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى : أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها ، وحدي ليس معي في ذلك شريك ، ولا وزير ولا مشير ولا نظير كما قال : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ الآية ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ قال مالك : أعوانًا .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا : ﴿ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي في دار الدنيا ، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ كما قال : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ قال ابن عباس : مهلكا . وقال قتادة : واديًا في جهنم .

وقال أنس بن مالك : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ واد في جهنم من قيح ودم . وقال الحسن البصري : موبقًا عداوة ، والظاهر من السياق هاهنا أنه المهلك ، ويجوز أن يكون واديًا في جهنم أو غيره . والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا ، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير . وأما إن جعل الضمير في قوله : ﴿ بَيْنَهُم ﴾ عائدًا إلى المؤمنين والكافرين ، كما قال عبد الله بن عمرو : إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به . فهو كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك . فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز . وقوله : ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ، ولابد لهم منها . فعن أبي سعيد عن

رسول الله أنه قال : « إِنَّ الكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ فَيَظُنُّ أَنَّهَا مُوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ »(١) .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ .

يقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ، ووضحنا الأمور وفصلناها كي لا يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة ، والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . فعن حسين بن علي أن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال : « ألا تصليان » ؟ فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إليّ شيئًا ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾(٢) .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ .

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه ، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عيانًا ، كما قال أولئك لنبيهم : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وقالت قريش : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك ، ثم قال : ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ أي يرونه عيانًا مواجهة ومقابلة ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي قبل العذاب مبشرين من صدَّقهم وآمن بهم ، ومنذرين لمن كذَّبهم وخالفهم ، ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ﴾ أي ليضعفوا به ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ الذي جاءتهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين ، وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿ هُزُوًا ﴾ أي سخروا منهم في ذلك ، وهو أشد التكذيب .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ .

يقول تعالى وأي عباد الله أظلم : ﴿ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي تناساها وأعرض عنها ، ولم يصغ لها ولا ألقى إليها بالًا . ﴿ وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي من الأعمال السيئة ، والأفعال القبيحة ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿ أَكِنَّةً ﴾ أي أغطية وغشاوة . ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي لئلا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/٣٣٠) (١٧٤٥٠) .
(٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٢٤) ومسلم في (صلاة المسافرين) (٢٠٦) .

يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي صممًا معنويًا عن الرشاد . ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة . ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ . كما قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ . ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر ، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد ، ومن استمر منهم فله يومٌ يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها . ولهذا قال : ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل . وقوله : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي ، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

سبب قول موسى لفتاه - وهو يوشع بن نون - هذا الكلام ، أنه ذكر له أن عبدًا من عباد اللّه بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى ، فأحب الرحيل إليه ، وقال لفتاه ذلك : ﴿ لَآ أَبْرَحُ ﴾ أي لا أزال سائرًا ﴿ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين .

قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب ، وقال محمد ابن كعب القرظي : مجمع البحرين عند طنجة يعني في أقصى بلاد المغرب فاللّه أعلم . وقوله : ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ أي ولو أني أسير حقبًا من الزمان . عن عبد اللّه بن عمرو أنه قال : الحقب ثمانون سنة . وقال مجاهد : سبعون خريفًا . وقال ابن عباس : دهرًا (1) . وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه ، وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة . فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام ، وطفر من المكتل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع عليه السلام ، وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء ، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أي مثل السرب في الأرض ، قال ابن عباس : صار أثره كأنه حجر . وقال قتادة : سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر ، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقًا إلا صار ماء جامدًا .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه . كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ . وإنما يخرج من المالح على أحد القولين ، فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿ قَالَ ﴾ موسى لفتاه : ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا

(1) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٣٣٧) .

مِن سَفَرِنَا هَٰذَا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نَصَبًا ﴾ يعني تعبًا ، ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ قال قتادة : وقرأ ابن مسعود : (وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان) ولهذا قال : ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ ﴾ أي طريقه ، ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿ فَٱرْتَدَّا ﴾ أي رجعا . ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ أي طريقهما ﴿ قَصَصًا ﴾ أي يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ . وهذا هو الخضر عليه السلام ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ قَالَ : أَنَا ، فَعَتِبَ اللَّه عَلَيْهِ ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللَّه إِلَيْهِ أَنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ، قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ قَالَ : تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ بِمِكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ . فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ بِمِكْتَلٍ ، ثُمَّ انْطَلَقَ وانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ عليه السلام ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا ، وَاضْطَرَبَ الحُوتُ فِي المِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي البَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا ، وَأَمْسَكَ اللَّه عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّه بِهِ ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ ، قال : فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا ، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ قال : فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى فَقَالَ الخَضِرُ : وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ ، فَقَالَ : أَنَا مُوسَى ، فَقَالَ : مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَم . قَالَ : أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ يا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّه عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّه عَلَّمَكَهُ اللَّه لاَ أَعْلَمُهُ ، فَقَالَ مُوسَى : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ قَالَ لَهُ الخَضِرُ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ . فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يُفْجأْ إِلَّا والخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالقَدُوم ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَولٍ ، فَعَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ قال : وَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : فَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا ، قَالَ : وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوقَعَ على حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَنقر فِي البَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ : مَا عِلْمِي فِي عِلْمِ اللَّه إِلاَّ مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْ هَذَا البَحْرِ . ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ على السَّاحِلِ ، إِذْ أَبْصَرَ الخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ ، فَأَخَذَ الخَضِرُ رَأْسَهُ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ ، فَقَتَلَهُ ، فقال لَهُ مُوسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝ ﴾

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ۞ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ ، أي مائلاً ، فقال الخضر بيده : ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ . فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۞ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا » [١] . قال سعيد بن جبير : كان ابن عباس يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا) وكان يقرأ : (وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين) .

وعن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى ، فقال ابن عباس : هو خضر ، فمر بهما أبي بن كعب ، فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سئل السبيل إلى لقيه ، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بَيْنَا مُوسَى فِي مَلأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فقال : تَعَلَمُ مَكَانَ رَجُلٍ أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قَالَ : لاَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى : بَلَى عَبْدنا خَضِر ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لقيه ، فَجَعَلَ اللَّه لَهُ الحُوتَ آيَةً ، وَقِيلَ لَهُ : إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، فَكَانَ مُوسَى يَتبعُ أَثَرَ الحُوتِ في البَحْرِ ، فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ . قَالَ مُوسَى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ فَوَجَدا عَبْدَنَا خَضِرًا فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللَّه في كِتَابِهِ » [٢] .

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۞ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۞ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۞ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

يخبر تعالى عن قول موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم - وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى ، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ؟ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم . وقوله : ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ أي أصحبك وأرافقك ، ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ أي مما علمك الله شيئًا أسترشد به في أمري من علم نافع ، وعمل صالح . فعندها قال الخضر لموسى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتي ، لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك ؛ لأني على علم من علم الله ما علمكه الله ، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله . فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر عليّ ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلعت على حكمته ، ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك . ﴿ قَالَ ﴾ : أي موسى ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ أي على ما أرى من أمورك

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٥) ومسلم في الفضائل (٧٠) وأحمد في مسنده (١١٨/٥) .
(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٧٨) وأحمد في مسنده (١١٦/٥) .

﴿ وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ أي ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر ﷺ ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ ﴾ أي ابتداء ﴿ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني .

عن ابن عباس ، قال : سأل موسى ﷺ ربه ﷻ فقال : أي رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ، ولا ينساني . قال : فأي عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضي بالحق ، ولا يتبع الهوى . قال : أي رب أي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : أي رب ، هل في أرضك أحد أعلم مني ؟ قال : نعم . قال : فمن هو ؟ قال : الخضر . قال : وأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت . قال : فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله ، وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه . فقال له موسى : إني أحب أن أصحبك . قال :إنك لن تطيق صحبتي قال : بلى قال : فإن صحبتني ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ قال : فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه . قال : وبعث الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره . فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء؟ قال : ما أقل ما رزأ ؟ قال : يا موسى فإن علمي وعلمك في علم الله ، كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء ، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه ، أو تكلم به فمن ثم أمر أن يأتي الخضر ، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة ، وقتل الغلام وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك [1] .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موسى وصاحبه وهو الخضر ، أنهما لما توافقا واصطحبا ، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه . فركبا في السفينة ، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول . يعني بغير أجرة تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ، ولجحت أي دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها ، واستخرج لوحًا من ألواحها ثم رقعها . فلم يملك موسى ﷺ نفسه أن قال منكرًا عليه : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل .

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ قال مجاهد : منكرًا . وقال قتادة : عجبًا ، فعندها قال له الخضر مذكرًا بما تقدم من الشرط : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ يعني وهذا الصنيع فعلته قصدًا ، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليَّ فيها ، لأنك لم تحط بها خبرًا ، ولها دخل هو مصلحة ، ولم تعلمه أنت . ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ أي لا تضيق علي ، ولا تشدد عليَّ . ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيانًا » [2] .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٣٤٣) . (٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٢٥) ومسلم في الفضائل (١٧٠) .

يقول تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ أي بعد ذلك ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ . وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى ، وأنه عمد إليه من بينهم ، وكان أحسنهم وأجملهم ، وأضوأهم فقتله . وروي أنه قد احتز رأسه ، وقيل : رضخه بحجر ، وفي رواية : اقتلعه بيده والله أعلم . فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول ، وبادر فقال : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث ، ولا عملت إثمًا بعد فقتلته ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي بغير مستند لقتله ، ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ أي ظاهر النكارة ، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ فأكد أيضًا في التذكار بالشرط الأول . فلهذا قال موسى : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا ﴾ أي أن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ، ﴿ فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة . قال أبي بن كعب : كان النبي ﷺ إذا ذكر أحدًا فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم : « رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا ، وَعَلَى مُوسَى ، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لأَبْصَرَ العَجَبَ ، وَلكِنَّهُ قَالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْني قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » مثقلة [(١)] .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عنهما إنهما : ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ بعد المرتين الأوليين ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وروي عن ابن سيرين ، أنها الأبلة . وفي الحديث : « حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا » [(٢)] أي بخلاء ﴿ فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ إسناد الإرادة هاهنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة ، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل ، والانقضاض هو السقوط ، وقوله : ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة ، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ، ودعمه حتى رد ميله ، وهذا خارق . فعند ذلك قال موسى له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا ، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجانًا ، ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها ، فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك ، ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ أي بتفسير ، ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنه فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها ، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صالحة أي جيدة ، ﴿ غَصْبًا ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها ، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها ، وقد قيل : إنهم أيتام .

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ .

عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « الغُلاَمُ الَّذِي قَتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا » [(٣)]

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٥٦/١٥) وقد روى مسلم نحوه في (الفضائل) (١٧٢) والحاكم في المستدرك (٥٧٤/٢) وأبو داود في سننه (٣٩٨٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢١/٥) .

ولهذا قال : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر ، قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمنين فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب . وصح في الحديث : « لاَ يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ » (١) وقال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أي ولدًا أزكى من هذا ، وهما أرحم به منه ، وقال قتادة : أبر بوالديه ، وقد تقدم أنهما بدلا جارية . وقيل : لما قتله الخضر كانت أمه حاملًا بغلام مسلم ، قاله ابن جريج .

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة ؛ لأنه قال أولا : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وقال هاهنا : ﴿ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ يعني مكة والطائف ، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته ؛ لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما . قال عكرمة : كان تحته مال مدفون لهما ، وهو ظاهر السياق من الآية ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله . وقال ابن عباس : كان تحته كنز علم ، وقال الحسن البصري : لوح من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يعرف الدنيا ، وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر منهما صلاح ، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء ، وكان نساجًا ، وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة وورد به الحديث المتقدم ، وإن صح لا ينافي قول عكرمة إنه كان مالًا ؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحًا من ذهب وفيه مال جزيل ، أكثر ما زادوا أنه كان مودعًا فيه علم ، وهو حكم ومواعظ والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم . كما جاء في القرآن ووردت به السنة . قال ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر لهم صلاحًا . وتقدم أنه كان الأب السابع فالله أعلم . وقوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله . وقال في الغلام : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ . وقال في السفينة : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدي الغلام ، وولدي الرجل الصالح ، وما فعلته عن أمري ، أي لكني أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وقال آخرون : كان

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١١٧).

رسولًا . وقيل : بل كان ملكًا ، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبيًا ، بل كان وليًا فالله أعلم .

وحكي في كونه باقيًا إلى الآن ، ثم إلى يوم القيامة قولان ، ومال ابن الصلاح والنووي إلى بقائه ، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ وبقول النبي ﷺ يوم بدر : « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ » (١) وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ، ولا قاتل معه ، ولو كان حيًا لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه ؛ لأنه ﷺ كان مبعوثًا إلى جميع الثقلين الجن والإنس . وقد قال : « لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ لَمَا وَسِعَهُمَا إِلاَّ اتِّبَاعِي » (٢) . وأخبر قبل موته بقليل ، أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل . وروي عنه ﷺ أنه قال : « إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرَ لِأَنَّهُ جلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِهِ خَضْرَاءَ » (٣) والمراد بالفروة هنا الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات : وقيل المراد بذلك وجه الأرض .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا ، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه ، وأزال المشكل قال : ﴿ تَسْطِع ﴾ ، وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقيلًا فقال : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ، فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف . كما قال : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ، ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وهو أشق من ذلك فقابل كلًّا بما يناسبه لفظًا ومعنى والله أعلم . فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ، ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر ، وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع . وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح ، وغيرها أنه يوشع بن نون ، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ يا محمد ، ﴿ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ أي عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف .

وقال وهب بن منبه : كان ملكًا وإنما سمي ذا القرنين ؛ لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس . قال : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس . وقال بعضهم : كان في رأسه شبه القرنين . وقال علي رضي الله عنه : كان عبدًا ناصحًا لله فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فسمي ذا القرنين . ويقال : إنما سمي ذا القرنين ؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب .

وقوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أعطيناه ملكًا عظيمًا ممكنًا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من

---

(١) أخرجه مسلم في (الجهاد) (٥٨) وأحمد في مسنده (١/ ٣٠ ، ٣٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٨٧) والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٨) .

(٣) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء) (٣٤٠٢) والترمذي في سننه (٣١٥١) .

التمكين والجنود ، وآلات الحرب والحصارات ؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك البلاد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم ، وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ قال ابن عباس : يعني علمًا ، وقال قتادة : منازل الأرض وأعلامها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : تعليم الألسنة . قال : كان لا يغزو قومًا إلا كلمهم بلسانهم .

وعن حبيب بن حماد قال : كنت عند علي ﷺ ، وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال : سبحان الله سخر له السحاب ، وقدّر له الأسباب ، وبسط له اليد .

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ يعني بالسبب المنزل . وقال مجاهد : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ، منزلًا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب . وفي رواية عن مجاهد : طرفي الأرض . وقال قتادة : أي أتبع منازل الأرض ومعالمها . وقال الضحاك : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي المنازل . وقال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ قال : علمًا ، وقال مطر : معالم وآثار كانت قبل ذلك .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي فسلك طريقًا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض . وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء ، فمتعذر وما يذكره أصحاب القصص ، والأخبار من أنه سار في الأرض مدة ، والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له . وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب ، واختلاف زنادقتهم ، وكذبهم وقوله : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي رأى الشمس في منظره ، تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه . والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة ، وهو الطين . كما قال تعالى : ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي طين أملس ، وقال ابن جرير : كان ابن عباس يقول : في عين حمئة ثم فسرها ذات حمأة . قال نافع : وسئل عنها كعب الأحبار فقال : أنتم أعلم بالقرآن مني ، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء .

وعن أبي بن كعب ، أن النبي ﷺ أقرأه حمئة ، وقال ابن عباس : وجدها تغرب في عين حامية . يعني حارة . وقال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان ، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب .

قلت : ولا منافاة بين معنييهما ؛ إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها ، وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، وحمئة في ماء وطين أسود .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ ﴾ أي أمة من الأمم ، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم ، وقوله : ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ معنى هذا ، أن الله تعالى مكنه منهم وحكمه فيهم ، وأظفره بهم ، وخيره إن شاء قتل وسبى ، وإن شاء منَّ أو فدى ، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه ، في قوله : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه . ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

قال قتادة : بالقتل . وقال السدي : كان يحمي لهم بقر النحاس ، ويضعهم فيها حتى يذوبوا ، وقال وهب بن منبه : كان يسلط الظلمة فتدخل بيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم . وقوله : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي شديدًا بليغًا ، وجيعًا أليمًا . وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي في الدار الآخرة عند الله ﷻ ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال مجاهد : معروفًا .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ .

يقول تعالى ، ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مر بأمة قهرهم ، وغلبهم ودعاهم إلى الله ﷻ ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم ، واستباح أموالهم وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم . وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفًا وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض ، حتى بلغ المشارق والمغارب ، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أي أمة ، ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أي ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم ، وتسترهم من حر الشمس . قال سعيد بن جبير : كانوا حمرًا قصارًا مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك .

وقال الحسن - وسئل عن قول الله تعالى : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ - : إن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه ، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم . قال الحسن : هذا حديث سمرة . وقال قتادة : ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئًا ، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم .

وقيل : لم يبنوا فيها بناء قط ، ولم يبن عليهم فيها بناء قط . كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابًا لهم حتى تزول الشمس أو دخلوا البحر . وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل . جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها : لا تطلعن عليكم الشمس ، وأنتم بها . قالوا : لا نبرح حتى تطلع الشمس ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس هاهنا فماتوا . قال : فذهبوا هاربين في الأرض ، وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ قال مجاهد والسدي : علمًا أي نحن مطلعون على جميع أحواله ، وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى : ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن ذي القرنين : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة ، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد

الترك ، فيعيثون فيها فسادًا ، ويهلكون الحرث والنسل . ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم ، كما ثبت في الصحيحين : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا آدَمُ فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ : ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ . فَيَقُولُ : وَمَا بَعْثُ النَّارِ ، فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الجَنَّةِ ، فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، فَقَالَ : إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلاَّ كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ »(١).

قال بعض العلماء : هؤلاء من نسل يافث أبي الترك ، وقال : إنما سمي هؤلاء تركًا ؛ لأنهم تركوا ما وراء السد من هذه الجهة ، وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة .

وقوله : ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أي لاستعجام كلامهم ، وبعدهم عن الناس ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ . قال ابن عباس : أجرًا عظيمًا ، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالًا يعطونه إياه ، حتى يجعل بينه وبينهم سدًّا ، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه . كما قال سليمان : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ الآية . وهكذا قال ذو القرنين : الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه ، ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وآلات البناء ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ والزبر : جمع زبرة وهي القطعة منه . قاله ابن عباس : وهي كاللبنة ، يقال : كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي ، أو تزيد عليه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ ، أي وضع بعضه على بعض من الأساس ، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولًا وعرضًا ، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال . ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ أي أجج عليه النار ، حتى صار كله نارًا . ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس : هو النحاس زاد بعضهم المذاب ، ويستشهد بقوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ ولهذا يشبه بالبرد المحبر . وعن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلًا قال : يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال : « انْعَتْهُ لِي » قال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال : « قد رأيته »(٢) . وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه ، وجهز معه جيشًا (سرية) لينظروا إلى السد ، ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا ، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ، ومن ملك إلى ملك ، حتى وصلوا إليه ورأوا بناءه من الحديد ، ومن النحاس . وذكروا أنهم رأوا فيه بابًا عظيمًا ، وعليه أقفال عظيمة ، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك ، وأن عنده حرسًا من الملوك المتاخمة له ، وأنه عال منيف شاهق ، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال . ثم رجعوا إلى بلادهم ، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين ، وشاهدوا أهوالًا وعجائب . ثم قال الله تعالى :

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۝ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يأجوج ومأجوج : إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ، ولا

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه في (الأنبياء) (٣٣٤٨) ومسلم في (الإيمان) (٣٧٩) ، (الفتن) (١١٦) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣١/١٦) .

قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلًا بما يناسبه فقال : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ، ولا على شيء منه . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ ، حَتَّى إِذَا كانوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ ، حَفَرُوا ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّه ، فَيَسْتَثْنِي ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاس ، فَيَنْشِّفُونَ المِيَاهَ وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ : قَهَرْنَا الأَرْضَ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي رِقَابِهِمْ فيقتلهم بِهَا . قال رسول الله ﷺ : « والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ دَوَابَّ الأَرْضِ لَتَسمُنُ ، وتَشْكَرُ شَكْرًا مِنْ لحُومِهِمْ وَدِمَائِهِم » (١) .

قال الترمذي : إسناده جيد قوي ، ولكن متن في رفعه نكارة ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه ، ومن نكارة هذا المرفوع حديث الإمام أحمد : عن زينب بنت جحش ، زوج النبي ﷺ قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه ، وهو يقول : « لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّه وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا » ، وحلّق . قلت : يا رسول اللّه : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » (٢) .

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلًا يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ، ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أي ساواه بالأرض . تقول العرب : ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستويًا لا سنام لها . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ أي مساويًا للأرض . وقال عكرمة في قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ ، قال : طريقًا كما كان ، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أي كائنًا لا محالة . وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ أي الناس ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم يدك هذا السد ، ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ، ويفسدون على الناس أموالهم ، ويتلفون أشياءهم . وقال السدي : في قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ : ذاك حين يخرجون على الناس ، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال : هذا أول يوم القيامة . ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ على أثر ذلك ﴿ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال : إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن .

وقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ الصور كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه ، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وفي الحديث عنه ﷺ « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ » قالوا : كيف نقول . قال : « قُولُوا حَسْبُنَا اللَّه وَنِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » (٣) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥١٠/٢) وابن ماجه في سننه (١٣٦٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (الفتن) (٧٠٥٩) ومسلم في الفتن (١ ، ٢) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٨/٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٦/١) والترمذي في سننه (٢٤٣١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣١/٧) .

وقوله : ﴿ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يفعله بالكفار يوم القيامة : أنه يعرض عليهم جهنم أي يبرزها لهم ، ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ؛ ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم . وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » . ثم قال مخبرًا عنهم : ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾ أي تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى ، واتباع الحق . كما قال : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ . وقال هاهنا : ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه . ثم قال : ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك ، وينتفعون به . ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلًا .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ .

عن مصعب قال : سألت أبي - يعني سعد بن أبي وقاص - عن قول الله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدًا ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب . والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين [1] . وقال علي بن أبي طالب ، وغير واحد : هم الحرورية ، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية ، كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ، ولا هؤلاء بل هي أعم من هذا ، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى ، وقبل وجود الخوارج بالكلية ، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول وهو مخطىء وعمله مردود . كما قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ . وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم ﴾ أي نخبركم ﴿ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴾ ثم فسرهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي أعمالًا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء ، وأنهم مقبولون محبوبون . وقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا ، وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله ، وكذبوا بالدار الآخرة ، ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ أي لا نثقل موازينهم ؛ لأنها خالية عن الخير . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٢٨) .

اللّه جَناحَ بَعُوضَةٍ - قال - : اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ »(١) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم ، واتخاذهم آيات اللّه ورسله هزوًا استهزأوا بهم ، وكذبوهم أشد التكذيب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده السعداء ، وهم الذين آمنوا باللّه ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ، أن لهم جنات الفردوس . قال مجاهد : الفردوس هو البستان بالرومية . وقال السدي والضحاك : هو البستان الذي فيه شجر الأعناب . وقال أبوأمامة : الفردوس سرة الجنة ، وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها . وفي الحديث : « إذا سألتم اللّه الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة »(٢) . وقوله تعالى : ﴿ نُزُلًا ﴾ أي ضيافة فإن النزل الضيافة . وقوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدًا ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أي لا يختارون عنها غيرها ، ولا يحبون سواها .

وفي قوله : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه قد يسأمه أو يمله ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولًا ولا انتقالًا ، ولا ظعنًا ولا رحلة ، ولا بدلًا .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد ، لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي يكتب به كلمات اللّه وحكمه وآياته الدالة عليه لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ ﴾ أي بمثل البحر آخر ، ثم آخر ، وهلم جرًا بحور تمده ، ويكتب بها لما نفدت كلمات اللّه كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم اللّه كقطرة من ماء البحور كلها . وقد أنزل اللّه ذلك : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ يقول : لو كانت تلك البحور مدادًا لكلمات اللّه ، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر ، وبقيت كلمات اللّه قائمة لا يفنيها شيء ، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثني عليه كما ينبغي ، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول ، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

روي عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت يقول تعالى لرسوله محمد صلوات اللّه وسلامه عليه ﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ، ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فمن

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٦/١٨) ومسلم في المنافقين (١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٢٣) والبيهقي في سننه (١٥/٩ ، ١٥٩) .

زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذي القرنين ، مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه وإنما أخبركم ، ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ لا شريك له ، ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ ما كان موافقًا لشرع الله ، ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ، لابد أن يكون خالصًا لله صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ . وقد روي عن طاووس قال : قال رجل : يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ . جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أنبئني عما أسألك عنه ؟ أرأيت رجلًا يصلي يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويصوم يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويتصدق يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويحج يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، فقال عبادة : ليس له شيء . إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه .

وعن شداد بن أوس ﷺ أنه بكى . فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني ، سمعت رسول الله يقول : « أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الخَفِيَّةَ » . قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم أما إنهم لا يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا حجرًا ولا وثنًا ، ولكن يراؤون بأعمالهم ، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائمًا فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » (١) .

وقال ﷺ يرويه عن الله ﷻ أنه قال : « أَنَا خَيْرُ الشُّرَكَاءِ فَمَن عَمِلَ عملًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ » (٢) .

وعنه ﷺ قال : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ » . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا ، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً » (٣) .

وفي الحديث أيضًا : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » (٤) .

وقال ﷺ : « مَنْ أَحْسَنَ الصَّلاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ ، وَأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتَهَانَ بِهَا رَبَّهُ ﷻ » (٥) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٤/٤) وابن ماجه في سننه (١٤٠٦/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٠١/٢ ، ٤٣٥) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٢٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٢/١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٨/١) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٥/٤) .

(٥) أخرجه البيهقي في سننه (٢٩٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢١/١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٧/١) .

سورة مريم

روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل ، عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب ﷺ قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه [(١)] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا ، وقرأ يحيى بن يعمر ، ﴿ ذَكَّرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ وزكريا يمد ويقصر قراءتان مشهورتان . وكان نبيًّا عظيمًا من أنبياء بني إسرائيل . وورد في الصحيح أنه كان نجارًا يأكل من عمل يده في النجارة [(٢)] . وقوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ قيل : إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره ، وقال آخرون : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله ، كما قال قتادة في هذه الآية : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ إن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي . وقال بعض السلف : قام من الليل عليه السلام ، وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية : يا رب ، يا رب ، فقال الله له : لبيك لبيك لبيك ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ أي ضعفت وخارت القوى ، ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أي اضطرم المشيب في السواد .

والمراد من هذا الإخبارُ عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة . وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء ، ولم تردني قط فيما سألتك . وقوله : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى ﴾ قال مجاهد وغيره : أراد بالموالي العصبة . وقال أبو صالح : الكلالة وسبب خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفًا سيئًا ، فسأل الله ولدًا يكون نبيًّا من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه ، فأجيب في ذلك ، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله ، فإن النبي أعظم منزلة ، وأجل قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، وأن يأنف من وراثة عصباته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم . هذا وجه .

الثاني : أنه لم يذكر أنه كان ذا مال ، بل كان نجارًا يأكل من كسب يديه ، ومثل هذا لا يجمع مالًا ولا سيما الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا .

الثالث : أنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ » [(٣)] . وعلى هذا فتعين حمل قوله : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى ﴾ على ميراث النبوة . ولهذا قال : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ كقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أي في النبوة ، إذ لو كان في المال لما خصه من بين

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠١/١) . (٢) أخرجه مسلم في الفضائل (١٦٩) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٣٦) ومسلم في الجهاد (٤٩) .

إخوته بذلك ، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها وراثة خاصة ، لما أخبر بها ، وكل هذا يقرره ، ويثبته ما صح في الحديث : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ » (١) قال مجاهد في قوله : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ : كان وراثته علمًا ، وكان زكريا من ذرية يعقوب . وعن أبي صالح في قوله : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ قال : ويكون نبيًّا كما كانت آباؤه أنبياء ، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره . وقوله : ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أي مرضيًّا عندك وعند خلقك تحبه ، وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه .

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ .

هذا الكلام يتضمن محذوفًا ، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ قال قتادة وغيره : أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم ، وقال مجاهد : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أي شبيهًا أخذه من معنى قوله : ﴿ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ أي شبيهًا . وقال ابن عباس : أي لم تلد العواقر قبله مثله ، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له ، وكذلك امرأته كانت عاقرًا من أول عمرها بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام ، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما ، ولهذا قال : ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، وقالت امرأته : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ .

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ففرح فرحًا شديدًا ، وسأل عن كيفية ما يولد له ، والوجه الذي يأتيه منه الولد مع أن امرأته كانت عاقرًا لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعتا أي عسا عظمه ، ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع ، والعرب تقول للعود إذا يبس : عتا يعتو عتيًّا وعتوًّا ، وعسا يعسو عسوًّا وعسيًّا . وقال مجاهد : ﴿ عِتِيًّا ﴾ يعني قحول العظم . وقال ابن عباس وغيره : ﴿ عِتِيًّا ﴾ يعني الكبر ، والظاهر أنه أخص من الكبر .

﴿ قَالَ ﴾ أي الملك مجيبًا لزكريا عما استعجب منه : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أي إيجاد الولد منك ، ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿ هَيِّنٌ ﴾ أي يسير سهل على الله . ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه ، فقال : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤٠٣٦) ومسلم في الجهاد (٤٩) وأبو داود في سننه (٢٩٧٦ ، ٢٩٧٧) .

يقول تعالى مخبرًا عن زكريا عليه السلام أنه ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ أي علامة ودليلًا على وجود ما وعدتني ، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني ، ﴿ قَالَ آيَتُكَ ﴾ أي علامتك ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي من غير مرض ، ولا علة . قال ابن عباس : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة . قال ابن زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة . وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي متتابعات . وقال مالك عن زيد بن أسلم : ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ من غير خرس ، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ، ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ أي إشارة ، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أي أشار إشارة خفية سريعة ﴿ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكرًا لله على ما أولاه . قال مجاهد : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أي أشار ، وقال مجاهد في رواية عنه : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أي كتب لهم في الأرض .

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

وهذا أيضًا تضمن محذوفًا تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به ، وهو يحيى عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب ، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيرًا ، فلهذا نوه بذكره ، وبما أنعم به عليه ، وعلى والديه فقال : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد ، ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أي الفهم والعلم ، والجد والعزم ، والإقبال على الخير والإكباب عليه ، والاجتهاد وهو صغير حدث .

وقوله : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ يقول ورحمة من عندنا ، وكذا قال قتادة والضحاك ، وزاد : لا يقدر عليها غيرنا ، وزاد قتادة : رحم الله بها زكريا . وقال مجاهد : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وتعطفًا من ربه عليه ، وقال عكرمة : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ قال : محبة عليه . وقال ابن زيد : أما الحنان فالمحبة . وقال عطاء بن أبي رباح : تعظيمًا من لدنا . والظاهر من السياق أن قوله : وحنانًا معطوف على قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أي وآتيناه الحكم وحنانًا وزكاة ، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب : حنت الناقة على ولدها ، وحنت المرأة على زوجها ، ومنه سميت المرأة حنة من الحنية وحن الرجل إلى وطنه ، ومنه التعطف والرحمة .

وعنه ﷺ قال : « يَبْقَى رَجُلٌ فِي النَّارِ يُنَادِي أَلْفَ سَنَةٍ : يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ » (١) .

وقوله : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ معطوف على ﴿ وَحَنَانًا ﴾ ، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب . وقال قتادة : الزكاة العمل الصالح ، وقال الضحاك : العمل الصالح الزكي . وقال ابن عباس :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٢٠) .

﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ قال : بركة . ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ طاهرًا فلم يعمل بذنب . وقوله : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى . عطف بذكر طاعته لوالديه ، وبره بهما ومجانبته عقوقهما ، قولًا وفعلًا ، أمرًا ونهيًا ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ . ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال .

قال الحسن : إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي أنت خير مني . فقال له الآخر : أنت خير مني . فقال له عيسى : أنت خير مني سلمت على نفسي ، وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما .

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة ، ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ وهي مريم بنت عمران ، من سلالة داود عليه السلام ، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل . وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران ، وأنها نذرتها محررة أي تخدم مسجد بيت المقدس وكانوا يتقربون بذلك . ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة ، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك ، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ . فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف ، وثمر الصيف في الشتاء .

فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام . ﴿ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ أي اعتزلتهم وتنحت عنهم ، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدَّس . عن ابن عباس قال : إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت ، والحج إليه وما صرفهم عنه إلا قيل ربك : ﴿ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ قال : خرجت مريم مكانًا شرقيًا ، فصلوا قبل مطلع الشمس . وعن ابن عباس قال : إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ ، واتخذوا ميلاد عيسى قبلة [1] . وقال قتادة : ﴿ مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ شاسعًا متنحيًا . وقوله : ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا ﴾ أي استترت منهم وتوارت ، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ، ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أي على

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/٧٥) .

صورة إنسان تام كامل . قال مجاهد والضحاك وغيرهما في قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ : يعني جبرائيل ﷺ . وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن ، فإنه تعالى قد قال : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ .

﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر ، وهي في مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب ، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها . فقالت : ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيرًا له بالله . وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل فخوفته أولًا بالله ﷻ ، قال أبو وائل : قد علمت أن التقي ذو نهية ، حين قالت : ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي فقال لها الملك مجيبًا لها ، ومزيلًا لما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست مما تظنين ولكني رسول ربك ، أي بعثني الله إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ أي فتعجبت مريم من هذا . وقالت : كيف يكون لي غلام ، أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور مني الفجور . ولهذا قالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ والبغي هي الزانية . ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أي فقال لها الملك مجيبًا لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلامًا ، وإن لم يكن لك بعل ، ولا يوجد منك فاحشة ، فإنه على ما يشاء قادر . ولهذا قال : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم ، وخالقهم ، ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبيًا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده .

وعن مجاهد قال : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت حدثني عيسى ، وكلمني وهو في بطني ، وإذا كنت مع الناس سبح في بطني وكبر . وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى ، وقدره ومشيئته ، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها . كما قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ . قال محمد بن إسحاق : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله ما قال ، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى . فذكر غير واحد من علماء السلف : أن الملك هو جبرائيل ﷺ ، عند ذلك نفخ في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى . فلما حملت به ضاقت ذرعًا ، ولم تدر ماذا تقول للناس ، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به ، غير أنها أفشت سرها ، وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا . وذلك أن زكريا ﷺ ، كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك . فحملت امرأته فدخلت عليها مريم فقامت إليها ، فاعتنقتها وقالت : أشعرتِ يا مريم أني حبلى ؟ فقالت لها مريم : وهل علمت أيضًا أني حبلى . وذكرت لها شأنها ، وما

كان من خبرها ، وكانوا بيتَ إيمان وتصديق .

قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ : بلغني أن عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ابنا خالة ، وكان حملهما جميعًا معًا ، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم : إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك . قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ؛ لأن اللَّه جعله يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص . ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، فالمشهور عن الجمهور : أنها حملت به تسعة أشهر . وقال عكرمة : ثمانية أشهر . قال : ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر ، وقال ابن جريج : أخبرني المغيرة بن عتبة بن عبد اللَّه الثقفي ، سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت . وهذا غريب ، والمشهور الظاهر أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها ، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها في البيت المقدَّس يقال له : يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه . فحمل نفسه على أن عرض لها القول فقال : يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي . قالت : وما هو ؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حب ؟ وهل يكون زرع من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟ فقالت : نعم ، وفهمت ما أشار إليه . أما قولك : هل يكون شجر من غير حب ، وزرع من غير بذر ؟ فإن اللَّه خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر . وهل يكون ولد من غير أب ؟ فإن اللَّه تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم فصدقها وسلم لها حالها . ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة انتبذت منهم مكانًا قصيًّا ، أي قاصيًا منهم بعيدًا عنهم لئلا تراهم ولا يروها .

قال محمد بن إسحاق : فلما حملت به وملأت قلتها ، ورجعت استمسك عنها الدم ، وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون ، حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا . وشاع الحديث في بني إسرائيل ، فقالوا : إنما صاحبها يوسف ، ولم يكن معها في الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس ، واتخذت من دونهم حجابًا فلا يراها أحد ، ولا تراه . وقوله : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحت إليه . وقوله تعالى إخبارًا عنها : ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها . وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . فقالت : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أي قبل هذا الحال ، ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي لم أخلق ، ولم أك شيئًا ، قاله ابن عباس ، وقال قتادة : ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي شيئًا لا يعرف ولا يذكر ، ولا يدرى من أنا ، وقال الربيع بن أنس : ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ هو السقط . وقال ابن زيد : لم أكن شيئًا قط ، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة عند قوله : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى

وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ .

قرأ بعضهم ﴿ مَنْ تَحْتَهَا ﴾ [1] بمعنى الذي تحتها ، وقرأ الآخرون ﴿ مِن تَحۡتِهَآ ﴾ على أنه حرف جر .

واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو ؟ فقال ابن عباس : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ ﴾ : جبريل ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، وقال الضحاك : ناداها من أسفل الوادي . وقال مجاهد : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ ﴾ قال : عيسى ابن مريم ، وعن سعيد بن جبير أنه ابنها قال : أو لم تسمع الله يقول : ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ﴾ وقوله : ﴿ أَلَّا تَحۡزَنِي ﴾ أي ناداها قائلًا : لا تحزني ، ﴿ قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾ عن ابن عباس : السري النهر ، وقال مجاهد : هو النهر بالسريانية . وقال قتادة : هو الجدول بلغة أهل الحجاز . وقال السدي : هو النهر واختار هذا القول ابن جرير . وقال آخرون : المراد بالسري عيسى عليه السلام ، والقول الأول أظهر ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ أي وخذي إليكِ بجذع النخلة ، قيل : كانت يابسة ، قاله ابن عباس ، وقيل : مثمرة ، والظاهر أنها لم تكن في إبان ثمرها ، قاله وهب بن منبه . ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعامًا وشرابًا . فقال : ﴿ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ ﴾ أي طيبي نفسًا ؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة .

وقوله : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا ﴾ أي مهما رأيت من أحد ، ﴿ فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد به القول اللفظي ؛ لئلا ينافي ﴿ فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ ، قال أنس بن مالك في قوله : ﴿ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا ﴾ : صمتًا ، وفي رواية عن أنس صومًا وصمتًا ، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام . قال ابن إسحاق عن حارثة : كنت عند ابن مسعود ، فجاء رجلان فسلم أحدهما ، ولم يسلم الآخر . فقال : ما شأنك ؟ قال : أصحابه : حلف أن لا يكلم الناس اليوم . فقال عبد الله بن مسعود : كلم الناس وسلم عليهم ، فإن تلك امرأة علمت أن أحدًا لا يصدقها أنها حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم عليها السلام - ليكون عذرًا لها إذا سئلت .

﴿ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ۝ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ۝ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ۝ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك ، وأن لا تكلم أحدًا من البشر ، فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها ، فسلمت لأمر الله عز وجل ، واستسلمت لقضائه . فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها ، واستنكروه جدًّا ، وقالوا : ﴿ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴾ أي أمرًا عظيمًا .

---

(١) قرأ المدنيان وحمزة والكسائي وخلف وحفص وروح (مِن تحتِها) بكسر الميم وخفض التاء ، والباقون بفتح الميم ونصب التاء . انظر تقريب النشر ص ١٤٠ .

﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة ، ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة . فكيف صدر هذا منك ؟ قال علي بن أبي طلحة والسدي : قيل لها : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ ، أي أخي موسى ، وكانت من نسله . كما يقال للتميمي : يا أخا تميم ، وقيل : نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون ، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة .

وعن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «أَلاَ أَخبرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُو يُسَمُّوْنَ بِالأَنبِيَاءِ والصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ » (١) .

قوله : ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ الآية . قال قتادة : كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ، ولا يعرفون بالفساد ، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به ، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به . وكان هارون مصلحًا محببًا في عشيرته ، وليس بهارون أخي موسى ، ولكنه هارون آخر . وقوله : ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ أي أنهم لما استرابوا في أمرها ، واستنكروا قضيتها ، وقالوا لها ما قالوا معرّضين بقذفها ورميها بالفرية ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة ، فأحالت الكلام عليه ، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم : ﴿ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ ؟ قال ميمون بن مهران : ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ﴾ قالت : كلموه . فقالوا : على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيًّا . وقال السدي : لما ﴿ أشارت إليه ﴾ ، غضبوا وقالوا : لَسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها . ﴿ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ ؟ أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره كيف يتكلم ؟ ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾ ، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى ، وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه . وقوله : ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾ ، تبرئة لأمه مما نُسبت إليه من الفاحشة .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ ﴾ . قال مجاهد والثوري : وجعلني معلمًا للخير . وفي رواية عن مجاهد : نفاعًا . وقال وهيب بن الورد مولى بني مخزوم : لقي عالم عالمًا هو فوقه في العلم فقال له : يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي ؟ قال : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد أجمع الفقهاء على قول الله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ ﴾ وقيل : ما بركته؟ قال : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر أينما كان . وقوله : ﴿ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ وقال مالك بن أنس في قوله : ﴿ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴾ : أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت . ما أبينها لأهل القدر . وقوله : ﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾ أي وأمرني ببر والدتي ذكره بعد طاعة ربه ؛ لأن الله تعالى كثيرًا ما يقرن بين الأمر بعبادته ، وطاعة الوالدين . كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ أي ولم يجعلني جبارًا مستكبرًا عن عبادته وطاعته ، وبرّ والدتي فأشقى بذلك . وقال بعض السلف : لا تجد

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٥٢) والترمذي في سننه (٣١٥٥) .

أحدًا عاقًا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًا ، ثم قرأ : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ قال : ولا تجد سيِّىء الملكة إلا وجدته مختالًا فخورًا ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ إثبات منه لعبوديته لله ﷻ ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ، ويُبعث كسائر الخلائق . ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبدًا نبيًا نزه نفسه المقدسة فقال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوًا كبيرًا . ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي إذا أراد شيئًا ، فإنما يأمر به فيصير كما يشاء . كما قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه ، وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم ، وأمرهم بعبادته فقال : ﴿ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه ، وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم ، وأمرهم بعبادته فقال : ﴿ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم ، أي قويم من اتبعه رشد ، وهدي ، ومن خالفه ضل وغوى . وقوله : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ، ووضوح حاله ، وأنه عبده ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصممت اليهود - عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية ، وقالوا : كلامه هذا سحر . وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله . وقال آخرون : بل هو ابن الله . وقال آخرون : ثالث ثلاثة . وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي أرشد إليه المؤمنين .

وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله ، وافترى وزعم أن له ولدًا . ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة ، وأجلهم حلمًا وثقة بقدرته عليهم ، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه ، كما جاء في الصحيحين : « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) . وفي الصحيحين أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدًا ، وهو يرزقهم ويعافيهم » (٢) . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ . ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٦٨٦) والبيهقي في سننه (٦/٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٣٧٨) (ومسلم في صفات المنافقين) (٤٩ ، ٥٠) والإمام أحمد في مسنده (٤/٣٩٥ ، ٤٠١) .

مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة . وقد جاء في الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت عنه ﷺ : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِله إِلاَّ الله ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ ، وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ » (١) .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار يوم القيامة ، ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ، ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ يعني يوم القيامة ، ﴿ لَكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي في الدنيا ، ﴿ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي لا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي فصل بين أهل الجنة ، وأهل النار ، وصار كل إلى ما صار إليه مخلدًا فيه . ﴿ وَهُمْ ﴾ أي اليوم ﴿ فِي غَفْلَةٍ ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة . ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون به .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأَهْلُ النارِ النَّارَ يُجَاءُ بِالمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ ، فَيُوقَف بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّار فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَئِبُّونَ ، وَيَنْظُرُونَ ، وَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا المَوْتُ - قال - : فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَقُولُونَ : نَعَم هَذَا المَوْتُ - قال - : فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ - قال : وَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ وَلاَ مَوْت ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلاَ مَوْت » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وأشار بيده ، ثم قال : « أَهْلُ الدُّنْيَا في غفلة الدنيا » (٢) وعن عبد الله ابن مسعود في قصة ذكرها قال : فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة ، وبيت في النار وهو يوم الحسرة فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعده الله لهم لو آمنوا ، فيقال لهم : لو آمنتم وعملتم صالحًا كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة ، فتأخذهم الحسرة . قال : ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار ، فيقال : لولا أن الله منَّ عليكم .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ قال : من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده . وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف ، وأن الخلق كلهم يهلكون ، ويبقى هو تعالى وتقدس ، ولا أحد يدعي ملكًا ولا تصرفًا . بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم ، الحاكم فيهم فلا تظلم نفس شيئًا ولا جناح بعوضة ، ولا مثقال ذرة .

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء) (٣٤٣٥) ومسلم في (الإيمان) (٤٦) والإمام أحمد في مسنده (٣١٣/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧١/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧٣٠) ومسلم في الجنة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٧٧/٢) .

﴿ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : واذكر في الكتاب إبراهيم ، واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام . واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن ، الذين هم من ذريته ، ويدعون أنهم على ملته ، وقد كان صديقًا نبيًّا مع أبيه ، كيف نهاه عن عبادة الأصنام فقال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ أي لا ينفعك ، ولا يدفع عنك ضررًا ، ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ يقول : وإن كنت من صلبك ، وتراني أصغر منك لأني ولدك ، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله ما لم تعلمه أنت ، ولا اطلعت عليه ، ولا جاءك . ﴿ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ أي طريقًا مستقيمًا موصلًا إلى نيل المطلوب ، والنجاة من المرهوب ، ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام ، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ . وقوله ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ أي مخالفًا مستكبرًا عن طاعة ربه ، فطرده وأبعده فلا تتبعه تصر مثله . ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي على شركك وعصيانك لما آمرك به . ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصرًا ، ولا مغيثًا إلا إبليس ، واتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك . كما قال تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ، ولا ترضاها ، فانته عن سبها وشتمها وعيبها ، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك ، وشتمتك وسببتك . وهو قوله : ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ ، قاله ابن عباس والسدي وغيرهما وقوله : ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال مجاهد : يعني دهرًا . وقال الحسن البصري : زمانًا طويلًا . وقال السدي : ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال : أبدًا . وعن ابن عباس : ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال : سويًّا سالمًا قبل أن تصيبك مني عقوبة . فعندها قال إبراهيم لأبيه : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه ، ولا أذى ؛ وذلك لحرمة الأبوة ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ . قال ابن عباس وغيره : لطيفًا أي في أن هداني لعبادته ، والإخلاص له . وقال قتادة : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ قال : عوده الإجابة . وقال السدي : الحفي الذي يهتم بأمره .

وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام ، وبنى المسجد الحرام ، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام . في قوله : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ . وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام ، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ الآية . يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به . ثم بيَّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ،

ورجع عنه . فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ أي : أجتنبكم وأتبرأ منكم ، ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله . ﴿ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ أي : وأعبد ربي وحده لا شريك له ، ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ . وعسى هذه موجبة لا محالة ، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ .

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ .

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خير منهم ، ووهب له إسحاق ويعقوب يعني : ابنه وابن إسحاق ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ وقال : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ . ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب ، وهو نص القرآن في سورة البقرة ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ . ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب أي : جعلنا له نسلًا ، وعقبًا أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته ولهذا قال : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ ، فلو لم يكن يعقوب عليه السلام ، قد نبئ في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه . ولذكر ولده يوسف ، فإنه نبي أيضًا . كما قال رسول الله ﷺ حين سئل عن خير الناس ؟ فقال : « يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّه ابْنُ يَعْقُوبَ نَبيِّ اللَّه ابن إِسْحَاقَ نَبِيِّ اللَّه ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّه »(١) . وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ قال ابن عباس : يعني : الثناء الحسن . وقال ابن جرير : إنما قال : ﴿ عَلِيًّا ﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ، ويمدحونهم .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه عطف بذكر الكليم فقال : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة . وقال أبو لبابة : قال الحواريون : يا روح الله أخبرنا عن المخلص لله ؟ قال : الذي يعمل لله لا يحب أن يحمده الناس . وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفى(٢) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى ﴾ . ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وقوله : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾ أي : الجانب ﴿ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فرآها تلوح فقصدها ، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه غربيه عند شاطئ الوادي ، فكلمه الله تعالى ، وناداه وقربه فناجاه . قال ابن عباس : ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ أدني حتى سمع صريف القلم(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في (المناقب) (٣٤٩٠) ومسلم في (الفضائل) (١٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٣١/٢) .
(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ مخلَصًا ﴾ وقرأ الباقون ﴿ مُخلِصًا ﴾ بكسر اللام . انظر حجة القراءات ص ٤٤٥ .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١١٩/١٦) .

يعني : صريف القلم بكتابة التوراة . وقال السدي : أدخل في السماء فكلّم . وقال قتادة : نجا بصدقه . وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ أي : وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبيًّا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ .

قال ابن عباس : قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ قال : هارون أكبر من موسى ، ولكن أراد وهب نبوته له .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ .

هذا ثناء من اللّه تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام - وهو والد عرب الحجاز كلهم - بأنه كان صادق الوعد . قال ابن جريج : لم يعد ربه عدة إلا أنجزها ، يعني : ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها . وقال سهل بن عقيل أن إسماعيل النبي عليه السلام وعد رجلًا مكانًا أن يأتيه فيه ، فجاء ونسي الرجل ، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال : ما برحت من هاهنا ؟ قال : لا . قال : إني نسيت . قال : لم أكن لأبرح حتى تأتيني . فذلك ﴿ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ (١) .

وقال سفيان الثوري : بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولًا حتى جاءه . وقال عبد اللّه بن أبي الحمساء : بايعت رسول اللّه ﷺ قبل أن يبعث ، فبقيت له عليّ بقية ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك . قال : فنسيت يومي والغد ، فأتيته في اليوم الثالث ، وهو في مكانه ذلك فقال لي : «يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَاهُنَا مُنْذُ ثَلاثٍ أَنْتَظِرُكَ» (٢) وقال بعضهم : إنما قيل له ﴿ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ ؛ لأنه قال لأبيه ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، فصدق في ذلك . وقال رسول اللّه ﷺ : «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حدَّث كَذَبَ ، وإذا وعَدَ أخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» (٣) . ولما كانت هذه صفات المنافقين ، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين . ولهذا أثنى اللّه على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد . وكذلك كان رسول اللّه ﷺ صادق الوعد أيضًا ، لا يعد أحدًا شيئًا إلا وفى له به . ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق : من كان له عند رسول اللّه ﷺ عدة أو دين فليأتني أنجز له ، فجاء جابر بن عبد اللّه فقال : إن رسول اللّه ﷺ قال : «لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا» (٤) . يعني : ملء كفيه ، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابرًا ، فغرف بيديه من المال ، ثم أمره بعده فإذا هو خمسمائة درهم ، فأعطاه مثليها معها .

وقوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وفي الصحيح أنه ﷺ قال : «إِنَّ اللّه اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ» ، فدل على صحة ما قلناه . وقوله : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ هذا أيضًا من الثناء الجميل ، والصفة الحميدة ، والخلة السديدة حيث كان

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/١١٩) .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٩٦) والبيهقي في السنن (١٠/١٩٨) وذكره الهندي في كنز العمال (٦٨٧٩) .
(٣) أخرجه البخاري في (الشهادات) (٢٦٨٢) ومسلم في (الإيمان) (١٠٧ ، ١٠٩) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٧) .
(٤) أخرجه البخاري في (الكفالة) (٢٢٩٦) ومسلم في (الفضائل) (٦٠) والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٠٧) .

صابرًا على طاعة ربه ﷻ آمرًا بها لأهله . كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ الآية . وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » (١) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

ذكر إدريس ﷺ بالثناء عليه بأنه كان صديقًا نبيًا ، وأن الله رفعه مكانًا عليًا ، وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء ، وهو في السماء الرابعة .

قوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ، قال مجاهد : إدريس رفع ، ولم يمت كما رفع عيسى وقال منصور عنه : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ السماء الرابعة . وقال ابن عباس : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ : رفع إلى السماء السادسة فمات بها . وقال الحسن وغيره في قوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ : الجنة .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ .

يقول تعالى : هؤلاء النبيون وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط ، بل جنس الأنبياء ﷺ . استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ الآية . قال السدي وابن جرير : فالذي عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم ، والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل ، والذي عنى به من ذرية إسرائيل موسى ، وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم . قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة ، وهو إدريس فإنه جد نوح ، قلت : هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح ﷺ . وقد قيل : إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذًا من حديث الإسراء حيث قال في سلامه على النبي ﷺ : مرحبًا بالنبي الصالح ، والأخ الصالح (٢) ، ولم يقل والولد الصالح ، كما قال آدم وإبراهيم ﷺ .

وعن مجاهد أنه سأل ابن عباس : أفي ﴿ صٓ ﴾ سجدة ؟ فقال : نعم . ثم تلا هذه الآية : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ فنبيكم ممن أمر أن يقتدي بهم . قال : وهو منهم يعني داود (٣) . وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ أي : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعًا واستكانة حمدًا وشكرًا على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكي جمع باك ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم .

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ .

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء ﷺ ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٥٠) وأبو داود في سننه (٢/٧٠) وابن ماجه في سننه (١٣٣٥) .
(٢) أخرجه البخاري في (مناقب الأنصار) (٣٨٨٧) ومسلم في الإيمان (٢٦٣) والإمام أحمد في مسنده (٤/٢٠٩) .
(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٠٦ ، ٤٨٠٧) .

المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ، ذكر أنه خلف ﴿ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ أي : قرون أخر ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيًّا أي : خسارًا يوم القيامة . وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا . فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة للحديث : « بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلاةِ » (١) . والحديث الآخر : « العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاةُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ » (٢) . وليس هذا محل بسط هذه المسألة . وقال ابن مخيمرة : إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركًا كان كفرًا ، وعن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ و ﴿ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴾ و ﴿ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ . فقال ابن مسعود : على مواقيتها . قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك ، قال : ذلك الكفر . قال مسروق : لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس ، فيكتب من الغافلين . وفي إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن ، وعن يزيد أن عمر بن العزيز قرأ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت . وقال مجاهد : ذلك عند قيام الساعة ، وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة .

وقال ابن جرير عن مجاهد قال : هم في هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام ، والحمر في الطرق لا يخافون الله في السماء ، ولا يستحيون من الناس في الأرض . عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَكُونُ خَلَفٌ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً أَضَاعُوا الصَّلاةَ ، واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ، ثُمَّ يَكُونُ خَلَفٌ يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لاَ يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ ثَلاثَةٌ : مُؤْمِن وَمُنَافِقٌ وَفَاجِرٌ » . وقال بشير : قلت للوليد : ما هؤلاء الثلاثة ؟ قال : المؤمن مؤمن به والمنافق كافر به ، والفاجر يأكل به (٣) ، وقال كعب الأحبار : والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله ﷻ ، شرَّابين للقهوات ، ترَّاكين للصلوات ، لعَّابين بالكعبات ، رقَّادين عن العتمات ، مفرِّطين في الغدوات ، ترَّاكين للجماعات . قال ثم تلا هذه الآية : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ . وقال الحسن البصري : عطلوا المساجد ، ولزموا الضيعات ، وقال أبو الأشهب العطاري : أوحى الله إلى داود ﷺ : يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي .

وقوله : ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ ، قال ابن عباس : أي خسرانًا . وقال قتادة : شرًّا . وقال عبد الله بن مسعود : واد في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم ، وقال زياد عن أبي عياض : واد في جهنم من قيح ودم . وقوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ ، أي : إلا من رجع عن ترك الصلوات ، واتباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٧٨) والترمذي في سننه (٢٦١٩ ، ٢٦٢٠) والبيهقي في سننه (٣/٣٦٦) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٤٦) والحاكم في المستدرك (١/٦ ، ٧) والترمذي في سننه (٢٦٢١) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣٨) والحاكم في المستدرك (٢/٣٧٤) وذكره السيوطي في الدر (٤/٢٧٣ ، ٢٧٧) .

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ؛ وذلك لأن التوبة تجبُّ ما قبلها . وفي الحديث الآخر : « التَّائِب مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ » (١) ، ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئًا ؛ ولا قوبلوا بما عملوه قبلها ، فينقص لهم مما عملوه بعدها ؛ لأن ذلك ذهب هدرًا ، وترك نسيًا ، وذهب مجانًا من كرم الكريم ، وحلم الحليم .

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ .

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن - أي : إقامة - التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب - أي : هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه - وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته ، واستقراره فإن الله لا يخلف الميعاد ، ولا يبدله . كقوله : ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ أي : كائنًا لا محالة . وقوله هاهنا : ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ أي : العباد صائرون إليه وسيأتونه . ومنهم من قال : ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ بمعنى : آتيًا ؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيته ، كما تقول العرب : أتت علي خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد ؛ وقوله : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أي : هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له ، كما قد يوجد في الدنيا . وقوله : ﴿ إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ استثناء منقطع كقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أي : في مثل وقت البكرات ، ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلًا ونهارًا ، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار . كما قال رسول الله ﷺ : « أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُوَرُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ ، آنِيَتهُمْ وَأَمْشَاطُهُم الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ ، وَمَجَامِرهُمْ الأَلُوَّة ، وَرَشْحُهُم المِسْكُ ، وَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَان يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْم مِنَ الحُسْنِ ، لاَ اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ ، ولاَ تَبَاغُضَ ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » (٢) وقال أيضًا ﷺ : « الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ بِبَابِ الجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » (٣)

قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ : مقادير الليل والنهار . وسئل زهير بن محمد عن قول الله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ قال : ليس في الجنة ليل هم في نور أبدًا ، ولهم مقدار الليل والنهار يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب ، وبفتح الأبواب (٤) . وقال قتادة : فيها ساعتان بكرة وعشي ليس ثم ليل ولا نهار ، وإنما هو ضوء ونور . وقال مجاهد : ليس بكرة ولا عشي ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا ، وقوله : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ أي : هذه الجنة التي وصفنا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٥٠) والبيهقي في الكبرى (١٥٤/١٠) .
(٢) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣٢٤٥) ومسلم في الجنة (١٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٣/٢ ، ٣١٦) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/١) والحاكم في المستدرك (٧٤/٢) .
(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٨/١٦) .

بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبرائيل : « مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا ؟ » قال : فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية (١) .

وقوله : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ قيل : المراد ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أمر الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أمر الآخرة ، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ ما بين النفختين . وقيل : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أي : ما مضى من الدنيا ، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي : ما بين الدنيا والآخرة وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قال مجاهد : معناه : ما نسيك ربك . وعن أبي الدرداء يرفعه قال : « مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَمَا حَرَّمَهُ فَهُوَ حَرَامٌ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ . وقوله : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : خالق ذلك ومدبره ، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه . ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ قال ابن عباس : هل تعلم للرب مثلًا أو شبيهًا . وقال عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته . كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقال هاهنا : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ، ولم يك شيئًا أفلا يعيده ، وقد صار شيئًا . كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وفي الصحيح : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي ، وَآذَانِي ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِيَنِي ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ أَنَّ لِي وَلَدًا ، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (٢) . وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لابد أن يحشرهم جميعًا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ، ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ . قال ابن عباس : يعني : قعودًا . كقوله : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ وقال السدي : يعني قيامًا ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢٣١ ، ٣٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٧٤) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٠) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ يعني من كل أمة ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ ، قال ابن مسعود : يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعًا ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا وهو قوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ وقال قتادة : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ قال : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ المراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب . كما قال في الآية المتقدمة : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن . وقال بعضهم : يدخلوها جميعًا ، ثم ينجي الله الذين اتقوا . فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا في الورود . فقال : يردونها جميعًا ، وقال سليمان بن مرة : يدخلونها جميعًا ، وأهوى بإصبعيه إلى أذنيه وقال : صمتًا ، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاَ يَبْقَى بَرٌّ ولاَ فَاجِرٌ إلاَّ دَخَلَهَا فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بَرْدًا وَسَلاَمًا ، كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ »(١) . عن قيس بن أبي حازم قال : كان عبد الله بن رواحة واضعًا رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته قال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكي فبكيت قال : إني ذكرت قول الله ﷻ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا - وفي رواية - وكان مريضًا . وعن أبي إسحاق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : يا ليت أمي لم تلدني ، ثم يبكي فقيل له : ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا أنا واردوها ، ولم نخبر أنا صادرون عنها (٢) . وقال ابن عينية عن عمرو : أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس : الورود الدخول ، فقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ وردوا أم لا ؟ وقال : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ أوردها أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع .

وعن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال : له أبو راشد . وهو نافع ابن الأزرق . فقال له : يا ابن عباس أرأيت قول الله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ قال : أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا ؟

وعن عبد الله بن مسعود ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَرِدُ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ »(٣) ، وعن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : يرد الناس جميعًا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣٢٨) والحاكم في المستدرك (٤/٥٨٧) وأورده السيوطي في الدر (٤/٢٨٠) وقال ابن كثير : غريب ولم يخرجوه .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/١٣٧) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٤٣٥) .

الصراط وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مرًّا رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط ، والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القتاد ، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس . وعن أبي الأحوص ، عن عبد الله قال : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم [1] .

وعن حفصة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لا يَدْخُلَ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا والحُدَيْبِيَةَ » . قالت : فقلت : أليس الله يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ؟ قالت : فسمعته يقول : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [2] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ تمسه النَّارُ إِلاَّ تَحِلَّةَ القَسَمِ » [3] .

قال قتادة في قوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ : هو الممر عليها ، وقال ابن زيد ابن أسلم : ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين أن يدخلوها .

وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ : قسمًا واجبًا : وقال مجاهد : ﴿ حَتْمًا ﴾ قال : قضاء ، وقوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار ، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط ، وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم ، وهي مواضع السجود ، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان ، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ أي : أحسن منازل وأرفع دورًا ، وأحسن نديًا ، وهو مجتمع الرجال للحديث ، أي : ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا ، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/١٣٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٢٨٥) وابن ماجه في سننه (٤٢٨١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٠٧) .

(٣) أخرجه البخاري في (الأيمان والنذور) (٦٦٥٦) ومسلم في (البر والصلة) (١٥٠) والترمذي في سننه (١٠٦٠) .

ونحوها من الدور على الحق ؟!! كما قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ . وقال قوم نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى رادًّا عليهم شبهتهم : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي : وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ، ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ أي : كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعة ومناظر وأشكالًا ، قال ابن عباس : المقام المنزل ، والندي المجلس والأثاث المتاع ، والرئي المنظر . وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ فالمقام المسكن والنعيم ، والندي المجلس ، والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه . وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ والعرب تسمي المجلس : النادي : وقال قتادة : لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة ، وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ ومنهم من قال في الأثاث : هو المال ، ومنهم من قال : الثياب . ومنهم من قال : المتاع والرئي المنظر ، وقال الحسن البصري : يعني الصور ، وكذا قال مالك ﴿ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ أكثر أموالًا ، وأحسن صورًا ، والكل متقارب صحيح .

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق ، وأنكم على الباطل ﴿ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ ﴾ أي : منا ومنكم ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ أي : فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه ، وينقضي أجله ﴿ إِمَّا ٱلْعَذَابَ ﴾ ، يصيبه ﴿ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ ، بغتة تأتيه ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ ، حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام ، وحسن الندى . قال مجاهد في قوله : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ أي فليدعه الله في طغيانه ، وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه . كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ : أي : ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدّعون أنكم على الحق ، فإنه لا يضركم الدعاء ، فنكلوا عن ذلك .

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ .

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه ، وزيادته على ما هو عليه أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ الآيتين . وقوله : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ قد تقدم تفسيرها ، ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أي : جزاء ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أي : عاقبة ومردًا على صاحبها . وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عودًا يابسًا فحط ورقه ثم قال : « إِنَّ قول : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، والله أَكْبَر ، وَسُبْحَانَ الله ، والحَمْدُ للهِ تَحُطُّ الخَطَايَا كَمَا تَحُطُّ وَرَقَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ ، خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ ، هُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ » قال أبو سلمة : فكان أبو الدرداء إذا ذكر

هذا الحديث قال : لأهللن الله ، ولأكبرن الله ولأسبحن الله ، حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون (١) .

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ .

عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلًا قينًا وكان لي على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث قال : فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك . فأنزل الله ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا - إلى قوله - وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (٢) .

وقال ابن عباس : إن رجالًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين ، فأتوه يتقاضونه فقال : ألستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالًا وولدًا ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به . فضرب الله مثله في القرآن فقال : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا - إلى قوله - وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ .

وقوله : ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ ﴾ إنكار على هذا القائل ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ يعني : يوم القيامة أي أعلم ماله في الآخرة ، حتى تألى وحلف على ذلك ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ ، أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك ؟ وقد تقدم أنه الموثق ، وقال ابن عباس ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ قال : لا إله إلا الله ، فيرجو بها . وقال ابن كعب القرظي : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، ثم قرأ : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ وقوله : ﴿ كَلَّا ﴾ هي : حرف ردع لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي : من طلبه ذلك ، وحكمه لنفسه بما يتمناه ، وكفره بالله العظيم ، ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أي : في الدار الآخرة على قوله ذلك ، وكفره بالله في الدنيا ، ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ أي من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالًا وولدًا زيادة على الذي له في الدنيا ، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أي من المال والولد وقال مجاهد : ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ ماله وولده ، وعن قتادة : ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ قال : ما عنده وهو قوله : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ وقال قتادة : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ لا مال له ولا ولد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ قال : ما جمع من الدنيا ، وما عمل فيها قال : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ قال : فردًا من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير .

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الآلهة ﴿ عِزًّا ﴾ يعتزون بها ويستنصرونها ، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا فقال : ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي : بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال

(١) ذكره الهندي في (كنز العمال) (٤٤٣٢٤). (٢) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧٣٢).

تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ . وقال السدي : ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي : بعبادة الأوثان . وقوله : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي : بخلاف ما رجوا منهم . وقال ابن عباس ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : أعوانًا . قال مجاهد : عونًا عليهم تخاصمهم ، وتكذبهم ، وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : قرناء . وقال قتادة : قرناء في النار يلعن بعضهم بعضًا ، ويكفر بعضهم ببعض . وقال السدي : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : الخصماء الأشداء في الخصومة ، وقال الضحاك : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : أعداء ، قال ابن زيد : الضد البلاء ، وقال عكرمة : الضد الحسرة . وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ قال ابن عباس : تغويهم إغواء . وقال العوفي عنه : تحرضهم على محمد وأصحابه . وقال مجاهد : تشليهم إشلاء . وقال قتادة : تزعجهم إزعاجًا إلى معاصي الله . وقال سفيان الثوري : تغريهم إغراء ، وتستعجلهم استعجالًا . وقال السدي : تطغيهم طغيانًا . وقال عبد الرحمن بن زيد : هذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ أي : لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ أي : إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله . وقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ الآية ، ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ . وقال السدي : إنما نعد لهم عدًّا : السنين والشهور ، والأيام والساعات ، وقال ابن عباس ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ قال : نعد أنفاسهم في الدنيا .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ .

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله ، وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه ، والوفد هم القادمون ركبانًا ، ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور في مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه ، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفًا إلى النار ﴿ وِرْدًا ﴾ عطاشًا .

وعن ابن مرزوق قال : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها ، وأطيبها ريحًا ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما تعرفني ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيب ريحك ، وحسن وجهك . فيقول : أنا عملك الصالح ، وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه فطالما ركبتك في الدنيا ، فهلم اركبني فيركبه . فذلك قوله : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ . وقال ابن عباس : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ . قال : ركبانًا . وعن أبي هريرة ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ قال : على الإبل . وقال قتادة : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ قال : إلى الجنة [١] .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٥٨/١٦ ، ١٥٩) .

وعن النعمان بن سعيد قال : كنا جلوسًا عند علي ﷺ فقرأ هذه الآية : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة (١) .

وقوله : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ أي : عطاشًا ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ أي : ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ . وقوله : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها ، قال ابن عباس : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ قال : العهد شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله ﷻ . وعن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ ثم قال اتخذوا عند الله عهدًا ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلمنا . قال : قولوا : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي يقربني من الشر ، ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهدًا تؤديه إليَّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . قال المسعودي : فحدثني زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن ، أخبرنا ابن مسعود وكان يلحق بهن خائفًا مستجيرًا مستغفرًا راهبًا راغبًا إليك .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ .

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى ﷺ ، وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدًا تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًّا كبيرًا فقال : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ ﴾ أي : في قولكم هذا ، ﴿ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ قال ابن عباس : أي عظيمًا . وقوله : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ أي : يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظامًا للرب وإجلالًا ؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ، ولا ولد له ولا صاحبة له ، ولا كفء له ، بل هو الأحد الصمد .

وفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الواحِدُ

قال ابن عباس في قوله : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ قال : إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض ، والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت أن تزول منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين . وقال رسول الله ﷺ : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/١٥٥) .

وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ» . فقالوا : يا رسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال :« تِلْكَ أَوْجَبُ وَأَوْجَبُ» . ثم قال :« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ جِيءَ بِالسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَمَا تَحْتَهُنَّ فَوُضِعْنَ فِي كِفَّةِ المِيزَانِ ، وَوُضِعَتْ شَهَادَةُ أَنْ لا إله إِلَّا اللَّه فِي الكِفَّةِ الأُخْرَى لَرَجَحَتْ بِهِن» (١) .

وقال الضحاك : ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ : أي : يتشققن فرقًا من عظمة الله . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي : غضبًا له ﷻ ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ قال ابن عباس : هدمًا . وقال سعيد بن جبير : هدًّا ينكسر بعضها على بعض متتابعات .

وعن عون بن عبد الله قال : إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان هل مر بك اليوم ذكر الله ﷻ ؟ فيقول : نعم ، ويستبشر . قال عون : لهي للخير أسمع أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ، ولا يسمعن غيره ؟ ثم قرأ : ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾

وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :« لاَ أَحَد أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعه مِنَ اللَّهِ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيُجْعَلَ لَهُ وَلَدٌ وَهُو يُعَافِيهِمْ وَيدْفعُ عَنْهُمْ وَيرْزُقُهُمْ» (٢) . وقوله : ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي : لا يصلح له ، ولا يليق به لجلاله وعظمته ؛ لأنه لا كفء له من خلقه ؛ لأن جميع الخلائق عبيد له ؛ ولهذا قال : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ أي : قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ذكرهم وأنثاهم ، وصغيرهم وكبيرهم ، ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ أي : لا ناصر له ، ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ولا يظلم أحدًا .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ۝ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ .

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات . وهي الأعمال التي ترضي الله ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وهذا أمر لابد منه ولا محيد عنه . وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :« إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ - قال : فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، قال : ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ ، قال : فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ . وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ قَالَ : فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ . قال : فَيُبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ» (٣)

وعن ابن عباس في قوله : ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ قال : حبًا . وقال مجاهد عنه : سيجعل

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره(١٦٣/١٦) ورواه مسلم مختصرًا من حديث أبي سعيد الخدري في(الجنائز) (١ ، ٢) والإمام أحمد في مسنده(٣/٣)

(٢) أخرجه البخاري في(الأدب) (٦٠٩٩) ومسلم في(صفات المنافقين) (٤٩) والإمام أحمد في مسنده(٣٩٥/٤ ، ٤٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في(التوحيد) (٧٤٨٥) ومسلم في(البر والصلة) (١٥٧) والإمام أحمد في مسنده(٤١٣/٢)

لهم الرحمن ودًّا قال : محبة في الناس في الدنيا . وقال سعيد بن جبير عنه : يحبهم ويحببهم يعني إلى خلقه المؤمنين ، وقال العوفي عن ابن عباس أيضًا : الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن ، واللسان الصادق ، وقال قتادة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ أي : واللّه في قلوب أهل الإيمان ، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى اللّه إلا أقبل اللّه بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم . وقال قتادة : وكان عثمان بن عفان ﷺ يقول : ما من عبد يعمل خيرًا أو شرًّا إلا كساه اللّه ﷻ رداء عمله .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ ﴾ يعني : القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ أي : يا محمد ، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ، ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي : المستجيبين للّه المصدقين لرسوله ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ أي : عوجًا عن الحق مائلين إلى الباطل . وقال مجاهد : ﴿ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ لا يستقيمون . وقال أبو صالح : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ عوجًا عن الحق . وقال الضحاك : الألد الخصم . وقال القرظي : الألد الكذاب . وقال الحسن البصري : ﴿ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ صمًّا ، وقال غيره : صم آذان القلوب ، وقال قتادة : يعني : قريشًا ، وقال ابن عباس : ﴿ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ فجارًا ، وقال ابن زيد : الألد الظلوم ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ ﴾ أي : من أمة كفروا بآيات اللّه ، وكذبوا رسله ، ﴿ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴾ أي : هل ترى منهم أحدًا ﴿ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴾ . قال ابن عباس : يعني صوتًا ، وقال الحسن وقتادة : هل ترى عينًا أو تسمع صوتًا ؟ والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي .

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه ۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وعن ابن عباس قال ﴿ طه ﴾ يا رجل . وعنه ، وعن سعيد ابن جبير : أنها كلمة بالنبطية معناها : يا رجل . وقال أبو صالح : وهي معربة ، وأسند القاضي عياض في كتابه الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ، ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ طه ﴾ يعني : طأ الأرض يا محمد ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ ثم قال : ولا يخفى ما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة . وقوله : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ قال الضحاك : لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه ، فقال المشركون من قريش : ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى . فأنزل الله تعالى : ﴿ طه ۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون ، بل من أتاه الله العلم فقد أراد به خيرًا كثيرًا . كما ثبت عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »(١) . وعن ثعلبة بن الحكم قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا قَعَدَ عَلَى كُرْسِيِّهِ لِقَضَاءِ عِبَادِهِ : إِنِّي لَمْ أَجْعَلْ عِلْمِي وَحِكْمَتِي فِيكُمْ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ وَلاَ أُبَالِي »(٢) .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ هي كقوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة . وقال قتادة : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ لا والله ما جعله شقاء ، ولكن جعله رحمة ونورًا ، ودليلًا إلى الجنة ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه . وقوله : ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شيء ، ومليكه القادر على ما يشاء ، الذي خلق الأرض وخلق السماوات .

وقد جاء في الحديث : أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، وبعد ما بينها والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وقوله : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ، ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تمثيل . وقوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ أي : الجميع ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه ، ومشيئته وإرادته ، وحكمه ، هو خالق ذلك ومالكه وإلهه لا إله سواه ، ولا رب غيره . وقوله : ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ قال محمد بن كعب : أي ما تحت الأرض السابعة .

---

(١) أخرجه البخاري في (العلم) (٧١) ومسلم في (الزكاة) (٩٨) والترمذي في سننه (٢٦٤٥) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (١/٣٥٠) والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٨٦٧) .

وقوله : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أي : أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسماوات العلى الذي يعلم السر وأخفى . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ، قال : السر ما أسره ابن آدم في نفسه ﴿ وَأَخْفَى ﴾ ما أخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه ، فالله يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك ، وما بقي علم واحد وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة ، وهو قوله : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وقال الضحاك : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قال : السر ما تحدث به نفسك ، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد . وقال سعيد بن جبير : أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدًا ، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غدًا . وقال مجاهد : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ يعني : الوسوسة . وقال أيضًا هو وسعيد بن جبير : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ أي : ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه .

وقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي : الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ .

من هاهنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم . وسار بأهله قيل : قاصدًا بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته ، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلًا بين شعاب وجبال في برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب ، وجعل يقدح بزند معه ليوري نارًا كما جرت له العادة به فجعل لا يقدح شيئًا ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء . فبينما هو كذلك ؛ إذ آنس من جانب الطور نارًا ؛ أي : ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه فقال لأهله يبشرهم : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أي : شهاب من نار . وقوله : ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ دل على وجود الظلام . وقوله : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ قال : من يهديني إلى الطريق وكانوا شاتين وضلوا الطريق ، فلما رأى النار قال : إن لم أجد أحدًا يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ أي : النار ، واقترب منها ﴿ نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ أي : الذي يكلمك ويخاطبك ، ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ قال علي بن أبي طالب وغير واحد من السلف : كانتا من جلد حمار غير ذكي ، وقيل : إنما أمره بخلع نعليه تعظيمًا للبقعة . وقال سعيد بن جبير : كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة . وقيل : ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافيًا غير منتعل ، وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله : ﴿ طُوًى ﴾ قال ابن عباس : هو اسم للوادي ، وكذا قال غير واحد . فعلى هذا يكون عطف بيان ، وقيل : عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه ، وقيل : لأنه قدس

مرتين ، وطوى له البركة وكررت والأول أصح كقوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ وقوله : ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ كقوله : ﴿ ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ أي : على جميع الناس من الموجودين في زمانه ، وقد قيل : إن اللّٰه تعالى قال : يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال : لا ، قال : لأني لم يتواضع إلي أحد تواضعك ، وقوله : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ أي : استمع الآن ما أقول لك ، وأوحيه إليك ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له . وقوله : ﴿ فَٱعْبُدْنِى ﴾ أي : وحدني وقم بعبادتي من غير شريك ، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ قيل : معناه صل لتذكرني ، وقيل : معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، ويشهد لهذا الثاني ، قول رسول اللّٰه ﷺ : « إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُم عَنِ الصَّلاةِ أَوْ غَفِلَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا ؛ فَإِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ »(١) .

وعن أنس قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « مَنْ نَامَ عَنْ صَلاةٍ أَو نَسِيَهَا فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلاَّ ذٰلِكَ »(٢) . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ أي : قائمة لا محالة ، وكائنة لابد منها وقوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ عن ابن عباس ، ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ يقول : لا أطلع عليها أحدًا غيري وقال السدي : ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى اللّٰه تعالى عنه علم الساعة ، وهي في قراءة ابن مسعود (أكاد أخفيها من نفسي) يقول : كتمتها من الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت ، وقال قتادة : ولعمري لقد أخفاها اللّٰه من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ أي : أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ الآية . المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملاذه في دنياه ، وعصى مولاه واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر . ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي : تهلك وتعطب ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ .

هذا برهان من اللّٰه تعالى لموسى ﷷ ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة باهر دالٌّ على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا اللّٰه ﷻ ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل . وقوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ قال بعض المفسرين : إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له ، وقيل : إنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أي : أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ استفهام تقرير ، ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أي : أعتمد عليها في حال المشي ، ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أي أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي . قال الإمام

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٤/٣) والبيهقي في الكبرى (٤٥٦/٢) ومسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) (١٦) .
(٢) أخرجه البخاري في (مواقيت الصلاة) (٥٩٧) ومسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) (٣١٥) .

مالك : الهش : أن يضع الرجل المحجن في الغصن ، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ، ولا يكسر العود فهذا الهش ولا يخبط .

وقوله : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي : هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها ، ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ أي : صارت في الحال حية عظيمة ثعبانًا طويلًا يتحرك حركة سريعة ، فإذا هي تهتز كأنها جان ، وهو أسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، فهذه في غاية الكبر ، وفي غاية سرعة الحركة ﴿ تَسْعَىٰ ﴾ أي : تمشي وتضطرب ، عن ابن عباس ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ، ومرت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها فولى مدبرًا ، ونودي أن يا موسى خذها فلم يأخذها ، ثم نودي الثانية ، أن خذها ولا تخف . فقيل له في الثالثة : إنك من الآمنين فأخذها .

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام ، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه كما صرح به في الآية الأخرى ، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ . وقال مجاهد : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ كفك تحت عضدك ، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ، ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر . وقوله : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي : من غير برص ولا أذى ومن غير شين . وقال الحسن البصري : أخرجها والله كأنها مصباح فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ ، وقوله : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أي : اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فارًّا منه وهاربًا ، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم ، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ، ونسي الرب الأعلى .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به ، فإنه قد أمره بأمر عظيم ، وخطب جسيم ، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك ، وأجبرهم وأشدهم كفرًا ، وأكثرهم جنودًا وأعمرهم ملكًا ، وأطغاهم وأبلغهم تمردًا ، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه إلهًا غيره ، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليدًا عندهم في حجر فرعون على فراشه ، ثم قتل منهم نفسًا فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم هذه المدة بكمالها ، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له لهذا قال : ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ أي : إن لم تكن أنت عوني ونصيري ، وإلا فلا طاقة لي بذلك ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول العي ، ويحصل لهم فهم ما يريد منه ، وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ، ولكن

الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت بقية ، قال الله تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي : يفصح بالكلام ، وقال الحسن البصري : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ قال : حل عقدة واحدة ولو سأل أكثر من ذلك أعطي .

وقال ابن عباس : شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه ، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فآتاه سؤله فحل عقدة من لسانه .

وقوله : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي ﴾ ، وهذا أيضًا سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه ، وهو مساعدة أخيه هارون له . قال ابن عباس أنه قال : نبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى عليهما السلام . وعن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلًا يقول : أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا : لا ندري . قال : أنا والله أدري ، قال : فقلت في نفسي : في حلفه لا يستثني إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه . قال : موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت : صدق والله ، قلت : ومن هذا ؟ قال : الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ . وقوله : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ قال مجاهد : ظهري . ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أي في مشاورتي ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين لله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أي في اصطفائك لنا ، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون ، فلك الحمد على ذلك .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ .

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه عز وجل ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون ، وملئه أن يقتلوه ، فحكم الله وله السلطان العظيم ، والقدرة التامة ، أن لا يربى إلا على فراش فرعون ، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أي : عند عدوك جعلته يحبك . قال سلمة بن كهيل : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ قال : حببتك إلى عبادي ، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ قال قتادة : تغذى على عيني ، وقال معمر بن المثنى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ بحيث أرى ، وقال عبد الرحمن بن زيد : يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف ، وغذاؤه عندهم غذاء الملك فتلك الصنعة . وقوله : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ ، وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ فجاءت أخته وقالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ تعني : هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة ، فذهبت به وهم معها إلى أمه ،

فعرضت عليه ثديها فقبله ، واستأجروها على إرضاعه ، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أعظم وأجزل . وفي الحديث : « مَثَلُ الصَّانِعِ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ كَمَثَلِ أُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا ، وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا » [1] وقال تعالى هاهنا : ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي : عليك ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ يعني : القبطي ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ففر منهم هاربًا حتى ورد ماء مدين ، وقال له ذلك الرجل الصالح ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ .

حديث الفتون

سأل سعيد بن جبير عبد الله بن عباس عن قول الله ﷿ لموسى ﵇ : ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ : الفتون ما هو ؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير ، فإن لها حديثًا طويلًا فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون . فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم ﵇ أن يجعل في ذريته أبناء وملوكًا فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم ﵇ . فقال فرعون : كيف ترون ؟ فائتمروا ، وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالًا معهم الشفار ، يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك ؟ فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا : ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم ، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر ، واتركوا بناتهم ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ؛ فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم ، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة . فلما كان من قابل حملت بموسى ﵇ فوقع في قلبها الهم والحزن - وذلك من الفتون يا ابن جبير - ما دخل عليه ، وهو في بطن أمه مما يراد به فأوحى الله إليها فقال : ﴿ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ، ثم تلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ذلك لما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان . فقالت في نفسها : ما فعلت يا بني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه . فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقي جواري امرأة فرعون ، فلما رأينه أخذنه ، فأردن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن : إن في هذا مالًا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئًا حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه غلامًا ، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ من ذكر كل شيء ، إلا من ذكر موسى ، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل ، حتى آتي فرعون ، فأستوهبه منه فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٨١٤٣) .

وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم أملكم فأتت فرعون فقالت : قرة عين لي ولك . فقال فرعون : يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه . فقال رسول الله ﷺ : «وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقَرَّتِ امْرَأَتُهُ لَهَدَاهُ اللَّه كَمَا هَدَاهَا ، وَلَكِنْ حَرَمَهُ ذَلِكَ » .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها أن تختار له ظئرًا ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك فأمرت به فأُخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرًا تأخذه منها ، فلم يقبل ، وأصبحت أم موسى والهًا ، فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرًا أحي ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه . فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون ، والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد ، وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا : ما يدريك ما نصحهم له هل تعرفينه ؟ حتى شكوا في ذلك – وذلك من الفتون يا ابن جبير – فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك فتركوها . فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريًا ، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرًا فأرسلت إليها فأتت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع بها قالت : امكثي ترضعي ابني هذا فإني لم أحب شيئًا حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيرًا فإني غير تاركة بيتي وولدي .

وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها ، وأنبته الله نباتًا حسنًا ، وحفظه لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل ، وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم ، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزيريني ابني فوعدتها يومًا تزيرها إياه فيه . وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك ، وأنا باعثة أمينًا يحصي ما يصنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون فلما دخل عليها بجلته وأكرمته وفرحت به ، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ثم قالت : لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه ، فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض . فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه – وذلك من الفتون يا ابن جبير – بعد كل بلاء ابتلي به . وأريد به فتونًا – فجاءت امرأة فرعون فقالت : ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني فقالت : اجعل بيني وبينك أمرًا يعرف الحق به ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن إليه فإن بطش باللؤلؤتين ، واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحدًا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين ، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا

يده . فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعدما كان قد هم به ، وكان الله بالغًا فيه أمره ، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة ، حتى امتنعوا كل الامتناع فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضبًا شديدًا ؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل ، وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع ، إلا أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره ، فوكز موسى الفرعوني فقتله وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي . فقال موسى حين قتل الرجل : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

فأصبح في المدينة خائفًا يترقب الأخبار ، فأتى فرعون فقيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلًا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه ؛ فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ، ولا ثبت فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبتًا إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلًا من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه ، وكره الذي رأى فغضب الإسرائيلي ، وهو يريد أن يبطش بالفرعوني فقال للإسرائيلي : لما فعل بالأمس واليوم إنك لغوي مبين ، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني ، فخاف أن يكون بعدما قال له : إنك لغوي مبين أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني . فخاف الإسرائيلي وقال : ﴿ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا . وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : ﴿ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى ، وهم لا يخافون أن يفوتهم . فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقًا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره – وذلك من الفتون يا ابن جبير – فخرج موسى متوجهًا نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل فإنه قال : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ يعني بذلك : حابستين غنمهما فقال لهما : ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما نسقي من فضول حياضهم فسقى لهما ، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيرًا حتى كان أول الرعاء ، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلًا بطانًا فقال : إن لكما اليوم لشأنًا . فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه فأتت موسى فدعته ، فلما كلمه قال : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته فقالت إحداهما : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

فاحتمتله الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته ، فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه ، وأما الأمانة : فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ، ثم قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين . فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت . فقال له : هل لك أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء اللَّه من الصالحين ؟ ففعل فكانت على نبي اللَّه موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت سنتان عدة منه فقضى اللَّه عنه عدته فأتمها عشرًا .

قال سعيد بن جبير : فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، قال : هل تدري أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا - وأنا يومئذ لا أدري ، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك ، فقال : أما علمت أن ثمانيًا كانت على نبي اللَّه واجبة لم يكن نبي اللَّه لينقص منها شيئًا ، ويعلم أن اللَّه كان قاضيًا عن موسى عدته التي كان وعده ، فإنه قضى عشر سنين فلقيت النصراني فأخبرته ذلك . فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى ، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص اللَّه عليك في القرآن فشكا إلى اللَّه تعالى ما يحذر من آل فرعون في القتيل ، وعقدة لسانه ؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه . فآتاه اللَّه سؤله ، وحل عقدة من لسانه ، وأوحى اللَّه إلى هارون ، وأمره أن يلقاه ، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليه السلام فانطلقا جميعًا إلى فرعون ، فأقاما على بابه حينًا لا يؤذن لهما ، ثم أذن بعد حجاب شديد فقالا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ قال : فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذي قص اللَّه عليك في القرآن ؟ قال : فما تريدان ؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت ، قال : أريد أن تؤمن باللَّه وترسل معنا بني إسرائيل . فأبى عليه . وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها ، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ، ففعل ، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني : من غير برص ، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ حوله فيما رأى ، فقالوا له : ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ يعني : ملكهم الذي هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئًا مما طلب . وقالوا له : اجمع لهما السحرة فإنهم بأرضك كثير ، حتى تغلب بسحرك سحرهما . فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بما يعمل هذا الساحر ؟ قالوا : يعمل بالحيات ، قالوا : فلا واللَّه ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربي وخاصتي ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم ، فتواعدوا يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى .

وقال سعيد بن جبير : فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر اللَّه فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء ، فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا

فلنحضر هذا الأمر ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ يعنون : موسى وهارون استهزاءً بهما ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة ، فأوحى اللَّه إليه أن ألق عصاك ، فلما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمة فاغرة فاها ، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جَرَزًا إلى الثعبان تدخل فيه ، حتى ما أبقت عصًا ولا حبلًا إلا ابتلعته فلما عرف السحرة قالوا : لو كان هذا سحرًا لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكن هذا أمر من اللَّه عَجَّلَ آمنا باللَّه وبما جاء به موسى من عند اللَّه ، ونتوب إلى اللَّه مما كنا عليه . فكسر اللَّه ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو اللَّه بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى . فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف موعده ، وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل اللَّه على قومه الطوفان والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى ، ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ويواثقه على أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا كف ذلك عنه ، أخلف موعده ، ونكث عهده حتى أمر اللَّه موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلًا ، فلما أصبح فرعون ، ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة ، وأوحى اللَّه إلى البحر : إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه . فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا ، وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه ، وهو غافل فيصير عاصيًا للَّه . فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى : إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه ، وكما وعد موسى فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه ، التقى عليهم البحر كما أمر . فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه ، ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ الآية . قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ، ومضى فأنزلهم موسى منزلًا وقال : أطيعوا هارون فإني قد استخلفته عليكم ، فإني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يومًا أن يرجع إليهم فيها .

فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يومًا وقد صامهن ليلهن ونهارهن ، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم ، فتناول موسى من نبات الأرض شيئًا فمضغه فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان ، قال : يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح قال : أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ارجع فصم عشرًا ثم ائتني

ففعل موسى عليه السلام ما أمر به . فلما رأى قومه أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم وقال : إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ، ولكم فيهم مثل ذلك ، فإني أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ، ولا عارية ، ولسنا برادين إليهم شيئًا من ذلك ، ولا ممسكيه لأنفسنا فحفر حفيرًا وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقته ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم ، وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، فقضي له أن رأى أثرًا فقبض منه قبضة فمر بهارون عليه السلام : يا سامري ألا تلقي ما في يدك وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال : أريد أن يكون عجلًا ، فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلًا أجوف ليس فيه روح وله خوار . قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك . فتفرق بنو إسرائيل فرقًا فقالت فرقة : يا سامري ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق فقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى .

وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل ، وأعلنوا التكذيب به . فقال لهم هارون : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا ، هذه أربعون يومًا قد مضت ، وقال سفهاؤهم : أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه ، فلما كلم الله موسى وقال له ما قال أخبره بما لقي قومه من بعده ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ فقال لهم : ما سمعتم في القرآن ؟ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح من الغضب ، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له ، وانصرف إلى السامري فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : قبضت قبضة من أثر الرسول ، وفطنت لها وعميت عليكم ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ ، ولو كان إلهًا لم يخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا ما عملنا ، فاختار موسى قومه سبعين رجلًا لذلك لا يألو الخير ، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض ، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ ﴾ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ

يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ . فقال : يا رب سألتك التوبة لقومي فقلت : إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة ، فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن ، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ، واطلع الله على ذنوبهم ، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا ، وغفر الله للقاتل والمقتول . ثم سار بهم موسى ﷺ متوجهًا نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف ، فثقل ذلك عليهم ، وأبوا أن يقروا بها ، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمرًا عجيبًا من عظمها فقالوا : يا موسى إن فيها قومًا جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يُخافون - قيل ليزيد هكذا قرأت قال : نعم من الجبارين - آمنا بموسى وخرجا إليه قالوا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، ويقول أناس : إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون - بنو إسرائيل : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ فأغضبوا موسى فدعا عليهم ، وسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين ، وحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، وظلل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثيابًا لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجرًا مربعًا ، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا في كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك بالحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس [1] .

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ۝ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا لموسى ﷺ : إنه لبث مقيمًا في أهل مدين فارًّا من فرعون وملئه يرعى على صهره ، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل ، ثم جاء موافقًا لقدر الله وإرادته من غير ميعاد ، والأمر كله لله تبارك وتعالى ، وهو المسيِّر عباده وخلقه فيما يشاء . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ قال مجاهد : أي على موعد ، وقال عبد الرزاق : على قدر الرسالة والنبوة . وقوله : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أي : اصطفيتك واجتبيتك رسولًا لنفسي أي : كما أريد وأشاء . ذكر البخاري عند تفسيرها حديثًا عن رسول الله ﷺ قال : « الْتَقَى آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى : أَنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ ؟ فَقَالَ آدَمُ : وَأَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٦/١٦) .

التَّوْرَاةَ ؟ قَالَ : نَعَم : قَالَ فَوَجَدْتَهُ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »(١)
وقوله : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ أي : بحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ قال ابن عباس : لا تبطئا ، وقال مجاهد عن ابن عباس : لا تضعفا . والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ؛ ليكون ذكر الله عونًا لهما عليه وسلطانًا كاسرًا . وقوله : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ، ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ . هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين . وعن الحسن البصري قال في : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ أعذرا إليه ، قولا له : إن لك ربًا ولك معادًا ، وإن بين يديك جنة ونارًا . وقال النزال بن سبرة عن علي في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ :كنّه . كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . وقوله : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى . أي : يوجد طاعة من خشية ربه كما قال تعالى : ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أو يخشى فالتذكر الرجوع عن المحذور ، والخشية تحصيل الطاعة . وقال الحسن البصري : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ يقول : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن موسى وهارون عليهما السلام : أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيين إليه ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ يعنيان : أن يبدر إليهما بعقوبة ، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أن يفرط يعجل . وقال مجاهد : يسلط علينا . وقال ابن عباس : ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ : يعتدي ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أي : لا تخافا منه فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه لا يخفى عليّ من أمركم شيء . وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي . ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس أنه قال : مكثا على بابه حينًا لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد . وقوله: ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي : بدلالة ومعجزة من ربك ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى ، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابًا كان أوله « بسم الله الرحمن الرحيم مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ »(٢) . ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي : قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٣٦) ومسلم في القدر (١٤) .
(٢) أخرجه مسلم في (الجهاد) (٧٤) .

العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ
عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون : أنه قال لموسى منكرًا وجود الصانع الخالق إله كلّ شيء وربه ومليكه ، قال : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ ؟ أي : الذي بعثك وأرسلك من هو ، فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري . ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ قال ابن عباس : خلق لكل شيء زوجه . وقال الضحاك عن ابن عباس : جعل الإنسان إنسانًا والحمار حمارًا والشاة شاة . وقال مجاهد : أعطى كل شيء صورته . وقال ابن نجيح عنه : سوّى خلق كل دابة ، وقال سعيد بن جبير : أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة ، ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا للكلب من خلق الشاة ، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح ؛ وهيأ كل شيء على ذلك ، ليس شيء منها يشبه شيئًا من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح . وقال بعض المفسرين : أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ أي : قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه أي : كتب الأعمال والآجال والأرزاق ، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ، ولا يقدر أحد على الخروج منه . يقول : ربنا الذي خلق الخلق وقدر القدر ، وجبل الخليقة على ما أراد . ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أصح الأقوال في معنى ذلك : أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى ، شرع يحتج بالقرون الأولى أي : الذين لم يعبدوا الله أي : فما بالهم إذ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره ؟ فقال له موسى في جواب ذلك : هم وإن لم يعبدوه ، فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم ، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمار . ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ أي : لا يشذ عنه شيء ، ولا يفوته صغير ولا كبير ، ولا ينسى شيئًا يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط ، وأنه لا ينسى شيئًا تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان ؛ أحدهما عدم الإحاطة بالشيء ، والآخر نسيانه بعد علمه فنزه نفسه عن ذلك .

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾
كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ .

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه ﷻ حين سأله فرعون عنه ، فقال : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك . ثم قال : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ وفي قراءة ﴿ مِهَادًا ﴾ [1] أي : قرارًا تستقرون عليها ، وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها . ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي : جعل لكم طرقًا تمشون في مناكبها ، ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ أي : من أنواع النباتات من زروع وثمار ، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع . ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ﴾ أي : شيء لطعامكم وفاكهتكم ، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرًا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (مِهَادًا) وقرأ أهل الكوفة (مَهْدًا) . انظر حجة القراءات ص ٤٥٣ .

ويبسًا . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : لدلالات وحججًا وبراهين ﴿ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة ، على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه . ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي : من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي : وإليها تصيرون إذا متم وبليتم ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ حضر جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ، وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى ، وقال : وفيها نعيدكم ، ثم أخرى وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ يعني : فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات وعاين ذلك وأبصره ، فكذب بها وأباها كفرًا وبغيًا .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى ، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعبانًا عظيمًا ، ونزع يده من تحت جناحه ، فخرجت بيضاء من غير سوء فقال : هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم ، ولا يتم هذا معك ، فإن عندنا سحرًا مثل سحرك ، فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي : يومًا نجتمع نحن وأنت فيه ، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين فعند ذلك ، ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم ، واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ﴾ أي : جميعهم ﴿ ضُحًى ﴾ أي : ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح ، قال وهب بن منبه : قال فرعون : يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلًا ننظر فيه . قال موسى : لم أومر بهذا ، إنما أمرت بمناجزتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك ، فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلًا ، وقل له أن يجعل هو . قال فرعون : اجعله إلى أربعين يومًا ففعل . وقال مجاهد وقتادة : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ منصفًا وقال السدي : عدلًا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ مستو بين الناس وما فيه ، لا يكون صوت ، ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن مستوٍ حين يرى .

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون : أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين ، تولى أي : شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته ، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان ، وقد كان السحر فيهم كثيرًا نافقًا جدًّا ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ ثم أتى أي : اجتمع الناس لميقات يوم معلوم ، وهو يوم الزينة ، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئًا على عصاه ، ومعه أخوه هارون ووقفت السحرة بين يدي فرعون صفوفًا ، وهو يعدهم ويمنيهم يقولون :

﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي : لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وإنها مخلوقة وليست مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله . ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ أي : يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ قيل : معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم . فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر إنما هو كلام نبي ، وقائل يقول : بل هو ساحر ، وقيل غير ذلك والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ أي : تناجوا فيما بينهم ، ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾قال السحرة فيما بينهم : تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهارون - ساحران يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ويخرجاكم من أرضكم . وقوله : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ أي : ويستبدا بهذه الطريقة ، وهي السحر فإنهم كانوا معظمين بسببها ، لهم أموال وأرزاق عليها ، يقولون : إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم . وقد تقدم في حديث الفتون أن ابن عباس قال في قوله : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ يعني : ملكهم الذي هم فيه والعيش . وعن علي قال : يصرفا وجوه الناس إليهما . وقال مجاهد : أولو الشرف والعقل والأسنان . وقال أبو صالح : ﴿ بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ أشرافكم وسرواتكم . وقوله : ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ﴾ أي : اجتمعوا كلكم صفًا واحدًا ، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار ، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ أي منا ومنه ، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل ، وأما هو فينال الرياسة العظيمة .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ أي : أنت أولًا ، ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ أي : أنتم أولًا لنرى ماذا تصنعون من السحر وليظهر للناس جلية أمرهم . ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ . وفي الآية الأخرى ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه ، وتضطرب وتميد بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها وإنما كانت حيلة ، وكانوا جمًّا غفيرًا ، وجمعًا كثيرًا ، فألقى كل منهم عصًا وحبلًا ، حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضًا ، وقوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أي : خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغتروا بهم ، قبل أن يلقي ما في يمينه فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ألق ما في يمينك - يعني : عصاك - فإذا هي تلقف ماصنعوا ، وذلك أنها صارت تنينًا عظيمًا هائلًا ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جهرة نهارًا ضحوة ، فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ فعلم

السحرة علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء : كن ، فيكون فعند ذلك وقعوا سجدًا لله ، وقالوا : آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

وعن سعيد بن جبير قال : ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ : رأوا منازلهم تبين لهم في سجودهم ، وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ، ومكابرته الحقَّ بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة ، والآية العظيمة ، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم ، وغلب كل الغلب ، شرع في المكابرة والبهت ، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ أي : صدقتموه ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : وما أمرتكم بذلك ، وافتتم عليّ في ذلك : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ أي : أنتم أخذتم السحر عن موسى ، واتفقتم أنتم وإياه عليّ ، وعلى رعيتي لتظهروه ، ثم أخذ يتهددهم فقال : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ أي : لأجعلنكم مثله ولأقتلنكم ولأشهرنكم . قال ابن عباس : فكان أول من فعل ذلك .

وقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ أي : أنتم تقولون إني وقومي على ضلالة ، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى ، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ، فهانت عليهم أنفسهم في الله ﷻ و ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي : لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ يحتمل أن يكون قسمًا ، ويحتمل أن يكون معطوفًا على البينات ، يعنون لا نختارك على فاطرنا ، وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدئ خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي : فافعل ماشئت ، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أي : إنما لك تسلط في هذه الدار ، وهي دار الزوال ونحن قد رغبنا في دار القرار ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ أي : ما كان منا من الآثام خصوصًا ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه ، وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ قال : أخذ فرعون أربعين غلامًا من بني إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفرماء ، وقال : علموهم تعليمًا لا يعلمه أحد في الأرض ، قال ابن عباس : فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي : خير لنا منك ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي : أدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا ، ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي : منك عذابًا إن عصي ، والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك ، وفعله بهم رحمة لهم من الله ؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف ، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ .

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون يحذرونه من نقمة الله ، وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد ، فقالوا : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا ﴾ أي : يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ كقوله : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ وفي الحديث : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَلَكِنْ أُنَاسٌ تُصِيبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ ، فَتُمِيتُهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ جِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الجَنَّةِ فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ » فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله ، ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أي : الجنة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات والمساكن الطيبات . وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « الجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَالفِرْدَوْسُ أَعْلَاها دَرَجَةً ، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الأَنْهَارُ الأَرْبَعَةُ ، وَالعَرْشُ فَوْقَهَا ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ » [(٢)] . وفي الحديث : « إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ فَوْقَهِمْ كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَبَ الغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ - قَالُوا : يا رسول الله تلك منازعة الأنبياء قال : « بَلْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ » [(٣)] .

وقوله : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي إقامة وهي بدل من الدرجات العلى ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾ أي : ماكثين أبدًا ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي : طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك ، وعبد الله وحده لا شريك له ، واتبع المرسلين فيما جاؤوا به من خير وطلب .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا : أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل ، أن يسري بهم في الليل ، ويذهب بهم من قبضة فرعون ، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم لا بمصر لا داع ولا مجيب ، فغضب فرعون فأرسل في المدائن حاشرين أي : من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه يقول : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ . ثم جمع جنده ، واستوسق له جيشه ساق في طلبهم ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أي : عند طلوع الشمس ، ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أي : نظر كل من الفرقين إلى الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ . ووقف موسى ببني إسرائيل البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿ فَٱضْرِب لَّهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ فضرب البحر بعصاه وقال : انفلق علي بإذن الله ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ﴾ . أي : الجبل العظيم فأرسل الله الريح على أرض البحر ، فلفحته حتى صار يابسًا

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣٠٨) والإمام أحمد في مسنده (١١/٣) والحاكم في المستدرك (٦١٩/٣) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٢/٢) ، (٣١٦/٥ ، ٣٢١) .
(٣) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) ومسلم في الجنة (١١) .

كوجه الأرض فلهذا قال : ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا ﴾ أي : من فرعون ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ يعني : من البحر أن يغرق قومك ، ثم قال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ ﴾ أي : البحر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي : الذي هو معروف ومشهور وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور .

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام ، ومننه الجسام حيث أنجاهم من عدوهم فرعون ، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه ، وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة لم ينج منهم أحد . كما قال : ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ وعن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء فسألهم ؟ فقالوا : هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون فقال : « نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى فَصُومُوهُ »[(١)] ، ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن - وهو الذي كلمه الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤيا ، وأعطاه التوراة هنالك - وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريبًا ، وأما المن والسلوى ، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها ، فالمن : حلوى كانت تنزل عليهم من السماء ، والسلوى : طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد لطفًا من الله ورحمة بهم ، وإحسانًا إليهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ أي : كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم ، ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة ، وتخالفوا ما أمرتكم به ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ أي : أغضب عليكم ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ قال ابن عباس : فقد شقي . وقوله : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي : كل من تاب إلي تبت عليه من أي ذنب كان ، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ تَابَ ﴾ أي : رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ، وقوله : ﴿ وَءَامَنَ ﴾ أي : بقلبه ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي : بجوارحه ، وقوله : ﴿ ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ قال ابن عباس : أي : ثم لم يشك ، وقال سعيد بن جبير : أي : استقام على السنة والجماعة ، وقال قتادة : أي لزم الإسلام حتى يموت ، وقال سفيان الثوري : أي : علم أن لهذا ثوابًا . وثم هاهنا لترتيب الخبر على الخبر كقوله : ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٠) والإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٤٠) .

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون ، ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشرًا ، فتمت أربعين ليلة أي يصومها ليلًا ونهارًا ، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك فسارع موسى عليه السلام مبادرًا إلى طور ، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ أي : قادمون ينزلون قريبًا من الطور ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي : لتزداد عني رضًا ، ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل ، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري . ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ ﴾ أي : بعد ما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم ، هو فيما هو من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم ، وفيها شرف لهم ، وهم قوم قد عبدوا غير الله ، ما يعلم كل عاقل له لب ، وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم ولهذا قال : رجع إليهم غضبان أسفًا ، والأسف : شدة الغضب . وقال مجاهد : ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ ﴾ أي : جزعًا ، وقال قتادة : أسفًا حزينًا على ما صنع قومه من بعده ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ ﴾ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة ، وحسن العاقبة ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أي : في انتظار ما وعدكم الله ، ونسيان ما سلف من نعمه ، وما بالعهد من قدم . ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أم هاهنا بمعنى : بل ، وهي للإضراب عن الكلام الأول ، وعدول إلى الثاني كأنه يقول : بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ؟ قالوا : أي بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى وقرعهم : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ أي : عن قدرتنا واختيارنا ، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر ، فقذفناها أي ألقيناها عنا . وقد تقدم في حديث الفتون أن هارون عليه السلام هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفرة فيها نار . وهي في رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة ، ويجعل حجرًا واحدًا ، حتى إذا رجع موسى عليه السلام رأى فيه ما يشاء ، ثم جاء ذلك السامري فألقى عليهما تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول ، وسأل من هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوة ؟ فدعا له هارون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له . فقال السامري عند ذلك : أسأل الله أن يكون عجلًا ؟ فكان عجلًا له خوار أي : صوت استدراجًا وإمهالًا ومحنة واختبارًا ولهذا قال : ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ وقال السدي : كان يخور ويمشي فقالوا : أي الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه : ﴿ هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ أي نسيه هاهنا وذهب يتطلبه . وقال ابن عباس ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي : نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس فقالوا : ﴿ هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ قال : فعكفوا عليه وأحبوه حبًا لم يحبوا شيئًا قط يعني : مثله يقول الله ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي : ترك ما كان عليه من الإسلام - يعني السامري - قال الله تعالى ردًا عليهم وتقريعًا لهم وبيانًا

لفضيحتهم ، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي : العجل أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ، ولا إذا خاطبوه ، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا أي : في دنياهم ، ولا في أخراهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ .

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل وإخباره إياهم إنما هذا فتنة لكم ، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا ، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ أي : فيما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ أي : لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه ، وخالفوا هارون وحاربوه وكادوا أن يقتلوه .

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ .

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه فرأى ما حدث فيهم من الأمر العظيم ، فامتلأ عند ذلك غضبًا ، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه . وقال : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي : فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ أي : فيما كنت قدمت إليك وهو قوله : ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ . قال : ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف ، ولهذا قال : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ الآية . هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه ، قال : ﴿ إِنِّى خَشِيتُ ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا فتقول لي : لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ، ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ أي : وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم ، قال ابن عباس : وكان هارون هائبًا مطيعًا له .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ .

يقول موسى عليه السلام للسامري ، ما حملك على ما صنعت ، وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت ؟ قال ابن عباس : كان السامري رجلًا من أهل باجرما ، وكان من قوم يعبدون البقر ، وكان حب عبادة البقر في نفسه ، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل ، وكان اسمه موسى بن ظفر . وفي رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمان . وقال قتادة : كان من قرية سامرا ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي : رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي : من أثر فرسه هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم . وقال مجاهد : من تحت حافر فرس

جبريل ، وقال : نبذ السامري أي : ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل ، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره . ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي : ألقيتها مع من ألقى ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أي : حسَّنته وأعجبها إذ ذاك ، ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أي : كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ، ومسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول : لا مساس أي لا تماس الناس ، ولا يمسونك ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ أي : لا محيد لك عنه . وقال قتادة : ﴿ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ قال : عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ قال الحسن وقتادة : لن تغيب عنه . وقوله : ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ ﴾ أي : معبودك . ﴿ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي : أقمت على عبادته يعني العجل . ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ قال ابن عباس والسدي : سحله بالمبارد وألقاه على النار ، وقال قتادة : استحال العجل من الذهب لحمًا ودمًا ، فحرقه بالنار ثم ألقى رماده في البحر ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ . وعن عمارة بن عبد اللَّه وأبي علي ﷺ أن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل ثم صوره عجلًا قال : فعمد موسى إلى العجل ، فوضع عليه المبارد فبرده بها - وهو على شط نهر - فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل ، إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى : ما توبتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضًا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا إلهكم ، إنما إلهكم اللَّه الذي لا إله إلا هو أي : لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له ، فإن كل شيء فقير إليه عبد له وقوله : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ نصب على التميز أي : هو عالم بكل شيء ، أحاط بكل شيء علمًا ، وأحصى كل شيء عددًا ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : كما قصصنا عليك خبر موسى ، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية ، والأمر الواقع كذلك نقص عليك الأخبار الماضية ، كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ، هذا ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ﴾ أي : من عندنا ﴿ ذِكْرًا ﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ كتابًا مثله ، ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق ، وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس منه ، وقوله تعالى : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ أي : كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا ، ولهذا قال : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ أي : إثمًا كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾ أي : لا محيد لهم عنه ولا انفكاك ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ أي : بئس الحمل حملهم .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ .

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال : « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ » (١) ، وجاء في الحديث : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ » ؟ فقالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » (٢) . وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ قيل : معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يتسارون بينهم أي : يقول بعضهم لبعض ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أي : في الدار الدنيا لقد كان لبثكم فيها قليلًا عشرة أيام أو نحوها . قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي في حال تناجيهم بينهم ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي : العاقل الكامل فيهم ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ أي : لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد ؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد . ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة ، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم ؛ لقصر المدة . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ۝١١٣ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إنما كان لبثكم فيها قليلًا لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني ، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف قدمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ أي : يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرًا ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي : الأرض ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أي : بساطًا واحدًا والقاع : هو المستوي من الأرض والصفصف تأكيدًا لمعنى ذلك . وقيل : الذي لا نبات فيه ، والأول أولى وإن كان الآخر مرادًا أيضًا باللازم ولهذا قال : ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ أي : لا ترى في الأرض يومئذ واديًا ولا رابية ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أي : يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ، ولكن حيث لا ينفعهم . كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ . وقال : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ وقال محمد بن كعب القرظي : يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة ، ويطوي السماء ، وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر ، وينادي منادٍ فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ ، وقال قتادة : ﴿ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ لا يميلون عنه وقال أبو صالح : لا عوج عنه وقوله : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ قال ابن عباس : سكنت . وقاله السدي ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ قال ابن عباس : يعني وطء الأقدام ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ الصوت الخفي . وقال سعيد بن جبير :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٢/٢) والترمذي في سننه (٣٢٤٤) والحاكم في المستدرك (٥٠٦/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٦/١) ، (٣٧٤/٤) والترمذي في سننه (٢٤٣١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣١/٧) .

الحديث وسره ووطء الأقدام فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل ، أما وطء الأقدام ، فالمراد سعي الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم في سكون وخضوع ، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال فقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ أي : عنده ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ . كقوله : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد أدم ، وأكرم الخلائق على الله ﷻ أنه قال : « آتي تَحْتَ العَرْش وَأَخِرُّ للَّه سَاجِدًا ، وَيُفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَامِدَ لَا أُحْصِيهَا الآنَ فَيَدَعُني مَا شَاءَ أَنْ يَدَعَني ثُمَّ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ - قال : فَيحدُّ لي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ » . فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى سائر الأنبياء . وفي الحديث أيضًا « يَقُولُ تَعَالَى أَخرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُ : أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِصْفُ مِثْقَالٍ مِنْ إِيمَانٍ ، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » (١) الحديث ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي يحيط علمًا بالخلائق كلهم . ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ قوله : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ قال ابن عباس : خضعت وذلت ، واستسلمت لجبارها الحي الذي لا يموت ، القيوم الذي لا ينام ، وهو قيم على كل شيء يدبره ، ويحفظه ، فهو الكامل في نفسه الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أي : يوم القيامة فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ، وفي الصحيح : « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ ، والخَيْبَةُ كُلُّ الخَيْبَةِ مَنْ لَقِيَ اللَّه وَهُوَ بِهِ مُشْرِكٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » (٢) وقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم ، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون أي : لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ .

يقول تعالى : ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعًا لا محالة أنزلنا القرآن بشيرًا ونذيرًا بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : يتركون المآثم

(١) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧١٢) ومسلم في (الإيمان) (٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٩٤/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في (البر والصلة) (٥٦ ، ٥٧) والإمام أحمد في مسنده (١٠٦/٢) والحاكم في المستدرك (١١/١) .

والمحارم والفواحش . ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ وهو : إيجاد الطاعة وفعل القربات ، ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق ووعده ووعيده حق ورسله حق ، والجنة حق والنار حق ، وكل شيء منه حق ، وعدله تعالى أن لا يعذب أحدًا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة . وقوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ كقوله تعالى : في سورة لا أقسم بيوم القيامة ، ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ .

عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ، فأنزل الله هذه الآية [1] يعني : أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي ، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه ، فقال : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أي : أن نجمعه في صدرك ، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئًا ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ وقال في هذه الآية : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ أي : بل أنصت ، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده ، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ أي : زدني منك علمًا ، قال ابن عيينة رحمه الله : ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ .

قال ابن عباس : إنما سمي الإنسان ؛ لأنه عهد إليه فنسي ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه ، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلًا ، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديمًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ أي : امتنع واستكبر ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ يعني : حواء عليها السلام ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ أي : إياك أن تسعى في إخراجك منها فتتعب ، وتعنى وتشقى في طلب رزقك ، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري ؛ لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ وهذان أيضًا متقابلان فالظمأ : حر الباطن ، وهو العطش والضحى : حر الظاهر . وقوله : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ قد تقدم أنه دلاهما بغرور ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة ، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤٨) .

وقوله : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طوالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْس كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سقطَ عنهُ لباسُهُ فأوَّلُ ما بدَا منهُ عَوْرتهُ ، فلمَّا نظر إلى عَورتِه جعلَ يشْتدُّ في الجنّة فأخذت شعْرهُ شجرةٌ فنَازَعَهَا فنَادَاهُ الرَّحْمنُ : يَا آدَمُ مِنِّي تَفِرُّ ؟ فَلَمَّاسَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمن قَالَ : يَا رَبِّ ، لَا وَلَكِنِ اسْتِحْيَاءً أَرَأَيْتَ إِنْ تُبتُ وَرَجَعْتُ أَعَائِدِي إِلَى الجنَّةِ ؟ قَالَ : نَعَم فَذَلِكَ قَوْلُه : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ »(١)

وقوله : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ قال مجاهد : يرقعان كهيئة الثوب ، وقال ابن عباس : ينزعان ورق التين ، فيجعلانه على سوآتهما وقوله : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « حاجَّ موسى آدم فقال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني ؟ - أو قدره عليّ قبل أن يخلقني - قال رسول الله ﷺ : « فحجَّ آدم موسى » (٢) .

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ .

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس : اهبطوا منها جميعًا أي : من الجنة كلكم . ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ قال : آدم وذريته ، وإبليس وذريته ، وقوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ قال أبو العالية : الأنبياء والرسل والبيان . ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ قال ابن عباس : لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أي : خالف أمري ، وما أنزلته على رسولي أعرض عنه ، وتناساه وأخذ من غيره هداه ، ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي : ضنكًا في الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة . قال ابن عباس : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال : الشقاء . وقال أيضًا : إن قومًا ضلالًا أعرضوا عن الحق ، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين ، فكانت معيشتهم ضنكًا ، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفًا لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب ، فإذا كان العبد يكذب بالله ، ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته ، فذلك الضنك . وقال الضحاك هو : العمل السيِّء والرزق الخبيث ، وعن أبي سعيد في قوله : ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه ، وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ : « ضمة القبر له » والموقوف أصح وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال : « عَذابُ القبْرِ » . وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ قال مجاهد لا حجة له ، وقال عكرمة : عُمِّي عليه كل شيء إلا جهنم ، ويحتمل

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٨٧/١) .

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٣٨) .

أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضًا . كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ الآية ، ولهذا يقول : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ أي : لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها ، وأغفلتها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل . فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص وإن كان متواعدًا عليه من جهة أخرى ، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد ، والوعيد الشديد في ذلك ، وفي الحديث « مَا مِنْ رَجُلٍ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَنَسِيَهُ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَهُوَ أَجْذَمُ » (١) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

يقول تعالى : وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي : أشد ألمًا من عذاب الدنيا ، وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : « إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ » (٢) .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم ، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر ، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيه يمشون فيها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ أي : العقول الصحيحة ، والألباب المستقيمة ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ الآية . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي : لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة ، لجاءهم العذاب بغتة ، ولهذا قال لنبيه مسليًا له : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي : من تكذيبهم لك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ يعني : صلاة الفجر . ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعني : صلاة العصر ، كما جاء في الحديث : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تغلبوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ثم قرأ هذه الآية (٣) . وعنه ﷺ قال : « لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا » (٤)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في اللعان (٤) والإمام أحمد في مسنده (٣١٠/١) ، (١٩/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٣٤) ومسلم في (المساجد) (٢١١) والإمام أحمد في مسنده (٣٦٠/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٦١/٤) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلًا مَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفَيْ سَنَةٍ يَنْظُر إِلَى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى أَدْنَاهُ ، وإِنَّ أَعْلاهُمْ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ » (١).

وقوله : ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ ﴾ أي من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ وفي الصحيح : «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ : وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » (٢).

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادي الشكور . وقال مجاهد : ﴿ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ يعني : الأغنياء فقد آتاك خيرًا مما آتاهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ ﴾ الآية . وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف ولهذا قال : ﴿ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾ ، وفي الصحيح أن عمر ابن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن فرآه متوسدًا مضطجعًا على رمال حصير ، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء ، فقال له رسول الله ﷺ : «مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ ؟ » فقال : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه فقال : «أَوَ فِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ ، أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا » (٣).

فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت لها ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدخر لنفسه شيئًا لغد .

وقال قتادة والسدي : ﴿ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ يعني زينة الحياة الدنيا ، وقال قتادة : ﴿ لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ لنبتليهم وقوله : ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ ﴾ أي : استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ وروي أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها فربما لم يقم فنقول : لا يقوم الليلة ، كما كان يقوم وكان إذا استيقظ أقام يعني : أهله وقال : ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ ﴾ .
وقوله : ﴿ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ ﴾ يعني : إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ ولهذا قال : ﴿ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ ﴾ ، وقال الثوري : ﴿ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ ﴾ أي : لا نكلفك

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩) ومسلم في الجنة (٩) .
(٣) أخرجه البحاري في (المظالم) (٢٤٦٨) .

الطلب . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ » (١) .

وقوله : ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي : وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وهي الجنة لمن اتقى الله . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّا فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ ، وَأَنَّا أُتِينَا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابٍ ، فَأَوَّلْتُ ذَلِكَ أَنَّ العَاقِبَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالرِّفْعَةَ ، وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ » (٢) .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار في قولهم : ﴿ لَوْلَا ﴾ أي : هلا يأتينا محمد بآية من ربه أي : بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله ؟ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يعني : القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة ، ولم يدارس أهل الكتاب . وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها . وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ » (٣) . وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه الصلاة والسلام ، وهو القرآن وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر كما هو مودع في كتبه ، ومقرر في مواضعه ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أي : لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال : ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده : ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أي : منا ومنكم ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ أي فانتظروا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ ﴾ أي : الطريق المستقيم . ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤١٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم في (الرؤيا) (١١٨) والإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٣ ، ٢٨٦) .

(٣) أخرجه البخاري في (الاعتصام) (٧٢٧٤) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

سورة الأنبياء

عن عبد الله قال : بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تلادي [(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

هذا تنبيه من الله ﷻ على اقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس في غفلة عنها أي : لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها . عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ، ﴿ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ قال : « في الدنيا » [(٢)] وقال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ الآية ، وروي عن عامر بن ربيعة : أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل ، فقال : إني استقطعت من رسول الله ﷺ واديًا في العرب ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله ، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أي : جديد إنزاله ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ كما قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم ، وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ؟ وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضًا لم يشب [(٣)] ، وقوله : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي : قائلين فيما بينهم خفية ﴿ هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبيًا لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختص بالوحي دونهم ولهذا قال : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أي : أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر ، وهو يعلم أنه سحر فقال تعالى مجيبًا لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين ، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض .

وقوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعيد ، وقوله : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم ، واختلافهم فيما يصغون به القرآن ، فتارة يجعلونه سحرًا ، وتارة يجعلونه شعرًا ، وتارة يجعلونه أضغاث

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٨) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/٤٠٧) ، وذكره الطبري في تفسيره (١٧/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٣٩) .

أحلام ، وتارة يجعلونه مفترى . وقوله : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ يعنون : كناقة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها ، فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك ، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك ؟ كلا ، بل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر ، وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

يقول تعالى ردًا على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ أي : جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالًا من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ وقال تعالى : حكاية عمن تقدم من الأمم لأنهم أنكروا ذلك فقالوا : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى ، وسائر الطوائف هل كان الرسل الذين أتوهم بشرًا أو ملائكة ؟ وإنما كانوا بشرًا ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه ؛ إذ بعث فيهم رسلًا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم ، والأخذ عنهم . وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ أي : بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ أي : في الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله ﷻ تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه ، وقوله : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ أي : الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين ، صدقهم الله وعده وفعل ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ ﴾ أي : أتباعهم من المؤمنين ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي : المكذبين بما جاءت الرسل .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على شرف القرآن ومحرضًا لهم على معرفة قدره : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ قال ابن عباس : شرفكم ، وقال مجاهد : حديثكم وقال الحسن : دينكم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي هذه النعمة ، وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ هذه صيغة تكثير كما قال : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ أي : أمة أخرى بعدهم ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ أي : تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم

نبيهم ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي : يفرون هاربين ﴿ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ ﴾ هذا تهكم بهم نزرًا أي : قيل لهم نزرًا لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ، والمعيشة والمساكن الطيبة ، قال قتادة : استهزاء بهم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ اعترفوا بذنوبهم حتى لا ينفعهم ذلك ، ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ أي : ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هِجِّيرَاهم ، حتى حصدناهم حصدًا ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودًا .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق أي : بالعدل والقسط ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ وأنه لم يخلق ذلك عبثًا ، ولا لعبًا كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ قال مجاهد : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ يعني : من عندنا ، يقول : وما خلقنا جنة ولا نارًا ، ولا موتًا ولا بعثًا ، ولا حسابًا . وقال الحسن قتادة وغيرهما : اللهو المرأة بلسان أهل اليمن ، وقال النخعي : ﴿ لَّٱتَّخَذْنَٰهُ ﴾ من الحور العين ، وقال السدي : والمراد باللهو هاهنا : الولد . وهذا والذي قبله متلازمان ، وهو كقوله تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقًا ولا سيما عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ قال قتادة : أي : ما كنا فاعلين . وقال مجاهد : كل شيء في القرآن إن : فهو إنكار .

وقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾ أي : نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال : ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي : ذاهب مضمحل ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ ﴾ أي أيها القائلون لله ولد ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أي : تقولون وتفترون . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم في طاعته ليلًا ونهارًا فقال : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ يعني : الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ أي : لا يستنكفون عنها وقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي : لا يتعبون ولا يملون ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ فهم دائبون في العمل ليلًا ونهارًا ، مطيعون قصدًا وعملًا قادرون عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ .

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أي : أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ؟ أي لا يقدرون على شيء من ذلك ، فكيف جعلوها لله ندًا وعبدوها معه ؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السماوات والأرض

فقال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ أي : في السماوات والأرض ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ وقال هاهنا : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، أي : تقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوًّا كبيرًا . وقوله : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ أي : هو : الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه ، وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه . ﴿ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ أي : وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ ﴾ يا محمد ، ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ ؟ أي : دليلكم على ما تقولون ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ ﴾ يعني : القرآن ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ يعني : الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون ، وتزعمون فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا اللَّه ، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه ، ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ كما قال : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فكل نبي بعثه اللَّه يدعو إلى عباة اللَّه وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك أيضًا ، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى رادًّا على من زعم أنه له تعالى وتقدس ولدًا من الملائكة : كمن قال ذلك من العرب إن الملائكة بنات اللَّه فقال : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي : الملائكة عباد اللَّه مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقامات سامية ، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : لا يتقدمون بين يديه بأمر ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية ، ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ كقوله : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وآيات كثيرة في معنى ذلك ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ ﴾ أي : من خوفه ورهبته ، ﴿ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ ﴾ أي : ادعى منهم أنه إله من دون اللَّه أي : مع اللَّه ﴿ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : كل من قال ذلك وهذا شرط ، والشرط لا يلزم وقوعه كقوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي : ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير ، فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه ؟ ألم يروا أن السماوات والأرض كانتا رتقًا أي : كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، فجعل السماوات سبعًا ، والأرض سبعًا ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض . ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئًا فشيئًا عيانًا ، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء .

وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : أرأيتم السماوات والأرض حين كانتا رتقًا هل بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار . وعن ابن عمر أن رجلًا أتاه يسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما . قال : اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ، ثم تعال فأخبرني بما قال لك : قال : فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس : نعم كانت السماوات رتقًا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت ، فلما خلق للأرض أهلًا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات . فرجع إلى ابن عمر فأخبره . فقال ابن عمر : الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علمًا ، صدق هكذا كانت ، قال ابن عمر : قد كنت أقول : ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسيره القرآن ؛ فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علمًا .

وقال عطية العوفي : كانت هذه رتقًا لا تمطر فأمطرت ، وكانت هذه رتقًا لا تنبت فأنبتت . وقال سعيد بن جبير : بل كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه . وقال الحسن وقتادة : كانتا جميعًا ففصل بينهما بهذا الهواء وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ أي : أصل كل الأحياء . وعن أبي هريرة أنه قال : يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأخبرنا عن كل شيء قال : « كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ » . قال : قلت : أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة . قال : « أَفْشِ السَّلَامَ ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ ، وَصِلِ الأَرْحَامَ ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، ثُمَّ ادْخُلِ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ » (١) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ أي : جبالًا أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس أي : تضطرب وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها ؛ لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع ، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء ، وما فيها من الآيات الباهرات ، والحكم والدلالات ، ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي : لئلا تميد بهم ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ أي : ثغرًا في الجبال يسلكون فيها طرقًا من قطر إلى قطر ، ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي : على الأرض ، وهي كالقبة عليها كما قال : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ فقال : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ ، والبناء هو نصب القبة كما قال رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ » (٢) أي خمس دعائم ، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٩٥) والحاكم في المستدرك (٤/١٢٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في الإيمان (١٩) .

﴿ مَحْفُوظًا ﴾ أي : عاليًا محروسًا أن ينال . وقال مجاهد : مرفوعًا . وقوله : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ أي : لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت ، والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة ، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيَّرها . ثم قال منبهًا على بعض آياته : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي : هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ، ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر وفلك آخر ، وسير آخر وتقدير آخر . و ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي : يدورون ، قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة ، قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ، ولا يدور إلا بهن . كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ ٱلْخُلْدَ ﴾ أي : في الدنيا بل ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَإِين مِّتَّ ﴾ أي : يا محمد ﴿ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ أي : يؤمِّلون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ وقوله : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أي : نختبركم بالمصائب تارة ، وبالنعم أخرى ، فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط . كما قال ابن عباس : ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ يقول نبتليكم . ﴿ بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ . بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة . وقوله : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي : فنجازيكم بأعمالكم .

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٦ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ يعني : كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أي : يستهزئون بك وينتقصونك ويقولون : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ؟ يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ؟ قال تعالى : ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي : وهم كافرون بالله ، ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وقوله : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ أي : في الأمور ، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا ، أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم ، واستعجلت ذلك فقال الله تعالى : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ،

يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ؛ ولهذا قال : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي ﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن المشركين أنهم : يستعجلون أيضًا بوقوع العذاب بهم تكذيبًا وجحودًا ، وكفرًا وعنادًا واستبعادًا . فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ أي : لو تيقنوا أنهم واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا . ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ ، ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ . وقال في هذه الآية : ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ وقال : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم . ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي : لا ناصر لهم كما قال : ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ وقوله : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ أي تأتيهم النار بغتة أي : فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي : تذعرهم فيستسلمون لها حائرين لا يدرون ما يصنعون . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي : ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ، ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يعني : من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار ، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام فقال : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي : بدل الرحمن يعني غيره . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي : لا يعترفون بنعمة الله عليهم ، وإحسانه إليهم ، بل يعرضون عن آياته وآلائه ثم قال : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ ؟ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا لا ، ولا كما زعموا ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم . وقوله : ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال ابن عباس : ولا هم منا يصحبون أي : لا يجارون . وقال قتادة : لا يصحبون من الله بخير . وقال غيره : ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ : يمنعون .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين : إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ، وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء . ثم قال واعظًا لهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، وقد أسلفناه في سورة الرعد ، وأحسن ما فسر بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقال الحسن البصري : يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر ، والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال : ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ يعني بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ أي : إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلا عمّا أوحاه الله إلي ، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته ، وختم على سمعه وقلبه . ولهذا قال : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي : ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ، ليعترفن بذنوبهم ، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا . وقوله : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ أي : ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه . وقوله : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمنِ ، سُبْحَانَ اللَّه وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ » (١) . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ﷻ يستخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال : لا يا رب . قال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فبهت الرجل . فيقول : لا يا رب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، فيقول : أحضروه ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة . قال فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة قال : ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « تُوضَعُ المَوَازِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ ، وَيُوضَعُ مَا أُحْصِيَ عَلَيْهِ فَيُمَايلُ بِهِ المِيزَان قَالَ : فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَى النَّارِ . قَالَ : فَإِذَا أُدْبِرَ بِهِ إِذَا صَائِحٌ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمنِ ﷻ يَقُولُ : لَا تَعْجَلُوا فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ ، فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ فِيهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه فَتُوضَعُ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ حَتَّى يَمِيلَ بِهِ المِيزَانُ » (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٦٨٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٢) والترمذي في سننه (٢٦٣٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢١/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠) .

وعن عائشة أن رجلًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ جلس بين يديه فقال : يا رسول اللَّه إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ : « يُحسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ ، وَكَذَبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ عليهم ، وإن كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الفَضْلُ الَّذِي يبقى قِبَلَكَ » فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول اللَّه ﷺ ويهتف فقال رسول اللَّه : « مَا لَهُ أما يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّه ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ فقال الرجل : يا رسول اللَّه ما أجد شيئًا خيرًا من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم (١) .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ .

قد تقدم التنبيه على أن اللَّه تعالى كثيرًا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات اللَّه وسلامه عليهما وبين كتابيهما . ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ قال مجاهد : يعني : الكتاب . وقال أبو صالح : التوراة وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق اللَّه بين الحق والباطل . وقال ابن زيد : يعني : النصر . وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد والحلال والحرام ، وعلى ما يحصل نورًا في القلوب وهداية وخوفًا ، وإنابة وخشية ولهذا قال : ﴿ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : تذكيرًا لهم وعظة ، ثم وصفهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ كقوله : ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ ، ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي : خائفون وجلون ، ثم قال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ يعني : القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور ؟

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع ، وأنه خرج به بعد أيام فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ، فعامتها أحاديث بني إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئًا من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نجعله وقفًا ، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولو

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٢٨٠) .

كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم ، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة . والمقصود هاهنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل أي : من قبل ذلك . وقوله : ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ أي : وكان أهلًا لذلك ، ثم قال : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ فقال : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ ؟ أي : معتكفون على عبادتها .

وعن الأصبغ بن نباتة قال : مر علي ﷺ على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس أحدكم جمرًا حتى يطفأ خير له من أن يمسها ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال . ولهذا قال : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم ، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ ؟ يقولون : هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبًا أو محقًّا فيه ، لم نسمع به قبلك . ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ أي : ربكم الذي لا إله غيره وهو الذي خلق السماوات والأرض ، وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن ، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي : وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ
أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا
فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ .

ثم أقسم الخليل قسمًا أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم أي ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أي : إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه ، قال السدي : لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه : يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال : إني سقيم فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون : مه ! فيقول : إني سقيم ، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ فسمعه أولئك . وقال أبو الأحوص عن عبد الله قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ فسمعه ناس منهم . وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ أي : حطامًا كسرها كلها ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ كما قال : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار

فكسرها ، ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : في صنيعه هذا . ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي : قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم ﴿ سَمِعْنَا فَتًى ﴾ أي : شابًا يذكرهم ﴿ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبيًا إلا شابًا ، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب وتلا هذه الآية : ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي : على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم . وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم ﷺ أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرًا ، ولا تملك لها نصرًا فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟ ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ يعني : الذي تركه لم يكسره ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم ، فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد . وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم ﷺ لم يكذب غير ثلاث : ثنتين في ذات الله قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ قال وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلًا ، فأتى الجبار رجل فقال : إنه قد نزل هاهنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختي . قال : فاذهب فأرسل بها إلي ، فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرآها : أهوى إليها فتناولها ، فأخذ أخذًا شديدًا فقال ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين فقال : ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ، وإنما أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر . فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته . وقال : مهيم ؟ قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر » قال محمد بن سيرين فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بني ماء السماء .

﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال : ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم فقالوا : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي : في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي : أطرقوا في الأرض فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ قال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ وقال السدي : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي : في الفتنة ، وقال ابن زيد : في الرأي . وقول قتادة أظهر في المعنى ؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزًا ، ولهذا قالوا له : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾

فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لا تنطق ؟ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ أي : إذا كانت لا تنطق ولا تضر ، فلم تعبدونها من دون اللَّه ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر . فأقام عليهم الحجة ، وألزمهم بها ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ الآية .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ .

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم فقالوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًّا ، قال السدي : حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطبًا لحريق إبراهيم ، ثم جعلوا في جوبة من الأرض ، وأضرموها نارًا فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها ، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب من فارس الأكراد ، فلما ألقوه قال : حسبي اللَّه ونعم الوكيل . كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال : « حَسْبِيَ اللَّه وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ عليه السلام حِينَ قَالُوا : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ »[1] وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام في النَّارِ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ في السَّمَاءِ وَاحِدٌ ، وَأَنَا في الأَرضِ وَاحِدٌ أَعْبُدُكَ »[2] ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال : لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك . وقال شعيب الجبائي : كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة فاللَّه أعلم . وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا وأما من اللَّه فبلى ، ويروى عن ابن عباس أيضًا قال : لما ألقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ، قال : فكان أمر اللَّه أسرع من أمره قال اللَّه : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال : لم يبق نار في الأرض إلا طفئت ، وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أحد يومئذ بنار ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه . وعن علي بن أبي طالب : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال : لا تضر به ، وقال ابن عباس : لولا أن اللَّه عز وجل قال : ﴿ وَسَلَامًا ﴾ لآذى إبراهيم بردها ، وقال قتادة : ولم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار ، إلا الوزغ . وقال الزهري : أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقًا . وقوله : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي اللَّه كيدًا فكادهم اللَّه ، ونجاه من النار فغلبوا هنالك ، وقال عطية العوفي : لما ألقي إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته مثل الصوفة .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

---

(١) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٥٦٣) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠١/٨) والسيوطي في الدر المنثور (٣٢٢/٤) .

صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم : أنه سلمه اللَّه من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجرًا إلى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها . وعن أبي بن كعب في قوله : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة ، وقال قتادة : كان بأرض العراق فأنجاه اللَّه إلى الشام ، وكان يقال للشام : أعقار دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يُهلك المسيح الدجال ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قال عطاء ومجاهد : عطيةً ، وقال ابن عباس وقتادة : النافلة ولد الولد ، يعني أن يعقوب ولد إسحاق ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : سأل واحدًا فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فأعطاه اللَّه إسحاق وزاده يعقوب نافلة . ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ أي : الجميع أهل خير وصلاح ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي : يقتدى بهم ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي : يدعون إلى اللَّه بإذنه ، ولهذا قال : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ من باب عطف الخاص على العام . ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ أي : فاعلين لما يأمرون الناس به ، ثم عطف بذكر لوط ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام ، واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ فآتاه اللَّه حكمًا وعلمًا ، وأوحى إليه وجعله نبيًّا ، وبعثه إلى سدوم وأعمالها ، فخالفوه وكذبوه ، فأهلكم اللَّه ودمر عليهم ، ولهذا قال : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ وقال نوح : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أي الذين آمنوا به كما قال : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وقوله : ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى اللَّه عز وجل ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ، ويتواصون قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل على خلافه ، وقوله : ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي : ونجيناه وخلصنا منتصرًا من القوم ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : أهلكهم اللَّه بعامة ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد ، كما دعا عليهم نبيهم .

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا

سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ .

قال ابن عباس : النفش الرعي ، وقال شريح والزهري وقتادة : النفش لا يكون إلا بالليل زاد قتادة : والهمل بالنهار ، وعن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده ، فأفسدته قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها فذلك قوله : ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ ﴾ وعن مسروق قال : الحرث الذي نفشت فيه الغنم ، إنما كان كرمًا فلم تدع فيه ورقة ولا عنقودًا من عنب إلا أكلته ، فأتوا داود فأعطاهم رقابها فقال سليمان : لا بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ، ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه ، حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم . وقوله : ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى قال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهوى في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة ، فقال الحسن البصري : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكمًا يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم قال تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال - يعني الحسن - : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثًا : لا يشتروا به ثمنًا قليلًا ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحدًا ثم تلا : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ وقال : ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ ﴾ .

قلت : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما من سواهم ؛ فقد ثبت عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » (١) . وفي السنن : القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار . وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى فخرجتا ، فدعاهما سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى » (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام) (٧٣٥٢) ومسلم في الأقضية (١٥) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٧) ومسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٣٢٢/٢) .

وقوله : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ الآية ، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء ، فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويبًا ، ولهذا لما مرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب جدًا ، فوقف واستمع لقراءته وقال : « لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مزامير آلِ دَاوُدَ » قال : يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبَّرته لك تحبيرًا (١) . وقوله : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني : صنعة الدروع . قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها حلقًا كما قال تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أي : لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ولهذا قال : ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني : في القتال ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ ؟ أي : نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم . وقوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي : وسخرنا لسليمان الريح العاصفة . ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعني أرض الشام . ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل ، والجمال والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله ، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به ، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ، قال الله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ . قال سعيد بن جبير : كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي ، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ، ثم يأمر الطير فتظلهم ، ثم يأمر الريح فتحملهم . وقوله : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أي : في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي غير ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء بل كل في قبضته ، وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه ، والقرب منه بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ .

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية ، فابتلي في ذلك كله ، وذهب عن آخره ثم ابتلي في جسده يقال بالجذام في سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وأفرد في ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله ، وقد قال النبي ﷺ : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ » (٢) وفي الحديث الآخر : « يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ » (٣) وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/٥) . (٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤٣/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/١) والترمذي في سننه (٢٣٩٨) .

قال : « إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثماني عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أخصِّ إِخْوانِهِ لَهُ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لصَاحِبِهِ : تَعْلَم واللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبه : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَة لَمْ يَرْحَمْهُ اللَّه فَيَكْشِف مَا بِهِ فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ أَيُّوبُ عليه السلام : مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل يَعْلَمُ أَنِّي كُنتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّه ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يَذْكُرَا اللَّهَ إِلَّا فِي حَقٍّ » قَالَ : وكَانَ يخرجُ فِي حَاجَتِهِ ، فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بيدهِ حَتَّى يبْلُغَ ، فَلما كَانَ ذاتَ يومٍ أبطأتْ عليْهِ ، فأوْحَى اللَّهُ إلى أيُّوبَ في مكانِهِ أنْ ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾ » (١) وعن ابن عباس قال : وألبسه اللَّه حلة من الجنة ، فتنحى أيوب فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت : يا عبد اللَّه أين ذهب هذا المبتلى الذي كان هاهنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب فجعلت تكلمه ساعة . فقال : ويحك أنا أيوب قالت : أتسخر مني يا عبد اللَّه فقال : ويحك أنا أيوب قد رد اللَّه جسدي ، وبه قال ابن عباس ، ورد عليه ماله وولده عيانًا ومثلهم معهم ، وقال وهب بن منبه : أوحى اللَّه إلى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك ، وقرب عن صحابتك قربانًا ، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لَمَّا عَافَى اللَّه أَيُّوبَ أمطر عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ مِنْهُ بِيَدِهِ وَيَجْعَلُهُ فِي ثَوْبِهِ قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : يَا أَيُّوبُ أَمَا تَشْبَعُ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ وَمَنْ يَشْبَعُ مِنْ رَحْمَتِكَ ؟ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ ﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال : ردوا عليه بأعيانهم ، وقال مجاهد : قيل له : يا أيوب إن أهلك لك في الجنة أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم . قال : لا بل أتركهم في الجنة، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا ، وقوله : ﴿ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا ﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من اللَّه به . ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾ أي : وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات اللَّه ، وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة في ذلك .

﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام وقد تقدم ذكره في سورة مريم ، وكذا إدريس عليه السلام ، وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي ، وقال آخرون : إنما كان رجلًا صالحًا ، وكان ملكًا عادلًا ، وحكمًا مقسطًا . وتوقف ابن جرير في ذلك فاللَّه أعلم .

قال مجاهد : رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ، ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ذلك فسمي ذا الكفل .

وعن كنانة بن الأخنس قال : سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر : ما كان ذو الكفل بنبي ولكن كان - ويعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٣٣٢٠) والهيثمي بنحوه في مجمع الزوائد (٢٠٨/٨) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٨٢/٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣١/٤) .

الكفل من بعده فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

هذه القصة مذكورة هاهنا وفي سورة الصافات وفي سورة ن ، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه ، وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ .

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة ، فلجّجت بهم وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا ، فأبوا ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا قال الله تعالى ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴾ أي : وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام ، وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى نفسه في البحر ، وقد أرسل الله سبحانه حوتًا يشق البحار ، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحمًا ولا تهشم له عظمًا ، فإن يونس ليس لك رزقًا وإنما بطنك تكون له سجنًا ، وقوله : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ يعني : الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة . وقوله : ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا ﴾ قال الضحاك لقومه . ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت . وقال عطية العوفي : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ أي : نقضي عليه كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ، فإن العرب تقول قدر وقدّر بمعنى واحد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ أي : قدر وقوله : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وذلك أنه ذهب به في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره فعند ذلك وهنالك قال : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا ، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء . وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينه مني ثم لم يردَّ عليَّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين قال : لا وما ذاك ؟ قلت : لا إلا أني مررت بعثمان آنفًا في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردَّ علي السلام ، قال : فأرسل عمر إلي عثمان فدعاه فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت . قال سعد : قلت : بلى حتى حلف وحلفت قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بي آنفًا ، وأنا أحدث نفسي بكلمة

سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة ، قال سعد : فأنا أنبئك بها إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله ، حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال : « مَنْ هَذَا أَبُو إِسْحَاقَ ؟ » قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال : « فَمَه ؟ » قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك قال : « نَعَمْ دَعْوَةَ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ » (١) . وعنه ﷺ : « مَنْ دَعَا بِدُعَاءِ يُونسَ اسْتُجِيبَ لَهُ » (٢) قال أبو سعيد : يريد به ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وعن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسمُ اللهِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ، دَعْوَةُ يُونسَ بْنِ مَتَّى » قال : قلت : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هِيَ لِيُونسَ بْنِ مَتَّى خاصَّة وَلِجَمَاعَةِ المُؤْمِنِينَ عَامَّة ، إِذَا دَعَوْا بِهَا أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ اللهِ ﷻ : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فَهُوَ شَرْطٌ مِنَ اللهِ لِمَنْ دَعَاهُ بِهِ » (٣) .

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدًا يكون من بعده نبيًّا ، ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ أي : خفية عن قومه ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أي : لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة قال الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ أي : امرأته قال ابن عباس : كانت عاقرًا لا تلد ، فولدت ، وقال عطاء : كان في لسانها طول فأصلحها الله ، وفي رواية : كان في خلقها شيء فأصلحها الله ، والأظهر من السياق الأول . وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي : في عمل القربات ، وفعل الطاعات . ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ قال الثوري : رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا ، ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ قال ابن عباس أي : مصدقين بما أنزل الله وقال . مجاهد : مؤمنين حقًّا . وقال أبو العالية : خائفين . وقال أبو سنان : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا ، وعن مجاهد أيضًا : أي متواضعين ، وقال الحسن وقتادة والضحاك : أي : متذللين لله ﷻ وكل هذه الأقوال متقاربة ، وقال عبد الله بن حكيم : خطبنا أبو بكر ؓ قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله ، وتثنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله ﷻ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ .

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى ؏ مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى ؏ فيذكر

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٧٠) . (٢) ذكره الحاكم في المستدرك (٢/٥٨٤) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩/١٠٧) (١٨٧٢٤) .

أولًا : قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ؛ لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر ، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم ، وهاهنا ذكر قصة زكريا ، ثم أتبعها بقصة مريم بقوله : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ يعني : مريم عليها السلام ، كما قال في سورة التحريم : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي : دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ : الجن والإنس .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ يقول : دينكم دين واحد ، وقال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأنبياءِ أَوْلَادُ عَلَّات دِينُنَا وَاحِدٌ » يعني : أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله . وقوله : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي : اختلف الأمم على رسلها ، فمن بين مصدق لهم ومكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أي : يوم القيامة ، فيجازي كل بحسب عمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي قلبه مصدق وعمل عملًا صالحًا ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ أي لا يكفر سعيه ، وهو عمله ، بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء .

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس : وجب يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة . وعن ابن عباس أيضًا أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والقول الأول أظهر والله أعلم . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام بل من نسل نوح أيضًا من أولاد يافث ، أي أبي الترك والترك شرذمة منهم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد والحدب : هو المرتفع من الأرض قاله ابن عباس ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ هذا إخبار عالم ما كان وما يكون ، الذي يعلم غيب السماوات والأرض لا إله إلا هو . وعن عبد الله بن أبي يزيد قال : رأى ابن عباس صبيانًا ينزو بعضهم على بعض يلعبون ، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج [1] ، وقد ورد ذكر

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١١٦/١٩) (١٨٧٤٤) .

خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية . فعن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله ﷻ : ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فيغشون الناس ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر بالنهر ، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسًا ، حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر ، فيقول : قد كان ها هنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس أحد ، إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء ، قال : ثم يهز أحدهم حربته ، ثم يرمي بها إلى السماء ، فترجع إليه مخضبة دمًا للبلاء والفتنة . فبينما هم على ذلك بعث الله ﷻ دودًا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو ؟ قال : فينحدر رجل منهم محتسبًا نفسه قد أوطنها على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض ، فينادى : يا معشر المسلمين : ألا أبشروا إن الله ﷻ قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم رعي إلا لحومهم ، فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط » (١) .

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق ، فعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيُحَجَّنَّ هَذَا البَيْتَ ، وَلَيُعْتَمِرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ » (٢) . وقوله : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل ، والبلابل أزفت الساعة ، واقترب فإذا كانت ووقعت قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي : من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿ يَٰوَيْلَنَا ﴾ أي : يقولون : يا ويلنا ﴿ قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يقول تعالى مخاطبًا لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان . ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قال ابن عباس : أي : وقودها يعني كقوله : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ وقال ابن عباس أيضًا : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ يعني شجر جهنم ، وفي رواية : يعني حطب جهنم بالزنجية ، وقال مجاهد : حطبها . وقال الضحاك : أي ما يرمى به فيها .

وكذا قال غيره ، والجميع قريب وقوله : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ أي : داخلون ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ يعني : لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٣) وابن ماجه في سننه (٤٠٧٩) والحاكم في المستدرك (٢٤٥/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧/٣) .

صحيحة ، لما وردوا النار وما دخلوها . ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي : العابدين ومعبوداتهم كلهم فيها خالدين ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ والزفير خروج أنفاسهم والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود : إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار ، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره ثم تلا عبد الله ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ قال عكرمة : الرحمة . وقال غيره : السعادة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله ، وهم الذين أسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجاهم من العذاب ، وحصل لهم جزيل الثواب فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أي : حريقها في الأجساد ، وعن أبي عثمان ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ قال : حيات على الصراط تلسعهم فإذا لسعتهم قال : حس حس .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب . وعن ابن عباس قال في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ : فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرًّا هو أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثيًّا فهذا مطابق لما ذكرناه ، وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين ، وخرج منهم عزير والمسيح . كما قال ابن عباس ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ ثم استثنى فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ فيقال : هم الملائكة وعيسى ، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله ﷻ . وقال ابن عباس : نزلت في عيسى ابن مريم وعزير عليهما السلام .

وقال مجاهد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ . قال : عيسى وعزير والملائكة . وقال الضحاك : عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر . وقوله : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ قيل : المراد بذلك الموت وقيل : المراد بالفزع الأكبر النفخة في الصور . وقيل : حين يؤمر بالعبد إلى النار . وقيل : حين تطبق النار على أهلها . وقيل : حين يذبح الموت بين الجنة والنار ، وقوله : ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يعني ، تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم : ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي فأملوا ما يسركم .

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى هذا كائن يوم القيامة ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرَضِينَ وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ بِيَمِينِه » [1] . وعن ابن عباس قال : يطوي الله السماوات السبع بما فيها من

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (١٩) .

الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة ، وقوله : ﴿ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ قيل : المراد بالسجل الكتاب ، وقيل : المراد بالسجل ها هنا ملك من الملائكة ، وعن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ ، قال : السجل ملك فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبها نورًا . والصحيح عن ابن عباس : أن السجل هي الصحيفة . قاله علي بن أبي طلحة والعوفي عنه ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب بمعنى المكتوب كقوله : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أي على الجبين ، وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ يعني : هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقًا جديدًا كما بدأهم هو القادر على إعادتهم ، وذلك واجب الوقوع ؛ لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ وعن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » وذكر تمام الحديث (١) . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ قال : يهلك كل شيء كما كان أول مرة .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية ، وهو كائن لا محالة ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ قال الأعمش : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ فقال الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . وقال مجاهد : الزبور : الكتاب ، وقال ابن عباس وغير واحد : الزبور الذي أنزل على داود ، والذكر التوراة ، وعن ابن عباس الذكر : القرآن . وقال سعيد بن جبير : الذكر الذي في السماء . وقال مجاهد : الزبور الكتب بعد الذكر ، والذكر أم الكتاب عند الله ، وكذا قال زيد بن أسلم : وهو الكتاب الأول . وقال الثوري : هو اللوح المحفوظ ، وقال عبد الرحمن ابن زيد : الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء ، والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك ، وقال ابن عباس : أخبر الله ﷻ في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورّث أمة محمد ﷺ الأرض ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون .

وقال ابن عباس ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ قال : أرض الجنة وقال أبو الدرداء : نحن الصالحون ، وقال السدي : هم المؤمنين ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ أي : إن في

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٤٠) ومسلم في الجنة (٥٦) وأحمد في مسنده (٢٣٥/١) .

هذا القرآن الذي أنزلناه على محمد ﷺ . ﴿ لَبَلَٰغًا ﴾ لمنفعة وكفاية ﴿ لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ ، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان ، وشهوات أنفسهم وقوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين - أي أرسله رحمة لهم - كلهم ، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى في صفة القرآن : ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ .

وعن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ادع على المشركين ؟ قال : « إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً » (١) وعن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة : يا معشر قريش إن محمدًا نزل يثرب ، وأرسل طلائعه ، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئًا ، فاحذروا أن تمروا طريقه أو تقاربوه ، فإنه كالأسد الضاري ، إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم ، والله إن له لسحرة ما رأيته قط ولا أحدًا من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين ، وإنكم قد عرفتم عداوة بني قيلة - يعني الأوس والخزرج - فهو عدو استعان بعدو ، فقال له مطعم بن عدي : يا أبا الحكم والله ما رأيت أحدًا أصدق لسانًا ولا أصدق موعدًا من أخيكم الذي طردتم وإذ فعلتم الذي فعلتم ، فكونوا أكف الناس عنه ، قال أبو سفيان بن الحارث : كونوا أشد ما كنتم عليه إن ابني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمة ، وإن أطعتموني ألجأتموهم خير كنانة أو تخرجوا محمدًا من بين ظهرانيهم فيكون وحيدًا مطرودًا ، وأما ابنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك في المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم وقال :

سَأَمْنَحُ جَانِبًا مِنِّي غَلِيظًا ... عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدِ
رِجَالُ الخَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذُلٍّ ... إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جِدٍّ

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ قال « والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَقْتُلَنَّهُمْ ولأُصلِّبَنَّهُم وَلأَهْدِيَنَّهُمْ وَهُمْ كَارِهُونَ ، إِنِّي رَحْمَةٌ بَعَثَنِي اللهُ وَلَا يَتَوَفَّانِي حَتَّى يُظْهِرَ اللهُ دِينَهُ ، لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ ؛ أَنَا محمدٌ ، وَأَحْمَدُ ، وَأنا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الكُفْرَ ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ ، وَأَنَا العَاقِبُ » (٢) .

وعن عمرو بن أبي قرة الكندي قال : كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان : يا حذيفة إن رسول الله ﷺ خطب فقال : « أَيُّمَا رَجُل سَبَبْتُهُ فِي غَضَبِي أَوْ لَعَنْتُه ، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبُ كَمَا تَغْضَبُونَ ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَأَجْعَلُهَا صَلَاةً عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٣) . فإن قيل فأي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس : في قوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قال : من آمن بالله

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) والطبراني في الكبير (١٩/١٨٩) .
(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٣٢) والتفسير (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤ ، ١٢٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٣٧) أبو داود في سننه (٤٦٥٩) .

واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله عوفي مما أصاب الأممَ من الخسف والقذف .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي : تركوا ما دعوتهم إليه . ﴿ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي : أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي ، بريء منكم كما أنتم برآء مني ، كقوله : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي : ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء وهكذا ها هنا . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي : أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك .

وقوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أي : هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لي بقربه ، ولا ببعده ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أي : إن الله يعلم الغيب جميعه ، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم ، وسيجزيهم على ذلك ، على القليل والجليل . وقوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين ؟ قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى ، ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك . كان ﷺ إذا شهد غزاة قال : ﴿ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ . وقوله : ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي : على ما يقولون ويفترون من الكذب ، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم في ذلك .

سورة الحج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

يقول تعالى آمرًا عباده بتقواه ، ومخبرًا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم كما قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ الآية . فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة ، وقال علقمة في قوله : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ : قبل الساعة [(١)] ، وعن عامر الشعبي قال : هذا في الدنيا قبل القيامة ، وفي حديث الصور عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ ، فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ فَهُوَ وَاضِعُه عَلَى فِيهِ شَاخِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى العَرْشِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ » ، قال أبو هريرة : يا رسول الله وما الصور ؟ قال : قرن . قال : فكيف هو ؟ قال : « قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنْفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ : الأُولَى : نَفْخَةُ الفَزَعِ . والثانِيَةُ : نَفْخَةُ الصَّعْقِ . والثالثةُ : نفخةُ القِيَامِ لِرَبِّ العَالَمِينَ ، يَأْمُرُ اللَّه إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الأُولَى فَيَقُولُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الفَزَعِ ، فَيَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّه ، وَيَأْمُرُهُ فَيَمُدُّهَا وَيُطَوِّلُهَا وَلَا يَفْتُرُ وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّه تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ فَتَسِيرُ الجِبَالُ فَتَكُونُ تُرَابًا ، وَتَرُجُّ الأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًّا ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّه تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ . فتكونُ الأرضُ كالسَّفِينَةِ المُوبقَةِ في البَحْرِ تَضْرِبُهَا الأَمْوَاجُ تَكْفَؤُها بِأَهْلِهَا ، وكالقِنْدِيلِ المُعَلَّقِ بِالعَرْشِ تُرَجِّحُهُ الأَرْوَاحُ فَيَمْتَدُّ النَّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَتُذْهَلُ المَرَاضِعُ ، وَتَضَعُ الحَوَامِلُ ، وَيَشِيبُ الوِلْدَانُ ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً حَتَّى تَأْتِيَ الأَقْطَارَ ، فَتَلَقَّاهَا المَلَائِكَةُ فَتَضْرِبُ وُجُوهَهَا فَتَرْجِعُ ، وَيُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِينَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّه تعالى : ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ . فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذَ انْصَدَعَتِ الأَرْضِ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَرَأَوا أَمْرًا عَظِيمًا ، فَأَخَذَهُمْ لِذَلِكَ مِنَ الكَرْبِ مَا اللَّه أَعْلَمُ بِهِ ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هِيَ كالمُهْلِ ، ثُمَّ خُسِفَ شَمْسُهَا وَقَمَرُهَا ، وانْتَثَرَتْ نُجُومُهَا ، ثُمَّ كُشِطَتْ عَنْهُمْ – قال رسول اللَّه ﷺ : وَالأَمْوَاتُ لَا يَعْلَمُونَ بِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ » . قال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ قال : « أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ، ووقاهم الله شر ذلك اليوم ، وآمنهم وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، وهو الذي يقول الله :

(١) أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٥/١٩) (١٨٨٢٧) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (١) وهذا الحديث الغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة ، أضيفت إلى الساعة لقربها منها ، كما يقال : أشراط الساعة ، ونحو ذلك والله أعلم . وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال ، وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث منها :

عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال - وهو في بعض أسفاره - وقد تقارب من أصحاب السير ، رفع بهاتين الآيتين صوته - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي ، وعرفوا أنه عند قول يقوله : فلما دنوا حوله قال : « أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَاكَ ، ذَاكَ يَوْمٌ يُنَادِي آدَمُ ﷺ ، فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ ﷻ فَيَقُولُ : يا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَكَ إِلَى النَّارِ . فَيَقُولُ : يا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ » ، قال : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا أيضًا حكمه ، فلما رأى ذلك قال : « أَبْشِرُوا وَاعْمَلُوا ، فَوَالَّذِي نَفْسُ محمدٍ بِيَدِهِ إِنَّكم لمعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ يَأْجوج وَمأْجُوجُ ، وَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ » - قال : فسرّي عنهم - ثم قال : « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهْ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كالشَّامَةِ فِي جَنْبِ البَعِيرِ أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ » (٢) .

وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال : لما نزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ قال : نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال : « أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَلِكَ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذَلِكَ يَوْمَ يَقُولُ الله لآدَمَ : ابْعَثْ بَعْثَ النارِ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ : تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ » . فأنشأ المسلمون يبكون فقال رسول الله ﷺ : « قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهَا جَاهِلِيَّةٌ قَالَ : فَيُؤْخَذُ العَدَدُ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنْ تَمَّتْ وَإِلَّا كَمُلَتْ مِنَ المُنَافِقِينَ ، وَمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَل الأمم إِلَّا كمثلِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّة ، أَوِ كالشَّامَةِ فِي جَنْبِ البَعِيرِ - ثم قال : إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةَ - فَكَبَّرُوا ثم قال : إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُول ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ - فكبَّرُوا ثم قال : إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ » ، فكبروا . ثم قال : ولا أدري أقال : الثلثين أم لا (٣) .

وعن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ : يَا آدَمُ فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النارِ ؟ قَالَ : مِنْ كُلِّ أَلفٍ - أراه قال : تِسْعُمِائَةٌ وَتِسعَةٌ وَتِسْعُونَ ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا ،

(١) أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٦/١٩) (١٨٨٣٠) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٦٩) .
(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٢/٤) .

وَيَشِيبُ الوَلِيدُ . ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ » . فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم . قال النبي ﷺ : « مِنْ يَأْجُوجِ وَمَأْجُوجِ تِسْعُمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ ، أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَض ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الجَنَّةِ - فَكبرنَا ، ثم قال : ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ - فَكَبَّرْنَا ، ثم قال : شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ » . فكبرنا [1] .

وعن عائشة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » ، قالت عائشة : يا رسول اللّه الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يَا عَائِشَةُ إِنَّ الأَمْرَ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهُمَّهُمْ ذَاكَ » [2] .

والأحاديث في أهوال يوم القيامة ، والآثار كثيرة جدًّا لها موضع آخر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب ، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع كما قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسرًا له ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أي : فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدهش عنه في حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ولم يقل مرضع ، وقال : ﴿ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أي عن رضيعها قبل فطامه ، وقوله : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي : قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ ﴾ وقرئ ﴿ سكرى ﴾ [3] أي : من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة اللّه على إحياء الموتى معرضًا عما أنزل اللّه على أنبيائه متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كلَّ شيطان مريد من الإنس والجن وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل ، يتركون ما أنزله اللّه على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم وأشباههم . ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : علم صحيح ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ قال مجاهد : يعني الشيطان يعني : كتب عليه كتابة قدرية . ﴿ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ أي اتبعه وقلده . ﴿ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي : يضله في الدنيا ، ويقوده في الآخرة إلى عذاب

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٤١) ومسلم (٢٠١) .
(٢) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء) (٣٣٤٩) ومسلم في (الجنة) (٥٨) والإمام أحمد في مسنده (٥٣/٦) .
(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (سكرى) بفتح السين وكسر الكاف من غير ألف والباقون بضم السين وفتح الكاف وألف (انظر : تقريب النشر ص : ١٤٥) .

السعير ، وهو الحار المؤلم المقلق ، المزعج . وعن أبي مالك قال : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث . وعن أبي كعب المكي قال : قال خبيث من خبثاء قريش : أخبرنا عن ربكم من ذهب هو أو من فضة أو من نحاس هو ؟ فتقعقعت السماء قعقعة - والقعقعة في كلام العرب الرعد - فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه ، وقال مجاهد : جاء يهودي فقال : يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو من در أم من ياقوت ؟ قال : فجاءت صاعقة فأخذته .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ .

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ أي : في شك ﴿ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد ، يوم القيامة ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أي : أصل برئه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام . ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي : ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يومًا كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يومًا ، ثم تستحيل فتصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ، ورجلان وسائر الأعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها ، وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي كما تشاهدونها ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها ، كما قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهي مضغة أرسل الله تعالى ملكًا إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح ، وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقي أو سعيد ، كما ثبت عن رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق :

« إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ يكون عَلَقَةً مثل ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلُ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّه إِلَيْهِ الملَكَ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الروحُ » (١) .

وعن الشعبي ، عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت في الرحم ، جاءها ملك بكفه فقال : يا رب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل : غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دمًا ، وإنْ قيلَ : مخلَّقَةٌ . قال : أي رب ذكر أو أنثى ، شقي أو سعيد ما الأجل وما الأثر ، وبأي أرض

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) .

يموت ؟ قال : فيقال للنطْفَةِ : من ربك ؟ فتقول : اللَّه . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : اللَّه . فيقال له : اذهب إلى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة قال : فتخلق فتعيش في أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في الأرض ، ثم تلا عامر الشعبي ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة ، وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دمًا ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة . وعن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال : «يَدْخُلُ المَلَكُ عَلَى النطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ في الرَّحِم بِأَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ ، فَيَقُولُ : أَي رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَيَقُولُ اللَّه : وَيَكْتُبَانِ . فَيَقُولُ : أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فيقول اللَّه ويكتبان ، ويكتب عمله وأثره ورزقه ، وأجله ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص »[(١)] . وقوله : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي : ضعيفًا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه اللَّه القوة شيئًا فشيئًا ، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ أي يتكامل القوي ويتزايد ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر ، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ أي : في حال شبابه وقواه ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ وهو : الشيخوخة والهرم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، وتناقص الأحوال من الخرف ، وضعف الفكر ؛ ولهذا قال : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء . وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدي : ميتة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي : فإذا أنزل اللَّه عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ، وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها ، وروائحها وأشكالها ومنافعها . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي : حسن المنظر طيب الريح . وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي : كما أحيا الأرض الميتة ، وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أي : يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رممًا ويوجدهم بعد العدم . كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ . والآيات في هذا كثيرة .

وعن أبي رزين العقيلي واسمه لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول اللَّه أكلنا يرى ربه ﷿ يوم القيامة

---

(١) أخرجه مسلم في (القدر) (٢) والإمام أحمد في مسنده (٧/٤) .

وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَنْظُرُ إِلَى القَمَرِ مخْلِيًا بِهِ ؟ »قلنا : بلى ، قال : «فاللَّهُ أَعْظَمُ »قال : قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : «أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مُمْحِلًا ؟ » ، قال : بلى . قال : «ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا ؟ »قال : بلى قال : «فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَى ، وَذَلِكَ آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ »وعن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور دخل الجنة [(١)] .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الضلَّال الجهَّال المقلِّدين في قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي : بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى ، وقوله : ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ . قال ابن عباس وغيره : مستكبر عن الحق إذا دعي إليه ، وقال زيد ابن أسلم أي : لاوي عطفه وهي رقبته ، يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق ، ويثني رقبته استكبارًا كقوله تعالى : ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ وقال لقمان لابنه : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : تميله عنهم استكبارًا عليهم ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قال بعضهم : هذه لام العاقبة ؛ لأنه قد لا يقصد ذلك ، ويحتمل أن تكون لام التعليل . ثم إما أن يكون المراد بها المعاندون ، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله . ثم قال تعالى : ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ وهو الإهانة والذل ، ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ . ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي : يقال له هذا تقريعًا وتوبيخًا ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ . وقال الحسن : بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما ﴿ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ على شك . وقال غيرهم : على طرف ، ومنه حرف الجبل أي طرفه أي دخل في الدين على طرف ، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر . قال ابن عباس : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء . وقال ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : كان

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/١١) والحاكم في المستدرك (٤/٥٦٠) .

ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم وجدوا عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به . وإن وجدوا عام جدوبة ، وعام ولاد سوء ، وعام قحط قالوا : ما في ديننا هذا خير . فأنزل الله على نبيه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ ﴾ الآية .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه ، وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه ، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾ أي : ارتد كافرًا . وقوله : ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ أي : فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي : هذه الخسارة العظيمة ، والصفقة الخاسرة . وقوله : ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ، ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ ﴾ أي : ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن . وقوله : ﴿ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾ قال مجاهد : يعني الوثن ، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى ، يعني : وليًا وناصرًا . ﴿ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾ وهو المخالط والمعاشر . واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب (١) ﴿ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾ وقول مجاهد : إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء ، عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات ، وتركوا المنكرات ، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات ، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء ، قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴾ .

قال ابن عباس من كان يظن أنه لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة ، ﴿ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ ﴾ أي بحبل ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي سماء بيته ﴿ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ ﴾ يقول : ثم ليختنق به . وكذا قال مجاهد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : ليتوصل إلى بلوغ السماء ، فإن النصر إنما يأتي محمدًا من السماء ، ﴿ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك ، وقول ابن عباس وأصحابه أظهر في المعني ، وأبلغ في التهكم ، فإن المعنى : من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه ، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لا محالة ، قال الله تعالى :

---

(١) تفسير الطبري (١٦٤/١٧) .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾ الآية . ولهذا قال : ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ قال السدي : يعني من شأن محمد ﷺ ، وقال عطاء الخراساني : فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ . وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي القرآن . ﴿ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي : واضحات في لفظها ومعناها حجة من الله على الناس ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ أي : يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وله الحكمة التامة في ذلك ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِـِٔينَ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ، ومن سواهم من اليهود والصابئين ، والنصارى والمجوس ، والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره ، فإنه تعالى : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾ ويحكم بينهم بالعدل ، فيدخل من آمن به الجنة ومن كفر به النار ، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم ، وما تكن ضمائرهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعًا وكرهًا ، وسجود كل شيء مما يختص به . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : من الملائكة في أقطار السماوات والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن ، والدواب والطير ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص ؛ لأنها قد عبدت من دون الله ، فبين أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مسخرة ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ الآية . وعن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال : « أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ ، ثُمَّ تُسْتَأْمَرُ فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا : ارجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ »(١) . وعنه ﷺ قال : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ الله ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ إذا تَجَلَّى لِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ خَشَعَ لَهُ »(٢) . وقال أبو العالية : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجدًا حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل ، وعن ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله إني رأيتني الليلة - وأنا نائم - كأني أصلي خلف شجرة فسجدت ، فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا ، وضع عني بها وزرًا ، واجعلها لي عندك ذخرًا ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ، ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة ، وقوله : ﴿ وَالدَّوَابُّ ﴾ أي : الحيوانات كلها وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣١٩٩) ومسلم في الإيمان (٢٥٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (١١٧٧) وابن ماجه في سننه (١٢٦٢) .

نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خيرًا أو أكثر ذكرًا لله تعالى من راكبها [١] .

وقوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ أي : يسجد لله طوعًا مختارًا متعبدًا بذلك ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر . ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ . وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال : قيل لعلي إن ها هنا رجلًا يتكلم في المشيئة . فقال له علي : يا عبد الله ، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا قَرَأَ ابن آدمَ السَّجْدَةَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ : يَا وَيْلَهُ أُمِرَ ابنُ آدمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّة ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّار » [٢] .

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

ثبت عن أبي ذر أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر [٣] . وعن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ، قال قيس : وفيهم نزلت ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد ابن عتبة [٤] . وقال قتادة في قوله : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ اختصم المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضي على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه وأنزل : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ . وقال قتادة في قوله : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ مصدق ومكذب . وقال مجاهد في هذه الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية : هم المؤمنون والكافرون . وقال عكرمة : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ هي الجنة والنار . قالت النار : اجعلني للعقوبة . وقالت الجنة : اجعلني للرحمة ، وقول مجاهد وعطاء : إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله ﷻ ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق ، وظهور الباطل . ولهذا قال : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أي : فصلت لهم مقطعات من النار ، قال سعيد بن جبير : من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ أي : إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة . وقال سعيد بن جبير : هو النحاس المذاب ، أذاب ما

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٥٦٧) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٣) والإمام أحمد في مسنده (٢/٤٤٠) وابن ماجه في سننه (١٠٥٢) .
(٣) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٤٣) . (٤) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٤٤) .

في بطونهم من الشحم والأمعاء . وكذلك تذوب جلودهم . وقال ابن عباس : تساقط .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الحَمِيمَ لَيُصَبُّ على رُؤُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ إلى الجُمْجُمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إلى جَوْفِهِ ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيهِ ، وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ » (١) . قال عبد الله بن السري : يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته ، فإذا أدناه من وجهه تكرهه قال : فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه . فذلك قوله : ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ وفي الحديث عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ مَقْمَعًا مِنْ حَدِيدٍ وُضِعَ فِي الأرْضِ فَاجْتَمَعَ لَهُ الثَّقَلانَ مَا أَقَلُّوهُ مِنَ الأرْضِ » (٢) . وعن أبي سعيد الخدري أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ ضُرِبَ الجَبَلُ بِمَقْمَعٍ مِنْ حَدِيد لَتَفَتَّتَ ، ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ ، وَلَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَّاقٍ يُهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لأَنْتَنَ أَهْلُ الدُّنْيَا » (٣) . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور . وقوله : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ . وقال زيد بن أسلم في هذه الآية : بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون ، وقال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيدة ، وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها . وقوله ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ كقوله : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولًا وفعلًا .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ .

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عياذًا بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والنكال ، والحريق والأغلال ، ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي : تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها ، وتحت أشجارها وقصورها ، يصرفونها حيث شاءوا وأين أرادوا ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ من الحلية ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ أي في أيديهم كما في الحديث : « تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ » (٤) . وقوله : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم ، لباس هؤلاء من الحرير إستبرقه وسندسه كما قال : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ وفي الصحيح : « لا تَلْبَسُوا الحَرِيرَ وَلَا الدِّيبَاجَ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ » (٥) . قال عبد الله بن الزبير : من لم يلبس

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/١٧٥) (١٨٨٩٧) وأخرجه الترمذي في سننه (٣٥٨٢) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٧٤) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٨٨) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٨٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٨٨) .
(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٧١) .
(٥) أخرجه البخاري في (الأطعمة) (٥٤٢٦) ومسلم في اللباس (٤ ، ٥) .

الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ وقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب . وقوله : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به يقال لهم : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي : إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به ، وأسداه إليهم . كما جاء في الحديث الصحيح : « إِنَّهُمْ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ » (١) . وقد قال بعض المفسرين في قوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي : القرآن وقيل : لا إله إلا الله ، وقيل : الأذكار المشروعة ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي : الطريق المستقيم في الدنيا ، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام ، وقضاء مناسكهم فيه ، أي : ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله . ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أي : ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر . وقوله : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وقد جعله الله شرعًا سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه . ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها . قال ابن عباس : ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام . وقال مجاهد : ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل ، وقال قتادة : سواء فيه أهله وغير أهله ، وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف ، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر ، واحتج بحديث عن أسامة بن زيد قال : قلت : يا رسول الله أتنزل غدًا في دارك بمكة ؟ فقال : « وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ ؟ » ثم قال : « لَا يَرِثُ الكَافِرُ المُسْلِمَ وَلَا المُسْلِمُ الكَافِرَ » (٢) وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارًا بمكة ، فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم ، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار ، وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن (٣) . وعن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها . وكان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم ، وكان عمر بن الخطاب ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتها ، فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو ،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤) والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٤٩) .

(٢) أخرجه البخاري في (الحج) (٤٤) ومسلم في (الحج) (٤٣٩) . (٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣١٠٧) .

فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك فقال : أنظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجرًا ، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري . قال : فلك ذلك إذًا .

وعن عبد اللّه بن عمرو موقوفًا : من أكل كراء بيوت في مكة أكل نارًا وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورث ولا تؤجر جمعًا بين الأدلة ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية : الباء هاهنا زائدة . كقوله : ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ أي : تنبت الدهن ، وكذا قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ تقديره إلحادًا والأجود أنه ضمَّن الفعل هاهنا معنى يهم ، ولهذا عداه بالباء فقال : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ أي : يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار وقوله : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي : عامدًا قاصدًا أنه ظلم ليس بمتأول . وعن ابن عباس : هو التعمد . وقال ابن عباس : بظلم : بشرك ، وقال مجاهد : أن يعبد فيه غير اللّه ، وقال العوفي عن ابن عباس : بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم اللّه عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك ، وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فعل ذلك وجب له العذاب الأليم ، وقال مجاهد : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ يعمل فيه عملًا سيئًا ، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازمًا عليه وإن لم يوقعه . وعن عبد اللّه قال : ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه ، ولو أن رجلًا بعدن أبين همَّ أن يقتل رجلًا بهذا البيت لأذاقه اللّه من العذاب الأليم . قال مجاهد : إلحاد فيه : لا واللّه وبلى واللّه . وقال سعيد بن جبير : شتم الخادم ظلم فما فوقه . وقال ابن عباس : تجارة الأمير فيه . وعن ابن عمر : بيع الطعام بمكة إلحاد . وقال سعيد بن جبير : قال ابن عباس في قول اللّه : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ قال : نزلت في عبد اللّه بن أنيس أن رسول اللّه ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب فغضب عبد اللّه بن أنيس فقتل الأنصاري ، ثم ارتد عن الإسلام ، ثم هرب إلى مكة ، فنزلت فيه ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ يعني : من لجأ إلى الحرام بإلحاد يعني : بميل : عن الإسلام ، وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها ولهذا لما همَّ أصحاب الفيل على تخريب البيت ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ أي : دمرهم وجعلهم عبرة ونكالًا لكل من أراد بسوء ، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول اللّه ﷺ قال : «يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ » (١) الحديث .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير اللّه وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد اللّه وعبادته وحده لا شريك له ، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت أي : أرشده إليه ، وسلمه له وأذن له في بنائه ، واستدل به كثير ممن قال : إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق ، وأنه لم يبن قبله كما ثبت في الحديث عن أبي ذر قلت : يا رسول اللّه أي مسجد وضع

(١) أخرجه البخاري في (الحج) (٤٩).

أول ؟ قال : « المَسْجِدُ الحَرَامُ » قلت : ثم أي ؟ قال : « بَيْتُ المَقْدِسِ » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » . وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ الآيتين . وقال تعالى هاهنا : ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا ﴾ أي : ابنه على اسمي وحدي ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ قال قتادة : من الشرك . ﴿ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي : اجعله خالصًا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها . ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ أي : في الصلاة ولهذا قال : ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، وقوله : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعيًا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه فذكر أنه قال : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه : وقيل : على الحجرة ، وقيل : على الصفا ، وقيل : على أبي قبيس ، وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك ، وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ الآية . قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيًا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبًا ؛ لأنه قدمهم في الذكر فدل على الاهتمام بهم ، وقوة هممهم ، وشدة عزمهم ، وعن ابن عباس قال : ما أساء على شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشيًا لأن الله يقول : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ والذي عليه الأكثرون أن الحج راكبًا أفضل اقتداء برسول الله ﷺ ، فإنه حج راكبًا مع كمال قوته عليه الصلاة والسلام . وقوله : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ يعني : طريق كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ وقوله : ﴿ عَمِيقٍ ﴾ أي : بعيد .

﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ قال : منافع الدنيا والآخرة : أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى . وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات . وكذا قال مجاهد : وغير واحد إنها منافع الدنيا والآخرة كقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ . عن ابن عباس رضي الله عنهما : الأيام المعلومات : أيام العشر . وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مَا العَمَلُ في أَيَّامٍ أَفْضَلُ منها في هَذِهِ ؟ » قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « وَ لَا الجِهَادُ في سَبِيلِ الله ؛ إِلَّا رَجُلٌ يَخْرُجُ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشيءٍ » (١) . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ العَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ » (٢) . وقال البخاري : وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر ،

(١) أخرجه البخاري في العيدين (٩٦٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٥/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦/٤) .

فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما . وقد روى أحمد عن جابر مرفوعًا : أن هذا هو العشر الذي أقسم اللَّه به في قوله : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ وقال بعض السلف : إنه المراد بقوله : ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ وفي سنن أبي داود : أن رسول اللَّه ﷺ كان يصوم هذا العشر ؟ . وعن أبي قتادة قال : سئل رسول اللَّه ﷺ عن صيام يوم عرفة ؟ قال : « أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ المَاضِيَةَ وَالآتِيَةَ » (١) ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند اللَّه (٢) ، وبالجملة فهذا العشر قد قيل : إنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث ، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير ؛ لأن هذا يشرع في ما ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره ، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه ، وقيل : ذاك أفضل ؛ لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، وتوسط آخرون فقالوا : أيام هذا أفضل وليالي ذاك أفضل . وبهذا يجتمع شمل الأدلة ، واللَّه أعلم .

قول ثان في الأيام المعلومات : قال ابن عباس : الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده .

قول ثالث : روي أن ابن عمر كان يقول : الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام : فالأيام المعلومات يوم النحر ، ويومان بعده ، والأيام المعدودات : ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ يعني به ذكر اللَّه عند ذبحها .

قول رابع : إنها يوم عرفة ، ويوم النحر ويوم آخر بعده . وعن زيد بن أسلم قال : المعلومات : يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق . وقوله : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي ، وهو قول غريب . والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب ، كما ثبت أن رسول اللَّه ﷺ لما نحر هديه : أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها (٣) . قال مالك : أحب أن يأكل من أضحيته لأن اللَّه يقول ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ . قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين ، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل . قال مجاهد في قوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ : هي كقوله : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ﴾ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ قال عكرمة : هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس ، وهو الفقير المتعفف : وقال مجاهد : هو الذي لا يبسط يده ، وقال قتادة : هو الزمن . وقال مقاتل بن حيان : هو الضرير وقوله : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : هو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ، ونحو ذلك ، وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ قال : التفث المناسك . وقوله : ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ قال ابن عباس :

---

(١) أخرجه مسلم في (الصيام) (١٩٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٨/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٠/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في (الحج) (١٤٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٢١/٣ ، ٣٣١) .

(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩٤/١٧ ، ١٩٥) .

يعني نحر ما نذر من أمر البدن . وقال مجاهد : ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج . وقال مجاهد ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ . قال : الذبائح . وقال عكرمة : ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ قال : حجهم . وقوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قال مجاهد : يعني الطواف الواجب يوم النحر . وعن أبي حمزة قال : قال لي ابن عباس : أتقرأ سورة الحج ؟ يقول الله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق .

قلت : وهكذا صنع رسول الله ﷺ ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر ، بدأ برمي الجمرة فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت . وفي الحديث عن ابن عباس أنه قال : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض [1] . وقوله : ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر ؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة ، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ، ولم يستلم الركنين الشاميين ؛ لأنهما لم يتما على قواعد إبراهيم العتيقة . عن الحسن البصري في قوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قال : لأنه أول بيت وضع للناس ، وعن عكرمة أنه قال : إنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح . وقال خصيف : إنما سمي البيت العتيق ؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط . وعن مجاهد : أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه . وعن مجاهد : لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك وعن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ » [2] .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

يقول تعالى هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقى عليها من الثواب الجزيل . ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ ﴾ أي : ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ أي : فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل ، قال مجاهد في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ ﴾ قال : الحرمة مكة والحج والعمرة ، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها . وقوله : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : أحللنا لكم الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . وقوله : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به والمنخنقة الآية [3] ، وقوله : ﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ومن هاهنا لبيان الجنس أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور . كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ومنه شهادة الزور . وفي

---

(١) أخرجه البخاري في (الحج) (١٧٥٥) والإمام أحمد في مسنده (٤١٦/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٧٠) . (٣) قال ذلك الطبري في تفسيره وحكاه عن قتادة (٢٠٢/١٧) .

الحديث أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟ » قلنا : بلى يا رسول اللَّه . قال : « الإِشْرَاكُ بِاللَّه وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ » - وَكَانَ متكئًا فجلس فقال : « أَلَا وَقَوْلُ الزورِ ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت [(١)] .

وعن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى رسول اللَّه ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائمًا فقال : « عدلت شهادة الزور الإشراك باللَّه ﷻ» ثم تلا هذه الآية : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [(٢)] وعن ابن مسعود أنه قال : تعدل شهادة الزور الإشراك باللَّه ثم قرأ هذه الآية ، وقوله : ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾ أي : مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصدًا إلى الحق ولهذا قال : ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ ثم ضرب للمشرك مثلًا في ضلاله وهلاكه ، وبعده عن الهدى فقال : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : سقط منها . ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ أي : تقطعه الطيور في الهواء . ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه ، ولهذا جاء في حديث البراء : إِنَّ الكَافِرَ إِذَا تَوَفَّتْهُ مَلَائِكَةُ المَوْتِ وَصَعِدُوا بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَلَا تُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّماءِ بَلْ تُطْرَحُ رُوحُهُ طَرحًا مِنْ هُنَاكَ ، ثُمَّ ، قرأ هذه الآية [(٣)] .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ .

يقول تعالى هذا ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ أي : أوامره ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن . كما قال ابن عباس : تعظيمها استسمانها واستحسانها . وقال أبو أمامة عن سهل : كنا نسمن الأضحية بالمدينة ، وكان المسلمون يسمنون [(٤)] .

وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « دَمُ عَفْرَاءَ أَحَبُّ إِلَى اللَّه مِنْ دَمِ سَوْدَاوَيْنِ » [(٥)] قالوا : والعفراء هي البيضاء بياضًا ليس بناصع ، فالبيضاء أفضل من غيرها ، وغيرها يجزئ أيضًا لما ثبت عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين [(٦)] . وعن أبي سعيد أن رسول اللَّه ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل يأكل في سواد ، ويمشي في سواد - أي فيه نكتة سوداء في هذه الأماكن [(٧)] ، وعن أبي رافع أن رسول اللَّه ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوئين [(٨)] ، وعن علي ﷺ قال : أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، وأن لا نضحي مقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء [(٩)] قال مالك : إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ وإلا أجزأ .

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب) (٥٩٧٦) ومسلم في (الإيمان) (١٤٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢١/٤) وأبو داود في سننه (٣٥٩٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في (الأضاحي) باب (٧) في أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٧/٢) والبيهقي في الكبرى (٢٧٣/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨/٤) .

(٦) أخرجه البخاري في (الأضاحي) (٥٥٥٤) .

(٧) أخرجه مسلم في (الأضاحي) (١٩) والترمذي في سننه (١٤٩٦) والإمام أحمد في مسنده (٧٨/٦) .

(٨) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٩٥) وابن ماجه في سننه (٣١٢٢) .

(٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٢/١) وأبو داود في سننه (١٤٩٨) وأبو داود في سننه (٢٨٠٤) .

وأما المقابلة : فهي التي قطع مقدم أذنها . والمدابرة : من مؤخر أذنها . والشرقاء : هي التي قطعت أذنها طولًا . قاله الشافعي والأصمعي ، وأما الخرقاء : فهي التي خرقت السمة أذنها خرقًا مدورًا ، والله أعلم .

وعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الأَضَاحِي : العَوْرَاءُ البَيِّنُ عَوَرُهَا ، وَالمَرِيضَةُ البَيِّنُ مَرَضُهَا ، والعَرْجَاءُ البَيِّنُ ضَلْعُهَا ، وَالكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تَنْقَى »(١) . وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي ؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى ؛ فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة كما هو ظاهر الحديث ، واختلف قول الشافعي في المريضة مرضًا يسيرًا على قولين : وعن عتبة بن عبد السلمي أن رسول الله ﷺ : نهى عن المصفرة ، والمستأصلة ، والبخقاء ، والمشيعة ، والكسيرة ، فالمصفرة : قيل : الهزيلة ، وقيل : المستأصلة الأذن ، والمستأصلة مكسورة القرن . والبخقاء هي : العوراء . والمشيعة : هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها ؛ والكسيرة العرجاء . فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عند الشافعي خلافًا لأبي حنيفة . وقد روي عن أبي سعيد قال : اشتريت كبشًا أضحي به فعدا الذئب فأخذ الألية ، فسألت النبي ﷺ فقال : « ضح به » ولهذا جاء في الحديث أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، أي : أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة . وعن عبد الله بن عمر قال : أهدي عمر نجيبًا فأعطي بها ثلاثمائة دينار فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني أهديت نجيبًا فأعطيت بها ثلاثمائة دينار أفأبيعها وأشتري بثمنها بدنًا ، قال : « لا ، انْحَرْهَا إِيَّاهَا »(٢) . وقال ابن عباس : البدن من شعائر الله ، وقال محمد بن أبي موسى الوقوف ومزدلفة ، والجمار والرمي ، والحلق والبدن من شعائر الله ، وقال ابن عمر : أعظم الشعائر البيت .

وقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أي : لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها ، وأوبارها وأشعارها ، وركوبها إلى أجل مسمى . قال ابن عباس في قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : ما لم تسم بدنًا . وقال مجاهد في قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : الركوب واللبن والولد ، فإذا سميت بدنة أو هديًا ذهب ذلك كله ، وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديًا إذا احتاج إلى ذلك .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا يسوق بدنة قال : « اركبها » قال : إنها بدنة قال : « ارْكَبْهَا وَيْحَكَ » في الثانية أو الثالثة (٣) ، وفي رواية : « ارْكَبْهَا بِالمَعْرُوفِ إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا » (٤) . وعن علي : أنه رأى رجلًا يسوق بدنة ومعها ولدها فقال : لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها ، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها . وقوله : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ أي : محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق - وهو الكعبة - كما قال تعالى : ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ . وقال : ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ . وعن عطاء قال : كان ابن عباس يقول : كل من طاف بالبيت فقد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٠/٤) وأبو داود في سننه (٢٨٠٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤٥/٢) وأبو داود في سننه (١٧٥٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٤) ومسلم في الحج (٣٧١) .
(٤) أخرجه مسلم في (الحج) (٣٧٥) .

حل . قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك ، وإراقة الدماء على اسم الله مشروعًا في جميع الملل . وقال ابن عباس : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ قال : عيدًا . وقال عكرمة : ذبحًا ، وقال زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ : إنها مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكًا غيرها . وقوله : ﴿ لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ كما ثبت عن أنس قال : أتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ، ووضع رجله على صفاحهما [١] . وعن زيد بن أرقم قال : قلت أو قالوا : يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال : « سُنَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » قالوا : ما لنا منها ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » قال : فالصوف ؟ قال : « بكل شعرة من الصوف حسنة » [٢] .

وقوله : ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أي : معبودكم واحد ، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ، ونسخ بعضها بعضًا ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ولهذا قال : ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أي أخلصوا ، واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قال مجاهد : المطمئنين . وقال الضحاك : المتواضعين . وقال السدي : الوجلين . وقال عمرو بن أوس : المخبتين الذي لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا . وقال الثوري : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قال : المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له ، وأحسن بما يفسر بما بعده وهو قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : خافت منه قلوبهم ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ أي : من المصائب ، قال الحسن البصري : والله لنصبرن أو لنهلكن ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة السبعة وبقية العشرة أيضًا ، وقرأ ابن السميفع ﴿ وَٱلْمُقِيمِى الصلاةَ ﴾ بالنصب ، وعن الحسن البصري ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وإنما حذفت النون هنا تخفيفًا ، ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة ، ولكن على سبيل التخفيف ، فنصبت أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي : وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم ، وفقرائهم ومحاويجهم ، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله ، وهذه بخلاف صفات المنافقين ، فإنهم بالعكس من هذا كله .

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عبيده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره ، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدى إليه كما قال تعالى : ﴿ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ الآية ، قال عطاء في قوله : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ :

---

(١) أخرجه البخاري في (الأضاحى) (٥٥٦٥) ومسلم في الأضاحي (١٧ ، ١٨) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٨/٤) وابن ماجه في سننه (٣١٢٧) .

البقرة والبعير، وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل.

قلت: أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعًا كما صح الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت في الحديث عن جابر قال أمرنا رسول الله ﷺ: أن نشترك في الأضاحي البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة [١]. وقال إسحاق بن راهويه وغيره: بل تجزئ البقرة والبعير عن عشرة، ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ إِهْرَاقِ دَمٍ، وَإِنَّهَا لتأتي يَوْمَ القِيَامَةِ بِقُرُونِهَا، وَأَظْلَافِهَا وَأَشْعارِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ ليقع مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الأَرْضِ فَطِيبوا بِهَا نَفْسًا» [٢]. وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أُنْفِقَتِ الوَرِقُ فِي شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ نَحِيرَةٍ يَوْمِ عِيدٍ» [٣]، وقال مجاهد: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ قال: أجر ومنافع، وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها، وقوله: ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ عن جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتي بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي» [٤].

وعن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد فقال حين وجههما: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ. إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ، اللهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ». ثم سمى الله وكبر وذبح [٥]. وعن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية، ثم يقول: «اللهم هذا عن أمتي جميعها من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ». ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمها جميعًا للمساكين، ويأكل هو وأهله منهما [٦]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ قال: قيامًا على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول: باسم الله، والله أكبر، لا إله إلا الله، اللهم منك ولك. وقال ليث عن مجاهد: إذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث، وفي الحديث عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها، فقال: ابعثها قيامًا مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ [٧]، وعن جابر: أن رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم في (الحج) (١٣٨، ٣٥٠، ٣٥١) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٣/٣، ٢٩٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣١٢٦) والترمذي في سننه (١٤٩٣).

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (٢٨٢/٤) والبيهقي في الكبرى (٢٦١/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧/٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٦/٣) وأبو داود في سننه (٢٨١٠).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٦٧/١) وابن ماجه في سننه (٣١٢١).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦، ٨) (٣٩١).

(٧) أخرجه البخاري في (الحج) (١٧١٣) ومسلم في الحج (٣٥٨) وأبو داود في سننه (١٧٦٨).

ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها[١] .

وقوله : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ قال مجاهد يعني : سقطت إلى الأرض ، وهو رواية عن ابن عباس . وقال ابن عباس : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يعني : نحرت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يعني ماتت وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد ؛ فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركها . ويؤيده حديث شداد بن أوس : « إِنَّ اللّٰه كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ »[٢] . وعن أبي واقد الليثي قال : قال رسول اللّٰه : « ما قُطِعَ مِنَ البَهِيمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ فَهُوَ مَيْتَةٌ »[٣] . وقوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ قال بعض السلف قوله : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ أمر إباحة . وقال مالك : يستحب ذلك ، وقال غيره : يجب ، وهو وجه لبعض الشافعية . واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر . فعن ابن عباس : القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل . وقال ابن عباس : القانع المتعفف ، والمعتر السائل ، وقال الحسن البصري ومقاتل بن حيان ومالك بن أنس : القانع هو الذي يقنع إليك ويسألك ، والمعتر الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك ، وقال سعيد بن جبير : القانع هو السائل ، قال : وقال زيد بن أسلم : القانع المسكين الذي يطوف ، والمعتر : الصديق والضعيف الذي يزور ، وعن مجاهد أيضًا : القانع جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك ، والمعتر : الذي يعتزل من الناس ، وعنه أن القانع هو الطامع ، والمعتر هو الذي يعتر بالبدن من غني أو فقير . وعن عكرمة : القانع أهل مكة ، واختار ابن جرير أن القانع : هو السائل لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال والمعتر من الاعتراء : وهو الذي يتعرض لأكل اللحم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء فثلث لصاحبها يأكله ، وثلث يهديه لأصحابه ، وثلث يتصدق به على الفقراء ، لأنه تعالى قال : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ وفي الحديث : « إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ ادِّخَارِ لُحُوم الأَضَاحِي فَوْقَ ثَلَاثٍ فَكُلُوا ، وادَّخِرُوا مَا بَدَا لَكُمْ »[٤] وفي رواية : « فَكُلُوا وادَّخِروا وَتَصَدَّقُوا » وفي رواية « فكلوا وأطعموا وتصدقوا » . والقول الثاني : أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله في الآية المتقدمة ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ .

ولقوله في الحديث : « فكُلُوا وادَّخِرُوا وتَصَدَّقُوا » فإن أكل الكل فقيل لا يضمن شيئًا وبه قال ابن شريح من الشافعية ، وقال بعضهم : يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها ، وقيل : يضمن نصفها ، وقيل : ثلثها ، وقيل : أدنى جزء منها . وهو المشهور من مذهب الشافعي . وأما الجلود : فعن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي : « فكلوا وتصدقوا ، واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها » ومن العلماء من رخص في بيعها ، ومنهم من قال يقاسم الفقراء فيها .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٧٦٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الذبائح (٥٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٣/٤) وأبو داود في سننه (٢٨١٥) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٨/٥) والترمذي في سننه (١٤٨٠) .
(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٢) وأبو داود في سننه (٢٨١٢) .

مسألة : عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّي ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا ، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ ، فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ » (١) فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء : إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين ، زاد أحمد : وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في الحديث : وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام ، وقال أبو حنيفة : أما أهل السواد من القرى ونحوها فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر ؛ إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم . وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام ، والله أعلم . ثم قيل : لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده . وقيل : يوم النحر لأهل الأمصار لتيسر الأضاحي عندهم ، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده . وقيل : يوم النحر ويوم بعده للجميع . وقيل : ويومان بعده وبه قال الإمام أحمد ، وقيل : يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده . وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال : « أَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ » (٢) وقيل : إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة ، وهو قول غريب وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يقول تعالى من أجل هذا : ﴿ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ ﴾ أي : ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم خاضعة إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم . كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها ، فإنه تعالى هو الغني عما سواه ، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم ، وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها فقال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ وعن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ أي : يتقبل ذلك ويجزي عليه كما جاء في الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » (٣) وجاء في الحديث « إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتَقَعُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ » (٤) . معناه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله ، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا والله أعلم ، وقال الضحاك : سألت عامرًا الشعبي عن جلود الأضاحي

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين (٩٦٨) مسلم في (الأضاحي) (٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٢/٤ ، ٣٠٣) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٢/٤) .
(٣) أخرجه مسلم في (البر والصلة) (٣٤) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٢ ، ٥٣٩) وابن ماجه في سننه (٤١٤٣) .
(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١٤٩٣) وابن ماجه في سننه (٣١٢٦) من قوله : « وإن الدم ... » إلخ .

فقال : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ إن شئت فبع ، وإن شئت فأمسك ، وإن شئت فتصدق . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ أي : من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه ، وما يحبه ويرضاه ، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه . وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين في عملهم القائمين بحدود اللّه ، المتبعين ما شرع لهم .

مسألة : وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصابًا ، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضًا واحتج لهم بما رواه أبو هريرة مرفوعًا : « مَنْ وَجَدَ سَعَةً فَلَمْ يُضَحِّ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مُصَلاَّنَا » (١) على أن فيه غرابة ، واستنكره أحمد بن حنبل وقال ابن عمر : أقام رسول اللّه ﷺ عشر سنين يضحي . وقال الشافعي وأحمد : لا تجب الأضحية بل هي مستحبة : لما جاء في الحديث « لَيْسَ فِي المَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ » (٢) وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته ، فأسقط ذلك وجوبها عنهم ، وقال أبو سريحة : كنت جارًا لأبي بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما ، وقال بعض الناس : الأضحية سنة كفاية إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت سقطت عن الباقين لأن المقصود إظهار الشعار . وقد روي عن محنف بن سليم أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول بعرفات : « عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ فِي كُلِّ عَامٍ أُضْحَاةٌ وَعَتِيرَةٌ ، هَلْ تَدْرُونَ مَا العَتِيرَةُ ؟ هِيَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الرَّجَبِيَّةَ » (٣) وقال أبو أيوب : كان الرجل في عهد رسول اللّه ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته ، فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى(٤) ، وكان عبد اللّه بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله(٥) . وأما مقدار سن الأضحية : فقد روي عن جابر أن رسول اللّه ﷺ قال : « لا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً إِلَّا أَنْ تَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ » (٦) ومن هاهنا ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزئ . وقابله الأوزاعي ، فذهب إلى أن الجذع يجزئ من كل جنس وهما غريبان ، والذي عليه الجمهور إنما يجزئ الثني من الإبل والبقر والمعز ، أو الجذع من الضأن ، فأما الثني من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة ، ومن البقر ما له سنتان ، ودخل في الثالثة ، وقيل : ما له ثلاث ، ودخل في الرابعة ، ومن المعز : ما له سنتان ، وأما الجذع من الضأن : فقيل : ما له سنة . وقيل : عشرة أشهر . وقيل : ثمانية ، وقيل : ستة أشهر ، وهو أقل ما قيل في سنه وما دونه فهو حمل ، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم ، والجذع شعر ظهره نائم ، قد انفرق صدعين ، واللّه أعلم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه ، وأنابوا إليه شر الأشرار ، وكيد الفجار ، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ وقال : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده(٢/٣٢١) والحاكم في المستدرك(٢/٣٨٩) ،(٤/٢٣٢) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه(١٧٨٩) والهندي في كنز العمال(١٥٨٥٦) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده(٢/١٨٣) والترمذي في سننه(١٥١٨) وابن ماجه في سننه(٣١٢٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في سننه(١٥٠٥) وابن ماجه في سننه(٣١٤٧) . (٥) أخرجه البخاري في(الأحكام) (٧٢١٠) .
(٦) أخرجه مسلم في الأضاحي(١٣) والإمام أحمد في مسنده(٣/٣١٢ ، ٣٢٧) وأبو داود في سننه(٢٧٩٧) .

اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ أي : لا يحب من عباده من اتصف بهذا وهو : الخيانة في العهود والمواثيق لا يفي بما قال ، والكفر : الجحد للنعم فلا يعترف بها .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

قال ابن عباس : نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف : هذه أول آية نزلت في الجهاد . واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية . وعن ابن عباس قال : لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن . قال ابن عباس : فأنزل الله ﷻ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (١) قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : فعرفت أنه سيكون قتال . ورواه الإمام أحمد وزاد : قال ابن عباس : وهي أول آية نزلت في القتال . وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته كما قال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ ﴾ . والآيات في هذا كثيرة ، ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وقد فعل .

وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به ؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا ، فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم . ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيفًا وثمانين قالوا : يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي – يعنون أهل منى – ليالي منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَمْ أُومرْ بِهَذَا » (٢) . فلما بغى المشركون ، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله ، وشردوا أصحابه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ، ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلًا يلجأون إليه شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ قال ابن عباس : أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمدًا وأصحابه . ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أي : ما كان لهم إلى قومهم إساءة ، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له . وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر ، وأما عند

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦١/١) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٢/٣) .

المشركين فإنه أكبر الذنوب كما قال تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض ، ولأهلك القوي الضعيف . ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ ﴾ وهي : المعابد الصغار للرهبان . وقال قتادة : هي معابد الصابئين . وفي رواية عنه : صوامع المجوس . وقال مقاتل بن حيان : هي البيوت التي على الطريق ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ وهي أوسع منها ، وأكثر عابدين فيها وهي للنصارى أيضًا . وعن مجاهد وغيره : أنها كنائس اليهود ، وحكى السدي : عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود . ومجاهد إنما قال : هي الكنائس ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ قال ابن عباس : الصلوات : الكنائس . وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة : إنها كنائس اليهود ، وهم يسمونها صلوات . وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى . وقال أبو العالية وغيره : الصلوات معابد الصابئين . وقال مجاهد : الصلوات : مساجد لأهل الكتاب ، ولأهل الإسلام بالطرق وأما المساجد فهي للمسلمين ، وقوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ فقد قيل الضمير في قوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ﴾ ، عائد إلى المساجد ؛ لأنها أقرب المذكورات ، وقال الضحاك : الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرًا ، وقال ابن جرير : الصواب لهدمت صوامع الرهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود ، وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب (١) .

وقال بعض العلماء : هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهي أكثر عمارًا وأكثر عبادًا وهم ذوو القصد الصحيح . وقوله : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة فبقوته خلق كل شيء فقدَّره تقديرًا ، وبعزته لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب ؛ بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور . قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

قال عثمان بن عفان : فينا نزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا : ربنا الله ثم مكنا في الأرض ، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ، فهي لي ولأصحابي . وقال أبو العالية : هم أصحاب محمد ﷺ . وقال عطية العوفي : هذه الآية كقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا .

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣٤/١٧) .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ - إلى أن قال - ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ أي : مع ما جاء به من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي : أنظرتهم وأخرتهم . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه أنا ربكم الأعلى ، وبين إهلاك الله له أربعون سنة . وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [(1)] . ثم قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أي : كم من قرية أهلكتها . ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي مكذبة لرسلها ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ قال الضحاك : سقوفها أي : قد خربت منازلها ، وتعطلت حواضرها . ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أي : لا يستقى منها ، ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها . ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ قال عكرمة : يعني : المبيض بالجص . وقال آخرون : هو : المنيف المرتفع . وقال آخرون : المشيد المنيع الحصين ، وكل هذه الأقوال متقاربة ، ولا منافاة بينها ، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ، ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم . كما قال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بأبدانهم وبفكرهم أيضًا .

﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي : فيعتبرون بها ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ أي : ليس العمى عمى البصر وإنما العمى عمى البصيرة ، وإن كانت القوة الباصرة سليمة ، فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أي : هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله ، واليوم الآخر كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أي : الذي قد وعد من إقامة الساعة ، والانتقام من أعدائه ، والإكرام لأوليائه . وقوله : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي : هو تعالى لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء ، وإن أجّل وأنظر وأملى . ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٦٨٦) ومسلم في (البر والصلة) (٦٢)

ٱلْمَصِيرُ ﴾ . عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ »[(١)] ، وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَعْجَزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخِّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ » قيل لسعد : وما نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة[(٢)] . وعن ابن عباس : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال : من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض . وقال مجاهد : هذه الآية كقوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : إنما أرسلني الله إليكم نذيرًا لكم بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من حسابكم من شيء ، أمركم إلى الله : إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب إليه ، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة ، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار . ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : آمنت قلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : مغفرة لما سلف من سيئاتهم ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم ، قال محمد بن كعب القرظي : إذا سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فهو الجنة . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ قال مجاهد : يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ ، وكذا قال عبد الله بن الزبير : مثبطين ، وقال ابن عباس : معاجزين . مراغمين ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها أجارنا الله منها . قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنًّا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه ، أي لا يهيدنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء ، قال ابن عباس : ﴿ إِذَا

(١) اخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) والترمذي في سننه (٢٣٥٣) وابن ماجه في سننه (٤١٢٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٠/١) .

تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ يقول : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، وقال مجاهد : ﴿ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ يعني : إذا قال . ويقال : أمنيته قراءته .

﴿ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ يقرأون ولا يكتبون قال البغوي : وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله : ﴿ تَمَنَّىٰٓ ﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله ، ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ أي في تلاوته . وقال الضحاك : ﴿ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ إذا تلا . قال ابن جرير ، هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، وقوله : ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع ، قال ابن عباس : أي : فيبطل الله ﷻ ما ألقى الشيطان . وقال الضحاك : نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي : بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة ، والحجة البالغة ؛ ولهذا قال : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي : شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك ، واعتقدوا أنه صحيح من عند الله وإنما كان من الشيطان . قال ابن جريج : ﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هم المنافقون . ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ هم المشركون . وقال مقاتل بن حيان هم : اليهود . ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي : في ضلال ومخالفة وعناد ﴿ بَعِيدٍ ﴾ أي : من الحق والصواب . ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي : وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل ، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره ، بل هو كتاب عزيز ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي يصدقوه وينقادوا له . ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : تخضع وتذل له قلوبهم ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا : فيرشدهم إلى الحق واتباعه ، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه ، وفي الآخرة : يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات .

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية أي : في شك وريب من هذا القرآن . وقال سعيد بن جبير : منه أي : مما ألقى الشيطان ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ قال مجاهد : فجأة ، وقال قتادة : ﴿ بَغْتَةً ﴾ بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلاالقوم الفاسقون . وقوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قال أبي بن كعب : هو يوم بدر ، قال عكرمة ومجاهد في رواية عنهما : هو يوم القيامة لا ليل له . وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد ولهذا قال : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ كقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . وقوله : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي : آمنت قلوبهم

وصدقوا بالله ورسوله ، وعملوا بمقتضى ما علموا ، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم . ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد . ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي : كفرت قلوبهم بالحق وجحدته ، وكذبوا به وخالفوا الرسل ، واستكبروا عن اتباعهم ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي : مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

يخبر تعالى عمن خرج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلبًا لما عنده ، وترك الأوطان والأهلين والخلان ، وفارق بلاده في الله ورسوله لدين الله ، ﴿ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ ﴾ أي : في الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُواْ ﴾ أي : حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ ﴾ وقوله : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ ﴾ أي : ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ . ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ ﴾ أي : الجنة كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق ، وجنة كما قال ها هنا : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ ﴾ ثم قال : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ أي : بمن يهاجر ويجاهد في سبيله ، وبمن يستحق ذلك ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي : يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه . فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فإنه حي عند ربه يرزق . كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحية إجراء الرزق عليه ، وعظيم إحسان الله إليه ، قال شرحبيل بن السمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم فمر بي سلمان - يعني الفارسي - ﷺ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا أَجْرَى اللهُ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الأَجْرِ ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ الرِّزْقَ ، وَأَمِنَ مِنَ الفَتَّانِينَ وَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ » (١) . وعن همام أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان : كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فمر بجنازتين إحداهما : قتيل والأخرى متوفى ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل في سبيل الله ، فقال : والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت ، اسمعوا كتاب الله ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ ﴾ حتى بلغ آخر الآية .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٣٦٨) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ الآية . ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير : أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعًا من المشركين في شهر محرم فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا قتالهم ، وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون ، فنصرهم الله عليهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [1] .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ، كما قال : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ، ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أي : سميع بأقوال عباده بصير بهم ، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ولما تبين أنه المتصرف في الوجود ، الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ؛ لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وكل شيء فقير إليه ، ذليل لديه ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد ، والأوثان وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل ؛ لأنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا . وقوله : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ كما قال : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وقال هو : ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه ﷻ عما يقول الظالمون المعتدون علوًا كبيرًا .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ .

وهذا أيضًا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه وأنه يرسل الرياح فتثير سحابًا ، فيمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها ، وهي هامدة يابسة سوداء ممحلة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ وقوله : ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أي خضراء بعد يباسها ومحولها ، وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء ، فالله أعلم .

لا يخفى عليه خافية ، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به . وقال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (١٧/٢٥٦) .

وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾ .

ولهذا قال أمية بن أبي الصلت ، أو زيد بن عمرو بن نفيل :

وقولا له من ينبت الحب في الثرى   فيصبح منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤوسه   ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله : ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي : ملكه جميع الأشياء ، وهو غني عما سواه وكل شيء فقير إليه عبد لديه . وقوله : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي : من حيوان وجماد ، وزروع وثمار ، كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ﴾ أي من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ ﴾ أي : بتسخيره وتسييره أي في البحر العجاج ، وتلاطم الأمواج تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة ، فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ، ومنافع من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه ﴿ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ ﴾ أي : لو شاء لأذن للسماء ، فسقطت على الأرض ، فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته ، وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي مع ظلمهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾ كقوله : ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ ومعنى الكلام : كيف تجعلون لله أندادًا ، وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا يذكر فأوجدكم . ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾ أي جحود .

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧
وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكًا ، قال ابن جرير : يعني لكل أمة نبي منسكًا . قال : وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ، ويتردد إليه إما لخير أو شر . قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لتردد الناس إليها وعكوفهم عليها ، فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكًا . فيكون المراد بقوله : ﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ ﴾ أي : هؤلاء المشركون ، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكًا جعلًا قدريًا كما قال : ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ هُمۡ نَاسِكُوهُۖ ﴾ أي : فاعلوه ، فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق أي : هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته ، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ؛ ولهذا قال : ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أي : طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود . وهذه كقوله : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ

أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ ولهذا قال : ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وأنه محيط بما في السموات ، وما في الأرض ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وأنه تعالى يعلم الكائنات كلها قبل وجودها ، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ . كما ثبت ، عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْف سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ »⁽¹⁾ . قال ﷺ : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ خلق القَلَم قَالَ لَهُ : اكْتُبْ قَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ ، فَجَرَى القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ »⁽²⁾ . وقال ابن عباس : خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى : اكتب ، فقال القلم : ما أكتب ؟ قال : علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة . فذلك قوله للنبي ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضًا ، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه ، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصي باختياره ، وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علمًا ، وهو سهل عليه ، يسير لديه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا ، يعني : حجة وبرهانًا كقوله : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي : ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة ، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله : ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي : من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال ، ثم قال : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي : وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج ، والدلائل الواضحات على توحيد الله ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي : يكادون يبادرون الذين يحتجون

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٦) والإمام أحمد في مسنده (١٦٩/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣١٧/٥) والترمذي في السنن (٣٣١٩) وأبو داود في السنن (٤٧٠٠) .

عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ، ويسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لهؤلاء ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ ﴾ أي : النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم ، وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا ، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم . وقوله : ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : وبئس النار مقيلًا ومنزلًا ، ومرجعًا وموئلًا ومقامًا .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أي : لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ ﴾ أي : أنصتوا وتفهموا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ ﴾ أي : لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد ، على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك . كما قال أبو هريرة مرفوعًا : «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ، فَلْيَخْلُقوا مِثْلَ خَلقِي ذرَّةً أو ذُبَابَةً أَوْ حَبَّةً » (١) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال الله ﷻ : وَمَنْ أظلمُ ممن ذهبَ يخلقُ كخلقي ؛ فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » (٢) . ثم قال تعالى أيضًا : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ﴾ أي : هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئًا من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك ، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ قال ابن عباس : الطالب : الصنم ، والمطلوب : الذباب ، واختاره ابن جرير (٣) وهو ظاهر السياق . وقال السدي : الطالب : العابد ، والمطلوب : الصنم ، ثم قال : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ ﴾ أي : ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه من التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : هو القوي الذي بقدرته خلق كل شيء ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ وقوله : ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلًا فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٩١) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٥٥٩) والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٣٢) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/٢٦٥) .

كما قال : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي : يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به ، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم كما قال : ﴿ عَٰلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم ، شهيد على ما يقال لهم ، حافظ لهم ، ناصر لجنابهم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ۝٧٧ وَجَٰهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ اجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .

اختلف الأئمة - رحمهم الله - في هذه السجدة الثانية من سورة الحج ، هل هي مشروع السجود فيها أم لا ؟ على قولين : وقد قدمنا عند الأولى : حديث عن النبي ﷺ قال : « فُضِّلَتْ سُورَةُ الحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ فَمَنْ لَمْ يَسْجُدهُمَا فَلَا يَقْرَأْهُمَا » (١) . وقوله : ﴿ وَجَٰهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ أي : بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم كما قال تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ وقوله : ﴿ هُوَ اجْتَبَىٰكُمْ ﴾ أي : يا هذه الأمة الله اصطفاكم ، واختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم ، وخصكم بأكرم رسول وأكمل رسول وأكمل شرع . ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي : ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا . فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين ، تجب في الحضر أربعًا ، وفي السفر تقصر إلى ثنتين ، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث . وتصلى رجالًا وركبانًا مستقبلي القبلة ، وغير مستقبليها ، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها . والقيام فيها يسقط لعذر المرض ، فيصليها المريض جالسا ، فإن لم يستطع ؛ فعلى جنبه ، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » (٢) . وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : « بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا ، وَيَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا » (٣) ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ يعني : من ضيق . وقوله : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال ابن جرير : نصب على تقدير . ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي : من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم . قال : ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم .

قلت : وهذا المعنى في هذه الآية كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وعن ابن عباس في قوله : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ قال : الله ﷻ . وقال عبد الرحمن ابن زيد ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ يعني : إبراهيم وذلك لقوله : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ قال ابن جرير : وهذا لا وجه له لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأئمة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٢١/١) . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٨) ومسلم في الأشربة (٧١) .

في القرآن مسلمين . وقد قال الله تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ﴾ قال مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ، وفي الذكر ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ يعني : القرآن وكذا قال غيره .

قلت : وهذا هو الصواب ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه ملة أبيهم الخليل ، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة ، بما نوه به من ذكرها ، والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يتلى على الأحبار والرهبان فقال : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل هذا القرآن ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ روي عنه ﷺ قال : « مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جِثِيِّ جَهَنَّمَ » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : « نَعَمْ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله »[1] . ولهذا قال : ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي : إنما جعلناكم هكذا أمة وسطًا عدولًا خيارًا مشهودًا بعدالتكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة ﴿ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها . فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم ، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك . وقوله : ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي : قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض ، وطاعة ما أوجب ، وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

وقوله : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به ﴿ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ أي : حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ يعني : نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٣٠) .

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ، ورفع يديه وقال : « اللهمَّ زِدْنا وَلَا تَنْقِصْنَا ، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا ، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا ، وَآثِرْنَا وَلا تُؤثِرْ عَلَيْنَا ، وَارْضَ عَنَّا وَأَرْضِنَا » ثم قال : « لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخلَ الجَنَّةَ » . ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر (١) .

وعن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن فقرأت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى انتهت إلى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « خَلَقَ اللَّهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ لَبِنَةً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ ، وَلَبِنَةً مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ ، ولَبِنَةً مِنْ زَبَرْجَدَةٍ خَضْرَاءَ ، مِلَاطُهَا المِسْكُ ، وَحَصْبَاؤُها اللُّؤْلُؤُ ، وَحشِيشُهَا الزَّعْفَرَانُ ثُمَّ قَالَ لهَا : انْطِقِي . قَالَتْ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فَقَالَ اللَّه : وَعِزَّتِي وَجَلَالي لا يُجَاوِرُنِي فِيكِ بَخِيلٌ » . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : قد فازوا وسعدوا ، وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذا الأوصاف ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ خَاشِعُونَ ﴾ خائفون ساكنون . وعن علي بن أبي طالب ﷺ : الخشوع : خشوع القلب ، وقال الحسن البصري : كان خشوعهم في قلوبهم ، فغضوا بذلك أبصارهم ، وخفضوا الجناح . وقال محمد بن سيرين : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم . والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها ، وحينئذٍ تكون راحة له وقرة عين كما قال النبي ﷺ : « حُبِّبَ إِلَيَّ الطِّيبُ ، والنِّسَاءُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » (٣) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤/١) والترمذي في سننه (٣١٧٣) والحاكم في المستدرك (٥٣٥/١) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٧/١٠) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٨/٣) .

وعن سالم بن أبي الجعد ، عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا بلال أَرِحْنا بِالصَّلَاةِ » (١) .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم ، والمعاصي كما قاله آخرون ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ها هنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة ، إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية : ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا زكاة النفس من الشرك والدنس . كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ وكقوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادًا وهو زكاة النفوس ، وزكاة الأموال ؛ فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي : والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنى ولواط ، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السراري ، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ، ولا حرج ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي المعتدين . وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ قال : فهذا : الصنيع خارج عن هذين القسمين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أي : إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، بل يؤدونها إلى أهلها . وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي : يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود : سألت رسول الله ﷺ : فقلت : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا » قلت : ثم أي ؟ قال : « بِرُّ الوَالِدَيْنِ » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٣) . وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ : يعني مواقيت الصلاة . وقال قتادة : على مواقيتها وركوعها وسجودها ، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة ، واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ : « استَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا ، وَاعْلَموا أَنَّ خَيْرَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٦٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٥٧) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٣٤) ومسلم في الإيمان بـ (٣٦) رقم ١٣٩ .

أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ » (١) . ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وفي الصحيح عنه ﷺ قال : « إذا سَأَلْتُم اللهَ الجنَّةَ فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الجنَّةِ وَأَوْسَطُ الجنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهارُ الجنَّةِ . وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمنِ » (٢) . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَلَهُ مَنْزِلَانِ : مَنْزِلٌ في الجنَّةِ ، وَمَنْزِلٌ في النَّارِ ، فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ ، وَرِثَ أَهْلُ الجنَّةِ مَنْزِلَهُ ، فَذَلِكَ قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ » (٣) . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وله منزلان ؛ منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة ، ويهدم بيته الذي في النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة ، ويبني بيته الذي في النار . فالمؤمنون يرثون منازل الكفار ؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك ، لو كانوا أطاعوا ربهم ﷻ . بل أبلغ من هذا أيضًا . وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ دَفَعَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرانِيًّا فَيُقَالُ : هَذَا فَكاكُكَ مِنَ النَّارِ » (٤) . قلت : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين ، وهو آدم ﷺ خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون . وقال ابن عباس : ﴿ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ قال : من صفوة الماء وقال مجاهد : ﴿ مِن سُلَالَةٍ ﴾ أي : من مني بني آدم ، وقال ابن جرير : إنما سمي آدم طينًا لأنه مخلوق منه . وقال قتادة : استل آدم من الطين ، وهذا أظهر في المعنى ، وأقرب إلى السياق ؛ فإن آدم ﷺ خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون ، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ والأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذِلِكَ ، والخَبِيثُ والطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ » (٥) . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أي ضعيف كما قال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعني : الرحم معد لذلك مهيأ له ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ أي مدة معلومة ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٧/٥ ، ٢٨٢) وابن ماجه في سننه (٢٧٧ ، ٢٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٥/٢) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٥) والهندي في كنز العمال (٢٩١٣) .

(٤) أخرجه : مسلم في التوبة (٤٩) وأحمد في مسنده ٤١٠/٤ .

(٥) الترمذي في السنن (٢٩٥٥) وأبو داود في السنن (٤٦٩٣) والحاكم في المستدرك ٦١/٢ .

وأجل معين حتى استحكم ونقل من حال إلى حال ، وصفة إلى صفة ولهذا قال ها هنا : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي ثم صيرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره ، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة ، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة . قال عكرمة وهي دم ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ وهي : قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط . ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ يعني : شكلناها ذات رأس ويدين ، ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها . وفي الصحيح عنه ﷺ : « كُلُّ جَسَدِ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إلَّا عَجب الذنب مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ » (١) . ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ أي : جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ أي : ثم نفخنا فيه الروح فتحرك ، وصار خلقًا آخر ، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب . ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ . وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال : إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث اللّه إليها ملكًا فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث . فذلك قوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ يعني : نفخنا فيه الروح . وقال ابن عباس : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ يعني : ننقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلًا ، ثم نشأ صغيرًا ، ثم احتلم ، ثم صار شابًا ، ثم كهلًا ، ثم شيخًا هرمًا ، ونحو ذلك ولا منافاة ، فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات ، والأحوال واللّه أعلم .

وعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : حدثنا رسول اللّه ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجمَعُ خَلقُه فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤمَرُ بِأَرْبَع كَلِمَاتٍ : رِزْقُهُ ، وَأَجَلُهُ ، وَعَمَلُهُ ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ؟ فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بينه بَيْنَها إلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ ، فَيُخْتَم لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » (٢) .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « يَدْخُلُ المَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَاذَا ؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فَيَقُولُ اللّه ، فَيُكْتَبَانِ وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ ، وَأَثَرُهُ وَمَصِيبَتُهُ وَرِزْقُهُ ، ثُمَّ تُطْوَى الصَّحِيفَةُ فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ » (٣) .

وقوله : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ يعني : حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال ، وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق . قال : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ يعني : النشأة الآخرة ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ يعني : يوم المعاد . وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق ، ويوفي كل عامل عمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن (١٤١ ، ١٤٣) .
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨) ومسلم في القدر (١) والإمام أحمد في مسنده (٣١٥/٢) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٤) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان . كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ وهكذا في أول الم السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والأرض ، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين ، وفيها أمر المعاد وغير ذلك من المقاصد .

وقوله : ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ قال مجاهد : يعني : السموات السبع ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ أي : ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ، ولا أرض أرضًا ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار . ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ⑱ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑲ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ⑳ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ㉑ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعدُّ ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر ، أي بحسب الحاجة لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به حتى أن الأراضي التي تحتاج ماء كثيرًا لزرعها ، ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى ، كما في أرض مصر ويقال لها : الأرض الجرز ، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها ، فيأتي الماء يحمل طينًا أحمر فيسقي أرض مصر ، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه ؛ لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال ، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ، وقوله : ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ أي : لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري ، والقفار لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجًا لا ينتفع به لشرب ، ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض ، بل ينجر على وجهها لفعلنا . ولوشئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبًا فراتًا زلالًا ، فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع في الأرض ، فيفتح العيون والأنهار ، ويسقي به الزروع والثمار تشربون منه ودوابكم وأنعامكم ، وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون فله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ يعني : فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق . ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي : ذات منظر حسن وقوله : ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ أي :

فيها نخيل وأعناب ، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره ، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره ، وقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ أي : من جميع الثمار . وقوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ، ومنه تأكلون . وقوله : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ يعني الزيتونة ، والطور ، هو الجبل . وقال بعضهم : إنما يسمى طورًا ، إذا كان فيه شجر ، فإن عري عنها سمي جبلًا لا طورًا والله أعلم . و ﴿ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ هو طور سينين ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون ، وقوله : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ قال بعضهم : الباء زائدة ، وتقديره تنبت الدهن .

كما في قول العرب ألقى فلان بيده أي : يده ، وأما على قول من يضمِّن الفعل ، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصِبْغٍ ﴾ أي : أدم ﴿ لِّلْآكِلِينَ ﴾ أي : فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ . عن أبي أسيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُوا الزَّيْتَ وادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ »[1] . وعن الصعب بن حكيم بن شريك بن نملة قال : ضفت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمني من رأس بعير بارد وأطعمنا زيتًا ، وقال : هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع ، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ، ويأكلون من حملانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظهورها ، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم . كما قال تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام : حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ، ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به ؟ فقال : الملأ وهم السادة والأكابر منهم ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعنون : يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة ، وهو بشر مثلكم فكيف أوحي إليه دونكم ؟ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ أي : لو أراد أن يبعث نبيًّا لبعث ملكًا من عنده ، ولم يكن بشرًا ، ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ أي : ببعثة البشر في آبائنا الأولين يعنون بهذا أسلافهم ، وأجدادهم في الدهور الماضية . وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي : مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم ، واختصه من بينكم بالوحي ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي : انتظروا به ريب المنون واصبروا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٩٧/٣) والترمذي في السنن (١٨٥١ ، ١٨٥٢) وابن ماجه في السنن (٣٣٢٠) .

عليه مدة حتى تستريحوا منه .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي : ذكر وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك ، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أي : من سبق عليه القول من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ أي : عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذك رأفة بقومك وشفقة عليهم ، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون ، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان . وقوله : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ كما قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ وقد امتثل نوح عليه السلام هذا كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه . وقال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ أي : إن في هذا الصنيع ، وهو إنجاء المؤمنين ، وإهلاك الكافرين لآيات : أي لحججًا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى فاعل لما يشاء ، قادر على كل شيء عليم بكل شيء . وقوله : ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أي : لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرنًا آخرين قيل : المراد بهم عاد ، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل المراد : بهؤلاء ثمود لقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولًا منهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكذبوه وخالفوه لكونه بشرًا مثلهم ، وكذبوا بلقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجثماني وقالوا : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي : بعد ذلك . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي :

فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أي : استفتح عليهم الرسول ، واستنصر ربه عليهم ، فأجاب دعاءه ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴾ أي : وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم . والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ أي : صرعى هلكى كغثاء السيل ، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : بكفرهم وعنادهم ، ومخالفة رسول الله فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ۝ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ۝ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ أي : أممًا وخلائق ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ يعني : بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه ، قبل كونهم أمة بعد أمة وقرنًا بعد قرن ، وجيلًا بعد جيل ، وخلفًا بعد سلف ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ﴾ قال ابن عباس : يعني يتبع بعضهم بعضًا . وقوله : ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ يعني : جمهورهم وأكثرهم كقوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ أي : أهلكناهم . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ أي : أخبارًا وأحاديث للناس كقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۝ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ۝ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ۝ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى ﷺ وأخاه إلى فرعون وملأه ، بالآيات والحجج الدامغات ، وأن فرعون وقومه استكبروا عن الانقياد لأمرهما لكونهما بشرين . كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم ، فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين . وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط ، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس ، أي : حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، وقوله : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ، وقال : ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أي : ذات خصب ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ يعني : ماء ظاهرًا . وقال مجاهد : ربوة مستوية ، وقال سعيد بن جبير ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ استوى الماء فيها . وقال قتادة : ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ الماء الجاري . ثم اختلف المفسرون في

مكان هذه الربوة من أي أرض هي ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ليس الربى إلا بمصر ، والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى ، ولولا الربى غرقت القرى . وهو بعيد جدًّا ، وعن سعيد بن المسيب قال : هي دمشق قال : وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك . وعن ابن عباس ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : إنها دمشق . عن مجاهد : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ قال : عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها . وعن أبي هريرة يقول في قول الله تعالى : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ . قال : هي الرملة من فلسطين ، وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه ابن عباس في قوله : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : المعين الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وكذا قال الضحاك وقتادة : ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ هو بيت المقدس فهذا والله أعلم هو الأظهر ، لأنه المذكور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضًا ، وهذا أولى ما يفسر به الأحاديث الصحيحة ثم الآثار .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام ، وجمعوا بين كل خيرًا قولًا وعملًا ، ودلالة ونصحًا ، فجزاهم الله عن العباد خيرًا . قال الحسن البصري في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ، ولا حلوكم ولا حامضكم ، ولكن قال : انتهوا إلى الحلال منه . وقال سعيد بن جبير يعني : الحلال ، وفي الصحيح : « وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إلا رَعَى الغَنَمَ » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « نعمْ وَأَنَا ؛ كُنتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ » (١) وفي الصحيح : « إِنَّ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ » (٢) وفي الصحيحين « إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ ، وَأَحَبَّ القِيَامِ إِلى اللهِ قيام دَاوُدَ ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، ولا يَفِرُّ إذا لَاقَى » (٣) . وقوله : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي : دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملة واحدة وهو : الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ . وقوله : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ أي : الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال ؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدين . ولهذا قال : متهددًا لهم ومتوعدًا : ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾ أي : في غيهم وضلالهم ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي : إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في (الإمارة) (٢٢٦٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (البيوع) (٢٠٧٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (التهجد) (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني : أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ، ومعزتهم عندنا ! ؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم ، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاء . ولهذا قال : ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ﴾ . وقال : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ عَنِيدًا ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، قال قتادة في قوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ . قال : مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح . وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنيا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : « غُشْمُهُ وَظُلْمُهُ ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقَ مِنْهُ ، فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ ؛ إلا كان زَادَهُ إلى النَّارِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يمحو السَّيِّئَ بِالحَسَنِ ، إِنَّ الخَبِيثَ لَا يَمْحُو الخَبِيثَ » (١) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم ، وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يؤمنون بآياته الكونية ، والشرعية ، كقوله تعالى إخبارًا عن مريم عليها السلام : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ أي : أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله فهو إن كان أمرًا فمما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيًا فهو مما يكرهه ويأباه ، وإن كان خيرًا فهو حق . ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ، ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدًا صمدًا لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ، وأنه لا نظير له ولا كفء له ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون ، أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط . عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : « لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عز وجل » (٢) . وقد قرأ آخرون هذه الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي : يفعلون ما يفعلون وهم خائفون . وروي هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قرأها كذلك .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٩/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٥/٦) والترمذي في السنن (٣١٧٥) .

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ
مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا
تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه : لا يكلف نفسًا إلا وسعها أي إلا ما تطيق جمله والقيام به ، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء . ولهذا قال : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني كتاب الأعمال ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي : لا يبخسون من الخير شيئًا ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين . ثم قال منكرًا على الكفار والمشركين من قريش : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ أي : في غفلة وضلالة ﴿ مِّنْ هَٰذَا ﴾ أي : القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ . وقوله : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ ﴾ أي : سيئة من دون ذلك ، يعني : الشرك ﴿ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ . قال : لابد أن يعملوها ، وقال آخرون : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ أي : قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها ، قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب . وقد قدمنا في حديث ابن مسعود : « فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُون بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقَ عَلَيْهِ الكِتَاب ، فَيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا » (١) .

قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ يعني : حتي إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ أي : يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى : ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي : لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جارتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر ، لزم الأمر ووجب العذاب . ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أي : إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ . وقوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ في تفسيره قولان : أحدهما : أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق ، وإبائهم إياه استكبارًا عليه ، واحتقارًا له ولأهله ، فعلى هذا الضمير في به فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الحرم أي مكة ذموا ؛ لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام . والثاني : أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة والثالث : أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ، ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر ، فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم ، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء . وقيل : المراد بقوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ أي : بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به ، كما قال ابن عباس : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ فقال : مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهله سامرًا . قال : كانوا

---

(١) أخرجه البخاري في (القدر) (٦٥٩٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٢/١) والترمذي في (السنن) (٤) .

يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ، ويهجرونه وقد أطنب ابن أبي حاتم ها هنا بما هذا حاصله .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ۝ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف ، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها ، والقيام بشكرها وتفهمها ، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار . كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنه ، وقال قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ إذن والله يجدون في القرآن زاجرًا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك . ثم قال منكرًا على الكافرين من قريش : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ أي أنهم لا يعرفون محمدًا وصدقه وأمانته ، وصيانته التي نشأ بها فيهم ؟ أي أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه ؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته . وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم . وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفارًا لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك . وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه : تقول القرآن أي : افتراه من عنده أو أن به جنونًا لا يدري ما يقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به ، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن ، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ، ولا يستطيعون أبد الآبدين . ولهذا قال : ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ قال مجاهد : الحق هو الله ﷻ ، والمراد : لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ أي : لفساد أهوائهم واختلافها ، كما أخبر عنهم في قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ثم قال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ﴾ الآية . ففي هذا كله تبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى : هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه تعالى ، وتقدس فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم

بِذِكْرِهِم ﴾ أي : القرآن ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ قال الحسن : أجرًا ، وقال قتادة : جعلًا ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ أي : أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلًا ، ولا شيئًا على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه كما قال : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ وقال : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ عن عمر ابن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ ، وَتَغْلِبُونَنِي تَتَقَاحَمُونَ فِيهَا تَقَاحُمَ الفَرَاشِ والجَنَادِبِ ، فأوشِكُ أَنْ أُرْسِلَ حُجَزَكُمْ وَأَنا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ ، فَتَرِدُونَ عَلَيَّ معًا وَأَشْتَاتًا أَعْرِفُكُمْ بِسِيمَاكُمْ وَأَسْمَائِكُمْ ، كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ الغَرِيبَ مِنَ الإبلِ فِي إِبِلِهِ ، فَيُذْهَبُ بِكُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، فَأُنَاشِدُ فِيكُمْ رَبَّ العَالَمِينَ ، أَيْ رَبِّ قَوْمِي ، أَيْ رَبِّ أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يَمْشُونَ بَعْدَكَ القَهْقَرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، فَأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةً لَهَا ثُغَاءٌ يُنَادِي : يا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ، فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُ ، وَلأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ يُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُ ، وَلأَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُ فَرَسًا لَهَا حَمْحَمَةٌ فَيُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكَ لَكَ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُ ، ولأعرفنّ أحدكُمْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُ سِقَاءً مِنْ أَدَم يُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قد بَلَّغْتُ »(١) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ أي : لعادون جائرون منحرفون ، تقول العرب : نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها . وقوله : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن ، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ . فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون . قال ابن عباس : كل ما فيه ﴿ وَلَوْ ﴾ فهو مما لا يكون أبدًا .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ۝ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ أي : ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي : لما ردهم عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة ، بل استمروا على غيهم وضلالهم ﴿ فَمَا

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١/٥٥٦) .

ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ أي : ما خشعوا ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي : ما دعوا كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية . وعن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي : حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ، فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة ، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم . ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي : العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله ، وقوله : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي : ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم . ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليقة ، وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم فلا يترك صغيرًا ولا كبيرًا ، ولا ذكرًا ولا أنثى ، ولا جليلًا ولا حقيرًا ؛ إلا أعاده كما بدأه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي : يحيي الرمم ويميت الأمم ﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي : وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا يتعاقبان لا يفتران ، ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء وعز كل شيء ، وخضع له كل شيء ؟ .

ثم قال مخبرًا عن منكري البعث : الذي أشبهوا من قبلهم من المكذبين : ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يعني : يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يعنون الإعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم ، وهذا الإنكار والتكذيب منهم ، كقوله إخبارًا عنهم : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ .

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غير المعترفين له بالربوبية ، وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئًا ، ولا يملكون شيئًا ولا يستبدون بشيء ، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فقال : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ أي : من مالكها الذي خلقها ، وسائر صنوف المخلوقات . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي : فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، فإذا كان ذلك

﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ؟ ومن هو رب العرش العظيم ؟ يعني الذي هو سقف المخلوقات كما جاء في الحديث : « شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ هَكَذَا » . وأشار بيده مثل القبة (١) . وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمي عرشًا لارتفاعه . وقال مجاهد : ما السماوات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة . وعن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد . وفي رواية : إلا الله ﷻ .

ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : الكبير ، وقال في آخر السورة : ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ أي : الحسن البهي فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر . وقال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه .

وقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ؟ أي : إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به ؟

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : بيده الملك ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أي : متصرف فيها ، وكان رسول الله ﷺ يقول : « لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ » . وكان إذا اجتهد في اليمين قال : « لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ » (٢) . فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحدًا لا يخفر في جواره ، وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه . ولهذا قال الله ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي : وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه ، الذي له الخلق والأمر ، ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف ، وما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي : سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ ؟ أي : فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره ، مع اعترافكم وعملكم بذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله . وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك . كما قال في آخر السورة ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعًا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال . كما قال الله عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك ، والتصرف والعبادة . فقال تعالى :

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٤٧٢٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٦٦ ، ٥/٢٤٣) .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي : لو قدِّر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم منسق ، كل من العالم العلوي والسفلي ، مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر ، وخلافه فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو : أنه لو فرض صانعان فصاعدًا ، فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزًا ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ؛ فيكون محالًا . فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ؛ كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علوًّا كبيرًا . ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي : يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا نبيه محمدًا ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي : إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم . كما جاء في الحديث « وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ »(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ أي : لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم ، والبلاء والمحن . ثم قال تعالى مرشدًا له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره ، فتعود عدواته صداقة ، وبغضه محبة . فقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ الآية . أي : وما يلهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح . ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشيطان ؛ لأنهم لا تنفع معهم الحيل ، ولا ينقادون بالمعروف . وقوله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أي : في شيء من أمري ، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور ، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل ، والجماع والذبح ، وغير ذلك من الأمور . ولهذا كان ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ ، وَمِنَ الْغَرَقِ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ »(٢) .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

---

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٢٣٣) ومالك في الموطأ (القرآن ٩٠) وأحمد في مسنده ٥٢/٤ .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٢) .

﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ، وقيلهم عند ذلك ، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ، ولهذا قال : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ فذكر تعالى في آيات كثيرة أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم . وقوله ها هنا : ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ كلا : حرف ردع وزجر أي : لا نجيبه إلى ما طلب ، ولا نقبل منه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : أي : لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله : كلا أي لأنها كلمة أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً ، هو كلام منه ، وقول لا عمل معه ، ولو ردَّ لما عمل صالحاً ، ولكان يكذب في مقالته هذه . وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث « فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا » (١) أي : في الأرض .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي : لا تنفع الأنساب يومئذ ، ولا يرثي والد لولده ، ولا يلوي عليه ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ الآية . وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ، ثم نادى منادٍ : ألا من كان له مظلمة فليجئ ، فليأخذ حقه ، قال : فيفرح المرء أن يكون له الحق . عن المسور بن مخرمة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي يَغِيظُنِي مَا يَغِيظُهَا ، وَيَنْشَطُنِي مَا يُنْشِطُهَا ، وَإِنَّ الأَنْسَابَ تَنْقَطِعُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا نَسَبِي وَسَبَبِي وَصِهْرِي » (٢) . وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عنه ﷺ قال « فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي يُرِيبُنِي مَا يُرِيبُهَا وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا » (٣) وقوله تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : من رجحت حسناته على سيئاته، ولو بواحدة . قاله ابن عباس ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : الذين فازوا فنجوا من النار ، وأدخلوا الجنة . وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : خابوا وهلكوا ، وباءوا بالصفقة الخاسرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ أي :

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٠٧١) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٣/٤) والبيهقي في السنن (٦٤/٧ ، ٢٠١/١٠) .
(٣) أخرجه البخاري في (النكاح) (٥٢٣٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٩٣ ، ٩٤) .

ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون . ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا سِيقَ لَهَا أَهْلُهَا تَلَقَّاهُمْ لَهَبُهَا ، ثُمَّ تَلْفَحهُمْ لَفْحَةٌ فَلَم يَبْقَ لَهُمْ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَى العُرْقُوب »(1) . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعني : عابسون ، وقال عبد الله بن مسعود : ألم تر الرأس المشيط الذي بدا أسنانه ، وقلصت شفتاه .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴾

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك . فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ : أي : قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب ، وأزلت شبهكم ، ولم يبق لكم حجة . كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ أي : قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنا أشقى من أن نناقد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها . ثم قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴾ أي : ارددنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة . كما قال : ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ أي : لا سبل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذ وحده المؤمنون .

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار ، والرجعة إلى هذه الدار . يقول : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أي : لا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، فإنه لا جواب لكم عندي . قال ابن عباس : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ قال : هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه . وعن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكًا ، فلا يجيبهم أربعين عامًا ، ثم يرد عليهم إنكم ماكثون قال : هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ، ثم يدعون ربهم فيقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴾ قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ قال : فو الله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة . وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم قال : فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق .

ثم قال تعالى مذكرًا لهم بذنوبهم في الدنيا ، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين ، وأوليائه فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ

(1) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٨٨) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٩٣) .

سِخْرِيًّا ﴾ أي : فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أي : حملكم بغضهم على أن أنسيتم معاملتي ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أي : من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى عما جازى به عباده الصالحين فقال : ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ ﴾ أي : على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ أي : جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة ، والجنة والنجاة من النار .

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ أي : كم كانت إقامتكم في الدنيا ؟ ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أي : الحاسبين . ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : مدة يسيرة على كل تقدير ﴿ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : لما آثرتم الفاني على الباقي ، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ ، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة ، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا .

قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّه إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ ، قَالَ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » - قَالَ : « لَنِعْمَ مَا اتجرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ رَحْمَتِي وَرِضْوانِي وَجَنَّتِي ؛ امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ ؟ » ثُمَّ قَالَ : « يَا أَهْلَ النَّارِ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . فَيَقُولُ : بِئْسَ مَا اتجرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ نَارِي وَسَخَطِي امْكُثُوا فِيهَا مُخَلَّدِينَ » [(١)] . وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ أي : أفظننتم أنكم مخلوقون عبثًا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل للعبث أي : لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة ، وإقامة أوامر الله ﷻ ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي : لا تعودون في الدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ : يعني هملًا ، وقوله : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : تقدس أن يخلق شيئًا عبثًا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك . ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي : حسن المنظر بهي الشكل . عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز : أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثًا ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر ، وشقي عبد أخرجه الله من رحمته وحرم جنة عرضها السماوات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غدًا إلا من حذر هذا اليوم ، وخافه ، وباع نافذًا بباق وقليلًا بكثير وخوفًا بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧/٥) .

إنكم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله ﷻ قد قضى نحبه ، وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد ، وقد فارق الأحباب ، وباشر التراب ، وواجه الحساب ، مرتهن بعمله غني عما ترك فقير إلى ما قدم . فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ، ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . عن حسن بن عبد الله أن رجلًا مصابًا مر به عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ . حتى ختم السورة فبرأ . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « بِمَاذَا قَرَأْتَ فِي أُذُنِهِ ؟ » فأخبره . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا موقنًا قَرَأَهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ » (١) .

وروي عن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ قال : فقرأناها فغنمنا وسلمنا . وعن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَمَانُ أُمَّتِي مِنَ الغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا السَّفِينَةَ ، بِاسْمِ اللّٰه الملكِ الحقِّ ، وَمَا قَدَرُوا اللّٰه حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، بِاسْمِ اللّٰه مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (٢) .

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ومخبرًا أن من أشرك بالله لا برهان له أي : لا دليل له على قوله فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط في قوله : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ أي : الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي : لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لرجل : « مَا تَعْبُدُ ؟ » قال : أعبد الله وكذا وكذا ، حتى عدَّ أصنامًا . فقال رسول الله ﷺ : « فَأَيُّهُمْ إِذَا أَصَابَكَ ضَرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ ؟ » قال : الله ﷻ . قال : « فَأَيُّهُمْ إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَدَعَوْتَهُ أَعْطَاكَهَا ؟ » قال : الله ﷻ . قال : « فَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ هَؤُلَاءِ مَعَهُ أَمْ حَسِبْتَ أَنْ تغلبَ عَلَيْهِ ؟ » . قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله ﷺ : « تَعْلَمُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ » فقال الرجل بعدما أسلم : لقيت رجلًا خصمني (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ هذا إرشاد من الله الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس ، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال .

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٥/٤٦ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٥/١١) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧٤/١٨ ، والهندي في كنز العمال ٥٠٨٤ .

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى هذه ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ، ولا ينفي مع ما عداها . ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قال مجاهد : أي بيّنا الحلال والحرام ، والأمر والنهي والحدود . وقال البخاري : ومن قرأ - فرضناها - يقول : فرضناها عليكم وعلى من بعدكم [١] ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي : مفسرات واضحات ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ . يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزاني لا يخلو أن يكون بكرًا ، وهو الذي لم يتزوج ، أو محصنًا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح ، وهو حرٌّ بالغ عاقل ، فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية . ويزاد على ذلك أن يغرب عامًا عن بلده . عند جمهور العلماء خلافًا لأبي حنيفة رحمه الله ،فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب . وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين من رواية الزهري في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفًا » - يعني أجيرًا - « على هذا فزنى بامرأته ، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة جلدة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم » . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى : الوَلِيدَةُ والغَنَمُ ردٌّ عَلَيْكَ ، وَعَلَى ابْنِكَ مِائَةُ جَلْدَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ » - لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ - « إِلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا » فغدا عليها فاعترفت فرجمها [٢] . وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكرًا لم يتزوج ، فأما إذا كان محصنًا ، وهو قد وطئ في نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم .

كما قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بالحَقِّ وَأَنزلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ ، فَكَانَ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ فَقَرأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَرَجَمَ رسول الله ﷺ ورَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله . فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف [٣] .

وروي عن عمر بن الخطاب : « إِيَّاكُمْ أَنْ تَهْلَكُوا عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ » [٤] وعن زيد بن ثابت : كنا نقرأ :

---

(١) صحيح البخاري في التفسير (تفسير سورة النور) .

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (٢٥) والإمام أحمد في مسنده (٤/١٥٥) .

(٣) أخرجه مسلم في (الحدود) (١٥) وابن ماجه في (الحدود) (٩) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٦ ، ٤٣) .

(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) قال مروان : ألا كتبتها في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب فقال : أنا أشفيكم من ذلك ، قال : قلنا : فكيف ؟ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم فقال : يا رسول الله اكتب لي آية الرجم قال : « لَا أَسْتَطِيعُ الآنَ » هذا أو نحو ذلك [١] .

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير [٢] . ورجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية [٣] . وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم ، وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة والألفاظ بالاقتصار على رجمهم . وليس فيها ذكر الجلد ، ولهذا كان مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية ، والرجم للسنة ، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما أتي بسراجة وكانت قد زنت ، وهي محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ [٤] . وفي الحديث : « خُذُوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ » [٥] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أي : في حكم الله ، أي لا ترأفوا بهما في شرع الله وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد ، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك . قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل . عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَافَوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ » [٦] وفي الحديث الآخر : « لَحَدٌّ يُقَامُ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا » [٧] وقيل المراد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرح . قال الشعبي : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : رحمة في شدة الضرب .

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي : فافعلوا ذلك ، وأقيموا الحدود على من زنى ، وشددوا عليه بالضرب ، ولكن ليس مبرحًا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها . فقال : « وَلَكَ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ » .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما ، قال الحسن البصري : في قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٧٩٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (٢٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٥/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في (الحدود) (١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣) والإمام أحمد في مسنده (٨/١ ، ٢٣٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٩٣/١ ، ١١٦ .

(٥) أخرجه مسلم في (الحدود) (١٢) وأبو داود في السنن (٤٤١٥) والإمام أحمد في مسنده (٣١٣/٥ ، ٣١٧) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٧٦) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٦٢/٢) وابن ماجه في السنن (٨٤٨/٢) والنسائي في السنن (٧٥/٨) .

عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ : يعني : علانية وعن ابن عباس : الطائفة : الرجل فما فوقه . وقال مجاهد : الطائفة : الرجل الواحد إلى الألف . قال سعيد بن جبير ﴿ طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : يعني رجلين فصاعدًا ، وقال الزهري : ثلاثة نفر فصاعدًا ، وقال مالك : الطائفة أربعة نفر فصاعدًا لأنه لا يكفي شهادة في الزنى إلا أربعة شهداء فصاعدًا . وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصري : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أي : نفر من المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالًا . وقال نصر بن علقمة : في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ : ليس ذلك للفضيحة إنما ذلك ليدعوا الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أي لا يطاوعه على مراده من الزنى إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك ﴿ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ ﴾ أي عاص بزناه ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ لا يعتقد تحريمه . قال ابن عباس ﷺ في قوله : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ : ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع ، لا يزني بها إلا زان أو مشرك . وقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفائف بالرجال الفجار . وقال ابن عباس : ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : حرم الله الزنى على المؤمنين . وقال قتادة : حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا ذلك . فقال : ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ . وعن عبد الله بن عمر ﷺ : أن رجلًا من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها : أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه ، قال : فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ « ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ : العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ ، وَالمَرْأَةُ المُتَرَجِّلَةُ المُتَشَبِّهَةُ بِالرِّجَالِ ، وَالدَّيُّوثُ . وَثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ : العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ ، وَمُدْمِنُ الخَمْرِ ، وَالمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى » (٢) . وعن شعبة مولى ابن عباس ﷺ قال : سمعت ابن عباس سأله رجل فقال : إني كنت ألم بامرأة آتي منها ما حرم الله ﷻ علي فرزق الله ﷻ من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها فقال أناس : إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة . فقال ابن عباس : ليس هذا في هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلي .

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة . قال ابن أبي حاتم : عن سعيد بن المسيب قال : ذكر عنده ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ قال : كان يقال نسختها التي بعدها ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ قال : كان يقال الأيامى من المسلمين .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/١٥٩) . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/١٣٤) .

هذه الآية الكريمة فيها بين حكم جلد القاذف للمحصنة هي : الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلًا ، فكذلك يجلد قاذفه أيضًا ، وليس فيه نزاع بين العلماء ، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة . **الثاني** : أنه ترد شهادته أبدًا . **الثالث** : أن يكون فاسقًا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس ، ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ الآية . واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ، فترفع التوبة الفسق فقط ويبقى مردود الشهادة دائمًا - وإن تاب - أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانفض سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا ؛ فذهب الإمام مالك وأحمد والشافعي : إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق ، وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ؛ فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبدًا . وقال الضحاك : لا تقبل شهادته - وإن تاب - إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان ، فحينئذٍ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج ، وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر ﷻ ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعي عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربع شهداء إنه لمن الصادقين أي : فيما رماها به من الزنى ﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي ، وحرمت عليه أبدًا ويعطيها مهرها ، ويتوجب عليها حد الزنى ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . أي فيما رماها به ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ يعني : الحد ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فخصها بالغضب كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ، ورميها بالزنى إلا وهو صادق معذور . وهي تعلم صدقه فيما رماها به ، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها والمغضوب عليه هو يعلم الحق ثم يحيد عنه . ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ، ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أي : لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ أي : على عباده ، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه . وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة .

قال ابن عباس : لما نزلت ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار ﷺ : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ ؟ » فقالوا : يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله ، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعًا قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء ، فو الله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته - قال : فما لبثوا إلا يسيرًا - حتى جاء هلال بن أمية ، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلًا فرأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ، فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلًا ، فرأيت بعيني ، وسمعت بأذني ، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه ، واجتمعت عليه الأنصار وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس ، فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا . وقال هلال : يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إني لصادق . فو الله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله الوحي ، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد وجهه ؛ يعني : فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴾ الآية . فسري عن رسول الله ﷺ فقال : « أَبْشِرْ يَا هِلَالُ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا » ، فقال هلال : قدكنت أرجو ذلك من ربي ﷻ . فقال رسول الله ﷺ : « أَرْسِلُوا إِلَيْهَا » فأرسلوا إليها ، فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا ، فقال هلال : والله يا رسول الله لقد صدقت عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لَاعِنُوا بَيْنَهُمَا » فقيل لهلال : اشهد ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كانت الخامسة قيل له : يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن الموجبة التي توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها . فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل للمرأة : اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، وقيل لها عند الخامسة : اتقي الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب ، فتلكأت ساعة وهمَّت بالاعتراف ثم قالت : والله لا أفضح قومي . فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد . وقضى أن لا بيت لها عليه ، ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها ، وقال : « إِنْ جَاءَتْ بِهِ أُصَيْهِبَ أُرَيْسِحَ خَمِشَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِهِلَالٍ ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْدًا جُمَالِيًّا خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ فَهُوَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ » . فجاءت به أورق جعدًا جماليًا خدلج الساقين سابغ الأليتين . فقال رسول الله ﷺ :

« لَوْلَا الْأَيْمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ » قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميرًا على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب (١) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

هذه العشر الآيات نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية ، التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه ، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ . فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ أي : جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة ، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به . وجوزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريبًا من شهر حتي نزل القرآن ، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة .

ذكر الإمام أحمد : أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة رضي الله عنها : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ودنونا من المدينة . آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه .

قالت : وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناني فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني ، وقد كان رآني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي . والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة ، غير استرجاعه حين أناخ راحته فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول . فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمناها شهرًا والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك . وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : « كيف

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٨/١) ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة .

تيكم ؟ » فذلك الذي يريبني ، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت ، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلًا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا . وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئسما قلت ، تسبين رجلًا شهد بدرًا ؟ فقالت : أي هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ قلت : فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضًا إلى مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت له : أتأذن لي أن آتي أبوي ، قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله ﷺ ، فجئت أبوي فقلت لأمي : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أي بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت : سبحان الله وقد تحدث الناس بها ! . فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي . قالت : فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود ، فقال أسامة : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرًا . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : « أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ » فقالت له بريرة : والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمرًا قط أغمصه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله .

فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول ، قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي » .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه . وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وكان رجلًا صالحًا ، ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتلَ ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافق ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينما هما جالسان عندي ، وأنا أبكي إذا

استأذنت علي امرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكي معي . فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس . قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وكذا ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّه ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَتَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ » . قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبي : أجب عني رسول الله . فقال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن - : والله لقد علمت ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقونني ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني ، فو الله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة ، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها . قال : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه : قالت فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ ﷻ فقد بَرَّأَكِ » قالت : فقالت لي أمي قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ﷻ هو الذي أنزل براءتي وأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ العشر الآيات كلها . فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر ﷺ - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقال أبو بكر : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه . وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري فقال : « يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ ؟ » فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيرًا . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ ، فعصمها الله تعالى بالورع . وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك .

قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط [1] . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما ذكر من شأني الذي ذكر ، وما علمت به ، قام رسول الله ﷺ في الناس خطيبًا ، فتشهد فحمد الله وأثنى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١٩٥) .

عليه بما هو أهله . ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي ، وايمُ اللَّه مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا وَمَا عَلِمْتُ عَلى أَهْلِي مِنْ سُوء ، وَأَبنوهُمْ بِمَنْ ؟! واللَّه مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ قَطُّ ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ ، وَلا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي » فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يا رسول اللَّه ائذن لنا أن نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل - فقال : كذبت أما واللَّه لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد وما علمت . فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح فعثرت ، فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : أي أم تسبين ابنك ؟ فسكتت ، ثم عثرت الثانية فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : أي أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت : تعس مسطح فانتهرتها فقالت : واللَّه ما أسبه إلا فيك . فقلت : في أي شأني ؟ قالت : فبقرت لي الحديث فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم واللَّه ، فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلًا ولا كثيرًا ، ووعكت وقلت لرسول اللَّه ﷺ : أرسلني إلى بيت أبي ، فأرسل معي الغلام ، فدخلت الدار ، فوجدت أم رومان في السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ . فقالت أم رومان : ما جاء بك يا بنية فأخبرتها ، وذكرت لها الحديث . وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذي بلغ مني ، فقالت يا بنية : خففي عليك الشأن ، فإنه واللَّه لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها ، وقيل فيها ، فقلت : وقد علم به أبي ؟ قالت : نعم قلت : ورسول اللَّه ﷺ ؟ قالت : نعم ورسول اللَّه ﷺ فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ فنزل ، فقال لأمي ما شأنها : قالت : بلغها الذي ذكر من شأنها ففاضت عيناه ﷺ فقال : أقسمت عليك يا بنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ، ولقد جاء رسول اللَّه ﷺ بيتي فسأل عني خادمتي فقالت : يا رسول اللَّه لا واللَّه ما علمت عليها عيبًا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها . وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقي رسول اللَّه ﷺ حتى أسقطوا لها به فقالت : سبحان اللَّه واللَّه ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر ، وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له ، فقال : سبحان اللَّه ، واللَّه ما كشفت كنف أنثى قط .

قالت عائشة ﵂ : فقتل شهيدًا في سبيل اللَّه قالت : وأصبح أبواي عندي فلم يزالا حتى دخل عليّ رسول اللَّه ﷺ وقد صلى العصر ، ثم دخل . وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي ، فحمد اللَّه تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد يا عائشة إن كنت قارفت سوءًا أو ظلمت فتوبي إلى اللَّه ، فإن اللَّه يقبل التوبة عن عباده » . قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالباب فقلت : ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئًا فوعظ رسول اللَّه ﷺ ، فالتفت إلى أبي فقلت له : أجب رسول اللَّه ﷺ قال : فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمي فقلت : أجيبي رسول اللَّه ﷺ قالت : ماذا أقول ؟ فلما لم يجيباه تشهدت ، فحمدت اللَّه وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت : أما بعد فواللَّه إن قلت لكم إني لم أفعل واللَّه ﷻ يشهد إني لصادقة ما ذاك بنافعي عندكم لقد تكلمتم به ، وأشربته قلوبكم ، وإن قلت لكم إني قد فعلت واللَّه يعلم أني لم أفعل لتقولن قد باءت على نفسها . وإني واللَّه ما أجد لي ولكم

مثلًا - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ . وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته ، فسكتنا فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول : « أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَكِ » . قالت : وكنت أشد ما كنت غضبًا فقال لي أبواي : قومي إليه فقلت : لا والله لا أقوم إليه ، ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه .

وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرًا ، وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك . وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبي ابن سلول ، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة ، قالت : فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحًا بنافعة أبدًا فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ يعني : أبا بكر ﴿ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ يعني : مسطحًا إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . فقال أبو بكر : بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا . وعاد له بما كان يصنع (١) . فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أي : الكذب والبهت والافتراء ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ أي : جماعة منكم ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ أي يا آل أبي بكر . ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ، ورفعة منازل في الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ الآية . ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها ، وهي في سياق الموت قال لها أبشري : فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكرًا غيرك ، ونزلت براءتك من السماء (٢) .

وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب : أنا التي نزل تزويجي من السماء . وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري في كتاب الله حين حملني صفوان بن المعطل على الراحلة . فقالت لها زينب : يا عائشة ما قلت حين ركبتيها ؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل . قالت : قلت كلمة المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أي : لكل من تكلم في هذه القضية ، ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب .

﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ قيل : ابتدأ به ، وقيل الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه . ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي على ذلك . ثم الأكثرون على أن المراد بذلك : إنما هو عبد الله بن أبي ابن سلول قبحه الله تعالى ولعنه ، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث . وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ، ومآثر وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ : « هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » (٣) . وقال مسروق : كنت عند عائشة رضي الله عنها ، فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت فألقي له وسادة ، فلما

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦١) ومسلم في التوبة (٥٦) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٠) .

(٣) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣٢١٣) ومسلم في (فضائل الصحابة) (١٥٣) وأحمد في مسنده (٤/٢٨٦ ، ٣٠١) .

خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعني يدخل عليك - وفي رواية قيل لها : أتأذنين لهذا يدخل عليك - وقد قال الله ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ قالت : وأي عذاب أشد من العمى . وكان قد ذهب بصره لعلّ الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم . ثم قالت : إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ - وفي رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها شعرًا يمتدحها به فقال :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

فقالت : أما أنت فلست كذلك (١) .

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ .

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، وما ذكر من شأن الإفك . فقال تعالى : ﴿ لَّوْلَآ ﴾ يعني : هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي : ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي : قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى . وقد قيل : إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته . رضي الله عنهما كما روي أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال تعالى : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية أي كما قال أبو أيوب وصاحبته ، وقوله تعالى : ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلخ أي : هلا ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به . هذا ما يتعلق بالباطن . وقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أي : بألسنتهم ﴿ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها ، فإن الذي وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورًا ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو : الكذب البحت ، والرعونة الفاحشة الفاجرة ، والصفقة الخاسرة . قال الله تعالى : ﴿ لَّوْلَآ ﴾ أي هلا ﴿ جَآءُو عَلَيْهِ ﴾ أي على ما قالوه ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به . ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ أي : في حكم الله كاذبون فاجرون .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل

---

(١) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤١٤٦) ومسلم في (فضائل الصحابة) (١٥٥) .

توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة . ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ من قضية الإفك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين ، كعبد الله بن أبي ابن سلول ، وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ، ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجع عليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : أي يرويه بعضكم عن بعض يقول : هذا سمعته من فلان وقال فلان كذا ، وذكر بعضهم كذا ، وقرأ آخرون ﴿ إِذْ تَلِقُونه بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ فعن عائشة أنها كانت تقرؤها كذلك (١) وقوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي : تقولون ما لا تعلمون ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أي : تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين ، وتحسبون ذلك يسيرًا سهلًا ، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هينًا ، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله ﷻ يغار لهذا ، وهو ﷻ لا يقدِّر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ وفي الحديث : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ لَا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » . وفي رواية « لا يُلْقِي لَهَا بَالًا » (٢) .

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير أي : إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة ، فأولى أن ينبغي الظن بهم خيرًا ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالًا ، فلا ينبغي أن يتكلم به فإن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ » (٣) ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ أي : ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ، ولا نذكره لأحد . ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله ، وحليلة خليله . ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أي : ينهاكم الله متوعدًا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبدًا أي فيما يستقبل ؛ ولهذا قال : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفًا بالكفر فله حكم آخر . ثم قال تعالى : ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

---

(١) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٧) والإمام أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في (الأيمان والنذور) (٦٦٦٤) ومسلم في (الأيمان) (٢٠١ ، ٢٠٢) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٢) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئًا من الكلام السيئ فقام بذهنه شيء منه ، وتكلم به فلا يكثر منه ، ولا يشيعه ويذيعه . فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : بالحد وفي الآخرة بالعذاب . ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : فردوا الأمور إليه ترشدوا . فعن ثوبان عن النبي ﷺ قال : « لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللَّه وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللَّه عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ في بَيْتِه »[(١)] .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم ، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهَّر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه ، ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ يعني : طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ . هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة ، وأبلغها وأوجزها وأحسنها . قال ابن عباس : ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ عمله ، وقال عكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهي من خطوات الشيطان . وقال أبو مجلز : النذور في المعاصي من خطوات الشيطان . وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن آكل طعامًا وسماه ، فقال : هذا من نزغات الشيطان ، كفِّر عن يمينك وكل ، وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي : ولولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها ، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرًا . ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ أي : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي . وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ من الألية وهيَ الحلف أي لا يحلف ﴿ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ أي : الطول والصدقة والإحسان ﴿ وَٱلسَّعَةِ ﴾ أي : الجدة ﴿ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي : لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم . المساكين والمهاجرين . وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام . قال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ﴾ أي : عمّا تقدم منهم من الإساءة والأذى ؟ وهذا من حلمه - تعالى - وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم . وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٧٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٨٧) .

حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدًا ، بعد ما قال في عائشة ما قال ، كما تقدم في الحديث ، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه ، شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والمنة - يعطف الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثة ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكينًا لا مال له ، إلا ما ينفق عليه أبو بكر ﷺ ، وكان من المهاجرين في سبيل الله ، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها وكان الصديق ﷺ معروفًا بالمعروف ، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الآية . فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا في مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات . خرج مخرج الغالب المؤمنات ، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولا سيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما . وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبَّها بعد هذا ، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ الآية : كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الآية . وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها . فقال ابن عباس في الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ قال : نزلت في عائشة خاصة . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : رميتُ بما رميت به ، وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك ، فبينا رسول الله ﷺ جالس عندي إذ أوحي إليه ، قالت : وكان إذا أوحي إليه أخذه كهيئة السبات ، وإنه أوحي إليه وهو جالس عندي ، ثم استوى جالسًا يمسح على وجهه وقال : « يَا عَائِشَةُ أَبْشِري » قالت : فقلت : بحمد الله لا بحمدك فقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ حتى بلغ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) . ليس فيه أن الحكم خاص بها ، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها ، وإن كان الحكم يعمها كغيرها . ولعله مراد ابن عباس ، ومن قال كقوله والله أعلم .

وقال الضحاك : المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء . وقال ابن عباس في الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ الآية ، يعني أزواج النبي ﷺ رماهن أهل النفاق ، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب ، وباؤوا بسخط من الله . فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ ، ثم نزل بعد ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة ، فالتوبة تقبل والشهادة ترد . وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم

(١) أورده ابن جرير في تفسيره (١٣٨/١٨) .

ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الشِّرْكُ باللَّه ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيم ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ »[(1)] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ . قال ابن عباس : إنهم - يعني : المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة . قالوا : تعالوا حتى نجحد فيجحدون ، فيختم على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون الله حديثًا . وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ عُرِفَ الكَافِرُ بِعَمَلِهِ فَيَجْحَدُ وَيُخَاصِمُ ، فَيُقَالُ لَهُ : هَؤُلَاءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ . فَيَقُولُ : كَذَبُوا . فَيُقَالُ : أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ . فَيَقُولُ : كَذَبُوا ، فَيُقَالُ : احْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ ، ثُمَّ يُصْمِتُهُمُ اللَّهُ فَتَشْهَد عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ »[(2)] . وقال قتادة : ابن آدم والله إن عليك لشهودًا غير متهمة من بدنك ، فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن ، فليفعل ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ دِينَهُمُ ﴾ أي : حسابهم . وكل ما في القرآن دينهم أي : حسابهم ، ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم ، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة ، وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب : يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي : وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه .

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول - قال : ونزلت في عائشة وأهل الإفك . واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به . وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء ، وهذا أيضًا يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم . أي : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة ؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعًا ولا قدرًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي : هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان . ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أي : بسبب ما قيل فيهم من الكذب . ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : عند الله في جنات

---

(١) أخرجه البخاري في (الوصايا) (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) وأبو داود في السنن (٢٨٧٤) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٥/٣٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٥١) والهندي في الكنز (٣٨٩٧٩) .

النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة . وروي أنه جاء أسير بن جابر إلى عبد الله فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبني . فقال عبد الله : إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما يستقر حتى يلفظها ، فيسمعها الرجل عنده يتلها فيضمها إليه ، وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها إليه ، ثم قرأ عبد الله ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ ﴾ الآية . ويشبه هذا ما روي مرفوعًا : « مثل هذا الذي يسمع الحكمة ، لا يحدث إلا بشرّ ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال : اجزر لي شاة . فقال : اذهب فخذ بأذن أيها شئت ، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم »(١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ .

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك في استئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده . وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا انصرف . كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثًا ، فلم يؤذن له انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : « إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَنْصَرِفْ » . فقال عمر : لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا ، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري ، فأخبر عمر بذلك ، فقال : ألهاني عنه الصفق بالأسواق(٢) .

وعن أنس أو غيره أن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّه » فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثًا ورد عليه سعد ثلاثًا ولم يسمعه . فرجع النبي ﷺ فأتبعه سعد . فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني ، ولقد رددت عليك ولم أسمعك ، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيبًا فأكل نبي الله فلما فرغ قال : « أَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلائِكَةُ ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ »(٣) . وقد روي عن قيس بن سعد - هو ابن عبادة - قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّه » فرد سعد ردًّا خفيًّا . قال قيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله ﷺ ؟ فقال : دعه يكثر علينا من السلام ، فقال رسول الله ﷺ : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّه » فرد سعد ردًّا خفيًّا ، ثم قال رسول الله ﷺ : « السلام عليك ورحمة الله » ثم رجع رسول الله ﷺ وأتبعه سعد . فقال : يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٣/٢) وابن ماجه في السنن (١٣٩٦/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في (الاستئذان) (٦٤٥) ومسلم في الآدب (٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧) وأحمد في مسنده (٤٠٣/٤) وأبو داود في السنن (٥١٨٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٣) .

عليكم ردًا خفيًا لتكثر علينا من السلام . قال : فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل ، ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول : « اللَّهُمَّ اجْعَل صَلَاتَكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ » قال : ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام ، فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمارًا قد وطئ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ فقال سعد : يا قيس اصحب رسول الله ﷺ ، قال قيس : فقال رسول الله ﷺ : « ارْكَبْ » . فأبيت . فقال : « إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ » قال : فانصرفت (١) .

ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره . فعن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ » وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور (٢) . وعن هذيل قال : جاء رجل - قال عثمان : سعد - فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب - قال عثمان مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ : « هَكَذَا عَنْكَ - أو هكذا - فَإِنَّمَا الاسْتِئْذَانُ مِنَ النَّظَرِ » (٣) . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، فَحَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ » (٤) . وعن جابر قال : أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي فدققت الباب فقال : « من هذا » فقلت أنا . قال : « أنا أنا » كأنه كرهه (٥) . وإنما كره ذلك ؛ لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها ، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية . وقال ابن عباس : الاستئناس الاستئذان ، وعن كلدة بن الحنبل أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبًا وجداية وضغابيس ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي قال : فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن . فقال ﷺ : « ارْجِعْ فَقُلْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ » . وذلك بعدما أسلم صفوان (٦) . وعن أم إياس قالت : كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة : فقلن : ندخل ؟ فقالت : لا ، قلن لصاحبتكن تستأذن فقالت : السلام عليكم أندخل ؟ قالت : ادخلوا . ثم قالت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ الآية . وعن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها لا والد ولا ولد ، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال . قال : فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا ﴾ الآية .

وقال ابن جرير : عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخي زينب امرأة عبد الله بن مسعود ، عن زينب رضي الله عنها قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥٢/٢ ، ١٣٨/٣ ، ٤٢١) وأبو داود في السنن (٥١٨٥) والطبراني في الكبير (٣٥٠/١٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٨٦) .
(٣) أخرجه أبو داود (٣٤٤/٤) وذكره ابن حجر في الفتح (٢٤٤/١٢) والسيوطي في الدر المنثور (٢٩/٥ ، ٣٩) .
(٤) أخرجه البخاري في (الديات) (٦٩٠٢) .
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٣/٣) وأبو داود في سننه (٣٤٨/٤) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٤/٣) وأبو داود في السنن (٥٧/٦) والترمذي في السنن (٢٧١٠) .

على أمر يكرهه . ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ قال مجاهد : تنحنحوا أو تنخموا .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ : إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه . ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقًا - وفي رواية - ليلًا يتخونهم (١) . وفي الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهارًا ، فأناخ بظاهرها وقال : « انْتَظِرُوا حَتَّى نَدْخُلَ عِشاءً - يعني آخر النهار - حتَّى تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ ، وَتَسْتَحِدَّ المغيبَةُ » (٢) . وقال قتادة في قوله : ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ هو : الاستئذان ثلاثًا ، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع ، أما الأولى : فليسمع الحي . وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم . وأما الثالثة : فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا . ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم ، فإن للناس حاجات ، ولهم أشغال والله أولى بالعذر. وقال مقاتل بن حيان : في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ . كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول : حييت صباحًا وحييت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه ، فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ونحو ذلك ، فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله في ستر وعفة ، وجعله نقيًا نزهًا من الدنس والقذر والدرن . فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ الآية . وهذا الذي قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني : الاستئذان خير لكم بمعنى : هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن . ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أي : إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أي : رجوعكم أزكى لكم وأطهر . ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها . أن أستأذن على بعض إخواني ، فيقول لي : ارجع فأرجع وأنا مغتبط ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ . وقال سعيد بن جبير في الآية : أي : لا تقفوا على أبواب الناس ، وقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ الآية . هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها ، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها لغير إذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى . قال ابن عباس : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ثم نسخ واستثنى فقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ وقال آخرون : هي بيوت التجار كالخانات ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة وغير ذلك ، والأول أظهر والله أعلم .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في (النكاح) (١٢٠) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (١٠) ومسلم في الرضاع (٥٨) والإمارة (١٨١) والإمام أحمد في مسنده (٣/٢٩٨ ، ٣٠٣) .

هذا أمر من اللَّه تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عمَّا حرَّم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعًا . كما روي عن جرير بن عبد اللَّه البجلي ﷺ قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري (١) . وفي رواية : « أَطْرِقْ بَصَرَكَ » يعني انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فإنه قد يكون إلى الأرض ، وإلى جهة أخرى ، واللَّه أعلم .

وفي الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالجلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ » قالوا : يا رسول اللَّه لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول اللَّه ﷺ : « إِنْ أَبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ » . قالوا : وما حق الطريق يا رسول اللَّه ؟ قال : « غَضُّ البَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَام ، وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ » (٢) . وعنه ﷺ : « اكْفُلُوا لِي بِستٍّ أَكْفلْ لكُم بِالجَنَّةِ ، إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُم فَلَا يَكْذِبْ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلَا يَخُنْ ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفْ ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُم ، وَكُفُّوا أَيدِيَكُم ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ » (٣) وفي الحديث : « مَنْ يَكْفُلْ لِي مَا بَيْنَ لحيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجلَيْهِ أَكْفُلْ لَهُ الجَنَّةَ ؟» (٤) .

وعن عبيدة قال : كل ما عصي اللَّه به فهو كبيرة . وقد ذكر الطرفين . فقال : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب - كما قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب ؛ ولذلك أمر اللَّه بحفظ الفروج ، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك فقال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنى . كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ الآية . وتارة يكون بحفظه من النظر إليه . كما جاء في الحديث : « احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » (٥) . ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أي : أطهر لقلوبهم ، وأنقى لدينهم كما قيل : من حفظ بصره أورثه اللَّه نورًا في بصيرته . ويروى في قلبه . عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ مُسْلِم يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ ، ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلَّا أَخْلَفَ اللَّه لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا » (٦) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزِّنَى أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَزِنَى العَيْنَيْنِ النَّظَرُ ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطقُ ، وَزِنَي الأُذُنَيْنِ الاسْتِمَاعُ ، وَزِنَى اليَدَيْنِ البَطْشُ ، وَزِنَي الرِّجْلَيْنِ الخُطَى ، والنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي ، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ» (٧) .

وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد ، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك ، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان ، وشدد آخرون في ذلك كثيرًا جدًا .

---

(١) أخرجه مسلم في (الآداب) (٩١) .

(٢) أخرجه البخاري في (المظالم) (٢٤٦٥) ومسلم في (السلام) (٣) .

(٣) ذكره الهيثمي في محمع الزوائد (٢٩٣/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٤) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/٥) وأبو داود في السنن (٤٠١٧) والترمذي في السنن (٢٧٩٤) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٦/٢) .

(٧) أخرجه البخاري في (الاستئذان والقدر) (٦٢٤٣ ، ٦٦١٢) والإمام أحمد في مسنده (٣١٧/٢) .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

هذا أمر من اللَّه تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية ، وفعال المشركات . وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا - واللَّه أعلم - ، أن جابر بن عبد اللَّه الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات ، فيبدوا ما في أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ الآية . أي : عما حرم اللَّه عليهن من النظر إلى غير أزواجهن ، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة أصلًا ولا بغير شهوة أصلًا . واحتج كثير منهم بحديث أم سلمة أنها كانت عند رسول اللَّه ﷺ وميمونة قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم ، فدخل عليه - وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب - فقال رسول اللَّه ﷺ : « احتَجِبَا مِنْهُ » فقلت : يا رسول اللَّه أليس هو أعمى لا يبصرنا ، ولا يعرفنا ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَوَ عَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا ؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ ؟ » (١) . وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة .

كما ثبت في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد ، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم ، حتى ملت ورجعت (٢) .

وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ قال سعيد بن جبير : عن الفواحش . وقال قتادة : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنى . وقال أبو العالية : كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنى إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ أن لا يراها أحد ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أي لا يظهرن شيئًا من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه . قال ابن مسعود : كالرداء والثياب . يعني : على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها ، وما يبدو من أسافل الثياب ، فلا حرج عليها فيه ؛ لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ، ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها ، وما لا يمكن إخفاؤه . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قال : وجهها وكفيها والخاتم . وهذا يحتمل أن يكون تفسيرًا للزينة التي نهين عن إبدائها ، كما قال أبو الأحوص ، عن عبد اللَّه قال في قوله : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ : الزينة القرط والدملوج ، والخلخال والقلادة ، وفي رواية عنه قال : الزينة زينتان ؛ فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب ، وهي الظاهر من الثياب . وقال الزهري : لا يبدو لهؤلاء الذين سمى اللَّه ممن

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤١١٢) والترمذي في السنن (٢٧٧٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٦/٦) .
(٢) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٤٥٤) ومسلم في العيدين (١٧) والإمام أحمد في مسنده (٥٦/٦ ، ٨٣) .

لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر . وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهري : ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ : الخاتم والخلخال . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعني : المقانع يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك . بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها ، وذوائب شعرها وأقرطة آذانها ، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن . والخمر جمع خمار ، وهو ما يخمر به . أي يغطى به الرأس ، وهي التي تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ وليشددن ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعني : على النحر والصدر فلا يرى منه شيء . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها (١) ، وعنها أيضًا : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي : أزواجهن ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ . كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير تبرج . وقد روي عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ حتى فرغ منها وقال : لم يذكر العم ولا الخال ؛ لأنهما ينعتان لأبنائهما . ولا تضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله : ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ يعني تظهر بزينتها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك وإن كان محذورًا في جميع النساء إلا في نساء أهل الذمة أشد فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع . فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه . وقد قال رسول الله ﷺ : « لا تُبَاشِرِ المَرْأَةُ المرأةَ تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا » (٢) . وعن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة : أما بعد : فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ قال ابن جرير : يعني من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة لأنها أمتها . وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء . واستدلوا بالحديث أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال - وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكِ بَأْسٌ إِنَّمَا هُوَ أَبُوكِ وَغُلَامُكِ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ يعني : كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٥٨) .
(٢) أخرجه البخاري في (النكاح) (٥٢٤٠ ، ٥٢٤١) والترمذي في السنن (٢٧٩٢) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤١٠٦) وذكر الهندي في كنز العمال (٢٥٢٣١) .

ذلك في عقولهم وله وخوث ، ولا همة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن . قال ابن عباس : هو المغفل الذي لا شهوة له . وقال مجاهد : هو الأبله ، وقال عكرمة : هو المخنث الذي لا يقوم ذكره .

وفي الصحيح : أن مخنثًا كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة . فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة يقول : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال رسول الله ﷺ : « أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هَا هُنَا ؟ لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ » . فأخرجه فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة ليستطعم [١] . وعن أم سلمة أنها قالت : دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث وعندها عبد الله بن أبي أمية يعني أخاها والمخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غدًا فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . قال فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : « لَا يَدْخُلَنَّ هذَا عَلَيْكِ » [٢] . وقوله تعالى : ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ يعني : لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقًا أو قريبًا منه بحيث يعرف ذلك ، ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكّن من الدخول على النساء .

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِيَّاكُمْ والدُّخُول عَلَى النِّسَاءِ » قيل : يا رسول الله أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » [٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه .فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك . وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورًا ، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ إلى آخره ، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ، فيشم الرجال طيبها . عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَة ، وَالمرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالمجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا » يعني زانية [٤] . وعن أبي هريرة ﷺ قال : لقيته امرأة شم منها ريح الطيب ولذيلها إعصار . فقال : يا أمية الجبار جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : تطيبت ؟ قالت : نعم . قال : إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول : « لَا يَقْبَلُ اللَّه صَلاةَ امْرَأَةٍ تطيبَتْ لهذَا المَسْجِدِ حَتَّي تَرْجِعَ فَتَغتسِلَ غسلَهَا مِنَ الجَنَابَةِ » [٥] . وعن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ قال : « الرَّافِلَةُ فِي الزِّينَةِ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا كَمِثْلِ ظُلْمَةِ يَوْمِ القِيَامَةِ لَا نُورَ لَهَا » [٦] ، ومن ذلك أيضًا أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج . وقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة ، والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما

---

(١) أخرجه مسلم في (السلام) (٣٣) والبيهقي في السنن (٩٦/٧) .

(٢) أخرجه مسلم في (السلام) (٣٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٠/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في (السلام) (٢٠) والترمذي في السنن (١١٧١) والإمام أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٧٨٦) والإمام أحمد في المسند (٣٩٤/٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٨) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٦/٢) وأبو داود في السنن (٤١٧٤) .

(٦) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٤) .

كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا عنه .

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ إلى آخره هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه ، واحتجوا بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهُ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » (١) . وعنه ﷺ قال : « تَزَوَّجُوا الوَلُودَ تَنَاسَلُوا ، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) . والأيامى جمع : أيم . ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها ، وللرجل الذي لا زوجة له ، وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما . وقوله تعالى : ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الآية . قال ابن عباس : رغَّبهم الله في التزويج . وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى . فقال : ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ . وقال أبو بكر الصديق ﷺ : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى . قال تعالى : ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وعن ابن مسعود قال : التمسوا الغنى في النكاح . وعنه ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ ، النَّاكِحُ يُرِيدُ العَفَافَ ، وَالمُكَاتَبُ يُرِيدُ الأَدَاءَ ، والغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ » (٣) . وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره ، ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن . والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله ، وأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث « تزوجوا فقراء يغنكم الله » فلا أصل له . وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجًا بالتعفف عن الحرام كما قال ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » (٤) . الحديث . قال عكرمة : في قوله : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ . قال : هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي ، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ

(١) أخرجه مسلم في (النكاح) (١ ، ٢) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٥٠) وابن ماجه في السنن (١٨٤٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٢/٤ ، ٢٥٨) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥١/٢) والترمذي في السنن (١٦٥٥) والحاكم في المستدرك ٢١٧/٢ .
(٤) من البخاري في النكاح (٥٠٦٥) .

أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة ، وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب لا أمر تحتم ، وإيجاب بل السيد مخير . إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكاتبه . وذهب آخرون : إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذًا بظاهر هذا الأمر . وقال البخاري ، وقال روح عن ابن جريج : قلت لعطاء : أواجب علي إذا علمت له مالًا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجبًا . وقال عمرو بن دينار . قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسًا المكاتبة ، وكان كثير المال فأبى فانطلق إلى عمر ﷺ فقال : كاتبه فأبى فضربه بالدرة ، ويتلو عمر ﷺ ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فكاتبه (١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ . قال بعضهم : أمانة ، وقال بعضهم : صدقًا ، وقال بعضهم : مالًا ، وقال بعضهم : حيلة وكسبًا . وروي عنه ﷺ قال : « إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ حِرْفَةً وَلَا تُرْسِلُوهُمْ كَلًّا عَلَى النَّاسِ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ . اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم : معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها . ثم قال بعضهم : مقدار الربع ، وقيل : الثلث ، وقيل النصف ، وقيل : جزء من الكتابة من غير حد . وقال آخرون : هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة . وقال إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ قال : حث الناس عليه مولاه وغيره ، وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب . وقد تقدم في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ » (٣) . فذكر منهم المكاتب يريد الأداء . والقول الأول أشهر .

وقال سعيد بن جبير : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبًا لم يضع عنه شيئًا من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته ، ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب . وقال ابن عباس في الآية : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ . قال : ضعوا عنهم من مكاتبتهم . وقال محمد بن سيرين في الآية : كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ الآية كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت : فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك . وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول ، فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلبًا لخراجهن ، ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم .

ذكر الآثار الواردة في ذلك

روي عن الزهري قال : كانت جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها : معاذة يكرهها على الزنى فلما جاء الإسلام نزلت : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ الآية (٤) . وقال السدي : أنزلت هذه

---

(١) أخرجه البخاري في (المكاتب) باب (١) .
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤٥/٥) .
(٣) أخرجه : أحمد في مسنده (٢٥/٢) والترمذي في السنن (١٦٦٥) والحاكم في المستدرك (٢١٧/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في التفسير (٢٦ ، ٢٧) والحاكم في المستدرك ٣٩٧/٢ .

الآية الكريمة في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبي بكر ﷺ ، فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبي : من يعذرنا من محمد ؟ يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له .

وقوله تعالى : ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : من خراجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن (١) . وفي رواية : « مَهْرُ البَغِي خَبِيثٌ ، وَكسبُ الحِجَام خَبِيثٌ ، وَثَمنُ الكَلْبِ خَبِيثٌ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . أي : لهن . وقال ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم ، وإثمهن على من أكرههن . وقال الحسن في هذه الآية ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال لهن : والله لهن والله . وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ والنسيَانُ وَمَا اسْتُكرِهُوا عَلَيْهِ » (٣) .

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ يعني : القرآن فيه آيات واضحات مفسرات . ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي : خبرًا عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ أي : زاجرًا عن ارتكاب المآثم والمحارم . ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي لمن اتقى الله وخافه . قال علي بن أبي طالب ﷺ في صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يقول : هادي أهل السموات والأرض . قال مجاهد : يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما . وقال أنس بن مالك : إن الله يقول : نوري هدى . وعن أبي بن كعب في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ . قال : هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره ، فضرب الله مثله فقال : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ، فكان أبي بن كعب يقرؤها ﴿ مثل نور من آمن به ﴾ فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره . وقال السدي في قوله : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فبنوره أضاءت السموات والأرض . وفي الصحيحين : كان رسول الله ﷺ إذا قام من

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٩٩) ، (٤/٣٤١) وابن ماجه في السنن (٢١٦٥) .
(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (٤١ ، ٤٢) أحمد في مسنده (٣/٤٦٤) وأبو داود في السنن (٣٩) والترمذي في السنن (١٢٧٥) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١/٦٥٩) .

الليل يقول : «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » (١) الحديث . وعن ابن مسعود قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه . وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ في هذا الضمير قولان : أحدهما : أنه عائد إلى الله ﷻ أي : مثل هداه في القلب المؤمن ، قاله ابن عباس ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ والثاني : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام تقديره : مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل ، الذي لا كدر فيه ولا انحراف . فقوله : ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل ، هذا هو المشهور . ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وهو الزبالة التي تضيء . وقال العوفي عن ابن عباس : قوله : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وذلك : أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ والمشكاة كوة في البيت ، قال : وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى الله طاعته نورًا ، ثم سماها أنواعًا شتى . وقال مجاهد : هي الكوة بلغة الحبشة . وزاد بعضهم فقال : المشكاة الكوة التي لا منفذ لها . وعن مجاهد : المشكاة الحدائد التي يعلق بها القنديل . والقول الأول أولى ، وهو : أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل . ولهذا قال : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وهو النور الذي في الزبالة . قال أبي بن كعب : المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره . وقال السدي : هو السراج . ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ أي : هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية . وقال أبي بن كعب وغير واحد : وهي نظير قلب المؤمن . ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة من الدر أي : كأنها كوكب من در . وقرأ آخرون دريء ودُريء بكسر الدال وضمها مع الهمزة من الدرء وهو الدفع (٢) . وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال ، والعرب تسمي ما لا يعرف من الكواكب دراري . قال أبي ابن كعب : كوكب مضيء . وقال قتادة : مضيء مبين ضخم . ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أي : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة . ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل أو عطف بيان . ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي : ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا في غربها ، فيقلص عنها الفيء قبل الغروب ، بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجيء زيتها صافيًا معتدلًا مشرقًا . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ، ولا جبل ولا كهف ، ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها . وقال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : هي بصحراء ، وذلك أصفى لزيتها . وقال ابن أبي حاتم : عن عكرمة - وسأله رجل عن قوله تعالى : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ - قال :

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٩٩) ومسلم في (صلاة المسافرين) (١٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٨/١) .
(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص (دُرِّيٌّ) وقرأ حمزة وأبو بكر (دُرِّيءٌ) وقرأ أبو عمرو والكسائي (دِرِّيءٌ) .

تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، فإذا غربت غربت عليها ، فذلك أصفى ما يكون من الزيت .

وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أنها في وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب . وقال أبي بن كعب : هي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت لا إذا طلعت ، ولا إذا غربت قال : فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شيء من الفتن ، وقد يبتلى بها فيثبته الله فيها فهو بين أربع خلال : إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلي صبر ، وإن أعطي شكر ، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات . قال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : هي وسط الشجر لا تصيبها الشمس شرقًا ولا غربًا ، وقال عطية العوفي : هي شجرة في موضع من الشجر يرى ظل ثمرها في ورقها ، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب . وقال ابن أبي حاتم : عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية ، وأولى هذه الأقوال القول الأول : وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس تقرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف ، قال تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : يعني : لضوء إشراق الزيت .

وقوله تعالى : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قال ابن عباس : يعني بذلك إيمان العبد وعمله . وقال مجاهد والسدي : يعني نور النار ، ونور الزيت ، وقال أبي بن كعب : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور ؛ فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة . وقال السدي : نور النار ، ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه . كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اللَّه تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ فمن أصاب من نوره يومئذٍ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخطأَ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ جَفَّ القَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ عز وجل » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلًا لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال . عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ ، وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ . فَأَمَّا القَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ المُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ ، وَأَمَّا القَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الكَافِرِ ، وَأَمَّا القَلْبُ المَنْكُوسُ فَقَلْبُ المُنَافِقِ ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَمَّا القَلْبُ المصفح فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ ، وَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ البَقْلَةِ يُمِدُّهَا المَاءُ الطَّيِّبُ ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ القَرْحَةِ يَمُدُّهَا الدَّمُ والقَيْحُ ، فَأَيُّ المُدَّتَيْنِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/١٧٦ ، ١٩٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٩٣) وذكره الهندي في الكنز (٥٨٢ ، ١٣١٤) .

غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ »[(١)] .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

لما ضرب اللَّه تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل مثلًا ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى اللَّه تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحَّد . فقال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ أي : أمر اللَّه تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو ، والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها . كما قال ابن عباس في : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ نهى اللَّه سبحانه عن اللغو فيها . وقال قتادة : هي هذه المساجد أمر اللَّه ﷺ ببنائها وعمارتها ، ورفعها وتطهيرها . وفي الحديث : « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّه بنى اللَّه لَهُ مِثْلَهُ فِي الجَنَّةِ »[(٢)] . والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ المَسَاجِدِ » قال ابن عباس : أزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى . وعن بريدة أن رجلًا أنشد في المسجد فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبي ﷺ : « لَا وَجَدْتَ إِنَّمَا بُنِيَتِ المَسَاجِدُ لما بُنِيَتْ لَهُ »[(٣)] .

ومن حديث ابن عمر مرفوعًا قال : خصال لا تنبغي في المسجد : لا يتخذ طريقًا ، ولا يشهر فيه سلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، ولا يمر فيه بلحم نيء ، ولا يضرب فيه حد ، ولا يقتص فيه أحد ، ولا يتخذ سوقًا[(٤)] . وعن واثلة بن الأسقع عن رسول اللَّه ﷺ قال : « جَنِّبُوا المَسَاجِدَ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ ، وَشِرَاءَكُمْ وَبَيْعَكُمْ ، وَخُصُومَاتِكُمْ ، ورفع أصواتكم ، وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ ، وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ ، واتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا المَطَاهِرَ ، وَجَمِّرُوهَا فِي الجُمَعِ »[(٥)] . أما أنه لا يتخذ طريقًا فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه . وفي الأثر : إن الملائكة لتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه ، وأما أنه لا يشهر فيه السلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه . ولهذا أمر رسول اللَّه ﷺ إذا مر رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذي أحدًا . وأما النهي عن المرور باللحم النيء فيه ، فلما يخشى من تقاطر الدم منه . كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث ، وأما أنه لا يضرب فيه حد ، ولا يقتص منه فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع ، وأما أنه لا يتخذ سوقًا ، فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه . فإنه إنما بني لذكر اللَّه والصلاة فيه كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد : « إِنَّ المَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧/٣) والهيثمي في المجمع الزوائد (٦٣/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٧/١) .
(٢) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٤٥٠) ومسلم في (الزهد) (٤٣ ، ٤٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٩٣/١) .
(٣) أخرجه مسلم في (المساجد) (٨٠ ، ٨١) وابن خزيمة في صحيحه (١٣٠١) .
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٤٧/١) وفي إسناده ضعف .
(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (٧٥٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥/٢ ، ٢٦) وفي إسناده ضعف .

لِهَذَا ، إِنَّمَا بُنِيَتْ لِذِكْرِ اللَّه والصَّلَاة فِيهَا » (١). ثم أمر بسجل من ماء فأهريق على بوله ، وفي الحديث الثاني : « جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ » (٢) وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم . «وَمَجَانِينَكُمْ »يعني : لأجل ضعف عقولهم ، وسخر الناس بهم فيؤدي إلى اللعب فيها ، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ونحو ذلك . «وَبَيْعَكُمْ وَشِرَاءَكُمْ » كما تقدم «وخصوماتكم »يعني التحاكم والحكم فيه ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد ؛ بل يكون في موضع غيره ؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر ، والألفاظ التي لا تناسبه ، ولهذا قال بعده : « ورفع أصواتكم ».

وعن السائب بن يزيد الكندي قال : كنت قائمًا في المسجد فحصبني رجل فنظرت ، فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فائتني بهذين فجئته بهما فقال : من أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ؛ ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ (٣). وقوله : « وإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ » تقدما . وقوله : « واتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا المَطَاهِرَ »يعني : المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريبًا من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون ، ويتوضؤون وغير ذلك . وقوله : «وَجَمِّرُوهَا فِي الجمعِ » يعني بخروها في أيام الجمع ؛ لكثرة اجتماع الناس يومئذ .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الجَمَاعَةِ تضعفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا » . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاةُ لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة . فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » (٤). وعند الدارقطني مرفوعًا : «لَا صَلَاةَ لجَارِ المَسْجِدِ إِلَّا فِي المَسْجِدِ » (٥) وفي السنن «بَشِّرِ المَشَّائِينَ إِلَى المَسَاجِدِ فِي الظلمِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٦). ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى وأن يقول كما ثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول : « أَعُوذُ بِاللَّه العَظِيمِ ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ ، وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » . قال : فإذا قال ذلك ، قال الشيطان : حفظ مني سائر اليوم (٧). وروى عن أبي أسيد قال : قال رسول الله ﷺ : «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ . وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ » (٨) وعنه ﷺ : «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٦/١) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٧٥٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥/٢ ، ٢٦) .
(٣) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٤٧٠) .
(٤) أخرجه البخاري في (الأذان) (٦٤٧) .
(٥) أخرجه البيهقي في سننه (٧٥/٣) والدارقطني في سننه (٤٢٠/١) .
(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٢٢٣) وأبو داود (٥٦١) وابن ماجه (٧٨١) .
(٧) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٦) وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٥٩/٢) .
(٨) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين) (٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٥/٥) .

وَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (١) . فهذا الذي ذكرناه مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك كله محاذرة الطول داخل في قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ وقوله : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أي : اسم الله وقوله تعالى : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ قال ابن عباس يعني : يتلى كتابه ، وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أي : في البكرات والعشيات . والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن هو الصلاة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني بالغدو صلاة الغداة ويعني : بالآصال صلاة العصر ، وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحب أن يذكرهما ، وإن يذكر بهما عباده . ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ يعني : الصلاة ومن قرأ من القراء ﴿ يسبَّح لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ بفتح الباء (٢) من ﴿ يسبَّح ﴾ على أنه مبني لما لم يسم فاعله وقف على قوله : ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ وقفًا تامًا وابتدأ بقوله : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . وكأنه مفسر للفاعل المحذوف .

وأما على قراءة من قرأ : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بكسر الباء فجعله فعلًا ، وفاعله ﴿ رِجَالٌ ﴾ فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل لأنه تمام الكلام فقوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ونياتهم ، وعزائمهم العالية التي بها صاروا عمارًا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه . وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا ، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا » (٣) .

وعنه ﷺ قال : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن » (٤) هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحدًا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب . كما ثبت في الصحيح عن عبد الله ابن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ » (٥) . وفي رواية : « وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ » (٦) . وفي رواية « وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ » (٧) . وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسَّ طِيبًا » (٨) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس (٩) ، وعنها أيضًا أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من

(١) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين) (٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٥/٥) .
(٢) قرأ ابن عامر وأبو بكر (يُسبح) بفتح الباء والباقون بكسرها (انظر : تقريب النشر ص : ١٤٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٧/٦) .
(٤) أخرجه البخاري في (الجمعة) (٩٠٠) ومسلم في (الصلاة) (١٣٦) وأبو داود في سننه (٥٦٥ ، ٥٦٦) .
(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٥٧٠) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٦/٢) وأبو داود في سننه (٥٦٦) .
(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٨/٢) وأبو داود في سننه (٥٦٥) .
(٨) أخرجه مسلم في (الصلاة) (١٤٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٦٨٠) .
(٩) أخرجه البخاري في (مواقيت الصلاة) (٢٧) ومسلم في (المساجد) (٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢) .

المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل (١) .

وقوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها ، وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ أي : يقدمون طاعته ومراده ومحبته . وعن ابن مسعود أنه رأى قومًا من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة . فقال عبد الله بن مسعود : هؤلاء من الذين ذكر في كتابه : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية . وقال الضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها . وقال مطر الوراق : كانوا يبيعون ويشترون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة . وقال ابن عباس : ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : عن الصلاة المكتوبة . وقال السدي : عن الصلاة في جماعة . وقال مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها ، وقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ أي : يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار أي : من شدة الفزع وعظمة الأهوال. كقوله : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ وقوله تعالى هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أي : هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله : ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي : يتقبل منهم الحسن ، ويضاعفه لهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ الآية ، وقال ها هنا : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحدًا واحدًا فكلهم لم يشربه لأنه كان صائمًا ، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطرًا ثم تلا قوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ . عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ قال : أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا (٢) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ .

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار ، فأما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا في نفس الأمر على شيء ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه : بحر طام ،

(١) أخرجه البخاري في (الأذان) (٨٦٩) ومسلم في (الصلاة) (١٤٤) وأبو داود في سننه (٥٦٩) .
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣/٦) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٨/٤) .

والقيعة جمع قاع كجار وجيرة ، والقاع أيضًا واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران ، وهي : الأرض المستوية المتسعة ، وفيه يكون السراب . وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار . وأما الآل : فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض . فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، يحسبه ماء قصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملًا وأنه قد حصَّل شيئًا ، فإذا وافى اللَّه يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئًا بالكلية قد قبل ، إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع . كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ . وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ . وفي الحديث أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن اللَّه . فيقال : كذبتم ما اتخذ اللَّه من ولد ماذا تبغون ؟ فيقولون : يا رب عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرب يحطم بعضها بعضًا ، فينطلقون فيتهافتون فيها (١) . وهذا المثال لذوي الجهل المركب . فأما أصحاب الجهل البسيط وهم : الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ قال قتادة : ﴿ لُّجِّىٍّ ﴾ هو : العميق . ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ ﴾ أي : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام مثل القلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ، ولا يدري أين يذهب . بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال : معهم ، قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ ﴾ الآية . يعني : بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ، كقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ الآية . وقال أبي ابن كعب في قوله تعالى : ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فهو يتقلب في خمسة من الظلم ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ أي : من لم يهده اللَّه فهو هالك جاهل حائل بائر كافر . كقوله : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السماوات والأرض أي : من الملائكة والأناسي ، والجان والحيوان ، حتى الجماد . كما قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ ﴾ أي : في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها ، وأرشدها إليه وهو يعلم ما هي فاعلة . ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ ﴾ أي : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة اللَّه عز وجل . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء .

---

(١) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٥٨١) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ . ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ولا معقب لحكمه . ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ أي : يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء . ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ الآية . هو الخالق المالك ألا له الحكم في الدنيا والأخرى ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ .

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو : الإزجاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ﴾ أي : يجمعه بعد تفرقه . ﴿ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾ أي : متراكمًا أي : يركب بعضه بعضًا . ﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ ﴾ أي : المطر ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾ أي من خلله . قال عبيد بن عمير بن الليثي : يبعث اللَّه المثيرة فتقم الأرض قمًّا ، ثم يبعث اللَّه الناشئة فتنشئ السحاب ، ثم يبعث اللَّه المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث اللَّه اللواقح فتلقح السحاب . وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ ﴾ قال بعض النحاة ﴿ مِنَ ﴾ الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة لبيان الجنس ، وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله : ﴿ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ ﴾ معناه أن في السماء جبال برد ينزل اللَّه منها البرد ، وأما من جعل الجبال هاهنا كناية عن السحاب ، فإن من الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضًا ، لكنها بدل من الأولى ، واللَّه أعلم . وقوله تعالى : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أي : بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد فيكون قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ رحمة لهم ﴿ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ أي : يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أي : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم ، وإتلاف زروعهم وأشجارهم ، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . وقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته . وقوله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي : يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيرًا ، ويقصر الذي كان طويلًا ، واللَّه هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ أي : لدليلًا على عظمته تعالى . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ . وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ .

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها من ماء واحد . ﴿ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ ﴾ كالإنسان والطير . ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ ﴾ كالإنعام وسائر الحيوانات .

ولهذا قال : ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي : بقدرته لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحِكَم والحِكَم والأمثال البينة المحكمة كثيرًا جدًّا ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى . ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يقولون قولًا بألسنتهم ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية . أي : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل اللَّه على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه . وعن سمرة مرفوعًا : « مَنْ دُعِيَ إِلَى سُلْطَانٍ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ » . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي : وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين . وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ، ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله . ثم فإذعانه أولًا لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ الآية . يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور اللَّه ورسوله عليهم في الحكم . وأيًّا ما كان فهو كفر محض ، واللَّه عليم بكل منهم ، وما هو منطو عليه من هذه الصفات . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي : بل هم الظالمون الفاجرون . واللَّه ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى اللَّه ورسوله عن ذلك .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين للَّه ولرسوله الذين لا يبغون دينًا سوى كتاب اللَّه وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي : سمعًا وطاعةً . ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال تعالى : ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ . وقال قتادة في هذه الآية : ﴿ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ . ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقبيًّا بدريًّا أحد نقباء الأنصار ، أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة في

عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وأن لا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحًا فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله . وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا في جماعة والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة . قال : وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين .

وقوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ، ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل . وقوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن . قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ﴾ أي لا تحلفوا ، وقوله : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ قيل : معناه طاعتكم طاعة معروفة أي : قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه ، وكلما حلفتم كذبتم . فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ .

وقيل : المعنى في قوله : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي : ليكن أمركم طاعة معروفة أي : بالمعروف من غير حلف ، ولا أقسام كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف فكونوا أنتم مثلهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي ، فالحلف وإظهار الطاعة ، والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق ، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى لا يروج عليه شيء من التدليس بل هو بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله . وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي : تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به . ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي : بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ وذلك : لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ

بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي : أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد . وليبدلنهم من خوفهم من الناس أمنًا وحكمًا فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة : فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، وأرض اليمن بكمالها . وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر ، وإسكندرية وهو المقوقس . وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأكرمه . ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلمّ شعث ما وهي بعد موته ﷺ وأخذ جزيرة العرب ومهدها ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرفًا منها وقتلوا خلقًا من أهلها . وجيشًا آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ، ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله عز وجل ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق ، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس . وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام ، وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة . ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص . وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدًا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن . ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١)

فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا .

روي عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا » . ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني ، فسألت أبي ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : قال : « كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ » (٢) . وفي رواية : أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك .

---

(١) أخرجه مسلم في (الفتن) (١٩) وأبو داود في السنن (٤٢٥٢) والترمذي في سننه (٢١٧٦) .

(٢) أخرجه مسلم في (الإمارة) (٦) .

وذكر معه أحاديث أخر ، وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلًا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر ، فإن كثيرًا من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء . فأما هؤلاء : فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون ، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم في الأمة متتابعًا ومتفرقًا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء ، وهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ﷺ ، ثم كانت بعدهم فترة ، ثم وجد منهم من شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى ، ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا .

وعن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال : « الخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَضُوضًا » (١) .

وقال أبو العالية في قوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ الآية . قال : كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحوًا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سرًّا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح . فصبروا على ذلك ما شاء الله . ثم إن رجلًا من الصحابة قال : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لَنْ تَصْبِرُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي المَلَإِ العَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ » . وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، فأدخل عليهم الخوف ، فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغير بهم (٢) . وقال بعض السلف : خلافة أبي بكر وعمر ﷺ حق في كتاب الله ، ثم تلا هذه الآية ، وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ . كما قال تعالى عن موسى ﷺ أنه قال لقومه : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ الآية . كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه : « أَتَعْرِفُ الحِيرَةَ ؟ » قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها قال : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّه هَذَا الأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الحِيرَةِ ، حَتَّى تَطُوفَ بِالبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نَعَمْ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَيُبْذَلَنَّ المَالُ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ » قال عدي بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها (٣) . وعن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَا وَالرِّفْعَةِ ، وَالدِّينِ وَالنَّصرِ ، وَالتَّمْكِينِ فِي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٢٠) . (٢) أورده النيسابوري بنحوه في أسباب النزول ص ١٨٣ .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٥٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨) وأورده الهندي في كنز العمال (٤/٧٩) .

الأرض ، فَمَن عَمِلَ مِنهُم عَمَلَ الآخِرَةِ للدُّنيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ » [١] . وقوله تعالى : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . وعن معاذ بن جبل قال : بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل قال : « يَا مُعَاذُ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : « هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » . قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : « يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : « فَهَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فَإِنَّ حَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ » [٢] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي : فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه ، وكفى بذلك ذنبًا عظيمًا . فالصحابة ﷺ لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم . أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييدًا عظيمًا ، وحكموا في سائر العباد والبلاد . ولما قصَّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم . ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ - وفي رواية - حتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ - وفي رواية - حتَّى يقاتلوا الدَّجَّال - وفي رواية - حتى يَنْزِلَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ وَهُمْ ظَاهِرُونَ » [٣] . وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بإقامة الصلاة وهي : عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة وهي : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أي : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وترك ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمهم . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ أي : لا تظن يا محمد أن ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : خالفوك وكذبوك ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٠/١٠) وأورده الهندي في كنز العمال (٢٢٠/١٠) .
(٢) أخرجه البخاري في (اللباس) (٥٩٦٧) ومسلم في (الإيمان) (٥٠) وأحمد في مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤) .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (المناقب) (٣٦٤١) ومسلم في (الإيمان) (٢٤٧) وأحمد في مسنده (٩٣/٤) .

ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾
وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم ، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال : الأول : من قبل صلاة الغداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا في فرشهم . ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ أي : في وقت القيلولة لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله . ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال ، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال . ولهذا قال : ﴿ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي : إذا دخلوا في غير حال غير هذه الأحوال ، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم ، ولا عليهم إن رأوا شيئًا في غير تلك الأحوال ، لأنه قد أذن لهم في الهجوم ولأنهم طوّافون عليكم أي : في الخدمة وغير ذلك . ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم . ولهذا روي أن النبي ﷺ قال في الهرة : « إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجِسَةٍ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ - أو الطَّوَّافَاتِ - » [(١)] ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء ، وكان عمل الناس بها قليلًا جدًّا أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس . كما قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات ، فلم يعملوا بهن : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية . والآية التي في سورة النساء : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآية . والآية التي في الحجرات : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ . وعن ابن عباس أيضًا قال : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإني لآمر جارتي هذه تستأذن علي [(٢)] . وعن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي . ﴿ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ قال : لم تنسخ قلت : فإن الناس لا يعملون بها فقال : الله المستعان .

وقال السدي : كان أناس من الصحابة ﷺ يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ، ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة . فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا والله أعلم أن رجلًا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا للنبي ﷺ طعامًا ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن . فقالت أسماء : يا رسول الله ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها - وهما في ثوب واحد - غلامهما بغير إذن فأنزل الله في ذلك : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ إلى آخرها . ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٥) وأبو داود في سننه (٧٥ ، ٧٦) والترمذي في سننه (٦٩) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٩١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٦/٥) .

في العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعني بالنسبة إلى أجانبهم ، وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث . قال ابن أبي كثير : إذا كان الغلام رباعيًا ، فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وقال في قوله : ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه . وقوله : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ قال سعيد بن جبير : هن : اللواتي انقطع عنهن الحيض ، ويئسن من الولد ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي : لم يبق لهن تشوق إلى التزوج ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أي ليس عليها من الحجر في التستر كما على غيرها من النساء . قال ابن عباس : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الآية . فنسخ واستثني من ذلك القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا الآية [1] . قال ابن مسعود في قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ : الجلباب أو الرداء . وقال أبو صالح : تضع الجلباب ، وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار . وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبد الله بن مسعود (أن يضعن من ثيابهن) وهو الجلباب من فوق الخمار ، فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق . وقال سعيد بن جبير في الآية : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة . وقوله : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أي وترك وضعهن لثيابهن ، وإن كان جائزًا خير وأفضل لهن والله سميع عليم .

﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رفع لأجله الحرج عن الأعمى ، والأعرج والمريض . ها هنا ، فقال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يقال : إنها نزلت في الجهاد ، وجعلوا هذه الآية ها هنا كالتي في سورة الفتح ، وتلك في الجهاد لا محالة أي : أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم . وكما قال تعالى في سورة براءة : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ﴾ وقيل : المراد ها هنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك ، ولا مع الأعرج ، لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره ، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك ، وقال الضحاك : كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرًا وتعززًا ، ولئلا يتفضلوا

(١) أخرجه أبو داود في السنن(٤١١١)

عليهم ، فأنزل الله هذه الآية . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ الآية . كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتحرجون من ذلك . يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم . وقال السدي : كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم ، فقال الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ ، وليساوي به ما بعده في الحكم ، وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء في الحديث : « أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ » [1] .

وقوله : ﴿ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ هذا ظاهر ، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض . وأما قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ فقال السدي : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم . ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء فأنزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أي : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ، ولا يكرهون ذلك . وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه . وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية : وذلك لما أنزل الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ . قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكف الناس عن ذلك فأنزل الله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ . وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم في ذلك فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ . وقال قتادة : كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية ، حتى إن الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل . وعن وحشي بن حرب أن رجلًا قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال : « لَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ » [2] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٩/٢) وأبو داود في السنن (٣٥٣٠) وابن ماجه في السنن (٢٢٩١ ، ٢٢٩٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) وابن ماجه في السنن (٣٢٨٦) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ . قال سعيد بن جبير وغيره : يعني : فليسلم بعضكم على بعض . وقال جابر بن عبد الله : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال ابن جريج : قلت لعطاء : أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال : لا ، ولا أوثر وجوبه عن أحد ولكن هو أحب إلي وما أدعه إلا ناسيًا . وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين . وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنه كان يؤمر بذلك . وحدثنا أن الملائكة ترد عليه . وعن أنس قال : أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال : « يَا أنسُ أَسبغ الوُضوءَ يزدْ في عُمْرِكَ ، وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ لَقِيَكَ من أُمَّتِي تَكثُرْ حَسَنَاتُكَ ، وَإِذَا دَخَلْتَ - يَعْنِي بَيْتَكَ - فَسَلِّمْ عَلَى أَهْلِكَ يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ ، وَصَلِّ صَلَاةَ الضُّحَى فَإِنَّهَا صَلَاةُ الأَوَّابِينَ قَبْلَكَ ، يَا أَنَسُ ارْحَم الصَّغِيرَ ، وَوَقِّرِ الكَبِيرَ تَكُنْ مِنْ رُفَقَائِي يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) . وقوله : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ . قال ابن عباس : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله ، سمعت الله يقول : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ فالتشهد في الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثم يدعوا لنفسه ويسلم (٢) . والذي ورد عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ يخالف هذا والله أعلم . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة ، والشرائع المتقنة المبرمة نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بيانًا شافيًا ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وهذا أيضًا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة ، أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك . أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه - والحالة هذه - إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك ، فإنه من المؤمنين الكاملين ، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء . ولهذا قال : ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ﴾ الآية . وقد قال رسول الله ﷺ : « إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى المجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلَيْسَتِ الأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ » (٣)

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٣٥٧١) . (٢) مسلم في (الصلاة) (٦٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٠) وأبو داود في السنن (٥٢٠٨) والترمذي في السنن (٢٧٠٦) .

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد يا أبا القاسم . فنهاهم الله ﷻ عن ذلك إعظامًا لنبيه ﷺ قال : فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله . وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يبجل ، وأن يعظم وأن يسود ، وقال مقاتل في قوله : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ . يقول : لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ، ولا تقولوا : يا ابن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا : يا نبي الله يا رسول الله ، وقال ابن أسلم : أمرهم الله أن يشرفوه ، هذا قول ، وهو الظاهر من السياق . والقول الثاني في ذلك : أن المعنى : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا .

وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعني بالحديث الخطبة - فليوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ ، حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب بطلت جمعته . وقال السدي : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم . وقال قتادة في قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ يعني : لواذًا عن نبي الله وعن كتابه . وقال سفيان : من الصف ، وقال مجاهد : ﴿ لِوَاذًا ﴾ : خلافًا وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي : عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه ، وطريقته وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان . كما ثبت في الصحيحين : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »[(١)] أي : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا وظاهرًا . ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي : في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ ، وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللائِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يقعن فيها ، وَجَعَلَ يَحْجزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قال - فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عنِ النَّارِ ، فَتَغْلِبُونِي وَتقتحمون فِيهَا »[(٢)] .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم . فقال : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، وقد للتحقيق كما قال قبلها :

---

(١) أخرجه البخاري في (البيوع) (٢١٤٤) والإمام مسلم في الأقضية (١٨) وأحمد في مسنده (٦/١٤٦ ، ١٨٠ ، ٢٥٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (١٩) وأحمد في مسنده (٣/٣٩٢) .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ . وقال : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ الآية . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد كقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة . فقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي هو : عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة . كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي : ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي : يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام .

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ .

يقول تعالى حامدًا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم . ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة . ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نزّل فعل من التكرر والتكثر وسماه هاهنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام . وقوله : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء . فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه فقال : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ . وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أي : إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ الذي : جعله فرقانًا عظيمًا ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ﷺ : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ »[1] . وقال : « إني أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » فذكر منهن كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية . أي : الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهو الذي يحيي ويميت . وهكذا قال ها هنا : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ . ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك . ثم أخبر أنه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ أي : كل شيء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شيء ، وربه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء المالك لأزمة الأمور ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أي : ليس لهم من ذلك شيء ، بل ذلك كله مرجعه إلى الله ﷻ الذي هو يحيي ويميت ، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم . ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ . فهو الله الذي لا إله غيره ، ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة إلا له ؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذي لا والد ، ولا عديل ولا

---

(١) أخرجه مسلم في (المساجد) (٣) والإمام أحمد في مسنده (١١٦/٤) .

بديل ، ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ﴾ أي : كذب ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أي : واستعان على جمعه بقوم آخرين . فقال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أي : فقد افتروا هم قولًا باطلًا ، وهم يعلمون أنه باطل ، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه . ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها . ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي : تقرأ عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي : في أول النهار وآخره ، وهذا الكلام لسخافته وكذبه ، وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه . فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمدًا رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ونزاهته ، وبره وأمانته ، وبعده عن سائر الأخلاق الرذيلة ، حتى أنهم كانوا يسمونه في صغره ، وإلى أن بعث الأمين . لما يعلمون من صدقه وبره فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، فتارة : من إفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون ، وتارة يقولون : كذاب ، وقال الله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ وقال تعالى : في جواب ما عاندوا ها هنا وافتروا ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية . أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين ، إخبارًا حقًا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج ماضيًا ومستقبلًا . ﴿ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ أي : الله الذي يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم مع أن من تاب إليه تاب عليه ؛ فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم ، وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه ، إلى الإسلام والهدى كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم . إلى التوبة والرحمة .

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم ، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ يعنون : كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه. ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ أي : يتردد فيها ، وإليها طلبًا للتكسب والتجارة . ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ يقولون : هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهدًا على صدق ما يدعيه . وهذا كما قال فرعون : ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ . وكذلك قال هؤلاء على السواء ، تشابهت قلوبهم . ولهذا قالوا : ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ أي : علم كنز ينفق منه . ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أي : تسير معه حيث سار . وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن له الحكمة في ترك ذلك ، وله الحجة البالغة . ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ ﴾ أي : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر ، وكلها أقوال باطلة . كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك . ولهذا قال : ﴿ فَضَلُّوا۟ ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى ، فإنه ضال حيثما توجه ، لأن الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضًا .

ثم قال تعالى مخبرًا نبيه : أنه إن شاء لآتاه خيرًا مما يقولون في الدنيا ، وأفضل وأحسن . فقال : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الآية . قال مجاهد يعني : في الدنيا . قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرًا ، كبيرًا كان أو صغيرًا . قال خيثمة : قيل للنبي ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لا نعطه نبيًّا قبلك ، ولا نعطي أحدًا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال : « اجْمَعُوها لِي فِي الآخِرَةِ » . فأنزل الله ﷻ في ذلك : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ﴾ أي : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبًا وعنادًا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال . ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أي أرصدنا : ﴿ لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ عذابًا أليمًا حارًا لا يطاق في نار جهنم . قال سعيد بن جبير ﴿ سَعِيرًا ﴾ واد من قيح جهنم . وقوله : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أي جهنم . ﴿ مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ يعني : في مقام المحشر . قال السدي : من مسيرة مائة عام ﴿ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي : حنقًا عليهم كما قال تعالى : ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أي : يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله . وفي الحديث « مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ أَو ادَّعَى إِلَى غَيْرِ وَالِدَيْهِ ، أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ - وفي رواية - فَلْيَتَبَوَّأْ بَيْنَ عَيْنَيْ جَهَنَّمَ مَقْعَدًا » . قيل : يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : « أَمَا سَمِعْتُمُ اللهَ يَقُولُ : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ الآية (١) . وعن أبي وائل قال : خرجنا مع عبد الله - يعني ابن مسعود - ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار ، وينظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل الربيع ليسقط ، فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٦٤) .

سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فصعق - يعني الربيع - وحملوه إلى أهل بيته ، فرابطه عبد الله إلى الظهر ، فلم يفق ﷺ . قال ابن عباس : إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول : لها الرحمن مالك ؟ قالت : إنه يستجير مني فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يا رب ما كان هذا الظن بك ، فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك ، فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار ، فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وقوله : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال عبد الله بن عمرو قال : مثل الزج في الرمح أي : من ضيقه . روي عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! إِنَّهُمْ لَيُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الوَتِدُ فِي الحَائِطِ » (١) . وقوله : ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ قال أبو صالح : يعني مكتفين . ﴿ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أي : بالويل والحسرة والخيبة . ﴿ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا ﴾ الآية . عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى حُلَّةً مِنَ النَّارِ إِبْلِيسُ ، فَيَضَعُهَا عَلَى حَاجِبَيْهِ وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ يُنَادِي : يَا ثُبُورَاهُ ، وَيُنَادُونَ : يَا ثُبُورَهُمْ ، حَتَّى يَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَيَقُولُ : يَا ثُبُورَاهُ . وَيَقُولُونَ : يَا ثُبُورَهُمْ . فَيُقَالُ لَهُمْ : لَا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا . وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » (٢) . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا ﴾ الآية : أي : لا تدعوا اليوم ويلًا واحدًا وادعوا ويلًا كثيرًا . وقال الضحاك : الثبور : الهلاك ، والأظهر : أن الثبور يجمع الهلاك ، والويل والخسار والدمار . كما قال موسى لفرعون : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ أي : هالكًا .

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء ، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده ؟ التي أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء ومصيرًا على ما أطاعوه في الدنيا ، وجعل مآلهم إليها . ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ من الملاذ ، من مآكل ومشارب وملابس ، ومساكن ومراكب ، ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب أحد . وهم في ذلك خالدون أبدًا دائمًا سرمدًا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، ولا يبغون عنها حولًا . وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم ، ولهذا قال : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ أي : لا بد أن يقع وأن يكون . كما حكاه علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ أي : وعدًا واجبًا . وقال ابن عباس : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ يقول : فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه . وقال محمد بن كعب القرظي : إن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾ .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله : ﴿ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ .

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٦٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/١٥٢) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون اللّٰه من الملائكة وغيرهم فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ . قال مجاهد : هو عيسى ، والعزير والملائكة ﴿ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الآية . أي فيقول تبارك وتعالى للمعبودين : أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم ؟ ولهذا قال تعالى : مخبرًا عما يجيب به المعبودون يوم القيامة ﴿ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ قرأ الأكثرون بفتح النون من قوله : ﴿ نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدًا سواك ، لا نحن ولا هم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم ، من غير أمرنا ولا رضانا ، ونحن براء منهم ، ومن عبادتهم . وقرأ آخرون ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نُّتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (١) أي : ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فإنا عبيد لك فقراء إليك . وهي قريبة المعنى من الأولى ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ أي : طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر أي : نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ﴿ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴾ . قال ابن عباس أي : هلكى ، وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري أي : لا خير فيهم .

قال اللّٰه تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي : فقد كذبكم الذين عبدتم من دون اللّٰه فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنهم يقربونكم إلى اللّٰه زلفى . وقوله : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ أي : لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ، ولا الانتصار لأنفسهم . ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ أي : يشرك باللّٰه ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين ، إنهم يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذي له ، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ؛ فإن اللّٰه تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة الظاهرة ، ما يستدل به كل ذي لب سليم ، وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من اللّٰه ، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أي : اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي ولهذا قال : ﴿ أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أي : بمن يستحق أن يوحى إليه . ومن يستحق أن يهديه اللّٰه لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك . وقال محمد بن إسحاق في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ قال :

(١) قرأ أبو جعفر (أن نُتَّخَذَ) بضم النون وفتح الخاء والباقون بفتح النون وكسر الخاء (انظر : تقريب النشر ص ١٥١).

يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت . ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم . وفي صحيح مسلم عن رسول الله : « يَقُولُ اللَّهُ إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلٍ بِكَ » (١) . وفي المسند عن رسول الله ﷺ : « لَوْ شِئْتُ لأَجْرَى اللَّهُ مَعِي جِبَالَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ » (٢) . وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبيًّا ملكًا ، أو عبدًا رسولًا ، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا (٣) .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تعنت الكفار في كفرهم ، وعنادهم في قولهم : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي : بالرسالة ، كما تنزل على الأنبياء . كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ ويحتمل أن يكون مرادهم ها هنا ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فنراهم عيانًا ، فيخبرونا أن محمدًا رسول الله كقولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ . ولهذا قالوا : ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ ﴾ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي : هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث ، اخرجي إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، فتأبي الخروج ، وتتفرق في البدن فيضربونه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ الآية . ولهذا قال في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ . وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ .

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب ، إن كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان (٤) . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ ﴾ يعني يوم القيامة . ولا منافاة بين هذا وما تقدم ، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه في (الجنة وصفة نعيمها) (٦٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١/٦٣ بنحوه . (٣) أخرجه أحمد في مسنده ٢/٣٢١ .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٦/١٤٠ ، والنسائي في السنن (جنائز ٩) .

﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي : وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال : حجر القاضي على فلان ، إذا منعه التصرف إما لفلس أو سفه ، أو صغر أو نحو ذلك . ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، ومنه يقال : للعقل حجر ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق . والغرض أن الضمير في قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عائد على الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ الآية ، هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر ، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء ، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصًا ، وعلى الشريعة المرضية فهو باطل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ . قال مجاهد والثوري : ﴿ وَقَدِمْنَآ ﴾ أي عمدنا ، وعن علي ﷺ في قوله : ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ قال : شعاع الشمس إذا دخل الكوة ، وعن ابن عباس : قال : هو الماء المهراق ، وفي رواية عن علي ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ . قال : الهباء وهج الدواب ، وقال قتادة : أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق . وعن عبيد بن يعلى قال : وإن الهباء الرماد إذا ذرته الريح ، وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية . وذلك أنهم عملوا أعمالًا اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدًا ؛ إذ إنها لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية . كما قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أي : بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار ؛ فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة من النار . فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية . فقال تعالى : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ قال ابن عباس : إنما هي ساعة ، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين . وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار . وقال عكرمة : إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة ، فكانت قيلولتهم في الجنة ، وأطعموا كبد حوت فأشبعهم كلهم . وذلك قوله : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . وقال عبد الله بن مسعود قال : لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء . ثم قرأ : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ وقال ابن عباس في قوله : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . قال : قالوا في الغرف من الجنة ،

وكان حسابهم إذ عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وقال قتادة : ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مأوى ومنزلًا .

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ .

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء وتفطرها ، وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار . ونزول ملائكة السماوات يومئذٍ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

وقوله تعالى : ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية . كما قال تعالى : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ . وفي الصحيح : أن الله تعالى يطوي السماوات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك أنا الديان أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟(١)

وقوله : ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي : شديدًا صعبًا لأنه يوم عدل وقضاء فصل . كما قال تعالى : ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ فهذا حال الكافرين في هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ الآية . وعن أبي سعيد الخدري قال : قيل : يا رسول الله ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا »(٢)

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الآية . يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ ، وما جاء به عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه ، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ حسرة وأسفًا . وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ؛ فإنها عامة في كل ظالم . فكل ظالم يندم يوم غاية الندم . ويعض على يديه قائلًا : ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني : من صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة . وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ وهو : القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي : بعد بلوغه إليّ قال الله تعالى : ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه .

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال : ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ، ولا يستمعونه . كما قال تعالى : ﴿وَقَالَ

---

(١) أخرجه مسلم في (المنافقين) (٢٤) وأحمد في مسنده (٧٢/٣) وأبو داود في السنن (٤٧٣٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ الآية . فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه . فهذا من هجرانه وترك الإيمان به ، وترك تصديقه من هجرانه . وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتثال أوامره ، واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو او كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان في الأمم الماضين ؛ لأن الله جعل لكل نبي عدوًا من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم . ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أي : لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه ، وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة . وإنما قال : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدي أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن فلهذا قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الآية .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

يقول تعالى عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم ، وكلامهم فيما لا يعنيهم ، حيث قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ أي : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة . كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به . كقوله : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ الآية . ولهذا قال : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ . قال قتادة : بيناه تبيينًا . وقال ابن زيد : وفسرناه تفسيرًا ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي : بحجة وشبهة ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أي : ولا يقولون قولًا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر ، وأبين وأوضح ، وأفصح من مقالتهم . قال ابن عباس : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي : يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية . أي إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحًا ومساء ، وليلًا ونهارًا ، سفرًا وحضرًا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء ، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله تعالى ، وقد جمع الله القرآن الصفتين معًا ، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك الأرض منجمًا بحسب الوقائع والحوادث . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخبرًا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات : ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . وفي الصحيح أن رجلًا قال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إنَّ

الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ »(١) .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا من كذب رسوله محمدًا ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه ، ومحذرهم من عقابه ، وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى ، وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرًا أي نبيًّا مؤازرًا ، ومؤيدًا وناصرًا ، فكذبهما فرعون وجنوده . فـ ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ . وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحًا ﷺ ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن اللَّه تعالى بعث إليهم كل رسول ، فإنهم كانوا يكذبون . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ ﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى اللَّه ﷻ ، ويحذرهم نقمه ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ولهذا أغرقهم اللَّه جميعًا ، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ أي : عبرة يعتبرون بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ قد تقدم على قصتيهما في غير ما سورة ، كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة . وأما أصحاب الرس فقال ابن عباس : هم أهل قرية من قرى ثمود . وقال عكرمة : أصحاب الرس بفلج ، وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة . وقال عكرمة : الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها . واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ أي : وأممًا أضعاف من ذكر أهلكناهم كثيرة . ولهذا قال : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ أي : بينا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة ، كما قال قتادة : وأزحنا الأعذار عنهم ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ أي : أهلكنا إهلاكًا . كقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ والقرن هو الأئمة من الناس كقوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة ، وقيل : بمائة ، وقيل : بثمانين ، وقيل : أربعين ، وقيل غير ذلك ، والأظهر أن القرن : هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر . كما ثبت في الصحيحين : «خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ »(٢) . ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ يعني قرية قوم لوط وهي : سدوم التي أهلكها اللَّه بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل . وقوله ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ﴾ أي : فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب ، والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ، وبمخالفتهم أوامر اللَّه . ﴿ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ يعني : المارّين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورًا ؛ أي معادًا يوم القيامة .

---

(١) أخرجه البخاري في (الرقاق) (٦٥٢٣) ومسلم في (المنافقين) (٥٤) وأحمد في مسنده (٣/٢٩٩) .
(٢) أخرجه البخاري في (فضائل أصحاب النبي) (٣٦٥٠) ومسلم في (فضائل الصحابة) (٢١٠ - ٢١٤) .

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه . كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية . يعنونه بالعيب والنقص . وقال ها هنا : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ أي : على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله . وقوله تعالى : ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام ، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها . قال الله تعالى متوعدًا لهم ومتهددًا : ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الآية . ثم قال تعالى لنبيه منبهًا أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال ؛ فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﷻ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي : مهما استحسن من شيء ورآه حسنًا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه . ولهذا قال هاهنا : ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانًا ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول . ثم قال تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الآية . أي : هم أسوأ حالًا من الأنعام السارحة ، فإن تلك تفعل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا ، وهم يعبدون غيره ، ويشركون به مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ .

من ها هنا ﷻ في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة . فقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ . قال ابن عباس وابن عمر : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي : دائمًا لا يزول . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي : لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف ؛ فإن الضد لا يعرف إلا بضده . وقال قتادة : دليلًا تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي : الظل . وقيل : الشمس . ﴿يَسِيرًا﴾ أي : سهلًا . قال ابن عباس : سريعًا . وقال مجاهد : خفيًا . وقال السدي : قبضًا خفيًا حتى لا يبقي في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه . وقال أيوب بن موسى في الآية : ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قليلًا . وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي : يلبس الوجود ويغشاه . كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي : قاطعًا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معًا . ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي : ينتشر الناس فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم وأسبابهم .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ .

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات أي : بمجيء السحاب بعدها ، والرياح أنواع فمنها : ما يثير السحاب ، ومنها : ما يحمله ، ومنها : ما يسوقه ، ومنها : ما يكون بين يدي السحاب مبشرًا ، ومنها : ما يكون قبل ذلك تقم الأرض ، ومنها : ما يلقح السحاب ليمطر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ أي : آلة يتطهر بها كالسحور والوجور وما جرى مجراهما . فهذا أصح ما يقال في ذلك . وعن خالد بن يزيد قال : كنا عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر ، فيذبه الرعد والبرق . فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات ، فأما النبات فمما كان من السماء . وروي عن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة .

وقوله تعالى : ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي : أرضًا قد طال انتظارها للغيث ، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الحياة عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ أي : وليشرب منه الحيوان من أنعام ، وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم، وزرعهم وثمارهم . كما قال تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ أي : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب يمر على الأرض ، ويتعداها ويتجاوزها إلى الأخرى ، فيمطرها ويكفيها ، ويجعله غدقًا ، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة ، والحكمة القاطعة . قال ابن عباس : ليس عام بأكثر مطرًا من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء . ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي : ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات . أو ليذكر من منع المطر ، إنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ قال عكرمة : يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، وفي الحديث أنه ﷺ قال لأصحابه يومًا على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ فَذَاكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنوءِ كَذَا وَكَذَا ؛ فَذَاكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ » (١) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ ، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن . ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وفي الصحيحين : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ » (٢) . وفيهما : « وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (١٢٥) .
(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (١/ ٢٥٠) .

قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عامَّةً »[١] ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ يعني بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ : أي : خلق الماءين الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر العذب الفرات الزلال . فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه ، لاحتياجهم إليه أنهارًا وعيونًا في كل أرض بحسب حاجتهم ، وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم . وقوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي : مالح مر زعاق لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب : البحر المحيط ، وبحرِ القلزم ، وبحر فارس ، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري ، ولكن تموج وتضطرب ، وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح . ومنها ما فيه مد وجزر ، ففي أول كل شهر يحصل منها مدٌّ وفيض ، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله ﷻ مالحة ، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوي الأرض بما يموت فيها من الحيوان ، ولما كان ماؤها ملحًا كان هواؤها صحيحًا وميتتها طيبة . ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر أنتوضأ به ؟ فقال : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الحلُّ مِيتَتُهُ »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي : بين العذب والمالح ﴿ بَرْزَخًا ﴾ أي : حاجزًا وهو اليبس من الأرض ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي : مانعًا من أن يصل أحدهما إلى الآخر . كقوله تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ الآية . أي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله ، وجعله كامل الخلقة ذكرًا وأنثى كما يشاء . ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ ﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهرًا ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا ، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء ، والتشهي والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ أي : عونًا في سبيل الشيطان على حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون . قال مجاهد : ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ قال : يظاهر الشيطان على معصية الله ويعنيه ، وقال سعيد بن جبير : عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك . وقال زيد بن أسلم : مواليًا ، ثم قال تعالى لرسوله صلوات

---

(١) أخرجه البخاري في (التيمم) (١) ومسلم في المساجد (٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٧) .

الله وسلامه عليه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين ، مبشرًا بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : على هذا البلاغ ، وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أي : طريقًا ومسلكًا ، ومنهجًا يقتدي فيها بما جئت به ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ أي : في أمورك كلها كن متوكلًا على الله الحي الذي لا يموت أبدًا الذي هو : ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي : اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ » . أي : أخلص له العبادة والتوكل . كما قال تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ أي : بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآية . أي هو خالق كل شيء ، الذي خلق بقدرته وسلطانه السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أي : يدبر الأمر ، ويقضي الحق وهو خير الفاصلين . وقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ أي : استعلم عنه من هو خبير به عالم به ، فاتبعه واقتد به . وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ . قال مجاهد : ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك . وقال شمر بن عطية : هذا القرآن خبير به .

ثم قال تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي لا نعرف الرحمن ، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن . كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب : « اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم (١) . ولهذا أنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي : هو الله ، وهو الرحمن . ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أي : لمجرد قولك ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ فأما المؤمنين فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ، ويفردونه بالإلهية ويسجدون له .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ .

يقول تعالى ممجدًا نفسه على جميل ما خلق في السماوات من البروج وهي الكواكب العظام ، وقيل : هي قصور في السماء للحرس . والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ وهي : الشمس المنيرة التي هي كالسراج في

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٣١) .

الوجود ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ أي : مشرقًا مضيئًا بنور آخر من غير نور الشمس . ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أي : يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذاك كما قال تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أي : جعلهما يتعاقبان توقيتًا لعبادة عباده له ﷻ ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل . وقد جاء في الحديث الصحيح : « إِنَّ اللَّه ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُط يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ »(١) . وقال ابن عباس في الآية : من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وقال مجاهد : ﴿ خِلْفَةً ﴾ أي : مختلفين ، أي هذا بسواده وهذا بضيائه .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ .

هذه صفات عباد اللَّه المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي : بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار . كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ الآية . وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعًا ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع ، حتى روي عن عمر أنه رأى شابًا يمشي رويدًا فقال : ما بالك أأنت مريض ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار ، كما قال رسول اللَّه : « إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَون ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ مِنْهَا فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أي : إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيرًا . كما كان رسول اللَّه ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا . وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ الآية . عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول اللَّه ﷺ وسب رجل رجلًا عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أما إن ملكًا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا . قال له : بل أنت ، وأنت أحق به . وإذا قلت له وعليك السلام : قال : لا بل عليك وأنت أحق به »(٣) . وقال مجاهد : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ يعني قالوا : سدادًا ، وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفًا من القول . وقال الحسن البصري : قالوا سلام عليكم إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد اللَّه نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل . فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ أي : في طاعته وعبادته . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ . أي : ملازمًا دائمًا .

ولهذا قال الحسن في قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه

---

(١) أخرجه مسلم في (التوبة) (٣١) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في (المساجد) (١٥١ - ١٥٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٥/٥) .

فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت الأرض والسماوات . وقال محمد بن كعب : يعني ما نعموا في الدنيا . إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي : بئس المنزل منظرًا ، وبئس المقيل مقامًا . عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إن عبدًا في جهنم لينادي ألف سنة يا حنان يا منان ، فيقول الله ﷻ لجبريل : اذهب فأتني بعبدي هذا ، فينطلق جبريل ، فيجد أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه ﷻ فيخبره ، فيقول الله ﷻ : ائتني به في مكان كذا ، فيجيء به فيوقفه على ربه ﷻ فيقول له : يا عبدي ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يا رب شر مكان ، وشر مقيل . فيقول الله ﷻ : ردوا عبدي . فيقول : يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها . فيقول الله ﷻ : دعوا عبدي »(١) وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ الآية . أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم ، بل عدلًا خيارًا وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ الآية . وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ قَصْدُهُ فِي مَعِيشَتِهِ »(٢) . وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف . وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف . وقال غيره : السرف النفقة في معصية الله ﷻ .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ .

عن عبد الله بن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ للَّه أَنْدَادًا وَهُوَ خَلَقَكَ » . قال : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » . قال : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » . قال عبد الله : وأنزل تصديق ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾(٣) الآية . وعن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « أَلَا إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعٌ » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ : « لَا تُشْرِكُوا بِاللَّه شَيْئًا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ ، وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَسْرِقُوا »(٤) . وعن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّه مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُل فِي رَحِمٍ لَا يحِلُّ له »(٥) . وقال ابن عباس يحدث أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدًا ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الآية . ونزلت : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال : أثامًا : واد في جهنم ، وقال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٣٠) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٩٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٨٠ ، ٤٣١) ورواه بنحوه مسلم في (الإيمان) (١٤١ ، ١٤٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٣٩) . (٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/١٨٠) .

عكرمة : أودية في جهنم يعذب فيها الزناة . وقال قتادة : نكالًا : كنا نحدث أنه في واد جهنم .

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بني ، إياك والزنى فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة . وقال السدي : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ جزاء ، وهذا أشبه بظاهر الآية ، وبهذا فسره بما بعده مبدلًا منه وهو قوله تعالى : ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي : يكرر عليه ويغلظ . ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ أي : حقيرًا ذليلًا . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ أي : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ أي : في الدنيا إلى الله ﷻ من جمع ذلك ، فإن الله يتوب عليه . وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل . ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية . فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل . وقوله تعالى : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ في معني قوله : ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ قولان **أحدهما** : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال ابن عباس في الآية : هم المؤمنين كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات فحولها إلى الحسنات . فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وقال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيرًا . وقال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات . وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح . وأبدلهم بالشرك إخلاصًا ، وأبدلهم بالفجور إحصانًا ، وبالكفر إسلامًا ، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين .

والقول الثاني : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر . فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة ، وإن وجده مكتوبًا عليه ؛ فإنه لا يضره ، وينقلب حسنة في صحيفته . كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف ؛ فعن أبي ذر ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ ، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا إِلَى الجَنَّةِ ، يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُولُ : نَحُّوا عَنْهُ كِبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلُوه عَنْ صِغَارِهَا قَالَ : فَيُقَالُ لَهُ : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا ، كَذَا وَكَذَا ، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا ، كَذَا وكَذَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ . لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا . فَيُقَالُ : فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حسنة . فَيَقُولُ : يَا رَبُّ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا » . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه (١) ، حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولًا يحدث قال : أنه جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله رجل غدر وفجر ، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة ؟ فقال النبي ﷺ : « أَأَسْلَمْتَ ؟ » قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله . فقال النبي ﷺ : « فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرٌ لَكَ مَا كُنْتَ كَذَلِكَ ، وَمُبَدِّل سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ » . فقال : يا رسول الله وغدراتي وفجراتي ؟ فقال :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/١) والترمذي في السنن (٢٥٩٥ ، ٢٥٩٦) .

« وَغَدْرَاتِكَ وَفَجرَاتِكَ » . فولى الرجل يكبر ويهلل (١) . ثم قال تعالى مخبرًا عن عموم رحمته بعباده ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلًا أو حقيرًا ، كبيرًا أو صغيرًا ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ . أي : فإن الله يقبل توبته . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ الآية . أي لمن تاب إليه .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .

وهذه أيضًا من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور ، قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق ، والكفر واللغو والباطل ، وقال محمد ابن الحنفية : هو اللغو والغناء . وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو أعياد المشركين . وقال عمر بن قيس : هي مجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهري : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه . كما جاء في الحديث : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يَجْلس عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الخَمْرُ » (٢) . وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ أي : شهادة الزور وهي : الكذب متعمدًا على غيره . كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟ » ثلاثًا . قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الشِّرْكُ بِاللَّه ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ » . وكان متكئًا فجلس فقال : « أَلَا وَقَولُ الزُّورِ ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت (٣) . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي : لا يحضرونه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ أي : لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ، ولم يتدنسوا منه بشيء . ولهذا قال : ﴿ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ . وهذه أيضًا من صفات المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ، ولا يتغير عما كان عليه ، بل يبقى مستمرًا على كفره ، وطغيانه وجهله وضلاله . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ . فقوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي : بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه ، فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى . قال مجاهد : قوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ قال : لم يسمعوا ، ولم يبصروا ، ولم يفقهوا شيئًا ، وقال الحسن البصري رحمه الله : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى . وقال قتادة : لم يصموا عن الحق ، ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن عون : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى القوم سجودًا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : يعني أنه لا يسجد معهم ؛ لأنه لم يتدبر أمر السجود ، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة

(١) أورده البيهقي في دلائل النبوة (٩٠/٦) والسيوطي في الدر (٨٠/٥) .
(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه (٢٨٠١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٨/١) وذكره الهندي في كنز العمال (٢٧٤٢٦) .
(٣) أخرجه البخاري مسلم في الإيمان (١٤٣) وأحمد في مسنده (١٣١/٣) .

من أمره ، ويقين واضح بيِّن وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعني : الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له . قال ابن عباس : يعنون من يعمل بطاعة الله ، فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة . قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالًا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . وسئل الحسن البصري عن هذه الآية ، فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله ، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدًا ، أو ولد ولد ، أو أخًا ، أو حميمًا مطيعًا لله ﷻ ، قال ابن جريج في قوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ : يعبدونك فيحسبون عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر . وقال ابن زيد : يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام . وقال جبير بن نفير : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله ﷺ ، لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت ، فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرًا . ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرًا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشر حال بعث عليها نبيًا من الأنبياء في فترة جاهلية ، ما يرون أن دينًا أفضل من عباده الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرًا ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه ، وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وأنها التي قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قال ابن عباس والحسن : أئمة يقتدى بنا في الخير . وقال غيرهم : هداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثوابًا ، وأحسن مآبًا ؛ ولهذا ثبت عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا مَاتَ ٱبْنُ آدَمَ ٱنْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، أَوْ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ »(١) .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ .

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي : المتصفون بهذه ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ يوم القيامة ﴿ ٱلْغُرْفَةَ ﴾ وهي الجنة . قال الضحاك والسدي : سميت بذلك لارتفاعها ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي : على القيام بذلك ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ أي : في الجنة . ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٢٤) .

صبرتم ، فنعم عقبى الدار ، وقوله تعالى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ أي : مقيمين لا يظعنون ، ولا يحولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ، ولا يبغون عنها حولًا . كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ أي : حسنت منظرًا ، وطابت مقيلًا ومنزلًا . ثم قال تعالى : ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي ﴾ أي : لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ، ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلًا . قال مجاهد : ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي ﴾ يقول : ما يفعل بكم ربي ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي ﴾ الآية يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ ﴾ أيها الكافرون ﴿ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾ أي : فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم يعني : مفضيًا لعذابكم وهلاككم ، ودماركم في الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك يوم بدر . وقال الحسن البصري : ﴿ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾ أي : يوم القيامة ، ولا منافاة بينهما .

سورة الشعراء

ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها سورة الجامعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي : هذه آيات القرآن المبين . أي : البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل ، والغي والرشاد . وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ ﴾ أي : مهلك . ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ أي : مما تحرص وتحزن عليهم . ﴿ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ . قال مجاهد والحسن : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أي : قاتل نفسك .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ أي : لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرًا ، ولكن لا نفعل ذلك لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ الآية . فنفذ قدره ، ومضت حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس . كما قال تعالى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ . ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه ، وجلال قدره ، وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض ، وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان . قال الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ أي : دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ، ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل خالفوا أمره وارتكبوا نهيه . وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي : الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال ابن إسحاق : العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره ، وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ

صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه . كما قال في سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أي : بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر . ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أي : قال الله لا تخف من شيء من ذلك كقوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا - أي برهانًا - فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ . ﴿ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ . كقوله : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أي : إنني معكما بحفظي وكلاءتي ، ونصري وتأييدي ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ . أي كل منا أرسل إليك ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي : أطلقهم من إسارك وقبضتك ، وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، فلما قال له موسى ذلك ، أعرض فرعون هنالك بالكلية ، ونظر إليه بعين الازدراء والغمض ، فقال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ الآية . أي أما أنت الذي ربيناه ، وفي بيتنا ، وعلى فراشنا ، وأنعمنا عليه مدة من السنين . ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلًا ، وجحدت نعمتنا عليك . ولهذا قال : ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي : الجاحدين . ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا ﴾ أي : في تلك الحال . ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي : قبل أن يوحى إلي ، وينعم علي بالرسالة والنبوة . قال ابن عباس ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي الجاهلين ، قال ابن جريج : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ الآية ، أي انفصل الحال الأول ، وجاء آخر فقد أرسلني الله إليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته عطبت . ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي : وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل ، فجعلتهم عبيدًا تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك ، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم . أي : ليس ما ذكرته شيئًا بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، وذلك لأنه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ . ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا ، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون . فلما قال له موسى : إني رسول

العالمين ، قال له فرعون : ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري ؟ قال السدي : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ . ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط ، فإنه لم يكن مقرًا بالصانع حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحدًا له بالكلية فيما يظهر . وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أي : خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له ، هو الذي خلق الأشياء كلها ؛ العالم العلوي ، وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات والنيرات ، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوانات ونبات ، وما يحتوي عليه الجو ، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي : إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة ، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلًا لهم على سبيل التهكم والاستهزاء ، والتكذيب لموسى فيما قاله ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أي : ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهًا غيري ؟ فقال لهم موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه ﴿ قَالَ ﴾ أي : فرعون لقومه ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي : ليس له عقل في دعواه أن ثم ربًا غيري ﴿ قَالَ ﴾ أي : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسيارتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها ، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا ، فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغربًا ، والمغرب مشرقًا . كما قال تعالى عن : ﴿ ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ الآية . ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه ، وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ، ونافذ في موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه .

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ .

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه . فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ فعند ذلك قال موسى : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : ببرهان قاطع واضح ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج . ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ أي من جيبه ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي : تتلألأ كقطعة من القمر ، فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد فقال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا

لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : فاضل بارع في السحر . فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به فقال : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾ الآية . أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه ، وأنصاره وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك ، وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد ، فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله لهم في ذلك ليجمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ .

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى ﷺ والقبط ، في سورة الأعراف وفي سورة طه ، وفي هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان . ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ . ولهذا جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس ، وأصنعهم وأشدهم تخييلًا في ذلك ، وكان السحرة جمعًا كثيرًا ، وقال قائلهم : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ ولم يقولوا نتبع الحق ، سواء كان من السحرة أو من موسى بل الرعية على دين ملكهم . ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ أي : إلى مجلس فرعون ، وقد ضربوا له وطاقًا ، وجمع خدمه وحشمه ، ووزراءه ورؤساء دولته ، وجنود مملكته . فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا أي : هذا الذي جمعتنا من أجله . فقالوا : ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي ، فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ وقد اختصر هذا ها هنا ، فقال لهم موسى : ﴿ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ . وهذا كما تقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئًا : هذا بثواب فلان ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي : تختطفه وتجمعه من كل بقعة ، وتبتلعه فلم تدع منه شيئًا . قال تعالى : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ . فكان هذا أمرًا عظيمًا جدًا ، وبرهانًا قاطعًا للعذر ، وحجة دامغة . وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا ، وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، فغلب فرعون غلبًا لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحًا جريئًا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . فعدل إلى المكابرة والعناد ، ودعوى الباطل فشرع يتهددهم ويتوعدهم ويقول :

﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ الآية .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا ؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علي في ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإني أنا الحاكم المطاع . ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أي : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي : المرجع إلى الله ﷻ وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء . ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر . ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان فقتلهم كلهم .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .

لما طال مقام موسى ﷺ ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله تعالى موسى ﷺ أن يخرج بني إسرائيل ليلًا من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى ﷺ ما أمره به ربه ﷻ . خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حليًا كثيرًا . وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد رحمه الله أنه كسف القمر تلك الليلة فالله أعلم .

فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون ، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعًا في بلاده حاشرين أي : من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء ، والحجاب ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أي : لطائفة قليلة . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ أي : كل وقت يصل منهم إلينا يغيظنا . ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ أي : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم ، وقرأ طائفة من السلف ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ أي : مستعدون بالسلاح ، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم فجوزي في نفسه ، وجنده بما أراد لهم قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية ، والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق ، والملك والجاه الوافر في الدنيا . ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ الآية .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ

وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أي : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها . ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أي : رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك . ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وقد أدركهم فرعون بجنوده ، فلهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ أي : لا يصل إليكم شيء مما تحذرون ، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم ، وهو ﷻ لا يخلف الميعاد . وأوحى الله إلى موسى : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ . فضربه بها ففيها سلطان الله الذي أعطاه فانفلق . قال الله تعالى : ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي : كالجبل الكبير . وقال عطاء الخرساني : هو الفج بين الجبلين ، قال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقًا لكل سبط طريق ، وزاد السدي : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر ، فلفحته فصار يبسًا كوجه الأرض . قال تعالى : ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ . وقال في هذه القصة : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ أي : هنالك . قال ابن عباس : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ أي : قربنا من البحر فرعون وجنوده ، وأدنيناهم إليه ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ أي : أنجينا موسى وبني إسرائيل ، ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد . وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله ، وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء . أمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص ، والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أي : من صغره إلى كبره ، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ أي : مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعني : اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئًا من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فعند ذلك قال لهم إبراهيم : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : إن كانت هذه الأصنام شيئًا ولها تأثير ، فلتخلص إلي بالمساءة . فإني عدو لا أبالي بها ، ولا أفكر فيها . وهذا كما قال هود عليه السلام : ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ

بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ ﴾ يعني لا إله إلا الله .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ .

يعني : لا أعبد الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أي : هو الخالق الذي قدر قدرًا ، وهدى الخلائق إليه فكل يجري على ما قدر له ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ أي : هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه ، وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبًا . كما قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ وكذا قال إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أي : وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أي : هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي : لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكمًا ، قال ابن عباس : وهو العلم ، وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدي : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي : اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة ، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار : « اللَّهُمَّ في الرَّفِيقِ الأَعْلَى » . قالها ثلاثًا [1] . وفي الحديث في الدعاء : « اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَمِتْنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَلْحِقْنَا بالصَّالِحِينَ غيرَ خَزَايَا وَلَا مُبَدِّلِينَ » [2] . وقوله : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ أي : واجعل لي ذكرًا جميلًا بعدي أذكر به ، ويقتدى بي في الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي ، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم . وقوله : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ ﴾ الآية . كقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه ، فقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٣٧) ومسلم في السلام (٤٦) وأحمد في مسنده ٦/٤٨ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٤٢٤) .

بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : أجرني من الخزي يوم القيامة ، ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم . وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « يَلقَى إبْرَاهِيمُ أَبَاهُ فَيَقُولُ أَبُوهُ : فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ . فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبُّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ . فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا إِبْرَاهِيمُ انْظُرْ تَحْتَ رِجْلِكَ ، فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُو بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ فَيُؤخَذ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ »(١) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي : لا يقي المرء من عذاب اللَّه ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا . ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي : ولو افتدى بمن على الأرض جميعًا ، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان باللَّه وإخلاص الدين له ، والتبري من الشرك وأهله . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي : سالم من الدنس والشرك . قال ابن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن اللَّه حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن اللَّه يبعث من في القبور ، وقال ابن عباس : القلب السليم : أن يشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وقال مجاهد : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ يعني من الشرك . قال أبو عثمان النيسابوري : هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة .

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ ﴾ أي : قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا ، وعملوا لها في الدنيا ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي : أظهرت وكشف عنها ، وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر ، وقيل لأهلها تقريعًا وتوبيخًا ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي : ليست الآلهة التي عبدتموها من دون اللَّه من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئًا ، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون . وقوله : ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ . قال مجاهد يعني : قد هووا فيها . وقال غيره : كبوا فيها ، والكاف مكررة . كما يقال : صرصر والمراد : أنه ألقي بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك . ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أي : ألقوا فيها عن آخرهم ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي : يقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار ، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي : نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴾ قال بعضهم يعني : من الملائكة . كما يقولون : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٤٩٩/٨) وأخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (٢٣٨/٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٠/٣) .

نَعْمَلُ ﴾ . وكذا قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أي : قريب . قال قتادة : يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحًا نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع . ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد لآية أي : لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨)
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام . وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد ، فبعثه الله ناهيًا عن ذلك ومحذرًا من وبيل عقابه ، فكذبه قومه ، فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزَّل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل . فلهذا قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي : ألا تخافون الله في عبادتكم غيره . ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي : إني رسول من الله إليكم أمين فيما بعثني الله به ، أبلغكم رسالات ربي ، ولا أزيد فيها ، ولا أنقص منها ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ الآية . أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي ، وأمانتي فيما بعثني الله به .

﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)
وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

يقولون :لا نؤمن لك ولا نتبعك ، ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا ولهذا : ﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه ، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص ، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي ، وأكل سرائرهم إلى الله عز وجل ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ، ويتابعوه فأبى عليهم ذلك وقال : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : إنما بعثت نذيرًا فمن أطاعني واتبعني ، وصدقني كان مني وأنا منه .

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن
مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا ، وسرًا وجهرًا ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد . وقالوا في الآخر : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ أي : لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ أي : لنرجمنك ، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه . فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى

وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ الآية . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ إلى آخر الآية . وقال هاهنا : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ . والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين أي : أنجينا نوحًا ومن اتبعه كلهم ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام ، إنه دعا قومه عادًا ، وكان قومه يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريبًا من حضر موت متاخمة بلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح . كما قال في سورة الأعراف ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ . وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارّة والأموال ، والجنات والأنهار ، والأبناء . والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله هودًا إليهم ، رجلًا منهم فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه ، فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ اختلف المفسرون في الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة ، يبنون هناك بنيانًا محكمًا هائلًا باهرًا . مَعْلَمًا مشهورًا ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ أي : وإنما تفعلون ذلك عبثًا لمجرد اللعب واللهو ، وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان ، وإتعاب للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ قال مجاهد : والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد . وفي رواية عنه : بروج الحمام . وقال قتادة : هي مأخذ الماء . روي أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ؟ ألا تستحيون ؟ تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ؟ إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غرورًا ، وأصبح جمعهم بورًا ، وأصبحت مساكنهم قبورًا ، ألا إن عادًا ملكت ما بين عدن وعمان خيلًا وركابًا ، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟ . وقوله : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أي : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت . ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي : اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ، ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم .

﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جواب قوم هود له ، بعد ما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبيَّن لهم الحق ووضحه : ﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ أي : لا نرجع عما نحن عليه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وهكذا الأمر فإن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ . قرأ بعضهم : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ بفتح الخاء وتسكين اللام . قال ابن عباس : يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ . وقرأ آخرون : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ بضم الخاء واللام [1] يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد ، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد . ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يقول : دين الأولين .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ أي : استمروا على تكذيب نبي الله هود ، ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله . وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن ، بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية أي : ريحًا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدًّا ، فكان سبب إهلاكه من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء ، وأجبره فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ وهم عاد الأولى كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ وهم من نسل إرم بن سام بن نوح ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ الذين كانوا يسكنون العمد ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ حُسُومًا ﴾ أي كاملة ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ . أي : بقوا أبدانًا بلا رءوس ، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتله وترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فتشدخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئًا ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ الآية .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وهذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله صالح عليه السلام ، أنه بعثه إلى قومه ثمود ، وكانوا عربًا يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة ، وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام فوصل إلى تبوك ، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام ، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه ، وأخبرهم ، أنه لا يبتغي بدعوتهم أجرًا منهم . وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ﷻ ، ثم ذكَّرهم آلاء الله عليهم فقال :

---

(١) قرأ أبو جعفر وابن كثير والبصريان والكسائي (خَلْقُ) بفتح الخاء وإسكان اللام والباقون بضمهما (انظر : تقريب النشر ص ١٥٢) .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

يقول لهم واعظًا لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكرًا بأنعم الله فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : أينع وبلغ فهو هضيم وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : معشبة ، وقال : إذا رطب واسترخى . وعن أبي العلاء قال : هو المذنب من الرطب . وقال مجاهد : هو الذي إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال مجاهد : حين يطلع تقبض عليه فتهضمه فهو من الرطب الهضيم ومن اليابس الهشيم تقبض عليه فتهشمه . وقال قتادة : الهضيم الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضًا فهو هضيم ؛ وقال مرة : هو الطلع حين يتفرق ويخضر . وقال الحسن البصري : هو الذي لا نوى له .

وقوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ قال ابن عباس : يعني : حاذقين . وفي رواية عنه شرهين أشرين ، وهو اختيار مجاهد وجماعة ولا منافاة بينهما ، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم . ولهذا قال : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي : أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه ، وتسبحوه بكرة وأصيلًا . ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ يعني : رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفه الحق .

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم : ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ قال مجاهد : يعنون من المسحورين . وروى أبو صالح عن ابن عباس : ﴿ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ يعني من المخلوقين .

والأظهر في هذا قول مجاهد : أنهم يقولون : إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك . ثم قالوا : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعني : فكيف أوحي إليك دوننا ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم ، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه ، فأعطوه ذلك . فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها ، فآمن بعضهم ، وكفر أكثرهم ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعني : ترد ماءكم يومًا ، ويومًا تردونه أنتم ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شربًا وريًّا ؛ فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالؤوا على قتلها وعقرها ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو : أن أرضهم زلزلت زلزالًا شديدًا ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله لوط عليه السلام ، وهو لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام . وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون سدوم ، وأعمالها التي أهلكها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال بيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك ؛ فدعاها إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ؛ وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث . ولهذا قال تعالى :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم ما كان جوابهم له إلا أن قالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ ﴾ أي : عما جئتنا به ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أي : ننفيك من بين أظهرنا . فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه ، وأنهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم . قال : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ أي : المبغضين لا أحبه ولا أرضى به ، وإني بريء منكم ، ثم دعا الله عليهم فقال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : كلهم . ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ وهي : امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود ، وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل ها هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي : شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغيضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلهذا لما قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لم يقل : إذا قال لهم أخوهم شعيب : وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبًا . ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيبًا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين . ومنهم من قال : ثلاث أمم . وقوله : ﴿ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ﴾ قوم شعيب ، وقاله إسحاق بن بشر ، وقال غير جويبر : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد والله أعلم . والصحيح : أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال : ﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴾ أي : إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم ، ولا تبسخوا الكيل فتعطوه ناقصًا ، وتأخذوه إذا كان لكم تامًّا وافيًا ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ . والقسطاس : هو الميزان ، وقيل : هو القبان . قال بعضهم : هو معرب من الرومية . قال مجاهد : القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية . وقال قتادة : القسطاس العدل . وقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ أي : لا تنقصوهم أموالهم ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يعني قطع الطريق . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، قال ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ .

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم . حيث قالوا : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ يعنون : من المسحورين ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي : تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال الضحاك : جانبًا من السماء . وقال قتادة : قطعًا من السماء . وقال السدي : عذابًا من السماء . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة . ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم . وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوا جزاء وفاقًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله ﷻ جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يُكنهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار ، ولهبًا ووهجًا عظيمًا ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف : ذكر أنهم أخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفي سورة هود قال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وذلك لأنهم استهزأوا بنبي الله في قولهم : ﴿ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ قالوا : ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ الآية . وها هنا قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه . ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . قال ابن عباس : بعث الله عليهم رعدة وحرًا شديدًا فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة ، فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها بردًا ولذة فنادى بعضهم بعضًا حتي إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نارًا . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم (١) . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : العزيز في انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي : القرآن ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : أنزله الله عليك وأوحاه إليك . ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ وهو جبريل عليه السلام . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أي : نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يا محمد : سالمًا من الدنس والزيادة والنقص ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أي : لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له . وقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ أي : هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون بينًا واضحًا ظاهرًا للعذر ، مقيمًا للحجة ، دليلًا إلى المحجة ، وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن إذ قال لهم : « كَيْفَ تَرَوْنَ بَوَاسِقَهَا » ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها . قال : « فَكَيْفَ تَرَونَ قَوَاعِدَهَا ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها . قال : « فَكَيْفَ تَرَونَ جَوْنَهَا ؟ » قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : « فَكَيْفَ تَرَونَ رَحَاهَا اسْتَدَارَتْ ؟ » . قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : « فَكَيْفَ تَرَونَ بَرْقَهَا أَوَمِيضٌ ، أم خفق ، أَمْ يَشُقُّ شَقًّا ؟ » قالوا : بل

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٩/١٣٤) وفيه ومَدَة بدلًا من رعدة والوَمَدة : ندى يجيء من حميم الحر من قبل البحر مع سكون الريح وهو ما يعرف الآن بالرطوبة .

يشق شقًّا . قال : « الحَيَاءَ الحَيَاءَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . قال : فقال رجل : يا رسول الله بأبي وأمي ما أفصحك ما رأيت الذي هو أعرب منك . قال : فقال : « حق لي ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ القُرْآنُ بِلِسَانِي ، وَاللَّهُ يَقُولُ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ »(١) ، وقال سفيان الثوري . لم ينزل وحي إلا بالعربية ، ثم ترجم كل نبي لقومه واللسان يوم القيامة بالسريانية فمن دخل الجنة تكلم بالعربية .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه . كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيبًا في ملئه بالبشارة بأحمد ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ .

والزبر : هاهنا هي الكتب ، وهي جمع زبور ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال الله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي : مكتوب عليهم في صحف الملائكة ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي : أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها والمراد : العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ، ومبعثه وأمته . كما أخبر بذلك من آمن منهم : كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم ومن شاكلهم . قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ الآية . ثم قال تعالى مخبرًا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن : إنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به . ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ . كما أخبر عنهم في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية .

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى : كذلك سلكنا التكذيب والكفر ، والجحود والعناد أي : أدخلناه في قلوب المجرمين . ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي : بالحق . ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ، ولهم سوء الدار . ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي : عذاب الله بغتة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أي : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلًا ليعملوا في زعمهم بطاعة الله . وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ إنكار عليهم ، وتهديد لهم ، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبًا واستبعادًا : ائتنا بعذاب الله . كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ الآيات . ثم قال : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

(١) أورده الهندي بنحوه في كنز العمال (١٥٢٤٧) .

يُمَتَّعُونَ ﴾ أي : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الدهر ، وحينًا من الزمان ، وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

وفي الحديث الصحيح : « يُؤْتَى بِالكَافِرِ فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا ، فَيُصْبَغُ فِي الجَنَّةِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ » (١) . أي : ما كأن شيئًا كان .

ثم قال تعالى مخبرًا عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم ، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم ، وقيام الحجة عليهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ ، ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه ما ينبغي لهم أي : ليس هو من بغيتهم ، ولا من طلبتهم لأن من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونور وهدى ، وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي : ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك . قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ .

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا في مدة إنزال القرآن على رسول الله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ولرسوله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ . كما قال تعالى مخبرًا عن الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبرًا أن من أشرك به عذَّبه . ثم قال تعالى آمرًا لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين أي الأدنين إليه ، وأنه لا يخلص أحدًا منهم ، إلا إيمانه بربه ﷻ . وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائنًا من كان فليتبرأ منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٠٣) .

بل هي فرد من أجزائها . كما قال تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ . وفي صحيح مسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنَ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (١) . وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا ، فصعد عليه ثم نادى : « يَا صَبَاحَاهُ » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي فهر ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيكُمْ صَدَّقْتُمُونِي ؟ » قالوا : نعم . قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » . فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٢) .

وعن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ . قام رسول الله ﷺ فقال : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ » (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فعمَّ وخصَّ فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئًا ، إلا أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها » (٤) .

وعن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « مَنْ يَضْمَنْ عَنِّي دَيْنِي وَمَوَاعِيدِي ، وَيَكُونُ مَعِي فِي الْجَنَّةِ ، وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ؟ » فقال رجل لم يسمه شريك : يا رسول الله أنت كنت بحرًا من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر - ثلاثًا - : قال : فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي : أنا (٥) .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه في أهله يعني : إن قتل في سبيل الله ، كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل . فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ . فعند ذلك أمن ، وكان أولًا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشد إيمانًا ، وإيقانًا وتصديقًا لرسول الله ﷺ من علي رضي الله عنه ، ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ . ثم كان بعد هذا ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أي :

(١) أخرجه مسلم في « الإيمان » (٢٤٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٥٥) والإمام أحمد في مسنده (١/٣٠٧) .
(٣) أخرجه مسلم في « الإيمان » (٣٥٠) والإمام أحمد في مسنده (٦/١٨٧) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٣٦٠) والترمذي في سننه (٣١٨٥) .
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/١١٦) والهندي في الكنز (٣٦٤٠٨) .

في جميع أمورك فإنه مؤيديك وحافظك، وناصرك ومظفرك، ومعلي كلمتك، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: هو معتن بك. كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. قال ابن عباس: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يعني: إلى الصلاة، وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده، وقال الحسن: إذا صليت وحدك، وقال الضحاك: أي: من فراشك أو مجلسك. وقال قتادة: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾ قائما وجالسًا وعلى حالاتك. وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال قتادة: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال: في الصلاة يراك وحدك، ويراك في الجمع. وقال مجاهد: كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه. ويشهد لهذا ما صح في الحديث «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي» (١). وروى من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تقبله من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبيًا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

يقول تعالى مخاطبًا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رئي من الجان، فنزه الله ﷻ جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به، إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين. فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم، ويشابههم من الكهان الكذبة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أخبركم. ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كذوب في قوله وهو: الأفاك ﴿أَثِيمٍ﴾ وهو: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة. فإن الشياطين أيضًا كذبة فسقة. ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة (٢). ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها فيصدقهم الناس في ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء. كما صح بذلك الحديث، عن عائشة رضي الله عنها: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ». قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقًا، فقال النبي ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِذْبَةٍ» (٣). وعن سفيان حدثنا عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خضعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: ماذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٢٥) وأحمد في مسنده ٩٨/٢.
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦١).
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦١) ومسلم في (السلام) (١٢٢، ١٢٤) وأحمد في مسنده (٢١٨/١).

السَّمع هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْض - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِيَدِهِ ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فيكذب مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ . فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كذا وكَذَا ؟ فَيُصَدقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعني : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن ، وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فئام من الناس ، ولهذا فئام من الناس . فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ . وعن يحنس مولى مصعب بن الزبير ، عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول اللَّه ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر فقال النبي ﷺ : « خُذُوا الشَّيطَانَ - أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيطَانَ - لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا »[2] . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ قال ابن عباس : في كل لغو يخوضون . وقال الضحاك عن ابن عباس : في كل فن من الكلام . قال مجاهد وغيره : قد واللَّه رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها مرة في شتيمة فلان ، ومرة في مديحة فلان . وقال قتادة : الشاعر يمدح قومًا بباطل ، ويذم قومًا بباطل . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه . وهذا الذي قاله ابن عباس ﷺ هو الواقع في نفس الأمر . فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ، ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم . ولهذا اختلف العلماء رحمهم اللَّه فيهم إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدًّا هل يقام عليه بهذا الاعتراف أو لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون على قولين . وقد ذكر محمد بن إسحاق ومحمد بن سعد في الطبقات ، والزبير بن بكار في كتاب الفكاهة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر فقال :

أَلاَ هَلْ أَتَى الحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا ... بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ... وَرَقَّاصَةٌ تَحْنُو عَلَى كُلِّ مَبْسِمِ
فَإِنْ كُنْتَ نُدْمَانِي فَبِالأَكْبَرِ اسْقِنِي ... وَلاَ تَسْقِنِي بِالأَصْغَرِ المُتَثَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

فلما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال : أي واللَّه إنه ليسوؤني ذلك ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته . وكتب إليه عمر : بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿ حم ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (أما بعد) فقد بلغني قولك :

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

وايم اللَّه إنه ليسوؤني وقد عزلتك ، فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر فقال : واللَّه يا أمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن

---

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٠١) والترمذي في السنن (٣٢٢٣) وابن ماجه في سننه (١٩٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٨) .

والله لا تعمل لي عملًا أبدًا . وقد قلت ما قلت، فلم يذكر أنه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ذمه عمر ﷺ ، ولامه على ذلك وعزله به .

وقوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ عن أبي الحسن سالم البراد بن عبد الله مولى تميم الداري قال : لما نزلت : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي ﷺ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ قال : « أنتم » . ﴿ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قال : « أَنْتُمْ » ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ قال : « أنتم » [1] هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسًا من شعراء الجاهلية يذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحًا ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه .

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وهو ابن عمه وأكثرهم له هجوًا ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وعن ابن عباس أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ثلاث أعطنيهن قال : « نَعَمْ » قال : معاوية تجعله كاتبًا بين يديك ، قال : « نَعَمْ » قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : « نَعَمْ » وذكر الثالثة [2] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قيل : معناه ذكروا الله كثيرًا في كلامهم ، وقيل : في شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين ، وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهْجُهُمْ - أَوْ - هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » [3] . وعن كعب بن مالك ، أنه قال للنبي ﷺ : إن الله ﷻ قد أنزل في الشعراء ما أنزل ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضحُ النَّبْلِ » [4] . وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ الآية . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » [5] . قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ يعني : من الشعراء وغيرهم . وقيل : المراد بهم : أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم ، وعن عائشة ﵂ قالت : كتب أبي في وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر ، وينتهي الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٨/٢) . (٢) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة) (١٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤١٢٣) ومسلم في (فضائل الصحابة) (٥٣ ، ١٥٧) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٦/٣) والبيهقي في السنن (٣٢٩/١٠) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٦/٢) والحاكم في المستدرك (١١/١) والدارمي في السنن (٤٢٠/٢) .

فهرس المجلد الثاني